B. A. Paris
بي. أيه. باريس
THE THERAPIST
المعالج النفسي
ترجمة: أميرة شريف
عصير الكتب

THE THERAPIST

المعالج النفسي

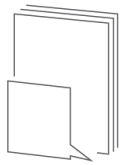

منحة الترجمة
Translation Grant

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Therapist
- العنوان العربي: المعالج النفسي
- طُبِع بواسطة: HQ, HarperCollins Publishers Ltd
- حُقوق النشر: Copyright © B. A. Paris 2023
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: أميرة شريف
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2024م
- رقم الإيداع: 20741/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-310-9

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

B. A. Paris

بي. أيه. باريس

THE THERAPIST

المعالج النفسي

ترجمة: أميرة شريف

إلى مارجو:

لولاكِ ما خرج هذا الكتاب في أبهى صورة له.

بي. أيه. باريس

الماضي

غرفة مكتبي الصغيرة مثالية وبسيطة، مطلية بدرجات رمادية هادئة، ولا يوجد بها غير مقعدين؛ مقعد رمادي بيضاوي مريح لعملائي، وآخر جلدي أبيض من أجلي. ثَمّة مِنضدة قصيرة على يمين مقعدي لدفتر ملاحظاتي، وعلى الحائط، صفٌّ من الخطَّافات لتعليق المعاطف، ولا شيء آخر. أما غرفتي الخاصة بالعلاج الاسْترخائيِّ فمدخلها إلى اليسار، لجدرانها أفتح الدرجات الوردية، وليست بها أية نوافذ للإضاءة، فيما عدا قنديلين مزخرفين يلقيان وهجًا ذهبيًّا على طاولة التدليك.

أستطيع أن ألمح أي شخص يقترب من الباب من خلال فتحات الستارة المتحركة التي تظلل نافذة مكتبي. إنني في ترقب وصول عميلتي الجديدة، على أمل أن تحضر في موعدها المحدد. إذا تأخرتْ، ستُسجَّل، ببساطة، هذه السِّمة السوداء في ملفها الشخصي.

تصلُ متأخرة دقيقتين، إنما يمكنني التغاضي عن ذلك. تصعدُ الدرج ركضًا، متلفتة حولها في توتر، فيما تدقُّ الجرس، وكتفاها مقوستان حتى أذنيها، قلقةً من أن أحدهم قد يتعرف عليها. وهو أمرٌ لا داعي له بالمرة؛ لا توجد أدنى لافتة على الجدار تعلن عن خدماتي.

أدعوها للدخول وأخبرها أن تأخذ راحتها، فتتخذ مجلسها على المقعد، واضعة حقيبة يدها عند قدميها. ترتدي تنورة زرقاء داكنة وبلوزة بيضاء، وشعرها مصفف لأعلى خلف رأسها، كما لو جاءت من أجل مقابلة عمل. ولديها حق في أخذ الأمر على هذا المحمل، فأنا لا أقبل برؤية أي أحد. ينبغي أن يقع الاختيار على الأمثل وحسب.

أسألها إذا ما تشعر بالدفء كفايةً، فيما أحبذُ أن أترك النافذة مفتوحة، رغم أن الربيع لم يتزحزح إلى طقس صيفي بعد، مما اضطرني إلى أن أبقي المدفأة مشتعلة. أحدق خارج النافذة، حتى أعطي لها بعض الوقت ريثما تهدأ، لتجذب عينيَّ آثار طائرة نفاثة تخترق صفحة السماء. عند سماع نَحْنَحَة لطيفة، أوجه انتباهي إلى عميلتي ثانية.

فيما أضبط زاوية جلستي في مواجهتها، وأستعيد وضعية العلاج النفسي، أبادرها بالأسئلة الاعتيادية. الجلسات الأولى غالبًا ما تكون أكثرها مللًا.

تقول، ولم أكد أنتهي من الأسئلة: «يخالجني شعور أن هنالك خطبًا ما».

أرفع عينيَّ عن دفتري، حيث انشغلتُ بتدوين الملاحظات، لأخبرها: «أريدكِ أن تعرفي، وتتذكري، أن أيَّما تذكرينه داخل هذه الغرفة فهو سريٌّ تمامًا».

تومئ برأسها.

– جُل ما أحسُّ به هو الذنب الرهيب. ما الذي يدفعني لعدم إدراك السعادة؟ رغم أنني أمتلك كل ما أتمناه.

على عجل، أدوِّن في دفتري لفظَي «السعادة» و«الذنب»، ثم، أميل إزاءها للأمام، وأحدق إلى عينيها.

– ألم تسمعي بما قاله الفيلسوف هنري ديفيد ثورو؟

«إن السعادة مثلها مثل الفراشة، كلما طاردتِها، تتمادى في مراوغتِك. لكن ما إن ينصرف انتباهكِ عنها، حتى تقتربُ منكِ وتسكن على كتفك».

تبتسم وتستكين. كنتُ على يقين أن هذه المقولة ستنال إعجابها.

الفصل الأول

دَوِيٌّ أصوات مُبْتهِجة يجذب تركيزي بعيدًا عن صندوق الكتب المنشغلة بإفراغه. ظلَّت الأجواء شديدة الهدوء طيلة النهار، مما يجعلني غير مصدقة أنني حقيقة صرتُ أعيش في «لندن». عندما كنتُ في بلدة «هارلستون»، كان سماع جلبة محيطة أمرًا مألوفًا: زقزقة الطيور، وبين حِينٍ وحِين، تمرُّ عربة أو جَرَّار، وفي حِينٍ آخر، حصان. أما، هنا، في مجاورة «ذا سيركل»، الصمت يسود كل شيء، وحتى مع ترك النوافذ مفتوحةً، لا يُسمع صوت إلا عرضًا. ليس هذا ما توقَّعته، إنما من الجيد أن توقُّعي قد خاب.

من نافذة الطابق العلوي بغرفة مكتب «ليو»، أبصرُ عند جانبٍ بالطريق، امرأة شعرها شديد القِصَر أشقر جليدي، ترتدي بنطالًا قصيرًا وقميصًا بلا أكمام، تعانق امرأة أخرى نحيفة طويلة القامة، لشعرها لون نحاسي مُحمرٌّ. أعرف المرأة ضئيلة الحجم، فهي جارتنا، رأيتها الليلة الماضية في ساعة متأخرة أمام المنزل رقم خمسة، في أثناء إخراجها لعدة حقائب من سيارة بمساعدة رجل. لكنني لم أرَ المرأة الأخرى من قبل، على الرغم مما يبدو عليها كما لو أنها تعيش هنا بالجوار، لا سيما وهي ترتدي ذلك البنطال الجينز الأزرق الكُحليَّ المتوائم مع جسدها، والقميص قصير الأكمام ناصع البياض الذي يحتضن جزءها العلوي المتناسق. ينبغي عليَّ الابتعاد عن النافذة، فإذا ما تطلعتا إلى الأعلى، قد تلمحانني واقفة أتأملهما. لكنَّ حاجتي إلى رفقة الناس أشدُّ إلحاحًا، لذا سأمكث مكاني حيث أنا.

تقول المرأة الضئيلة: «نويْتُ أن أمرَّ عليكِ بمجرد عودتي من رحلة سفري، صدقيني!».

تهزُّ المرأة فَارِعة الطول رأسها، وصوتها لا يزال باسمًا: «هذا ليس عذرًا مقبولًا، يا إيف. لقد طال انتظاري لكِ بالأَمس».

تقهقه «إيف»، إذن هذا هو اسمها.

– لقد وصلنا بحلول العاشرة ليلًا، ولم أرد إزعاجكِ في ساعة متأخرة كتلك. أخبريني، متى رجعتم من رحلتكم؟

– السبت الماضي، رجعنا مبكرًا من أجل معاودة الأولاد الدراسة بِدءًا من اليوم...

تَحفُّ ريح مُبَاغَتَة أوراق شجر الدُّلْب، المُتَراص حول الساحة المواجهة للمنزل، منتزعة ما تبقى من رد المرأة. إن الأجواء ممتعة للغاية بهذا المكان، كما لو أنه موقع لتصوير فيلم عن الحياة المُتْرفة في أحياء العاصمة. لم أكن لأصدق أن مكانًا كهذا موجودٌ بحق، لولا أن ليو أرسل لي صورًا له، وحتى حينها، وجدتُ الأمر باهرًا لدرجةٍ صَعُب معها التصديق.

تلفتُ انتباهي عربة توصيل أثاث، تجتاز مدخل «ذا سيركل» عبر البوابة السوداء القابعة إزاء منزلنا مباشرة، ومن ثم، تميل إلى الجهة اليسرى من الطريق المتخذ شكلًا أشبه بحدوة الحصان، مبطئة سرعتها عند الدوران. ما يزال ليو يكدس منزلنا الجديد بأشياء لا أرى أننا بحاجة إليها، وربما هذه العربة تحمل إلينا المزيد منها. بالأمس، استلمتُ مَزْهرية زجاجية غاية في الجمال، إنما ضخمة دون داعٍ، وظلَّ يذرع غرفة المعيشة لفترة طويلة، حاضنًا إياها بين ذراعيه، في محاولة لتقرير موضع لها، وبالنهاية وضعها

بجانب النوافذ ذات الطراز الفرنسي التي تفضي إلى الشرفة. تقترب العربة لكن تمضي من أمام منزلنا وتتوقف عند المنزل الآخر على جانبنا الأيسر، فأميل بجذعي خارج النافذة، لعلِّي أحظى بلمحة على جيراننا بالمنزل رقم سبعة. ولدهشتي يخرج رجلٌ مُسِنٌّ مستقبِلًا العربة في الممر. لستُ واثقة من سبب استغرابي للأمر، لكن، من المحتمل، لأن «ذا سيركل» منشأة سكنية حديثة في منتصف لندن، لم يخطر ببالي البتة أن أجد كبار سنٍّ يعيشون هنا.

بعدها بلحظات قليلة، تغادر العربة، وأعيد أنظاري إلى حيث تقف إيف والمرأة الأخرى. أتمنى لو لديَّ الجرأة الكافية لأذهب إليهما وأقدم نفسي، فمنذ انتقالنا قبل عشرة أيام، لم أقابل إلا «ماريا» التي تسكن المنزل رقم تسعة. كانت تدخِل ثلاثة صبية صغارًا، شعرهم كثيف داكن مثل أمهم، بالإضافة إلى كلبين لابرادور ذهبيين لطيفين، إلى سيارة عائلية كبيرة حمراء. أمالت رأسها للخلف وألقت عليَّ التحية، ومن ثم جرت بيننا محادثة خاطفة، أوضحت لي فيها ماريا أن معظم الجيران ما زالوا مسافرين لقضاء عطلة الصيف، ولن يعودوا إلا قرب نهاية الشهر، قبل بداية العودة للدراسة في سبتمبر.

أنتبهُ على صوت إيف، ومن إيمَاءة رأسها تجاه منزلنا، أستفهم أنها تتحدث عني وليو، قائلة: «ألم تقابليهما بعد؟».

– نعم.

– ما رأيك لو نُلقي عليهما التحية الآن؟

– كلا! ولماذا قد أودُّ لقاءهما بالمرة؟

تدفعني تلك الحدَّة في رد المرأة للوراء، بعيدًا عن النافذة.

تلطِّف إيف من حدتها: «اعقِلي الأمر، يا تامسين. لن تتمكني من تجاهلهما، وبخاصة مع وجودنا متجاورين في مكان كهذا».

لن أمكث لسماع ما تبقى من كلام «تامسين» وقلبي بدأ يخفق بين ضلوعي. أختبئ في ظلال المنزل متمنية لو أن ليو معي في هذه اللحظة، لكنه ذهب إلى مدينة «برمنجهام» هذا الصباح على أن يعود يوم الخميس. يخالجني شعور سيئ أن جزءًا مني غمره الارتياح لرؤيته مغادرًا، فالأسبوعان الماضيان كانا مجهدين للغاية، ربما لأننا لم نألف فكرة العيش مع بعضنا بعد. منذ أن تعارفنا، قبل ما يقارب العام والنصف، وعلاقتنا تتسم بالبعد المكاني، حيث يُتاح لنا أن نلتقي في عطلات نهاية الأسبوع فقط. لم أدرك إلا صبيحة أول يوم لنا هنا معًا، عندما شَرِب عصير البرتقال من العلبة الكَرتُونية مباشرة، ثم أعادها إلى الثلاجة ثانية، أنني ما زلتُ أجهل سماته وعاداته كلية. أعرف أنه يحب مذاق الشمبانيَا جيدة الصنع، وأنه يفضِّل النوم على الجهة اليسرى من السرير، ويعشق إراحة ذقنه أعلى رأسي، وأنه كثير الترحال بين مدن المملكة، رغم كرهه للسفر لأي مكان، حتى إنه لم يستخرج لنفسه جواز سفر قط. ومع هذا يظل أمامي الكثير لأعلمه عنه. وفيما أجدني جالسة على قمة السُّلم في منزلنا الجديد، والسجادة الرمادية الناعمة يداعب دفؤها قدميَّ العاريتين، يزداد اشتياقي إليه.

ما كان ينبغي لي أن أختلس السمع إلى حديث إيف، وعلى الرغم من أنني معترفة بفعلتي، الاعتراف وحده لا يكفي لنزع الشوكة التي غرزتْها كلمات تامسين. ماذا لو فشلنا في مدِّ أي روابط صداقة هنا؟ هذا بالضبط ما ساورني عندما طلب مني ليو، في بادئ الأمر، أن أنتقل للسكن معه في لندن. وعدني أن أمورنا

ستصير على خير ما يرام، بخلاف أنه عندما اقترحتُ عليه تحضير حفل بمناسبة انتقالنا لمنزل جديد، ندعو إليه جميع الجيران حتى نقابلهم ونتعرف إليهم، لم يبدِ أي اهتمام بالأمر.

قال لي: «دعينا نتعرف إلى الجميع أولًا، ثم ندعوهم لاحقًا».

لكن ماذا لو لم تُتح لنا فرص مناسبة لنتعرف إليهم؟ ماذا لو أن علينا أن نبادر بالخطوة الأولى؟

أخرج هاتفي من جيبي، وأفتح أيقونة «واتساب». لقد عرضتْ عليَّ ماريا خلال حديثنا القصير أن تضيفني وليو إلى المجموعة الخاصة بساكني «ذا سيركل»، ولذا أرسلتُ لها رقمَي هاتفينا. لم نشارك بأية رسائل حتى اللحظة، لكن ليو أراد أن يحذف نفسه منها، عندما استمرت الإشعارات في الوُرود دون توقف، حول الطرود غير المُستلَمة وأعمال الصيانة لمنطقة اللعب بالساحة.

منعته وقلتُ: «لا يمكنك فعل ذلك، يا ليو!».

خجلتُ من أن يظنه هؤلاء الناس شخصًا وقحًا. وبدلًا من ذلك، وافق أن يكتفي بكتم صوت إشعارات المجموعة وحسب.

أرمقُ شاشة الهاتف، وما وردني اليوم على صفحتها من اثنيْ عشرَ إشعارًا جديدًا. مع قراءة واحد تلو الآخر، يزداد قلبي انقباضًا. تَطِيب هذه الإشعارات برسائل الترحيب بالجيران فيما بينهم، لعودتهم من عطلاتهم، ويتبادلون اشتياقهم للمحادثة واللقاء، ومتابعة أنشطتهم مجددًا، من ممارسة لليوجا، وركوب للدراجات ولعب التنس.

أترك لنفسي هنيهةً للتفكير، ثم أشرع في الكتابة.

مرحبًا بكم جميعًا، نحن جيرانكم الجدد في المنزل رقم ستة، ونودُّ دعوتكم لتناول المشروبات في منزلنا يوم السبت القادم، سننتظر حضوركم بدءًا من الساعة السابعة مساءً. يُرجى إعلامنا إذا ما يناسبكم الحضور. تحياتنا، أَلِيس وليو.

وقبل أن يتبادر إلى ذهني أن أتراجع، أسرعُ بالضغط على إرسال.

الفصل الثاني

يهتف ليو، داخلًا المطبخ، وفي يديه عدة كؤوس متَّسخة: «ها أنتِ ذي».

يضعها بجوار الحوض، ويدفع شعره عن جبهته. ثم يرفع أحد حاجبيه، قائلًا: «ألن تخرجي إلى الحديقة؟ إنكِ تفوِّتين على نفسكِ حوارات شائقة للغاية. لقد نُبهتُ لتوي أن نبقي صناديق القمامة في بقعة واضحة في ممر السيارة، وبخاصة أيام جَمعها، وليست مختبئة في ظلال المنزل الجانبية».

أعلق باسمة: «يا للطفهم! كم أجد لساني عاجزًا عن شكر معروفهم هذا».

أفتح كيس رقائق البطاطس، مفرِغة محتوياته في وعاء، فيما أنقذ رقاقتين تنزلقان من الحافة. تلتقط أنفي رائحة النكهة المُصنَّعة للكمأة السوداء، وأنا أضيف: «أعدك، سأنضم إليك بمجرد وصول الجميع. يجب أن يظل أحدنا قرب الباب لاستقبال باقي الضيوف».

يرمق وعاء الرقائق بريبة.

– ما نكهتها؟

– تذوقها بنفسك.

يأخذ رقاقة، يطحنها بين أسنانه، وأنفه متجعد. يقول: «طعمها بشع، إن لها مذاق لحم مُتَفَسِّخ».

أقهقه على تعبيره، مدركة ما يعنيه. إن نكهتها لاذِعة، لها مذاق الأرض النَّدية. يقضم رقاقة أخرى، ويزداد وجهه التواءً، بينما يَغمرني السرور لتصرفه بأريحِيَّة أخيرًا. فلقد بات متضايقًا عندما أخبرته أنني اتخذتُ خطوة ودعوتُ الناس لتناول المشروبات في منزلنا. اندفعت أطلِعه على كل ما فعلت ما إن عاد إلى المنزل مساء الخميس السابق، بعد انتهاء أيام عمله الثلاثة في برمنجهام. كان الهواء يومها لا يزال شديد الحرارة، ولم تبد عصبيته ولا غضبه أقل حرارة. قال، وهو يُرخي ياقة قميصه بانفعال: «ظننتُ أننا اتفقنا معًا أن نتمهل في دعوتهم».

دفعني شعور بالذنب لأحضر زجاجة نبيذ، في محاولة لتهدئته. قلتُ له، مدركة أنه عليَّ تجنب ذِكر كلمة «حفل» تمامًا: «إنه مجرد لقاء لتناول المشروبات معًا».

– إلى مَنْ وجهتِ الدعوة؟

ناولته الزجاجة، بينما أخفيتُ وجهي داخل الدُّرج بحثًا عن فتَّاحة السدادة.

– دعوتُ جيراننا هنا فقط.

– ماذا؟ جميعهم؟

– نعم، جميعهم، ما عدا ساكني المنزل رقم ثلاثة فلن يحضروا. وسيحضر شخص واحد فقط من المنزل رقم تسعة، إما «ماريا» وإما «تيم». هكذا يصبح مجموع الضيوف واحدًا وعشرين على الأكثر.

– ومتى الموعد؟

– يوم السبت.

– السبت المقبل؟

– نعم.

بات صامتًا لبقية تلك الليلة، والبارحة التقى «وِيل» رفيق إيف. راقبته من النافذة وهما يتحدثان عند عتبة باب منزله، تخوفًا من أنه قد يخبر وِيل بضرورة إلغاء الحفل بحجة خطب ما. لكن عندما رجع من عنده، وأخبرني أنه ذاهب لشراء الجعة والشمبانيا، تنفستُ الصعداء.

أوجه له السؤال الآن: «كيف يجري تقديم الشمبانيا؟ هل ما زال لدينا ما يكفي؟».

– لا أظنه سيكفي في حال شربتُ بالقدر الذي أعهده!

عند تمييز صوت إيف، أتطلع إلى ما وراء كتفَي ليو لأجدها واقفة عند مدخل الباب، وبيدها كأس فارغة، ووجنتاها متوهجتان ببودرة وردية، تتطابق درجتها الزاهية مع خُصل وردية مصبوغة حديثًا بشعرها الأشقر الثلجي القصير.

تتابع قائلة: «ألا يبدو جذَّابًا؟! أعتقد أن «برُسْيكو» مصفف شعري لن يقبل بتغيير تسريحتي للأبد!».

لقد حدث لقاء على نحو حسن بيني وبين إيف، في اليوم التالي لذلك الحديث مع تامسين الذي سمعته من نافذة الطابق العلوي، وفي الحال أعجبتُ بشخصيتها. فهي على عكس ما أبدته تامسين، لم أجدها توَّاقة للتعرف إليَّ وليو فحسب، بل ورقيقة الشعور وعطوفة، ومتفهمة أن الانتقال للسكن في ضاحية جديدة تضم أناسًا يعرفون بعضهم بعضًا ليس أمرًا يسيرًا. حتى بالنسبة إليها وإلى وِيل، رغم أنه مرَّ عام ونصف على انتقالهما إلى المجاورة، لا تزال الأجواء هنا جديدة عليهما مثلنا.

يلتف ليو إليها.

– هل نعتبر هكذا أن الجميع قد وصل، يا إيف؟ إن القلق يعتري أَلِيس من أنها لن تنتبه إلى صوت الجرس من الحديقة.

تجيبه: «لقد وصل وِيل لتوه، بعدما أنهى تجربة عرضه، وبهذا أعتقد أن الجميع حاضرون، عدا ماريا وتيم. لكن أظنني لمحتُ رسالة في مجموعة الدردشة على الواتساب، تشير أن لديهم أمورًا تخص مجالسة الأطفال عليهما معالجتها».

أخرِج ثلاث زجاجات شمبانيا من الثلاجة، أناولها واحدة، وأناول ليو اثنتين.

– هذا صحيح. ذكرتْ ماريا أنه قد ينضم إلينا أحدهما فقط، إن استطاعا.

تضحك إيف، هاتفة: «وماذا قد يفسر معالجة أمور تخص مجالسة الأطفال، أكثر من وجود ثلاثة صبية صغار! كلٌّ منهم ظريفٌ لكن صَخَّاب».

بعدما صرتُ أعرف أسماء جيراننا كبار السنِّ في المنزل المجاور لنا، أضيف: «لم يحضر «إدوارد» وزوجته «لورنا» كذلك. عندما ذهبتُ لزيارتهما حتى أعرِّفهما نفسي، وأتأكد من أنهما تلقيا دعوتي، قالا إنهما غير واثقين من أنه بوسعهما الحضور».

تردُّ إيف بنبرة متشككة: «لا أظنهما ممنْ يفضلون الذهاب إلى الحفلات. وفيما أرى ليس هنالك من أحد آخر سيأتي في الوقت الحالي، لِم لا تتركين الباب مواربًا في حال أتى أحدهم؟».

ثم تضمُّ زجاجة الشراب إلى صدرها كما لو أنها تخاف أن تُسرَق منها، مستطردة: «إن لحقتْ بنا ماريا أو تيم، بوسعهما الدخول بنفسيهما».

للحظة أجدني مترددة. لو أنني في هارستون، ما كنتُ لأرى أدنى مشكلة في ترك الباب مواربًا، بينما العيش في المدينة يُعتبر وضعًا مختلفًا. يصل اضطرابي إلى ليو، فيقبِّل جبهتي، مهدئًا: «لا تقلقي. إننا نسكن في ضاحية مُسوَّرة، لا يمكن لأحد دخولها ما لم يُسمح له».

أبتسم في وجهه. إنه على حق، كما أنني بحاجة إلى إزاحة تصوراتي المسبقة عن الحياة في لندن جانبًا، على أية حال. وفيما أخطو نحو البهو، وقبل أن أتمكن من حلِّ مزلاج الباب، يضرب الجرس. فأديرُ رأسي تجاه ليو صائحة: «سألحق بك إلى الحديقة بعد برهة، ما إن أستقبل منْ بالباب!».

يقابلني عند فتح الباب رجل طويل، بَهيُّ المظهر، يرتدي بنطالًا قماشيًّا قطنيًّا أنيقًا وسترة مهندَمة من الكتان. يحافظ على مسافة من الباب، متطلعًا إليَّ بعينين عميقتين رماديتين، نصف مختبئتين وراء جفون مرتخية.

أُحيِّيه باسمة: «لا بد أنك تيم. مرحبًا بك، أنا أَلِيس».

– مرحبًا بكِ، يا أَلِيس. سعيد بلقائك.

يخطو إلى البهو، مفاديًا برأسه الثريا الزجاجية ذات الإضاءة الموجَّهة. وللحظات، لم ينبس أحدنا بكلمة واحدة.

لأكسر حاجز الصمت بيننا، أبادره بسؤال: «هل سبق لك أن دخلت هذا المنزل؟».

– لا، ليس فعليًّا. إنما أُخبرتُ أنكما أجريتما تجديدات به.

– في الطابق العلوي فقط. حصلنا على توسعة في غرفة النوم بعدما هدمنا أحد الجدران الداخلية.

يردف ناظرًا تجاه السُّلم: «يا لها من حيلة رائعة. أحاول تخيل مدى اتساعها. أتطلُّ على الواجهة أم الفناء الخلفي؟».

– على الفناء. يمكنني أن آخذك في جولة في المنزل إذا ما رغبت في رؤيتها.

بابتسامة أعرض عليه رؤيتها، وهي ليست المرة الأولى التي أضطر فيها إلى أن أدور في الطابق العلوي هذه الليلة. رغم أن جميع المنازل الاثني عشر في مجاورتنا متطابقة التصميم عند إنشائها، بعض ساكنيها أضافوا تعديلات عليها. ولهذا، يهتم ضيوفنا بطريقة تصرفنا في منزلنا الذي له مساحة منازلهم نفسها.

يقول، فيما يتبعني صاعدًا: «بالتأكيد أودُّ أن أراها».

عند وصولنا أعلى درج السُّلم، أحدِّثه: «إذن، فالمهمة الصعبة وقعت على كاهل ماريا هذه المرة».

– معذرة؟

– أقصد أنها اضطرتْ إلى أن تمكث في المنزل الليلة وتعتني بالصغار. لقد أخبرتنا أن مسألة إيجادك لجليسة أطفال مناسبة ما زالت قائمة.

يومئ معلقًا: «بالضبط، لم نعثر على جليسة بعد. في ظنِّي أنه مع بدء العام الدراسي، تفضل الجليسات صحبة أصدقائهن على العمل».

أفتح الباب الوحيد في الطابق على الجهة اليمنى للسُّلم. وبينما يسير في إثْري، تتعالى من خلال النوافذ المفتوحة أصوات الضيوف في الحديقة يثرثرون ويضحكون.

متطلعًا حوله، يقول: «عمل مذهل. حسبما أتذكر لم أر غرفة بهذا الاتساع الهائل من قبل».

– لقد كانت فكرة ليو. بما أننا لسنا بحاجة إلى ثلاث غرف نوم، دمج اثنتين في واحدة.

– آمل ألا تتشجع «ماري» لهذه الفكرة وتفعل مثلك.

بإمكاني سماع ضحكة إيف المُعدية من هنا، وتغمرني رغبة ملحَّة أن أنزل إليهم في الحديقة الآن وأشاركهم ضحكهم.

– ماري؟ اعذرني، ألا تُدعى زوجتك ماريا؟

يقول مبتسمًا: «بلى، هكذا تُدعى، لكنني أحبُّ أن أناديها باسم ماري. هذه كانت مزحة بيننا في بداية تعارفنا، لأنها تخرجت في مدرسة ملحقة بدَير، وظلت عالقة هناك نوعًا ما».

يضيف ناظرًا إلى خزانة الملابس، التي تغطي نصف الجدار المواجِه للنوافذ، التي تمتاز بعمق مريح وأبواب خشبية بديعة ذات ألواح مفرغة: «إنما لا أمانع أن تصبح لدينا خزانة ضخمة كهذه».

أضحك، وهو يخطو خارجًا من الغرفة، ويسمح لي أن أسبقه نزولًا على درج السُّلم.

وعند وصولنا إلى البهو، يقول في نبرة وقورة: «أشكركِ على هذه الجولة الممتعة».

أردُّ مشيرة إلى الحديقة: «ينتظرنا الجميع في الخارج. أحضِر كأسًا لك، أو أي شيء آخر تريده لنفسك، وسألحق بك ما إن أوصد الباب».

أقتنص بضع لحظات لأستنشق هواءً عليلًا في الجهة الأمامية الهادئة من المنزل، قبل التحرك إلى الحديقة. وفي أثناء مروري بالمطبخ، ألمح تيم عند الحوض، يملأ كأس ماء من الصنبور. أَهُمُّ لأخبره أنه يوجد ماء مبرَّد في حاوية ثلجية في الحديقة، إلا أنني أنتبه إلى ليو ملوحًا إليَّ. أشقُّ من فوري الطريق تجاه ضيوف حفلنا، حيث يقف ليو هنالك مع وِيل، الذي يحرك يديه بطريقة مسرحية وهو يشرح له شيئًا ما. إن وِيل ممثل ونجم صاعد، شعره كثيف داكن وله أنف روماني حاد وشفاه شَدْقاء جذابة، كما أنه على مقربة من أن يصير محبوبًا للجماهير. تشكو إيف أنه ما من مكان يذهبان إليه معًا إلا ويتعرَّف عليه الناس، في حين أنني ألحظ عليها سرورًا خفيًّا بالأمر.

بينما أقترب، ينضم إليهما «جيف» من المنزل رقم ثمانية، وهو رجل مُطلَّق، ورجل آخر شعره بُني مصفرٌّ لا أتذكر اسمه بالضبط، غير أنه جاء مع تامسين، ولذلك يساورني قلق منه بعض الشيء. لقد فاجأني بحق، بعد ما وصل إليَّ من حديثها، أن ترد على دعوتي في وقت متأخر، على مجموعة الواتساب، لتؤكد أنها وزوجها –الذي يُدعى «كاميرون» أو «كونر»– سيحضران حفلنا يوم السبت. متوقعٌ أن إيف هي من أقنعتها بالعدول عن رأيها.

أشغل نفسي بهندمة فستاني الصيفي الأبيض، دون داعٍ، متفحصة أجواء الحديقة من حولي لعلِّي أجد أحدهم بمفرده. لكن لا يقف أحد إلا وسط صحبة من أناسٍ يعرفهم ويعرفونه منذ فترة بعيدة، وسعداء بلقائهم بعد انقضاء عطلاتهم. أما أنا، فأدرك هَاهُنا، أنني امرأة غريبة في حفلتي.

– تعالي، يا أَلِيس!

ألمح إيف تشبُّ على أطراف أصابعها، ملوحة باتجاهي. فأخطو إليها، ملتقطة وعاء رقائق من الطاولة في طريقي.

– ثوبكِ رائع.

متطلعة لأعلى نحو الصوت، أجد الرجل ذا الشعر البني المصفر واقفًا إزائي. وبنظرة إلى الكؤوس الأربع التي يحملها بيده الضخمة، أفترض أنه ذاهب لإعادة ملئهم.

أبتسم له: «أشكرك. وأستميحك عذرًا، فلم أسمع اسمك جيدًا».

يردُّ بنبرة فيها لكنة إسكتلندية طفيفة: «اسمي كونر، وأنا الجانب الحسن من تامسين».

أقول: «لم ألتقِها وجهًا لوجه حتى اللحظة، ولكن يسعدني أن أتذكر ذلك عند رؤيتها».

يتحرك مبتعدًا وهو يقهقه.

يدور في خلدي فيما أراه ذاهبًا، يا له من رجل مريب!

ثم، يحلُّ شعور سيئ حيال ظني به؛ لم يتبادل معي سوى دُعابة لطيفة.

أتابع طريقي إلى حيث إيف وصديقاتها، وأكاد أقسم إن عينَي تامسين ضاقتا ما إن وقعت أنظارها عليَّ.

تهتف: «كنا نشيد بشجاعتكِ لانتقالكِ إلى هذا المنزل».

عندها، تتلقى لكزة من إيف. شعرها بخصلاته المجعدة المحددة لوجهها، واللون الهادئ لعينيها الخضراوين، يضفيان على طلَّتها بريقًا مذهلًا.

أبتسم إليها مُعلِّقة، في محاولة لكسبها في صفي: «إنني واثقة من أُلفتي للمكان هنا سريعًا، لا سيما في وجود جيران لطفاء مثلك».

يدفعني تجهمها لأستشعر منها في هذه اللحظة، أنها لا تحبني. وقلبي يهوي بين ضلوعي. من الممكن أنها من أولئك النساء اللاتي يولين اهتمامًا بصديقاتهن حدَّ الغيرة عليهن، وما قلته أعطاها انطباعًا أنني أعتزم الانضمام إلى مجموعتهن. ينبغي لي أن أتقرَّب منهن بروية أكثر.

تخاطبني «كارا»، ولشعرها الداكن لمعة فاتنة: «ألن تقدمي مشروبًا إضافيًّا لنا؟».

تعرفتُ عليها عند وصولها بصحبة «بول»، إنما نسيتُ رقم المنزل الذي يقيمان فيه. إنه رقم اثنان، على ما أذكر. وهي تمدُّ يدها داخل الوعاء الذي أحمله، تضيف: «هذه الرقائق طعمها لذيذ، من أين جلبتِها؟».

وقبل التفوه بكلمة، تسابقني تامسين إلى الرد: «من بقالة أطعمة جاهزة في «دين ستريت»».

وبعدها توجه لي ابتسامة مقتضبة: «لقد ابتعتُها من هناك قبلًا».

سرعان ما تنتهي الأُمسية، وبمجرد مغادرة آخر الضيوف، ينتابني شعور بأُلفة مع الناس والمكان، على عكس ما توقعت.

أخبرُ ليو، بينما نرتب الكؤوس في غسالة الصحون: «يا لهم من أناس لطفاء! علينا أن نباشر بدعوتهم لتناول العشاء معنا، لكن كل صُحبة منهم على حِدة، حتى يتسنى لنا فرصة تبادل أحاديث بصورة أفضل».

يقول، مع رَفع حاجبيه: «دعينا نأخذ وقتنا أولًا حتى نتعرف إلى هؤلاء الناس قبل دعوتهم».

أمازحه: «لقد تعرفنا إليهم لتوِّنا. ألم تقابل كارا وبول من المنزل رقم اثنين؟ يبدوان غاية في اللطف حقًّا».

يرفع رأسه معتدلًا: «لا شك أنهما كذلك. ومع هذا، لا تتسرعي في الحكم على الناس، يا أَلِيس. كما يجب عليكِ أن تحذري بخصوص ما تفصحينه عن خصوصياتك معهم. أريد أن تختلف حياتك هُنا عن هارلستون بأي حال».

متسمرة مكاني، أحدق إليه: «ما الداعي؟».

يجذبني إليه، مهدئًا من الحدَّة التي أثقلت كلماته.

– لا أريد أن يتدخل أحد في شؤوننا الخاصة. إننا بخير ما دمنا في حالنا، يا أَلِيس. ولا نحتاج إلى أحد غيرنا.

ثم يقبِّلني من فمي.

الفصل الثالث

صبيحة يوم الأحد، كانت مفعمة بالكسل، حيث أطلْنا النوم حتى ساعة متأخرة، وبعدما استيقظنا خرجنا إلى الفناء، واستلقينا متجاورين على مَضْجَعين خشبيين تحت مِظلة برتقالية عثر عليها ليو في المرأب. النسيم محملٌ برائحة الياسمين العَطِرة، والكتاب الذي أقرؤه مستكين على صدري. يلتفت رأسي الخامل تجاه ليو، فيما يتفقد الرسائل على هاتفه، لكن ما إن ينتبه إلى نظرة عينيَّ، يلتفت نحوي.

يقول: «لقد دعاني بول لألعب التنس معه في نهاية الأسبوع. كما راسلني كونر ليذكِّرني باجتماع رابطة السُكَّان يوم الخميس».

يضع هاتفه على العشب، ليمسك يدي.

– لحسن حظي، قد لا أستطيع العودة من برمنجهام قبل موعد الاجتماع.

أتمتم مغمضة العينين متأثرة بلمسة يده: «بإمكاني الحضور إن لم تأت».

– أرى أنه من الأفضل أن الرجال همْ منْ يحضرون مثل هذه الاجتماعات.

أحملق عينيَّ على اتساعهما.

– يا إلهي، لم أنتبه أننا رجعنا بالزمن إلى عهد الخمسينيات عند انتقالنا إلى هنا.

يبتسم ملتفتًا بجذعه ليستلقي على جنبه، وقميصه الأزرق قصير الأكمام يكشف جزءًا من بشرته عند حافة سرواله.

– لا تلوميني على قلقي. فما فهمته من كلام كونر، أن جميعهم سيذهبون إلى منزله بعد انقضاء الاجتماع من أجل أُمسية لشرب الويسكي. إنه تاجر للويسكي، وعلى ما يبدو، يقتني أصنافًا مميزة منها.

بنبرة جافة، أعترض: «وألا تشرب النساء الويسكي بدورهن؟».

ثم، أنحني مقتربة منه أقبِّله، وصدري منشرح لرؤيته مسترخيًا، قائلة: «في تقديرك، متى سينتهي عملك في برمنجهام؟».

يتبسَّم مجيبًا: «في غضون بضعة أسابيع أخرى، على ما آمل. لا أطيق الانتظار حتى يُتاح لي العودة إلى المنزل، إليكِ، مساء كل ليلة. منذ أن صَدمتِ مقدمة سيارتي عند رجوعكِ للخلف في تلك الإشارة المرورية، صارت هذه أمنية حياتي الوحيدة».

أنفجر في القهقهة دونما توقف.

– هذه محاولة جريئة منك! لكن كلينا يعرف أنك مَن ارتَطَم بسيارتي من الخلف.

يحتج ضاحكًا: «لم أرتطم بسيارتكِ! لقد خبطتُها بالمِصدِّ خَبطة تركت أثرًا طفيفًا جدًّا».

معه حق، فلم يترك الاصطدام إلا نتوءًا بسيطًا، حتى إنني قررت ألا أكلف نفسي عناء الخروج من السيارة وفحصها في حال تضررت، وبخاصة أن ذلك اليوم، كان أحد أيام يناير الرهيبة المطيرة. رغم ذلك، اقترب من نافذتي، وطَرَق الزجاج، مشيرًا إليَّ تحت المطر المنهمر أن أُنزله.

قال وقطرات المطر تنساب على وجهه: «أعتذر منكِ بشدة».

حينها تغيرت الإشارة إلى الأخضر، وما إن بدأت السيارات تتجاوزنا من كل جهة، انحنى مقتربًا، فتلاقتْ عيناي مع عينين عسليَّتين خضراوين، لمحتُ فيهما نظرة إعجاب ممزوجة بالأسف.

قلتُ له: «لا أخال أنه حدث أي ضرر. بالكاد شعرتُ بالاصطدام».

جاء رده: «بل قد يكون هناك ضرر. لا بد أنني تسببتُ في تلف لسيارتكِ ولو بقدر ضئيل».

أثار إعجابي شعره المبلل بالمطر، والخصلات التي التصقت بجبينه، وتلك اللحية الخفيفة المهذَّبة، ووجدتني أتمنى لو أن هناك ضررًا بالفعل، حتى يصبح لدي سبب وجيه لمتابعة التحدث معه. ارتأيتُ أن أتحقق بنفسي، فحللتُ حزام الأمان.

– لا بأس بالأمر، حقيقةً. لكن إذا كان هذا ما سيجعلك مطمئنًا، فلا مانع من إلقاء نظرة.

فيما أرفع ياقة معطفي لتقيني المطر، سرتُ حتى الجزء الخلفي من السيارة، ثم انحنيتُ لفحص المِصدِّ. لاحظتُ علامات احتكاك لا تكاد تُذكر، ولم أستطع التأكد ما إذا نتجتْ عن حدث آخر سابق بأسابيع قليلة، حين قَطَرتُ عربة صديقتي «ديبي» الخاصة بنقل الخيول.

– ربما المصدُّ قد أُصيب بأضرار داخلية ليس بوسعكِ رؤيتها، لذلك، هل تسمحين أن أقدم لكِ بياناتي للتواصل في حال سقط مصدُّ سيارتكِ في أثناء الطريق فيما بعد؟

أجبته في ابتسامة: «إن كنت مصرًّا».

فأخرج بطاقة من محفظته وناولني إياها، وقال: «مُصرٌّ جدًّا. وهل لي أن أكون أكثر إصرارًا وأطلب أن تمنحيني بياناتكِ للتواصل، في حال حدث وسقط المصدُّ وتكرمتِ بإخباري؟».

تطلعت إلى بطاقته وقرأت، «ليو كيرتس» مستشار إدارة المخاطر.

رددت عليه: «لا أحمل بطاقة لعملي، لكن يمكنني إعطاؤك رقم هاتفي».

واتصلَ بي ليلتها.

– أريد أن أطمئن على عدم تعرضكِ لأي إصابات نجمَت متأخرًا عن الاصطدام.

طمأنته: «إنني والسيارة على خير ما يرام».

حينها وجَّه اقتراحًا، أضحكَني: «ما دام الأمر كذلك، من الأفضل أن نحتفل معًا على شرف سلامتكما. هل تقبلين دعوتي على العشاء؟».

قلتُ بحسرة: «أعتقد أنه ليس من السهل أن نلتقي».

خيمت لحظة محرجة صامتة.

– أعتذر منكِ، لقد ظننتُ...

اندفعتُ أقاطعه: «لا، لا أعني ما فهمتَه مطلقًا. جُل ما في الأمر أنني أفترض، كما ذُكر في بطاقتك، أنك تعيش في لندن، بينما أعيش في مقاطعة «إيست ساسكس». وقد لا يُمْسي لقاؤنا على العشاء سهلًا».

– لا داعي للقلق. ما دمتُ أمتلك سيارة فالترحال ممكن. أخبريني، هل توجد مطاعم فاخرة لا تبعد عن المكان الذي تسكنين فيه، حيث بوسعي دعوتكِ على العشاء اعتذارًا عن اصطدامي بحياتك؟

– صدق أو لا تصدق، ثمَّة مطعم بهذه المواصفات.

ومنذ حينها ابتدأ كل ما نحن فيه.

***

أما في هذه اللحظة، فيومئ ليو برأسه تجاه هاتفي، ممازحًا: «ألم يراسلكِ أحد منهم؟ أم أنني صرتُ الطرف المفضَّل لديهم؟».

مزحته تستفزني، فقد ذكَّرتني كمْ كانت تامسين غير ودودة معي.

– لم تردني إلا رسالة نصية واحدة من كارا، تشكُرنا فيها على حفل الليلة الماضية، وإنها للفتة جميلة من جانبها أن توجِّه الرسالة إليَّ، ثم تُشاركها على مجموعة الدردشة كما فعل الباقون. من الواضح، أنهم يتعاملون برُقي شديد هنا. هل رأيتَ جميع بطاقات الترحيب التي تلقيناها؟ لقد رَصَصْتها في غرفة المعيشة، على طول رف المدفأة.

يردُّ بابتسامة، مشيرًا إلى اهتمامي ببطاقات المعايدة وأعياد الميلاد، حتى إنني قد أُبقيها معروضة لفترة طويلة: «نعم، رأيتها. وعلى ما أظن ستظل مكانها لعدة أسابيع».

– أعلم أنها تبدو عادة غريبة، لكن غالبية الناس يتفكرون مليًّا وبتأنٍّ عند اختيارهم البطاقات، ولذا لن أَحمِل نفسي على التخلص منها ببساطة في سلة المهملات مطلقًا.

عندها أتمَطَّى، وأعتدل واقفة.

يسألني، وهو يمد يده بكسل تجاهي: «إلى أين تذهبين؟».

– لأحضِّر السلطة التي سنتناولها مع شرائح اللحم.

يردف متنهدًا في قنوع: «يا لها من وجبة مذهلة».

***

استفقتُ على حركة مفاجئة، لأجد ليو وقد اعتدلت جلسته في السرير. يصيح عاليًا، ويتردد صياحه في هدوء الليل: «من هناك؟».

الوقت متأخر، والظلال الكثيفة جاثمة حولنا في عتمة الغرفة.

أهمس: «ماذا جرى؟».

وكأنني لم أنم سوى بضع دقائق. كم الساعة الآن؟ أحاول إرجاع ظهره للوراء، لكنه ينفض يدي بنفاد صبر.

وفي نبرة حادة، تُنبئ بخطر: «دخل شخص ما إلى هنا».

– ماذا؟ هنا، أين؟

تتسارع دقات قلبي. أعتدل، وقد فارقني النوم تمامًا واندفع الأدرينالين لأقصاه.

– هنا، في غرفة نومنا.

يتحسس ليصل إلى مفتاح إنارة القنديل عند جانبه من السرير، وضوؤه الأبيض يعمي بصري للحظة، ثم أرمش عدة مرات حتى تتعود عيناي، وعندها أفتش غرفة النوم بنظري سريعًا. خِلاف الخزانة المثبتة

في الحائط بأبوابها الخشبية المفرغة، وذلك المقعد في زاوية الغرفة، وكومة الملابس من ليلة أول أمس، لمْ ألمح أحدًا هنا.

أسأله متشككة: «هل أنت متأكد؟».

- نعم!

مستندة إلى إحدى ذراعيَّ، أرفع نفسي، وأضيِّق عينيَّ عبر باب الحمَّام الموارب، ويصوِّر لي عقلي شخصًا مختبئًا في حجرة الاستحمام، وفي يده سكين ذات نصل طويل مرفوعة فوق رأسه. يطرح ليو الأغطية بعيدًا، مما أجفلني، ويطوِّح رجليه ناهضًا.

- إلى أين تذهب؟

عند وقوفه تظهر عضلاته متشنجة.

- لإنارة البهو.

من خلال فُرجة باب غرفة النوم المفتوح جزئيًّا، يمدُّ يده ويقلِّب مفاتيح الضوء المثبَّتة في الجدار. أنصتُ لعلِّي ألتقط صوت أحدهم يهرع خارجًا من المنزل، منزعجًا من الضوء الباهر الكاشف للطابق الأرضي وبئر السُّلم. إنما لا صوت بالمرة.

أتساءل، فيما أختطف هاتفي من جهاز الشحن: «ألا ينبغي أن أتصل بالشرطة؟».

يقول: «انتظري قليلًا. أريد أن أتأكد بنفسي قبل اتخاذ أي خطوة. سأتفقد غرفة النوم الأخرى».

أنهض من السرير، ساحبة ردائي المنزلي القطني، ويقل شعوري بالوهن، وأنا أَلُفُّه حولي. رغم ذلك، تتسارع دقات قلبي فيما أقترب من الباب في إثره.

- سآتي معك.

- لا. ابقي هنا، وإذا سمعتِ شيئًا، اتصلي بالشرطة.

- انتظر.

أسرع إلى الحمام، متحققة بسرعة أن لا أحد مختبئ في الداخل، ثم أمسك عبوة مثبِّت الشعر، أنزع عنها الغطاء وأعطيها له.

- إذا رأيتَ غريبًا في المنزل، رُشَّها في عينيه لتعيق حركته.

في ظرف مختلف، كان ليسخر من تصوُّر نفسه، لا يرتدي سوى سرواله ويتخذ من مستحضر للشعر سلاحًا. إنما يتناولها مني، ويتحرك بها وإصبعه على فوهتها، خارجًا إلى الردهة. أراقبه وهو يتفقد غرفة نوم الضيوف ثم غرفة مكتبه، بينما أحُكُّ يدي في اضطراب، وشاشة هاتفي مُهيأة للاتصال برقم النجدة.

يصيح: «لا أحد هنا. سأبحث في الطابق الأرضي».

- توخَّ الحذر!

لبرهة صامتة، أترقب سماع صوته.

- هل رأيت أي شيء؟

أقترب من حاجز الدَّرج عندما لم أتلق منه جوابًا، وأتطلع إلى البهو، لكنني أراه يختفي منه داخلًا غرفة المعيشة.

بعد بضع دقائق، يعود إلى الردهة.

– لا تزال الأبواب والنوافذ محكمة الإغلاق كما هي، ولا يظهر عليها أي أثر لاقتحام.

أسأله، ونحن متجهان لغرفة نومنا: «هل أنت متأكد من رؤية شخص ما هنا؟».

يعترف: «نعم... لا... لا أعرف. اعتراني إحساس قوي بأن هناك دخيلًا في غرفة نومنا».

– لعلكَ كنتَ تحلم.

ولمحة من الخجل تعلو وجهه، يترك يده تسقِط مثبِّت الشعر.

– نعم، على ما يبدو. أعتذر منكِ، لم أقصد إخافتك. كم صارت الساعة الآن؟

أتحقق من هاتفي.

– إنها الثالثة وخمس عشرة دقيقة. من الأفضل أن تحظى ببعض النوم، حتى موعد استيقاظك في السادسة صباحًا.

تسللنا إلى السرير منهكين. سرعان ما غرق ليو في النوم، بينما برحتُ مستلقية، ممتنة لوجوده إلى جواري، وأسترجع ذكرى كل الأوقات التي عشتها في بلدتي، حيث اعتدتُ أن أستفيق على ضجَّة في الصباح، قد يمتد صداها حتى الليل. كم أحبُّ مشاركته أموري، بعد أن عشت مُجبرة على مواجهتها وحدي. إن اصطدامه بسيارتي أفضل ما حدث في حياتي منذ سنوات بعيدة.

قالت ديبي، عندما أخبرتها بلقائنا: «أتعرفين أن هذه أول مرة أراكِ تولين اهتمامًا ولو طفيفًا برجل».

أحقَّت في قولها. فقد كنتُ في الخامسة والثلاثين من عمري، وعلى الرغم من أنني خُضْت ثلاث علاقات عاطفية طويلة المدى، آلت كلها إلى نهاية، لم تتسم بالفجائية، بل اتخذتْ منحنى بطيئًا، من نوع، «لا أدري إلى أين سينتهي بنا المطاف». رُحتُ أفكر أنه لا يمكن أن أهبَ نفسي لعلاقة طويلة الأمد، ورغم حزني أنني قد لا أقابل الشخص المناسب لأكمل معه أيامي، لم أهتم بالموضوع حدَّ أن يصير شغلي الشاغل قط. لكن ما إن دخل ليو إلى حياتي، تغيرت أفكاري.

بعد انقضاء ستة أشهر متتالية من لقائنا بصفة أسبوعية، نظرًا لبُعد الشقة التي سكنها ليو في لندن، وضيق وقته معظم الأسبوع ليسافر إلى هارلستون عدا أيام العطلات -بِتنا نشتاق لقضاء مزيد من الوقت معًا. خرجنا ذات ليلة لتناول العشاء، وعندما طلب ليو الشمبانيا، وصل توتري إلى أقصى مستوياته، وفي ذهني أنه قد يطلب يدي في أي لحظة. لم نطرح موضوع الزواج قط، ولم أرد أن أثير الموضوع حتى لا تتأثر علاقتنا سلبًا، كما أنني كنت بحاجة إلى التريث في التفكير. بينما انشغل النادل في نزع سدادة الزجاجة، تحيرتُ إذا ما عليَّ القبول إذا طلب يدي أم لا. أن أعيش ما تبقى من حياتي في هارلستون إلى جوار ليو، تراءى لي فجأة حلمًا جميلًا.

قال، ما إن صُبَّت الشمبانيا: «أريد أن أسألكِ شيئًا، يا أليس. أود أن أراكِ كل يوم، وليس في أيام العطلات الأسبوعية فحسب».

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وأضاف: «هل تقبلين أن تنتقلي للعيش معي؟».

– أعيش معك؟ أتقصد في شقتك في لندن؟ ظننتُك للحظة تعتزم طلب الزواج مني.

مازحته حتى أخفي عنه حَيرتي.

أمسك يدي، موضحًا: «إنني أحبكِ يا أليس، لكنني لم أومن بالزواج الرسمي من قبل، ولا أظنني سأغير رأيي الآن، ولا مستقبلًا. لم أعرف في حياتي علاقة زواج سعيدة قط، بالإضافة إلى أنها مجرد ورقة مكتوبة. ليست هي ما ستجعل حبنا لبعضنا يدوم، ألا تشاركينني الرأي؟».

أجبته فيما أرتشف رشفة من كأسي: «لم أقصد أنني أطالبك بذلك. إنني راضية بحياتي دون زواج مُسجل، إنما ما قصدك بانتقالي للسكن معك تحديدًا؟ أتشير إلى شقتك في لندن؟».

- نعم.

لم أقدر على إعطائه الإجابة التي ينتظرها. على الرغم من أنني عادة ما أقضي أيامًا وحيدة في هارلستون، فإنها كل ما أعرف. لم أعش في أي مكان سواها. كل أصدقائي هناك. كل ما أعرفه في حياتي هناك.

طلبت منه: «هل تمهلني بعض الوقت للتفكير؟».

قال باسمًا: «لكِ ذلك، ما دمتِ لن تتأخري عليَّ حتى تقرري. أريدنا أن نظل معًا طيلة الوقت، ليس في عطلات الأسبوع فقط».

تحاشيت الخوض في موضوع الانتقال إلى لندن، حتى انتقل عمل ليو إلى منطقة «ميدلاندز» منذ ستة أشهر. لم يكن ذلك بمنزلة إنذار أخير منه لأطلعه على قراري، وإنما عند سؤالي عما إذا أمانع الانتقال شمالًا، أدركتُ أنه ينبغي أن أخبره ببعض ما قررت لو ما زالت لدي رغبة في تكملة حياتي معه، وهو ما رغبتُ فيه حقًّا. طبيعة عملي تمكِّنني من إنجازه من أي مكان، على عكسه، وإذا انتقلنا إلى لندن، ما يزال بوسعي زيارة هارلستون متى أشاء، من خلال استقلال القطار من محطة «كينجز كروس». ولأنني اعتدت الخضرة من حولي، اتفقنا أن يبيع شقته، وأبيع منزلي الريفي، ونبحث عن منزل جديد لنا، قريب من متنزه ذي مساحة خضراء رحبة. وهكذا صار بوسعه الالتزام بعقد عمله الحالي في ميدلاندز، فيقضي معظم الأسبوع في برمنجهام، فيما عدا أيام الجمعة حتى الأحد، فيمكث معي في لندن، حيث بات لنا منزل يجمعنا وحياة جديدة لأعيشها.

يردُ في ذهني ما قاله ليو بعد انقضاء الحفل تلك الليلة، أننا لا نحتاج إلى أحد غيرنا. في الواقع، لم يخطر في بالي أنه قد يرغب في أن نظل برفقة بعضنا دون رؤية أحد مطلقًا. صحيح أنه يميل للعزلة في غالب الأحيان، كما أنه شخص ماهر بامتياز في إزاغَة الانتباه عنه إذا ما اتخذ الحوار منحنى شخصيًّا. وإذا ما قلتُ له إن أسئلة الناس ليست إلا اهتمامًا منهم، يقول بل تطفُّل منهم.

سألته بعد ظهيرة أحد أيام الجمعة: «من تلك المرأة؟».

كنت واقفة بجوار نافذة منزلي في هارلستون، مترقبة وصوله في أي لحظة. فقد اضطر بسبب سوء الأحوال الجوية -من سقوط للثلج، سرعان ما تحوَّل إلى جليد- إلى أن يغادر لندن عند الظهيرة، ولدى وصوله وترجله من السيارة، ظهرت أمامه فجأة امرأة من العدم وبدأت في التحدث معه. بدا رافضًا الاستماع إليها أما إصرار المرأة فلم يتزحزح، رغم أنني واثقة من سماعه يخبرها بأن تتركه وشأنه.

أجابني عندما سألته عنها بانزعاج مبالَغ فيه: «إنها مجرد امرأة تريد أن تتعرف على ماهية الحياة في الريف».

علاقتنا وقتها ما فتئت في أولها، وتساءلت في نفسي لثوانٍ عما إذا كانت رفيقته السابقة. لكنني فطنتُ سريعًا أن ليو لا يحب أن تُقتحم حياته الخاصة. ولذلك، ليس لديه أصدقاء مقربون باستثناء «مارك»، الذي تعرَّف إليه منذ عامين خلال إنجازه لبعض الأعمال لصالح شركته. ألوم نفسي لعدم موافقتي على أننا لسنا بحاجة إلى أحد. أحبُّه، لكن هناك أناسًا آخرين أحتاج إليهم في حياتي، مثل ديبي وباقي أصدقائي في هارلستون. هم عائلتي وأشتاق إليهم. لحسن حظي أن «جيني» زوجة مارك، التي أصبحت صديقتي، بالقرب مني في لندن، ولا تفصلني سوى مسافة قصيرة عن منزلها في حي «اِيزلينجِتِن». كما أتمنى أن أحظى بصداقات جديدة في هذه المجاورة.

أقلب وسادتي على وجهها وأُسوِّيها بيدي، ثم أستدير ناحية ليو، متأملة رأسه نصف المختبئ تحت الأغطية، وأدرك أمرًا لم أدركه قبلًا. إذا كانت للعائلة من موضع في حياته، فأنا كل عائلته. لقد قطع علاقته بوالديه، ومما استنبطته من كلامه القليل عنهما، أنه لم يجد فيهما ما يقتدي به.

يغمغم متململًا في نومه، وتغمرني دفقة من الحنان. لا غَرْو أن يبتغي حياة مستقرة، وامرأة بجانبه تكون له عِمادًا.

الفصل الرابع

في الصباح التالي، يرفعني ليو إليه عن مقعد المطبخ الجالسة عليه، ويقبِّلني قائلًا: «أراكِ الخميس القادم. عديني أن تتوخي الحذر وأحكمي إغلاق الأبواب جيدًا كل ليلة».

أذكِّره، ووجهي مختبئ في صدره وعطره في أنفاسي: «لم يكن هناك من دخيل في المنزل عندما تفقدنا».

لبرهة يريح ذقنه على رأسي.

– أعرف. لكن توخي الحذر في جميع الأحوال.

أجذبه إليَّ من ياقة قميصه، لينحني تجاهي وأودِّعه بقبلة.

– أحبك.

أراقبه مبتعدًا نحو البهو، يحمل حقيبة سفره ملوحًا حتى يختفي خارجًا من الباب الأمامي. يغلق الباب خلفه وأصغي إلى خطواته في الممر، ثم لم أعد أستطيع سماعها. يطبق الصمت للحظات، بعدها يتقد عقلي متصورًا أحدًا ما وقد تسلل إلى هنا؛ شخص غريب كان يراقبنا ونحن نغط في النوم. سَوْط آخر يضرب رأسي، بينما أقف مكاني متسمرة في سكون تام.

لا أحبُّ هذا المنزل.

عندما هاتفني ليو ليخبرني عن منزلٍ ذهب لرؤيته، كنت في «فينيسيا» لقضاء عطلة بصحبة جيني.

قال، والارتياح بادٍ في صوته، بعد أن رأينا ما لا يقل عن عشرين منزلًا لا يناسبنا: «إنه رائع. أخبري جيني أنها محقة فيما وصفت به «بِن». إنه عبقري، استطاع أن يفي بما نحتاج إليه بالضبط، ووجد لنا المنزل المثالي».

رفعت جيني عينيها عن المجلة التي تطالعها، وأومأتُ لها بإبهامي إيماءة التمام. إذ إنها قبل سفرنا إلى فينيسيا، اقترحتْ على ليو أن يستشير بِن، سمسار العقارات الذي ساعدها ومارك على إيجاد منزل أحلامهما منذ بضعة أشهر.

سألته مستفهمة، نظرًا لسهولة عثورنا عليه، كما أنه أمر لا يُصدق: «وما الذي يجعله مثاليًّا؟».

– التقطتُ صورًا له، سأرسلها إليكِ حالًا.

بعد دقيقتين، رددت: «إنه منزل كبير».

ولا بد أن تكلفته مرتفعة للغاية، إنما لم أنطق بذلك. انعكفتُ أقلب صور منزل ضخم مطلي بالأبيض ذي حديقة في مدخله، يتخللها ممر خاص. شتَّان بين منزلي الريفي البسيط في هارلستون وذاك المنزل.

استفاض ليو: «إن فيه أربع غرف للنوم، ثلاث منها في الطابق العلوي وواحدة في الأسفل، كما يمتاز بحجرتَي حمَّام».

– أربع غرف نوم! لسنا بحاجة إلى أربع غرف للنوم، يا ليو!

– نعم، أعرف. إنما بوسعنا استغلال مساحتهم، فمثلًا نحوِّل التي في الطابق الأرضي إلى غرفة مكتب إضافية.

ألقيت نظرة على الصورة التالية.

– هل توجد أسْوِجة تفصل بين المنازل؟

– لا يوجد إلا سياج واحد يحوِّط المنازل من الخلف. أمعني النظر في الصور الأخرى. إنها ضاحية خاصة مُسوَّرة، بها اثنا عشر منزلًا، ولذا فهي آمنة جدًّا. كما تتوسَّطها ساحة خضراء مبهجة، والمنازل مصطفة حولها.

واصلتُ استعراض المزيد من الصور، فيما أُريها لجيني التي جلست بجواري. شُيدت المنازل على يسار الرُّقعة الخاصة بكلٍّ منها، ويفصلها عما يجاورها مدخل مرأب وممر خاص إلى اليمين. أما الساحة فمُطوَّقة بسور حديدي أسود، وبها زهور جميلة مُنسقة وعدة مقاعد ومَمَاشٍ، كما تشمل منطقة لعب صغيرة للأطفال. لم يضاهِه أي منزل آخر رأيناه، غير أنه أبعد من تصوري ومما ألفته في حياتي.

قلتُ في تردد: «لم أظن أنني سأعيش في ضاحية مجددًا».

– إنها ليست مثل ضاحيتكِ الريفية تمامًا، بل أكثر خصوصية.

– أين تقع؟

– بالقرب من «فينسبيري بارك».

تفاقمت حيرتي. لقد سبق واستبعدنا البحث في فينسبيري لأنها تفوق مستوانا المالي بكثير.

– ألن يكلفنا العيش في فينسبيري فوق طاقتنا؟

– هذا ما أودُّ إخبارِكِ به. إن المنزل شاغر منذ فترة، ولذا يرى بِن أن أعرض شراءه بالسعر نفسه الذي سأحصل عليه مقابل شقتي. وهذا يعني أنكِ لن تضطري إلى بيع منزلك في هارلستون، يا أليس.

اعترضت: «لا أمانع البتة بيعه، بل أترقب ذلك».

– لا أنكر ذلك، إنما أعرف ما يعنيه بالنسبة إليك. ولهذا سعيتُ طوال الوقت حتى أجد منزلًا لنا لأشتريه دون أن تتكلفي عناء بيع منزلك.

صمتَ لبرهة، ثم أضاف: «ما رأيكِ لو تؤجِّرينه لفترة؟ ستة أشهر مثلًا، فإذا ما وجدتِ أن الحياة في لندن لا تعجبكِ، سيظل منزل هارلستون ملكِكِ متى شئتِ العودة إليه».

قلتُ تاركة جيني، صاعدة إلى غرفة النوم: «لكلماتكَ هذه وقع سيئ في نفسي».

ثم سكتُّ حتى أوصِد الباب خلفي، قبل أن أستطرد: «ما الذي تقوله، يا ليو؟ أفي اعتقادك أن علاقتنا لن تمتد لأكثر من ستة أشهر؟».

– لا، أبدًا. ما قصدته أنني أعلم كمْ تقلقكِ فكرة الانتقال إلى لندن، وتبادر إليَّ أنه قد يهون عليكِ الأمر، اطمئنانكِ إلى بقاء منزلكِ في انتظارك، في حال لم تعجبكِ حياة المدينة. اعتبري أننا نمدُّ شبكة أمان بيننا، إن اضطررنا إلى إعادة التفكير في خططنا المستقبلية معًا.

فاضت عيناي بالدمع. تخيُّل منزلي يُباع، يُفطِر قلبي. حاولت جاهدة أن أخفي مشاعري تلك عن ليو، ومن الواضح أنني أخفقت. وله حق فيما قال، قد يسهل عليَّ أمر الانتقال إلى لندن، ما دام منزلي الريفي في

حوزتي.

سألته: «لماذا تحسن معاملتي إلى هذا الحد؟».

– لأنني أحبك. هل أمضي قدمًا وأتقدم لشراء المنزل؟ أودُّ أن نحصل عليه اليوم قبل انشغالي.

وَعدته: «سأعاود الاتصال بك في غضون ساعة».

تصفحتُ الصور على مهل ثانية. أحبتْ جيني المنزل، وأشارت أنه ليس ببعيد عن سكنها هي ومارك.

قالت، وهي تمسك بقبعتها ذات الحافة العريضة وتكبسها على رأسها: «على الأقل، لن تضطري إلى قطع طريق طويلة عبر لندن كلها عند المجيء لزيارتي. هيا، دعينا نحتسي كأس نبيذ معًا ونحتفل بانتقالكِ أخيرًا إلى لندن».

ذكَّرتها: «لم أقل كلمتي بشأن المنزل بعد».

هناك أمر ينغِّصني. لو أنني لم أبع منزلي الريفي، سيصير هذا المنزل ملكَ ليو وحده، وليس ملكًا لنا معًا. إنما، هل هذا يهم؟ أعدتُ التفكير فيما قاله عن عدم حاجتنا إلى زواج مُعلَن. وهل سيتعمق الحب بيننا إذا تشاركنا ملكية المنزل؟ إجابتي حينها كانت قطعًا لا، فاتصلتُ به وأخبرته بموافقتي.

بعد أسبوع، ذهبت لرؤية المنزل، وأدركت ما قصده بعبارة «أكثر خصوصية» عندما أَدْخل رمزًا مشفرًا في لوحة عند المدخل، لتفتح لنا البوابات الحديدية السوداء المزخرفة مصراعيها على مجاورة «ذا سيركل».

وقال ليو مستفيضًا: «كل منزل متصل بالمدخل عبر صورة مرئية، ولا يمكن لأي زائر غير مرحَّب به الدخول».

المنزل الأول، الذي يحمل رقم واحد، يقع على يسار البوابة الرئيسية، أما المنزل الأخير، رقم اثني عشر، فهو على يمينها. ومنزلنا هو السادس، في منتصف الطريق المنحني، إزاء البوابة مباشرة، ولا تفصلهما سوى الساحة.

سألني، ما إن ترجَّلنا من السيارة: «ما رأيك؟».

اختطف المنزل أنظاري: الجدران البيضاء، السقف القرميدي الأحمر المائل، العشب المجزوز بعناية، مدخل المرأب الخرساني المصقول، الممر المرصوف بالحجارة حتى الباب الأمامي. وقد تطابق في كل ذلك مع بقية المنازل.

رددتُ في ابتسامة، أخفيت وراءها رهبة اجتاحتني: «كأننا داخل ساعة حائط ضخمة».

خطوتُ إلى بهو رَحْب، حيث توجد قاعة طعام رئيسية على اليسار –التي خطر ببالي في الحال أن ألحِق بها مكتبة– بداخلها باب مزدوج يفضي إلى مطبخ مفتوح على امتداد الجدار الخلفي للمنزل. وعلى يمين البهو، توجد غرفة معيشة شاسعة، وخلفها غرفة نوم ملحقة بحجرة حمام. ثم صعدتُ درج السُّلم القابع يمين الباب الأمامي حتى بَسْطَة الطابق العلوي، وبه ثلاث غرف نوم، وحمام، وغرفة مكتب.

علَّق ليو: «فكرتُ في أن نحوِّل غرفة النوم في الطابق الأرضي إلى مكتب، وبهذا يحظى كل منَّا بغرفته الخاصة».

قبَّلته وقلت: «أراها فكرة حسنة، ما دمتُ سآخذ الغرفة التي في الأسفل. إذ إنها الأقرب إلى غلَّاية الماء».

– لا مانع عندي، إنني راضٍ بالغرفة العلوية.

ثم فتح باب إحدى غرف النوم على الجهة الأخرى من الردهة، وقال: «هذه هي الغرفة الكبرى».

تجولت في تلك الغرفة المشرقة، جيدة التهوية.

- إنها رائعة.

- نعم، بالفعل. إنما الغرفة المجاورة هي المُلحقة بحمام. تعالي وانظري بنفسك.

تبعته وخطوت للداخل. لقد كانت أصغر قليلًا من سابقتها، لكن تظل واسعة.

استوضح ليو: «تصورتُ أن ندمج الغرفتين في غرفة رئيسية كبيرة، بها حمام خاص. وهكذا، تتبقى لدينا غرفة واحدة لنخصصها للضيوف عندما تأتي ديبي لزيارتك».

رددت، مقتربة من النافذة، لألقي نظرة إلى الحديقة الخلفية: «فكرة معقولة».

كنَّا في مطلع مايو، وشجرة «لابانوم» جميلة طلع زَهْرُها الذهبي وتدلَّى. وأخرى مُزهرة بجوارها تشبه شجرة الكرز، ولمحت براعم شجيرات العليق بمحاذاة الجهة اليسرى من السياج.

قلتُ مأخوذة بالمنظر: «يا للروعة! إنها غاية في الجمال».

اقترب ووقف خلفي وأحاطني بذراعيه، هامسًا: «أرانا جالسين هناك نحتسي الشراب في ليلة صيفية».

شعرت بدفء أنفاسه عند رقبتي، فملتُ إليه برأسي في حركة غريزية: «أرى ما تراه».

أدارني إزاءه ليرى وجهي، ثم سألني وعيناه العسليتان تحملقان إلى عينيَّ: «أفهم من هذا أن المنزل نال إعجابك؟».

أجبته: «نعم، أحببته».

إنما في عقلي جاءت إجابتي عكس ذلك، لأنني للحقيقة لم أحبه قط. قد أعلِّم نفسي أن أحبه، إكرامًا له. واعتقدتُ حينها أن بذور قَبولي به منزلًا لنا تنبتُ داخلي.

غير أن ذلك لم يحدث.

الفصل الخامس

أتفكر جالسة القرفصاء على أرضية المطبخ، في ذلك الصوت الذي ردَّد داخلي بحدَّة منذ لحظات، أنني لا أحب هذا المنزل. مما لا أراه صحيحًا، أو على الأقل، ليس بالضبط. فثمة أمور أحببتها مثل غرفة مكتبي في الطابق الأرضي. إن لجدرانها أفتح الدرجات الوردية، لم أتخيل أن أُعجب به مطلقًا، لكن أحببته، وكذا حجرة الحمام، حيث إن الغرفة صُممت للنوم في الأصل. وُضع المكتب الذي كان لوالدي فيما مضى، مقابل النافذة، وعند الزاوية، هناك أريكة متحولة لسرير جاءت مع أثاث شقة ليو. كما أنني أحببتُ تصميم المطبخ، بأسطحه الرخامية الفاتحة الملساء ووحداته البيضاء المتينة، أو ربما أفعل إذا استخدمته لفترة أطول. إنه يبرق أناقة وصفاءً فوق استيعابي في الوقت الحالي؛ كل خطوطه دقيقة حادة، حتى الخزائن مستوية وتُخفي ما بداخلها بمثالية. لذا، ليس المنزل ذاته هو ما أكرَه، بل أجواؤه هي التي لا تعجبني.

ربما لا أجواء مميزة لهذا المنزل، فعمره لم يتعد خمسة أعوام. بينما منزلي الريفي حيث وُلدت وتربيت، وعشت فيه حتى أسابيع قليلة مضت، يتجاوز عمره قرنين من الزمان. يغمرني الامتنان أنني استطعت الاحتفاظ به، وفعلت مثلما اقترح عليَّ ليو وأجَّرته لمدة ستة أشهر لزوجين لطيفين من «مانشستر»، يرغبان في تجربة الحياة الريفية.

أتطلع إلى الصور الفوتوغرافية التي تفترش الأرضية حولي. معظمها صور لديبي وأصدقائي في هارلستون، وبينها بعض الصور لي ولليو التُقطت خلال أسبوع عطلة قضيناه في ريف «يوركشَر ديلز». ثمة صور أخرى، أنحني وأمسك من بينها بصورة شخصية لشقيقتي. أحدق إليها بضع لحظات، ثم أمسك بأخرى، يظهر فيها والداي مع شقيقتي يوم تخرجها، فأرفعها إلى شفتيَّ لأقبِّلها مغمضة العينين، وذكراهم تطوف. لا أكاد أصدق أنني سأضع هاتين الصورتين العزيزتين على الثلاجة، حتى تنجذب عيناي إليهما تلقائيًّا عند فتحها وغلقها كل مرة. أما بالنسبة إلى أعين الغرباء ممن يتساءلون بشأن عائلتي، فحينها قد أضطر إلى أن أفصح لهم. وعلى الرغم من أنني عادة ما أخفي أي صور لهم في غرفة النوم، تجنبًا لتطفل الآخرين، فإن الانتقال إلى لندن يُعَد بداية جديدة من نواحٍ عديدة بالنسبة لي.

مستندة على ركبتي، أنهمك في تنسيق الصور على الباب العلوي لمجمد الثلاجة، وتثبيتها باستخدام قطع مغناطيسية صغيرة. ما إن امتلأت المساحة على امتداد يدي، أنهض على قدمي، دون توقف عن إضافة الصور، حتى تغطَّى الباب كله. أرجع إلى الوراء خطوة فخورة بما أنجزتْه يداي، وصورتا شقيقتي ووالديَّ تختطف عينيَّ من بين الصور الأخرى جميعها. أتأمل بقية المطبخ من حولي، لا يزال بحاجة إلى المزيد من التَّزيين، وهنا يأتي دور كتب فن الطبخ لأجلبها من قاعة الطعام، حيث وضعتها على رفوف المكتبة هناك. وعند مروري من أمام غرفة المعيشة، ألمح من خلال بابها ما رَسَم البسمة على شفتيَّ، فقد عدَّل ليو من وضع بطاقات الترحيب لتستوي على رف الموقد، لا بد أنها مزحة منه، بعد حديثنا عنها أمس.

عودة إلى المطبخ، أرصُّ كتب الطبخ على المنضدة الرخامية، وسأقطف بعض الزهور من الحديقة لاحقًا، وأضعها على الطاولة في الإبريق النحاسي الأحمر الذي وجدته في متجر خيري.

ما زلت بملابسي الخفيفة، وعليَّ الصعود إلى الطابق العلوي. ما إن أصل إلى غرفة نومنا، أقف لبرهة عند بابها؛ مساحتها الشاسعة ما برحت تربكني. أصبحت الغرفة، رغم الصناديق القليلة المتبقية غير المفرَّغة، وبعد مغادرة ليو، أكثر خلوًّا من المعتاد. تباغتني رغبة ملحَّة لأخرج من المنزل، فأبحث بين كومة الملابس الملقاة فوق بعضها بعناية على ظهر المقعد، عن فستاني الصيفي الأبيض. تتوقع الأرصاد أن تبرد درجات الحرارة قليلًا هذا الأسبوع، وقد يكون اليوم فرصتي الأخيرة لارتداء الفستان. لكنه ليس هنا. إنني متأكدة أني لم أضعه في سلة الغسيل، فقد أردت أن أرتديه ليوم آخر قبل غَسْلِه. لعلِّي أعدته إلى خزانه الملابس.

أمدُّ يدي داخل عمقها الفسيح، وأتفقد الملابس المُعلَّقة. لا أعثر عليه هنا كذلك، فأجذب بنطالًا قصيرًا أزرق، وقميصًا بلا أكمام، ويلفت انتباهي أن رفوف الأحذية في قاعدة الخزانة، التي سبق ورتبتها، صارت مبعثرة. أنحني لأعيد ترتيبها، متسائلة عما إذا بإمكاني زيارة إيف الآن. إنها تكسب رزقها من كتابة المدونات عن التجميل ومستحضراته، وعملها يطول وقته أو يقصر خلال اليوم حسب رغبتها.

أخبرتني، في أول حديث بيننا، عندما جاءت لزيارتي تشكرني على الدعوة التي أرسلتها على مجموعة الدردشة: «إنها الوظيفة المثالية لي. ويرجع الفضل إلى شقيقتي، فهي الرئيسة التنفيذية لشركة «بيوتي تِك»، وهي التي اقترحت عليَّ أن أنشئ مدونة خاصة بي، وأدوِّن مقالات في مجال أحبُّه، وأحصل على مستحضرات مذهلة لتجربتها. لقد أُهديتُ عينات مجانية تكتظ بها الأرْفف في منزلي، ستكفيني لبقية حياتي وتفيض، ذَكِّريني أن أحضر لكِ بعضًا منها. إننا محظوظتان لقدرتنا على العمل من المنزل، ألا تتفقين معي، يا أليس؟ حتى إنني أدوِّن في سريري أحيانًا!».

لم يسعني سوى موافقتها، فكوني مترجمة حُرة، ورغم أنني عادة ما أعمل جالسة إلى مكتب، فإنني كثيرًا ما أراجع أجزاء مما ترجمته في السرير، وبخاصة في فصل الشتاء. أحبُّ عملي، مثل إيف، ولا أفوت فرصةً للتعرف إلى زملاء في مجالي أو التقائهم. وكذلك يعجبني في عملي تفاوت شدَّته. حاليًّا، على سبيل المثال، أستمتع بفترة راحة منه، ريثما يأتيني كتاب جديد من الناشر الإيطالي المتعاقدة معه. قضيت إجازة لمدة أسبوعين، كنت بأمس الحاجة إليهما، لا سيما وأن الشهور الماضية كانت مُوتِّرة بشدة. إنما ينبغي أن أعاود العمل في أقرب وقت، قبل أن يتملكني الملل، الذي بدأ يتسلل إليَّ.

أخرج من غرفة النوم، وعند تجاوزي لغرفة مكتب ليو، أنتبه أن مقعده مُلتف نحو زاوية بعيدة. أخطو للداخل وأمسك ظهر المقعد وألُفُّه إلى الجهة الأخرى حتى يستقيم مع المكتب. وفيما أختطف نظرة إلى النافذة، أدرك أنه بوسعي استطلاع جميع منازل «ذا سيركل» من موقعي، وبالمثل، تحدِّق إليَّ نوافذها كلها، فأقشعر رغمًا عني. ألهذا بُنيت المجاورة على هيئة دائرة؟ حتى يراقب كلٌّ منَّا جاره؟

في الأسفل، أجد مفاتيحي وأنتعل حذائي الرياضي على عجل. لن أزعج إيف بالزيارة؛ قد أجدها منشغلة بعملها في هذا الوقت، كما بإمكاني التجول بمفردي. لقد استكشفتُ المنطقة المحيطة بالمجاورة بصحبة ليو، لكن جولتنا لم تمتد إلى متنزه فينسبيري.

في الخارج، أعبر الطريق متجهة نحو الساحة، ومنها إلى البوابة، والمسافة ككل لا تستغرق مني أكثر من خمس دقائق مشيًا متمهلًا. إن الساحة مبهجة بحق، وهي، بمقاعدها وحتى منطقة اللعب الملحَقة بها، مناسبة لكل الساكنين من أصغرهم إلى أكبرهم سنًّا. كلٌّ يجد غايته هنا في الساحة، وهذا هو مكمن

جمالها. أما منطقة اللعب، فرغم أن بها ما يكفي من الأراجيح والزَّحاليق، تفتقد حتمًا إلى طبقات من الطلاء، مما يفسر الرسالة التي رأيتها وليو على مجموعة الواتساب بخصوص أعمال الصيانة بها.

لم أعتد صخب لندن مطلقًا، تربكني أبواق السيارات المتنافرة وصَفَّارات الإنذار التي تصدمني ما إن أتجاوز بوابة المجاورة. وتلك الشوارع المكتظة والحشود التي تُزاحمني الطريق، وضع لم آلفه من قبل كذلك، مما يجعلني أدرك مدى انغلاق عيشتي في هارلستون، حيث أعلى صوت قد يُعد صاخبًا هو ضجيج الحاصدات الدرَّاسة لمحاصيل الحقول المحيطة في مطلع كل صيف. لكنني أرى أمرًا منعشًا في هذه الضجة المتداخلة؛ ينتابني شعور أنني أنتمي إلى لوحة كبيرة، وكلما أسرع خطواتي، أصير أكثر انسجامًا مع حركة «اللندنيِّين» من حولي. أشقُّ طريقي بيسر إلى فينسبيري بارك استرشادًا بخرائط تطبيق «سيتي مابر». ولدى وصولي، أشعر كما لو عَدَوْتُ لدورة كاملة حول مضمار.

كنت في هارلستون أتمشى لساعات بين الحقول دون أن أقابل أحدًا. وهنا، بالكاد يستغرق المتنزه ساعة واحدة، لأتجول في أرجائه. ومع ذلك، فإنني مسرورة لوجود مكان بوسعي أن أقصده دون خوف من أن أُدعس في طريقي إليه. لكن يجب أن أكفَّ عن مقارنة حياتي السابقة في البلدة بحياتي الحالية.

عند عودتي إلى «ذا سيركل»، وبينما أدخِل الرمز السري في البوابة الجانبية، تُفتح البوابة الرئيسية وتعبر منها سيارة ماريا العائلية. تلوح لي بيدها، فأتجه يمينًا ناحية المنزل رقم اثني عشر وأتقدم سيرًا نحو المنزل رقم تسعة.

تصيح مرحِّبة، وهي تخرج من السيارة: «أهلًا، يا أليس! كيف حالك؟ هل تعوَّدتِ الحياة في مجاورتنا بعد؟».

– نعم، إلى حد ما. لقد خرجت للتمشي قليلًا.

– إن الطقس رائع اليوم. لم تكن لدي مواعيد بعد الظهيرة، لذا قررت مغادرة العمل مبكرًا لأحضر الأولاد من المدرسة.

يتدافع صبيان في أثناء نزولهما من السيارة، وترفع شقيقهما الأصغر ليلحق بهما، الذي يبلغ عمره نحو ثلاث سنوات، ثم تشدُّ الباب الثقيل المنزلق لتغلقه.

– هيا يا أولاد! ادخلوا في الحال واطلبوا من أبيكم أن يحضر لكم العصير.

أخطو نحوها مقتربة من ممر السيارة، قائلة: «يحزنني عدم تمكنكِ من حضور حفل ليلة السبت».

تردُّ في ابتسامة تعكس أسفًا، على صفحة وجهها البشوش ذي عظام الوجنتين البارزتين، والعينين البنيتين الواسعتين: «تخلَّت عنَّا جليسات الأطفال اللاتي عادة ما يساعدننا».

– هذا ما أخبرني به تيم. وإنها للفتة لطيفة منه أن يحضر رغم الظروف.

يتقطَّب جبينها.

– تيم؟ لا أظن ذلك. لقد بقي معنا تلك الليلة. أم لعله ذهب إلى منزلكِ، بعد أن خلدتُ إلى النوم؟

– لا بد أنه فعل، لأنني بالتأكيد استقبلته في منزلي.

في استمتاع تهزُّ رأسها ضاحكة.

– يا له من أحمق مشاغب! لم يخبرني شيئًا بتاتًا.

تتحرك نحو الباب، بعد أن تختطف حقيبة يدها من أسفل مقعد الراكب الأمامي، لتصيح عند البهو: «لم تخبرني أنك ذهبتَ إلى منزل أليس وليو السبت الفائت، يا تيم!».

يجيبها صائحًا كذلك: «انتظري! لا يمكنني سماعك».

يتقدم إلى حيث تقف ماريا عند المرأب، بينما تغمغم: «أصار سمعكَ انتقائيًّا؟».

– معذرةً، ماذا كنتِ تقولين؟

عندها ينتبه لوجودي، فيقول: «مرحبًا بك. هل أنتِ جارتنا الجديدة؟».

وأجدني مُحمْلِقة إلى رجلٍ، لم أره في حياتي من قبل.

الفصل السادس

يا له من إحساس تملَّكني، كما لو أن أمرًا بغيضًا ما، لا يد لي به، على وشك أن يقع.

أستفسر منه مرتبكة: «لكن.. أأنت تيم حقًّا؟».

يضحك: «حسبما رأيتِني آخر مرة، ما زلتُ الشخص نفسه».

– إنما لستَ تيم الذي جاء إلى منزلي يوم السبت.

ثم ألتفتُ نحو ماريا، مضيفة: «إذن، فهو لم يحضر كما قلتِ، بل تيم آخر هو من فعل».

– لم أكن لأظنه يخرج خلسة دون أن يخبرني بأية حال.

يسأل تيم: «أخرج خلسة؟ إلى أين؟».

– إلى منزل أليس وليو، لحضور حفلهما السبت الفائت.

– تعرفين أنني لم أذهب.

– أعرف، لكن ثمة شخصًا آخر يُدعى تيم جاءهما، وظنَّتْ أليس أنه أنت.

الفرق بين الرجلين لا تخطئه العين، عند النظر إلى تيم الواقف أمامي. فهو لا طويل ولا نحيف ولا شعره داكن مثل تيم الذي رأيته، وليست له حتى طلة أنيقة ووجه وسيم مثله. كما أن قميصه الرَّجْبي المُقلَّم أفقيًّا، لا أتصور تيم الآخر قد يرتديه يومًا.

أسألهما: «هل يسكن في المجاورة رجل آخر بالاسم نفسه، وله زوجة تُدعى ماريا كذلك؟».

ترد ماريا: «لا يوجد، على حد علمي، إلا إذا انتقل إلى هنا سكَّان جدد خلال الصيف. أمرٌ مذهل لو حدث، تخيلي لو وُجد اثنان آخران منَّا، وصرنا نعيش كلنا في مكان واحد!».

– محتملٌ أن المرأة معروفة باسم ماري، اختصارًا لماريا. لذا، قد يكون الزوجان الجديدان هما تيم وماري؟

يهزُّ تيم رأسه: «هل أنتِ متأكدة أنه قدَّم نفسه لكِ باسم تيم؟».

– متأكدة.

أُوَارِي تحرُّجي من إجابته وراء ابتساماتي، لأن ما قصدته لتوي لم يحدث بالضبط. لم يقل الرجل إن اسمه تيم، بل أنا منْ قلتُ له «لا بد أنك تيم»، ودعوته للدخول دون أن أسمعه يؤكد أو ينفي. لكن ماذا عما قاله بشأن زوجته التي يدعوها ماري بدلًا من ماريا؟ هل اضطررته إلى ذلك لأنني باغتُّه عند الباب؟ ثم بحث عن عذر واهٍ مستدركًا زلة لسانه في تلفظ اسمها؟

تتساءل ماريا: «كم بدا عمره؟».

– ربما في أوائل الأربعين، من الصعب أن أجزم.

أطلعهما قدر استطاعتي على ملامح ذلك الرجل، لكن لم تتطابق أوصافه مع أي أحد يعرفانه.

يردف تيم متعجلًا، لدى سماع صوت تحطم شيء ما: «من الأفضل أن أدخل للاطمئنان على الأولاد».

تقول ماريا: «يُحتمل أن يكون ذلك الرجل له معارف في المجاورة، أو شخص عادي مرَّ مصادفة بالبوابة وانسل خفية خلف أحد الساكنين. منذ ظهور وِيل في ذلك المسلسل التلفزيوني، والمعجبون تتكرر حالات تسللهم إلى الداخل».

– لم يشبه تصرفه مُعجَبًا عاديًّا.

أنتبه عندئذ أنني أضجرها بحديثي عن الرجل الذي اقتحم حفلي الخاص، فأتوقف من فوري، إنما يطنُّ أمره في ذهني. لذلك، وبينما أقطع المسافة القصيرة المتبقية حتى المنزل، مرورًا بالمنزلين رقمي ثمانية وسبعة، أتصل بِليو هاتفيًّا.

أبادره بعد اطمئناني على حاله: «هل تحدثت إلى شخص يُدعى تيم خلال أمسية السبت؟».

– لا أظن ذلك.

– هل يمكنك أن تتذكر بدقة ما إذا تحدثت إليه أم لا؟ هذه المسألة مهمة.

يخيم الصمت لبرهة.

– لا أذكر أنني تحدثت إلى أحد باسم تيم. لماذا تسألين؟

ألمح جيف مقبلًا عبر الساحة، يحمل حقيبتَي تسوق منتفختين، فألوِّح له.

– السبب أن ثمة رجلًا يُدعى تيم جاء إلى الحفل وظننته زوج ماريا من المنزل...

يقاطعني: «لا يُعقل أنه تيم. لقد قابلته مصادفةً في أثناء مغادرتي في الصباح، واعتذر عن عدم مقدرته على الحضور».

عند الممر أتوقف، وأدسُّ يدي في جيب بنطالي لأخرج المفاتيح.

– علمت ذلك بنفسي منه منذ قليل. ويبدو أن لا تيم آخر يعيش هنا غيره.

أستهل عندئذ في سرد ما جرى من حديث بيني وبين ذلك الغريب، بينما الهاتف محشور تحت ذقني حتى أفتح قفل الباب الأمامي.

يقول ليو ما إن انتهيت: «تمهلي لحظة. أتقصدين أنه لم يعرِّف نفسه باسم تيم فعليًّا، بل أنتِ منْ عرَّفه بقولكِ «لا بد أنك تيم»، وكان ذلك حسبك؟ لم يؤكد بلسانه أن اسمه تيم؟!».

يأتي ردي دفاعيًّا، لدى دخولي إلى البهو، وفيما أطوِّح الحذاء من قدمي: «ولم ينفِ الاسم عنه كذلك».

– وعما ذكرتِه بخصوص زوجته، قلتِ إن اسمها ماريا، وتلفظه هو ماري، صحيح؟

– نعم.

– ما مواصفات ذلك الرجل؟

أُسمِعه أوصافه، بينما تتمهل خطواتي نحو المطبخ حافية القدمين، منتعشة بملمس الأرضية الخشبية الرَّطبة: «إنه طويل داكن الشعر، عيناه رماديتان وملابسه أنيقة. هل يذكِّرك بأي أحد تعرفه؟».

– لا، مطلقًا. ربما يجب أن تسألي الجيران عنه. لعله تحدث إلى أحد منهم خلال الحفل. لكم لبث من الوقت ليلتها؟

أتناول علبة العصير من الثلاجة، وأسكن للحظة متأملة صورة شقيقتي ووالديَّ.

– لا أعرف بالضبط. تركته ليحضر لنفسه شرابًا ريثما أغلق الباب الأمامي. ثم رأيته في المطبخ ولم ألمحه بعدها طوال الحفل. أواثق من أنك لم تره في الفناء الخلفي؟

– نعم. آمل أنه لم يصعد إلى الطابق العلوي؛ لدي عدَّة وثائق مهمة تخص العمل في مكتبي.

يا ليت باستطاعتي الكذب بهذا الشأن.

– لم يصعد وحده على أي حال.

– ماذا تقصدين؟

أصل إلى الخزانة لأخرج منها كأسًا وأصب فيها العصير.

– أخذته في جولة في المنزل كما فعلتُ مع بعض الضيوف.

– ماذا؟! ما الداعي؟

– بسبب فضولهم لرؤية التعديلات التي أجريناها في المنزل.

– بحق الرب، يا أليس، لا أصدق أنكِ استعرضتِ منزلنا أمام جمع من الغرباء! عسى ذلك الرجل اختلس النظر إلى أنحاء أخرى في المنزل لم تأخذيه إليها، بمجرد أن تُرك بمفرده، كيف لكِ أن تعرفي؟

نبرته لا تخفي أي قدر من سخطه، حتى إنه يمكنني تخيل يده وهو يمررها في شعره، كما لو سينتزعه مغتاظًا من سذاجتي.

أردُّ محتجة: «لم يفعل حتمًا».

– قلتِ لتوكِ إنكِ لم ترَيه بعدها، لأنه من المحتمَل صعد وحده إلى الطابق العلوي ثانية، ليلقي نظرة متفحصة على كل محتوياته.

– لم يبدُ من النوع الذي قد يفعل ذلك. لقد بدا... لا أعرف لكن...

– لا يهم من أي نوع كان! هل تحققتِ من أننا لم نفقد شيئًا ما؟

– لا...

– إذن، ربما ينبغي لكِ التأكد أن جواهركِ وبطاقاتكِ الائتمانية بأمان.

بدأ القلق يتغلغل في جوفي. إنما أبذل جهدي ليبدو صوتي ثابتًا حتى أخفف من وطأة توتره، قائلة: «إنني واثقة أننا لم نفقد شيئًا. من الممكن أنه صديق لأحد الساكنين هنا، يمكث معهم أو جاء لزيارتهم».

– ألم يذكر لكِ شيئًا بهذا الخصوص؟

أخبره، راغبة في إنهاء المكالمة سريعًا: «سأسأل عنه في الجوار».

– هاتفيني لاحقًا. إذا لم تتوصلي إلى هويته، سيتوجب علينا إبلاغ الشرطة.

أغلق المكالمة وأركض صاعدة الدَّرج، مدفوعة بفكرة أن ذلك الرجل تسلل إلى غرفة نومنا. إلى منضدة الزينة أهرول متحققة أن جواهري موجودة –ها هي ذي– وأن بطاقاتي الائتمانية لم تزل في حقيبة يدي، على رف الخزانة منذ وضعتها هناك مساء السبت، ها هي ذي. كل شيء في مكانه المضبوط. رغم ذلك لم يخف توتري، وأعرف يقينًا أنني لن أهدأ حتى أكشف هوية ذلك الغريب وأعرف سبب اقتحامه لحفلنا.

بحلول السابعة مساءً، أعتزم زيارة إيف ووِيل. بالتأكيد يعرف أحد في الجوار ذاك الرجل، وأمدَّه برمز ليعبر من البوابة عند مجيئه. لكن سيارة إيف ليست متوقفة في الممر، وعند طرق بابهما لا يأتيني جواب،

لذا أتابع طرق أبواب الجيران واحدًا تلو الآخر، عكس عقارب الساعة، حتى لو سأقطع عليهم عشاءهم أو متابعة برامجهم التلفزيونية. تكرَّم بعضهم بدعوتي للدخول إنما من الأفضل سؤالهم عند عتبة الباب، واصفة لهم في عجالة الرجل الذي لم ندعُه إلى حفل السبت في منزلنا، وإذا ما تحدث أحد إليه. إنما لم يره أحدهم.

يسألني كونر بنطق متثاقل، أمام منزله رقم أحد عشر، بعدما وصفتُ له الرجل الغريب الطويل داكن الشعر حسن المظهر، الذي أتعقب أثره: «هل أنتِ واثقة أنكِ رأيتِه ولم يكن من نسج خيالك؟».

لا تتكلف تامسين التي تقف إلى جانبه الابتسام هذه المرة، بل تعلو شفتيها نصف ابتسامة عابثة، ووجنتاي تلفحهما حرارة الإحراج.

لم يعلم ساكنو المنزل رقم عشرة شيئًا عن الرجل، وكذلك لم يره جيف الساكن في رقم ثمانية. ولدى اقترابي من منزل لورنا وإدوارد أتذكر أنهما لم يحضرا الحفل. على الرغم من ذلك يساورني القلق أنهما لمحاني من النافذة قرب ممرهما، فأتقدم وأدق جرس الباب.

يقول إدوارد، ما إن يستقبلني بالباب: «أرجو ألا تمانعي إذا لم أدعوكِ للدخول. صحتنا ليست على ما يرام، ونخاف أن تلتقطي عدوى منَّا».

رغم الخصلات الكثيفة في شعره الأبيض المصفَّفة على جانب من رأسه، وعينيه الزرقاوين اللتين بالكاد تأثر لمعانهما بتقدم عمره، ما تزال الوسامة تطل من وجهه.

أقول والأسف يغزوني لتسببي في إزعاجهما: «آسفة، لم أعرف. كيف يمكنني مساعدتكما؟».

يهز إدوارد رأسه.

– لا عليكِ، إنها مجرد نزلة برد وسنسترد عافيتنا في غضون أيام قليلة.

تظهر لورنا وراءه، وهي تربت باستحياء على شعرها الأملس القصير الملتف حول عنقها كما لو تتحقق من ثباته برأسها، الذي يغطيه الشَّيب كزوجها، وتقول: «نعتذر عن عدم تمكننا من حضور حفلك. هل كان ممتعًا؟».

– نعم، للغاية. أشكركِ على اهتمامك.

ثم أصمت هنيهةً وكلاهما يبتسمان لي في ترقب.

أضيف: «إنما حدث أمر غريب ليلتها. اكتشفتُ اليوم أن أحد الضيوف من الرجال لم يكن مدعوًّا».

يردُّ إدوارد: «يا إلهي!».

عندها أستوضح لهما الأمر على استعجال، وقد شحب وجه لورنا وقارب بياضه شعرها الأشيب: «ظننته تيم من المنزل رقم تسعة، لكنني قابلته في وقت سابق اليوم وأدركتُ خطئي. ولذا بت مهتمة بمعرفة هويته... ليو قلق ويتساءل إذا ما علينا إخبار الشرطة. لكنني أرى أن ثمة تفسيرًا منطقيًّا لما حدث».

ترفع المرأة يدها عن شعرها، وتقبضها بقوة على العقد اللؤلؤي الذي يزين جيدها. وفي نبرة مختنقة شديدة الغرابة، وبينما يراودني قلق للحظة أن قبضتها على العقد تزداد إحكامًا، تقول: «لقد أخبرني أنه صديق لكما. ولمَّا لم يجب أحدكما على اتصاله الداخلي عبر البوابة سمحتُ له بالدخول».

الارتباك البادي على وجه إدوارد سرعان ما تحول إلى ارتياع. يحدِّق إلى زوجته، كأنه غير مصدِّق لما ورطت فيه نفسها.

ومن ثم، عادت الحياة إلى وجه لورنا.

– أرجو أن تقبلي بالغ أسفي. لم أعلم أنكِ قصرتِ الدعوة على الساكنين هنا فحسب.

أسرع إلى طمأنتها: «لا عليكِ. حسنٌ أننا عرفنا كيف تمكن من دخول المجاورة. إنما هلَّا أخبرتِني من فضلكِ بما قاله لكِ بالضبط؟».

– قال إنه دُعي للمنزل رقم ستة لتناول المشروبات، لكن لعلَّ ضجة الحفل لم تسمح بأن يُستجاب إلى اتصاله الداخلي.

– هل ذكر لكِ اسمه؟

تأخذ لحظات لتتذكر، وترد: «لا، لم يقل غير ما أخبرتكِ به. لا أسمح لأحد بالدخول أبدًا إلا بعد التحقق من هويته. لا أكاد أصدق أنني فعلتُ ذلك».

توجِّه لزوجها نظرة إقرار بذنبها، فيومئ، مصدقًا على كلامها وأنها المرة الأولى التي يبدر منها تصرف غير حكيم.

أعيد القول: «لا عليكِ حقًّا».

يردف إدوارد، موصدًا الباب: «أعلمينا إذا تعرفتِ على هويته».

– سأفعل.

لم يتبق سوى إيف ووِيل لسؤالهما. أتحقق إذا ما عادا، لأجد سيارة إيف في الممر، فأحثُّ خطاي تجاه الباب.

الفصل السابع

تتوقف إيف عن تقطيع حزمة الكزبرة الورقية وتلتفت ناحيتي بالسكين في يدها، قائلة: «ألم يتذكره أحدهم على الإطلاق؟».

أهزُّ رأسي في إحباط.

– سألت في المجاورة بأكملها. أنتِ ووِيل أملي الأخير.

– أقلتِ إنه طويل القامة؟

– نعم، أطول من تيم الذي نعرفه.

– أذكرَ لكِ أن اسمه تيم كذلك؟

– لم ينبس بكلمة تؤكد أو تنفي اسمه. بل إنني من افترض أنه تيم، فقبل وصوله بقليل تحدثنا عن احتمال مجيئه أو ماريا إلى الحفل. الأمر الوحيد الذي توصلت إليه أنه لا يعيش في الجوار هنا في «ذا سيركل».

تضع إيف السكين على المنضدة، وتمسح يديها بمنشفة. وفي قهقهة تقول: «كما لو أننا أمام حالة مثالية لرجل متطفل».

– لا داعي للسخرية من الأمر لهذه الدرجة.

– عذرًا؛ لدي إعجاب تجاه متطفلي المجالس والحفلات، وبخاصة من يفلحون في الإفلات بغنيمة، دونما إحداث تخريب أو سرقة.

ثم ترمقني مضيفة: «هل سرق شيئًا من المنزل؟».

– لا، لكن هذه نقطة جانبية. جُل الأمر أننا لم ندعُه، لذا توجب ألا يكون حاضرًا.

تسهب إيف: «ذات مرة تطفلت أنا ووِيل على حفل قِران. كان حفلًا مدهشًا بحق. في أثناء تناولنا الشراب في أحد الفنادق، وجدنا أنفسنا محاطين بحشد من ضيوف حفل قِران ضخم، ما لا يقل عن مائتي مدعو تقريبًا. ثم جاء أحدهم ودعا الجميع لاختيار ما شاؤوا من الطعام من مائدة مفتوحة هائلة. رغم الجو الصيفي وقتها، رأينا الناس يحملون أطباقهم ويخرجون من القاعة نحو طاولات مجهزة مكسوة بشَراشِف بيضاء. تأملنا ما يجري حولنا مليًّا، ولم نرَ في تنظيم الحفل شيئًا من التكلُّف؛ لا أماكن محددة لجلوس المدعوين، بل تُرك لهم اختيار مقاعدهم حسب رغبتهم. لذا التحقنا بنهاية الصَّف، ملأنا طبقينا بأكوام من الطعام، ثم اندسسنا جالسين إلى طاولة بصحبة ستة أزواج كبار سنٍّ».

– أحقًّا جلستما معهم؟!

– نعم، ولم نقع في أي إحراج بل بدا الارتياح في استقبالهم لنا، فبجلوسنا اكتملت طاولتهم. وعند سؤالنا عن مدى قرابتنا من العروس أو العريس، قلنا بصدق، إن علاقتنا ليست وطيدة بأي منهما، واتضح أنهم مثلنا. كانوا جيرانًا لوالدَي العروس، ولُمِّح إليهم بصورة ما أن الدعوة وُجهت لهم من باب المُجاملة،

وإكرامًا لحسن الجوار وليس لصداقتهم القديمة. لقد فرحوا بصحبتنا لهم في تلك الأمسية، مما لم يشعرنا أننا ارتكبنا خطأ باقتحامنا الحفل، بالإضافة إلى أننا كنَّا جوعى وشبابًا. ولَّت تلك الأيام.

أقول: «لو أني مكانكِ لما تصرفتُ بجرأة مماثلة أبدًا. إنما بالنسبة إلى ذلك الرجل الغامض، ما الذي قد يدفعه لاقتحام أمسية خاصة لتناول المشروبات؟ أقصى ما قد يحصل عليه، بالإضافة إلى الشراب، لفافة سجق ورقائق بطاطس، غير أنه لم يحصل على شيء، ولا أحد يتذكر إذا ما رآه في الحديقة بالمرة. لمحته في المطبخ يملأ لنفسه كأس ماء من الصنبور، لكنني لا أظن أن العطش دافع كافٍ ليتطفل بتلك الطريقة».

– هل أنتِ متأكدة أن لا شيء مفقود في منزلك؟

– متأكدة تمامًا. لا شيء مهم مفقود على أي حال. تحققت من وجود جواهري وبطاقاتي الائتمانية، ولا يبدو أن ثمة شيئًا اختفى من المنزل، كما أنه ليس لدينا مقتنيات نفيسة لنخاف فقدها.

– هل صعد إلى الطابق العلوي؟

– نعم. وما كان ليصعد لولا أنني عرضت عليه أن أريه التعديلات في غرفتنا.

عندئذ تسكت إيف وتفرك جبهتها بكفها.

– هل بقيتِ معه طوال فترة جولته في الأعلى؟

– نعم. لكن أفترض أنه تمكن من الصعود ثانية، عندما خرجت إلى الحديقة، مما أثار ضيق ليو بما أن لديه أمورًا مهمة تخص العمل في مكتبه.

تمسك إيف السكين وتعاود تقطيع الكزبرة.

– سأسأل وِيل لعله يتذكر الغريب الذي تطفل على حفلك. أمامه دقائق ويصل إلى المنزل. هل تناولتِ الطعام؟ هل ترغبين في تناول العشاء معنا؟

على مضض أهبُّ واقفة.

– هذا نبل منكِ. طعامكِ شهي الرائحة حقًّا، إنما يُفضل أن أتصل بليو قبل تأخر الوقت، كما يجب أن أتفقد المنزل مرة أخرى، للاطمئنان أن لا شيء مفقود.

***

أتحقق من أن حواسيبنا وأجهزتنا اللوحية، وبقية أشيائنا القيمة في أماكنها، وفيما أهمُّ بمهاتفة ليو، تتصل جيني.

تسأل: «كيف جرت أمسية المشروبات؟».

– على نحو مُرضٍ. تعرفت إلى معظم الساكنين في مجاورة «ذا سيركل». والأمر السار أن منهم عددًا لا بأس به من الأزواج أعمارهم قريبة منَّا. أما إيف ووِيل فهما يصغراننا سنًّا، والباقون تبدو أعمارهم متراوحة ما بين أواخر الثلاثين وأوائل الأربعين. حينما تأتين لزيارتي مع مارك، سأدعوهم لأمسية أخرى، وتلتقيانهم جميعًا.

أسكت لحظة، ثم أضيف: «إلى جانب ذلك، تعرفت من بينهم على عدوةٍ لي».

– يا إلهي!

– ليست عدوة بالمعنى السيئ، إنما لم تعاملني بلطف على الإطلاق. هي امرأة شعرها أصهب جذّاب تُدعى تامسين. أظنها تراني ممنْ يقحمن أنفسهن وسط صُحبة الصديقات عنوة. إنها صديقة إيف التي تسكن في المنزل المجاور لي، وربما يقلقها تبادلنا للزيارات على مدار اليوم الواحد.

تعلِّق جيني: «أرى أنه عليكِ توخي الحذر الشديد عند التعامل مع صداقات مُوطَّدة إلى هذا الحد، وبخاصة في مجتمع مغلق مثل مجاورتك».

– كما لو تتحدثين عن طائفة سرية.

تهمس بأداء درامي: «أليست طائفة؟!».

رغم أنها تمزح، تسري رجفة في عروقي. وأردف: «أبدى الجميع إعجابه بما أنجزناه من تعديلات في الطابق العلوي».

– لست متفاجئة، إن الغرفة رائعة. ما فعله ليو يستحق الإعجاب.

– ماذا عنكِ؟ أقضيتِ عطلة نهاية أسبوع لطيفة؟

– ذهب مارك في جولة للعب الجولف مع بِن، ولذلك كانت عطلتي لطيفة للغاية.

أضحك لقولها، فهي ومارك يعملان معًا، ولذا فهما يقضيان كل أيام الأسبوع وجهًا لوجه، ولطالما سعت جيني لتحثَّ مارك على لعب الجولف في العطلات الأسبوعية، علَّها تحظى ببعض الوقت لنفسها. إنها مأخوذة بخدمات بِن؛ فضلًا عن كونه وكيل عقارات ماهرًا، فهو لاعب جولف بارع.

أسألها: «وهل سيستمر لعب الجولف أسبوعيًّا؟».

تقول بتحمُّس: «أتمنى ذلك. لا يمكنكِ تصور كم هو إحساس رائع أن تستمتعي بوقتكِ وحدكِ في المنزل».

– أمضي وقتًا طويلًا وحدي هذه الأيام.

– ستتحسن حالتكِ ما إن تتعوَّدي المكان.

– آمل ذلك.

لم أتعمد نبرة يائسة، لكن جيني تستشعر مني شيئًا من اليأس.

– هل أحوالكِ على ما يرام؟

– أرغب في أن أكوِّن صداقات هنا في أقرب فرصة، إنما ليو يعتقد أننا يجب أن نتمهل. لم تسعده دعوتي للجيران من أجل أمسية تناول مشروبات عندنا. ثم سمحتُ لمتطفل بدخول المنزل، وصار متضايقًا مني إلى حد ما.

– أوه، أخبريني بالتفصيل. أثرتِ فضولي!

أخبرها عن الرجل الذي لا يتذكره أحد، وكلما تحدثت عنه أكثر، يتفاقم شعوري بعدم الارتياح.

– معذرة، يا جيني. أحتاج إلى الاتصال بليو، لأخبره على الأقل بكيفية دخول ذلك المتطفل إلينا.

– لا مشكلة. بلغيه تحياتي.

***

أتصل بليو وأخبره بما ذكرته لي لورنا.

يقول: «هكذا قد حُل جزء من الأَحجيَّة. ما زلنا لا نعلم سبب مجيئه إلينا».

ثم يزفر ساخطًا.

– لا أصدق أنكِ استعرضتِ منزلنا أمام هؤلاء الناس.

أردُّ نادمة، ومتسائلة عن سبب انفعاله المبالَغ فيه: «اعذرني، إنما، أليست وثائق عملائك كافة محفوظة في خزانة ملفات مقفلة؟».

– ليست هذه هي المسألة.

– هل تعتقد أنه جاء لأمر يخص عملك إذن؟

يردُّ، وقد بلغ غضبه ذروته: «إنني أعمل مستشارًا، وليس جاسوسًا. اسمعي، أنا لا أريد إثارة قلقكِ، إنما هل مفاتيحكِ بحوزتك؟».

– نعم، إنها في حقيبتي. لماذا تسأل؟

– فقط لأن... تعلمين أنني سمعت صوت أحدهم في المنزل ليلة أمس. وكنت أتساءل عما إذا للغريب الذي جاءنا علاقة بالأمر؟

يدق في رأسي ناقوس الخطر.

– ظننت أننا توصلنا إلى عدم وجود أحد.

– أعرف، وما دامت مفاتيحكِ معك، فلا بأس. مفاتيحي معي، ولم يكن في المنزل غير النسختين الوحيدتين من المفاتيح وقت الحفل. ولم نلحظ إذا ما اختفت إحداهما.

أشير إلى نقطة أخرى، قائلة: «كما أن لدينا قفلًا إضافيًّا من الجانب الداخلي لباب المنزل، ومحال أن يدخل أحد ولو معه مفتاح، إلا إذا نسيتَ أن تقفله قبل أن تخلد إلى النوم».

– لا أخالني قد أنسى أمرًا بهذه الأهمية. لكن احرصي أن تقفليه الليلة، يا أليس. ولا تتوقفي عن السؤال عنه في الجوار، هل ستفعلين؟ نريد أن نكتشف هوية ذلك الرجل.

– سأفعل.

لكن منْ سأسأل بعدما سألت الجميع؟ لقد انسل الرجل الغريب من هنا بالسلاسة نفسها التي انسل بها داخلًا.

الفصل الثامن

يعتريني بعض الحرج فيما أحمل الوسائد والغطاء إلى الطابق الأعلى، بعدما نمت الليلتين الماضيتين في غرفة مكتبي. لم تغفل عيناي وأنا وحدي في غرفتنا مساء الاثنين، ليس لاعتقاد ليو أن شخصًا ما تسلل إلى المنزل ليلة الأحد فحسب، بل ولأن شخصًا غريبًا غير مدعو جاءنا ليلة الحفل. شددت الأريكة السرير ونمت، حيث ضَمَّني إحساس بالأمان.

لكن لن أقدر على النوم هكذا للأبد، لذا أعيد ترتيب السرير، ثم أتجه إلى الخزانة لأخرج بنطالي الجينز. وفيما أسحبه من الرف، ألمح فستاني الصيفي الأبيض، الذي وددت ارتداءه يوم الاثنين، محشورًا بين فستانين آخرين. أخرجه مبتهجة لعثوري عليه. إذا ارتديت معه سترة خفيفة، سيصير ثوبًا مناسبًا لليوم. يدغدغ أنفي عطر مسحوق الغسيل، والفستان ينزلق عليَّ من رأسي. ورغم أنه سبق أن ارتديته في الحفل، لا تزال رائحته نظيفة منعشة.

في أثناء تناولي الإفطار يصل البريد، حاملًا إليَّ نسخة الرواية التي كُلفتُ بترجمتها من الإيطالية إلى الإنجليزية. أميل إلى قراءة الكتب مرتين قبل أن أشرع في ترجمتها، مع تدوين الملاحظات. آخذها إلى غرفة المكتب، وأجلس مسترخية على الأريكة، ممتنة لعودتي إلى مواعيد عملي الروتينية من التاسعة إلى السابعة، أربعة أيام في الأسبوع. حتى اللحظة، كنت أتخذ أيام الجمعة راحة من العمل، حتى تتوفر لي عطلة لثلاثة أيام متتالية في نهاية الأسبوع، لكن أصبح ليو يعمل من المنزل أيام الجمعة، لذا من الأفضل أن أستبدل بيوم راحتي الخميس.

أستصعب التركيز في البداية، وذهني مشغول بمتطفل حفلنا، يتساءل عما إذا سنصل يومًا إلى اكتشاف هويته. والأمر الأهم، والأكثر إزعاجًا بالنسبة لي، هو سبب مجيئه إلينا.

عند الظهيرة، وبعد انتهائي من بضعة فصول في الرواية، يتهادى إلى سمعي أصوات في الطريق. أغلق الكتاب متجهة إلى غرفة المعيشة، لألقي نظرة من النافذة، إلى إيف، الواقفة أمام البوابة الحديدية السوداء القصيرة للساحة، منهمكة في الدردشة مع تامسين وماريا، وبالنظر إلى جُملة الحقائب التي يحملنها، يمكن الجزم أنهن عُدنَ لتوهن من منطقة الأسواق المحلية. تتملكني الغيرة وهن يضحكن معًا على أمر ما قالته إيف. وتعصف بي موجة من الإحساس بالوحدة؛ كم أتوق لأمسي في صُحبتهن، وقبل أن ألجم رغبتي تلك، أسرع لأنضم إليهن.

أخطو خارجة من الممر، وإذ تمر عربة توصيل بقالة فأنتظرها، وبعدما تتوقف أمام منزل لورنا وإدوارد، أعبر الطريق ملوِّحة إلى إدوارد الذي ظهر بالباب. سكن ضحك السيدات الثلاث وضاقت حَلقتهن، كما يفعل الناس عند ذكرهم لأمر جَلَل، لأمر بالغ السرية. اللعنة على توقيتي السيئ؛ لا أريد مقاطعتهن، لكن فات الأوان. لقد رأتني ماريا.

تقول تامسين فيما أدنو منهن: «من العجيب أنها تبدو كما لو أن الأمر لا يزعجها».

تردُّ إيف: «بدأتُ أتساءل عما إذا لديها معرفة بما حدث حقًّا».

تهزأ تامسين: «بل تعرف بكل تأكيد».

النظرة المشرقة التي توجهها لي ماريا، نبهتني أن منْ يتحدثن عنها هي أنا.

– مرحبًا يا أليس، كيف حالك؟

مبتسمة لها، أقول: «بخير، أشكرك».

تلتفت إيف وتامسين نحوي بسرعة. ترهبني كلتا النظارتين الشمسيتين الداكنتين اللتين تغطيان أعينهما، والحاجز البصري الغامض الذي تُنشِئانه بيني وبينهما.

تهتف إيف، كما لو لم ترني منذ أشهر: «أهلًا أليس! فيمَ تنشغلين هذه الأيام؟».

تدفع نظارتها أعلى رأسها وخصلات شعرها القصير تنزاح متبعثرة على الجانبين.

– في القراءة. ثم سمعت أصواتكنْ وفكرتُ أن آخذ استراحة.

– ماذا تقرئين؟

– كتاب أستعد لترجمته.

تسأل ماريا: «إلى أي لغة تترجمين؟».

– أترجم الإيطالية إلى الإنجليزية.

– مدهش.

تقول إيف: «إن جدة وِيل إيطالية وقد حاول تعليمي اللغة لأتحدث معها، بما أنها لا تنطق الإنجليزية. وفشلت فشلًا ذريعًا».

– وما بالكِ لو تعلمتِ الروسية. لقد استغرقتُ مدة طويلة حتى أحرز تقدمًا في محادثة واحدة.

تتبادل إيف نظرة إعجاب مع ماريا.

– لم أعرف أنكِ تتحدثين الروسية.

– أتحدثها، إنما بالكاد؛ لا أتكلمها بطلاقة أبدًا.

ألتفتُ تجاه تامسين، مدركة أنها لبثت صامتة لفترة. ملابسها اليوم تتكون من بنطال جينز أزرق فاتح مع قميص برتقالي قصير الأكمام، والذي قد أستغربه لو ارتدته أي امرأة صهباء، فيما عداها. إن لها دومًا طلة خلابة.

– وماذا عنكِ؟ هل تتحدثين أي لغة أجنبية؟

يأتي ردها فظَّ النبرة: «كلا».

– حسنًا.

مِن الجائِز أنها لا تستلطفني، لكنها تتعدى ذلك إلى التعامل معي بوقاحة. أرمقها ببصري في اهتمام. رغم أنها فاتنة على نحو مذهل، لم تخفِ فتنتها نغمة الحزن التي تحيطها. وأجدني بغتة متشوقة للتقرب من هؤلاء السيدات الثلاث، وسبر غورهنْ.

– ما رأيكن لو تتفضلن في الداخل لاحتساء القهوة بدلًا من الوقوف في الطريق؟ إلا إذا كنتن مرتبطات بعمل ما؟

تجيب إيف: «ليس لدي عمل اليوم!».

تبتسم ماريا: «ولا أنا كذلك، من الرائع أن نحتسي القهوة معًا».

أما تامسين فترفع ذراعيها لتبين حقائب التسوق بيديها، قائلة: «لا يمكنني. أحتاج إلى العودة إلى المنزل ووضع هذه الأشياء. أراكما، أنتما الاثنتان، لاحقًا».

أعرف أنه لا يجوز لي اعتبار الأمر شخصيًّا، رغم أنفي أفعل.

***

بتُّ قرب انتهائنا من قِدر كامل من القهوة، على بَيِّنة من جيراني الجدد. تعرَّف كلٌّ من إيف ووِيل إلى بعضهما منذ عشرين عامًا، وما برحا معًا حتى بلغ عمرهما الواحد والثلاثين.

تستفيض إيف: «توطدت علاقتنا في نادي المسرح في مدرستنا. لم يرد الالتحاق بالنادي في البداية لأن معظم أعضائه من الفتيات. لكن ساهمت صداقتنا في التزامه بالحضور برفقتي حتى تفاجأ الجميع بموهبته المدهشة. وكاد أن يكتفي بذلك ولا يفعل شيئًا حيال موهبته لولا أنني أقنعته، بالتقدم لتجربة أداء في «رادا» (الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية)، ووافق عندما رفضت مواعدته إلا إذا فعل ما طلبته منه».

تعلق ماريا: «أحب سماع هذه القصة. أما أنا وتيم فالتقينا في المدينة الجامعة في أثناء إخراجنا لصناديق القمامة».

ماريا وتيم في أواخر الثلاثين من عمرهما. تيم اختصاصي كفء في علم النفس، يعمل بدوام جزئي ليتسنى له مداومة تدريباته المتخصصة في مجال العلاج النفسي، فيما تعمل ماريا معالجة تخاطب أربعة أيام أسبوعيًّا، ريثما يبلغ ابنهما الأصغر «لوك» سن الحضانة.

تستطرد: «صرتُ أعمل يوميًّا عدا الأربعاء. كم هو لطيف أن أحظى بيوم راحة في منتصف الأسبوع. مما يُتيح لي مرافقة إيف وتامسين إلى صف اليوجا، ومن بعده أصطحب الأولاد من المدرسة. ويتولى تيم الدور عني بقية الأيام».

تقول إيف: «وأنا لا أعمل الأربعاء أيضًا. ولو فعلت لن أتمكن من مقابلة ماريا أبدًا».

في ذهني أستبدل يوم راحتي من الخميس إلى الأربعاء. يبدو صف اليوجا هذا ممتعًا.

أقول باسمة: «يا للمصادفة! الأربعاء يوم راحتي كذلك».

عند سؤالهما عن تامسين وكونر، أتبين أنهما في عمر ماريا وتيم نفسه، وبالإضافة إلى ما علمته من ليو بشأن عمل كونر في تجارة الويسكي، فهو متخصص في بيع الأنواع الفاخرة منها للعملاء الأثرياء. وكانت تامسين عارضة أزياء فيما مضى –وهو أمر لم أستغربه– قبل أن تصبح أمًّا وربة منزل.

تقول ماريا، المتَّشحة بالأسود من رأسها إلى أخمص قدميها، ومع شعرها الداكن لها مظهر درامي رهيب: «كما أنها عبقرية في الأمور الحسابية. ما إن تجتاز كل الدورات التدريبية الملتحقة بها عن بُعد، ستهيئ نفسها لسوق العمل في مجال المحاسبة».

أعلق في انبهار: «مدهش! يا ليت لدي عقل حسابي مثلها».

تمدُّ إيف يدها نحو البسكويت متسائلة: «هل توصلتِ إلى شيء بخصوص ذلك الرجل الغامض؟».

– لا. أحاول ألا أدع هذا الأمر يزعجني، إنما أكثر ما أغتم له هو تأثيره السيئ على لورنا، لأنها منْ سمحت للرجل الغريب بعبور البوابة. وكم صُدمتْ لما فعلتْه دون قصد.

تخبو ابتسامة إيف وراء كآبة مفاجئة.

– أمر مؤسف. لا ينقصها وإدوارد مزيد من القلق في حياتهما. أمَا علمتِ ما حدث لابنهما! لقد قُتل في العراق. فقدا ابنهما الوحيد، وساءت أحوالهما.

صعقني ما سمعت.

– هذا فظيع! لا بد أنهما عانيا كثيرًا.

تتناول ماريا قصتهما من جهتها: «عاشا في بلدة ساحلية –«بونمث»، على ما أذكر– قبل انتقالهما إلى هنا منذ ثلاث سنوات. أخبرتني لورنا أنه مع مرور الوقت تكالبت عليهما الذكرى، لذا قررا متابعة حياتهما في مكان جديد. وقع اختيارهما على لندن لازدهارها بالمسارح والمتاحف التي يحبَّان زيارتها، كما أن التنقل من وإلى بونمث، بات فيه مشقة مع كِبَر عُمريْهما. استقرت حالهما لفترة، حيث انخرطا في الحياة الاجتماعية، واستمتعا بوقتهما خارج المنزل أكثر من السابق، مثلما أرادا بالضبط. ثم طاردتهما ذكرى فقد ابنهما مجددًا حتى صارا شبه منعزلين عن العالم. إنه لحال محزن؛ لم يعودا يخرجان إلى أي مكان مطلقًا، حتى ولو للتسوق. تأتي كل احتياجاتهما عبر خدمة التوصيل للمنزل، حتى الملابس، كما لو فقدا الثقة في مواجهة العالم».

أقول في خُفوت: «أو فقدا الرغبة في الحياة».

ألاحظهما تتبادلان نظرات مضطربة، فأقرر أن أوضح قصدي، مفصحة عما تجهلانه: «أقول ذلك لأنني خبرت حال من فقد أحبابه. لقد تُوفي والداي وشقيقتي في حادث سيارة عندما كنت في التاسعة عشرة. وبعد رحيلهم، عشت لفترةٍ لا رغبة لي في الحياة».

تقول إيف وهي تمسك يدي: «هذا مؤلم بحق، يا أليس. يؤسفني مصابك».

– كانت شقيقتي حينها في الثانية والعشرين من عمرها، وعائدة من رحلة قضتها في اليونان مع رفيقها. وذهب والداي لاستقبالها في المطار.

تردف ماريا وعيناها تَقْطُر تعاطفًا: «لن أستطيع تصور مدى صعوبة الأمر عليكِ مهما حاولت. كيف تغلبتِ على حزنك؟».

– وَجب عليَّ أن أتماسك من أجل جدَّيَّ، كما تماسكا من أجلي. شددنا أزْر بعضنا بعضًا.

أملأ قدحيْهما ثانية ويغمرني السرور خفيةً أن تامسين لم تحضر. وعندما ذكرتْ ماريا صف اليوجا، لم أعلق كي لا تحسب أنني أترصد أي فرصة لأنضم إليهن، على الرغم من توقي الشديد لذلك؛ لا أريد أن تبالغ تامسين في تحرُّزها مني. ألم ينصحني ليو ألا أستعجل مسألة اتخاذ أصدقاء في المجاورة؟

أستعيد انتباهي على قول ماريا: «معذرة يا أليس، يجب أن أذهب. سيبدأ صف اليوجا في الثانية بعد الظهيرة، وأحتاج إلى أن أجلب سروالي المطاطي الضيق من المنزل قبل انطلاقنا. أراكِ في الخارج بعد قليل، يا إيف».

ما إن تغادر ماريا، توضح إيف: «صارت هذه طقوس يوم الأربعاء. نذهب لصف اليوجا معًا، ومن بعده أرافق تامسين وماريا لاصطحاب الأولاد من المدرسة. وإذا وجدنا الجو لطيفًا، نجلس في الساحة

لبعض الوقت حتى يلعب الأولاد. ثم نعود إلى منزل إحدانا لاحتساء الشاي».

أقول بأسى: «يا له من يوم جميل حافل!».

تفتح إيف فمها وأظنها للحظة أنها ستطلب مني مرافقتهن، إنما تسألني بدلًا من ذلك: «هل مارستِ اليوجا من قبل؟».

أبتسم لها في تردد.

– لا، مطلقًا. ربما أفكر في الانضمام إليكن مع بداية الفصل الدراسي في يناير المقبل.

تغادر إيف، وأراقبها من مكتب ليو وهي وماريا تعبران الساحة لتلحقا بتامسين. كانت استراحة لطيفة، وحان وقت العودة لقراءة كتابي. انغمستُ في أحداثه لدرجة أنني قفزت فزعة عند سماع جرس الباب. أغلق الكتاب سريعًا آملة أن أجد إيف بالباب، تدعوني للانضمام إليهن في الساحة. أتفقد الوقت على هاتفي المحمول. لا يُعقل أنها إيف؛ لم تصل الساعة إلى الثالثة بعد، ما يزلن في صف اليوجا. ربما الطارق لورنا أو إدوارد.

أحشر هاتفي في جيب بنطالي الخلفي وأفتح الباب.

الرجل رأسه ملتفت الجهة الأخرى، يتطلع نحو الساحة، إنما يستحيل أن تخطئه عيناي. تدفعني غريزتي لأصفق الباب على الفور، دون أن تفوتني نظرة الاستغراب في عينيه مستديرًا ناحيتي. أتراجع وقلبي تتسارع دقاته. لماذا عاد؟

يضرب الجرس مرة أخرى، فأقفز للأمام لأعلق السلسلة مكانها في المزلاج.

يأتيني صوته من خلال الباب: «سيدة «داسِن»؟».

أرد باقتضاب: «إن لم ترحل سأتصل بالشرطة».

– آمل ألا تفعلي. أنا أُدعى «توماس جرينجر»، وأعمل محققًا خاصًّا، يا سيدة داسن. أتتبع قضية أخفقت فيها العدالة واتُّهم شقيق موكلي بجريمة قتل لم يرتكبها.

– لا يهمني، مهما تقول سأتصل بالشرطة. لقد دخلت منزلي بطريقة غير مشروعة السبت الماضي!

– في الواقع، أنتِ من دعاني للدخول.

– هذا لأني ظننتكَ أحد ضيوفي المدعوين!

– لقد سألتني عما إذا كنت «توم»، وهذا أنا بالفعل، رغم ألا أحد يدعوني به.

– قلتُ تيم!

في نبرة باسمة خففت من وطأة حذري منه يقول: «حجتكِ تلك لا يُعتدُّ بها أمام المحكمة. هلَّا فتحتِ الباب من فضلك؟ إنني بحاجة إلى التحدث إليكِ حقًّا، ولا يجوز إجراء حديث عبر حاجز خشبي بهذه الطريقة».

مغلوبة على أمري أفتحه مع إبقاء السلسلة مُعلقة. يمعن النظر فيَّ عبر فتحة الباب، مثني الركبتين قليلًا حتى أرى وجهه. والطريق فيما وراءه ساكن تمامًا.

يخرِج بطاقة من جيب سترته الداخلي ويمدُّها نحوي لآخذها.

– أشكركِ. وكما ذكرتُ لكِ أنا محقق خاص وأدقق البحث في قضية مقتل «نينا ماكسويل».

لم آخذها، لم أقدر. بمجرد سماع الاسم طنَّ دوار في رأسي. لقد قُتلت تلك المرأة منذ فترة طويلة، لكنني لن أنسى ذكر مقتلها أبدًا، ما دامت شقيقتي لها اسمها نفسه.

دومًا الأمر ذاته يتكرر. إذا صادفت إحداهن تُدعى «نينا»، أرغب فورًا في مصادقتها. إذا قرأت خبرًا عن أي امرأة اسمها نينا، أتحمس لقصتها بشدة من كل قلبي. هذا هو الأثر الذي تركه موت شقيقتي الكبرى، وقدوتي، في نفسي. ما برحت تتنفس الحياة في قلب كل امرأة تُدعى نينا.

استغرقت لحظات كي أزيح دفعة الذكريات التي طفت في عقلي.

أردف: «لا أفهم قولك. منْ هي نينا ماكسويل؟ وما علاقتي بمقتلها؟».

يعلو وجهه عبوس طفيف.

– لا علاقة لكِ غير أن الجريمة حدثت هنا.

أحدق إليه عبر فتحة الباب، ووجهه يزداد تجهمًا.

– ماذا؟ حدثت هنا في «ذا سيركل»؟

– لا، هنا في هذا المنزل.

أهزُّ رأسي، قائلة: «لا. لا بد أنك مخطئ. لم تسكن هنا، ليس في هذا المنزل. لو سكنت فيه لعلمنا، لأخبرنا وكيل العقارات».

– لا أظن...

أقاطعه، وعقلي يأبى الشعور الذي يجرني إليه الرجل.

– مع الأسف، أخطأت المنزل. محتملٌ أن نينا ماكسويل عاشت هنا في المجاورة، لكن ليس من الضروري في هذا المنزل. ما اشترياه قط لو علمنا بجريمة قتل وقعت فيه. ولم يخبرنا الوكيل العقاري بأمر كهذا.

ثم أدفع الباب أوصده، دونما أي تأثر بنظرته المحدقة إليَّ.

– أخشى أنني لست مخطئًا، يا سيدة داسن. هذا هو المنزل الذي أقصده، حيث عاشت نينا ماكسويل.. وحيث قُتلت.

الفصل التاسع

للمرة الثانية خلال دقائق معدودة، أصفع الباب في وجه الرجل. ترتجف أوصالي فأجلس على الدَّرج، ثم أقفز بغتة عند سماع صوته عبر الباب. ظننته ذهب منذ حينها.

– متأسِّف، لا بد أن ما قلته صدمكِ.

أثور غاضبة: «ارحل الآن، وإلا اتصلتُ بالشرطة حقًّا!».

– حسنٌ، سأرحل حالًا. لكن قبل أن أفعل، هل تسمحين لي أن أطلب منكِ شيئًا؟ أولًا، ابحثي عن جريمة القتل هذه على محرك جوجل، وثانيًا، اتصلي بوكيلكِ العقاري واسأليه عن السبب الذي من أجله أخفى عليكِ تفصيلة مهمة كتلك عن المنزل قبل شرائه.

ثمة خَشخَشة في خلفية حديثه، فيما يدُسُّ بطاقته في فتحة صندوق الخطابات، متابعًا: «إذا ما أردتِ الحديث معي في مناسبة أخرى، اتصلي بي على هذا الرقم من فضلك. سنكون أنا وموكلي غاية في الامتنان لك».

تتراجع خطواته على الممر مبتعدًا. أتمسَّك بقائم الدَّرج والذعر يكتنفُني، عاجزة عن الحركة. ماذا لو صدق قوله؟ أفتح هاتفي وأكتب «مقتل نينا ماكسويل» في محرك البحث. أتطلع إلى روابط التقارير الإخبارية العديدة التي ظهرت على الشاشة. أضغط على التقرير الأول المُدون بتاريخ الواحد والعشرين من فبراير لعام 2018، وأتأمل صورة امرأة جميلة شقراء، عيناها بُنيتان ضاحكة، وحول عنقها سلسلة ذهبية. أتذكر هذه الصورة؛ لقد انتشرت في جميع وسائل الإعلام خلال الأسابيع التالية لمقتلها. بقلب مرتعد أنتقل إلى المقالة أسفلها.

عُثر على امرأة مقتولة في الثامنة والثلاثين من العمر، في لندن. استُدعيت الشرطة البارحة نحو الساعة 9:30 مساءً، إلى المنزل الكائن في ذا سيركل، وهو حي سكني خاص في منطقة فينسبيري بارك، حيث وُجدت نينا ماكسويل جثة هامدة.

تقلصت معدتي وغثيت نفسي، إنما أحملها على قراءة المقالة ثانية، وتتسمر عيناي عند كلمة «ذا سيركل»، كما لو آمل إن حدقت إليها كفاية ستختفي. لم يتوارَ منها شيء، وعلى الرغم من أن رقم المنزل غير مذكور، واحتمالية أن نينا ماكسويل قد سكنت منزلًا في المجاورة ومن بينها المنزل الذي أسكنه، غير أنه أمر مرعب. تتضمن المقالة صورة لذكرى مصرع القتيلة، فيها منزل مُطوق بالأشرطة الصفراء، وحوله باقات من الزهور موضوعة بحرص على الرصيف المواجه له. هل كان ذلك منزلنا؟

أهبُ ناهضة عن الدَّرج، أمسك مفاتيحي وأفتح الباب، متوجسة من مقابلة المحقق الخاص عند الباب. لحسن الحظ، لا أثر له، ولا لأحد غيره. وفيما أخطو للخارج يعتريني شعور رهيب أنني معرَّضة لخطر ما. لكن لا أستطيع البقاء في المنزل، ليس الآن.

أعبر الطريق إلى الساحة، وأدفع بوابتها، ثم أتهاوى على أقرب مقعد وذهني مشوش. لا أدري سببًا لإحساسي أنني في خطر. في المناسبتين اللتين تحدَّث فيهما إليَّ توماس جرينجر كان تصرفه لطيفًا ولبقًا. يتضح لي أن مجيئه ليس ما أرعبني، بل ما قاله. كيف يعرف بجريمة قتل وقعت في المنزل الذي أسكنه أنا وليو، ولا نعلم عنها شيئًا؟ وكيف لبِن ألا يخبر ليو عنها؟

أبحث عن أرقام التواصل مع وكالة «ريدودز» العقارية، وأتصل بها.

أحاول مداراة أعصابي المهتاجة فيما أطلب من المرأة التي أجابت الاتصال: «هل يمكنني التحدث إلى بِن من فضلك؟».

يأتيني ردها به نبرة ضجرة وليس اعتذارًا: «أخشى أنه مسافر لبضعة أيام».

ينقبض قلبي.

– متى سيعود؟

– يوم الاثنين. كيف يمكنني مساعدتك؟ اسمي «بيكي» وأعمل مع بِن.

أتردد في سؤالها، كما يحثني عقلي، عما إذا لديها دراية بجريمة قتل حدثت في المنزل الذي ابتاعه ليو منهم. ألا يُفترض أن جميع الوكلاء في تلك الشركة لديهم خلفية عن تاريخ هذا المنزل، وبخاصة إذا مات شخص فيه مؤخرًا؟

أقول، عازمة على البتِّ في الأمر: «اسمي أليس داسن. ومنذ فترة قريبة، ابتاع رفيقي ليو كيرتس منكم منزلًا في فينسبيري، بمساعدة بِن، المنزل رقم ستة في مجاورة «ذا سيركل». أتساءل عن صحة ما سمعته من إشاعات، أن أمرًا ما حدث في المنزل في فبراير العام الماضي، وذكر أحدهم أن امرأة ماتت؟».

لم أقدر أن أنطق بكلمة تفيد القتل.

طالت مدة صمتها، وزاد معها توتري.

– من الأفضل محادثة بِن نفسه، يا سيدة داسن.

– هذا بالضبط ما أسعى له. هل يمكنكِ إعطائي رقم هاتفه المحمول، من فضلك؟

– آسفة، لا يمكنني. إنما سأبلغه أن يتصل بكِ حالما يعود يوم الاثنين.

– حسنٌ، أبلغيه من فضلك.

أنهي المكالمة، ويخالجني شعور بالغباء حد البكاء من الحسرة. أفرك عينيَّ غاضبة، ولم يفارقني الارتياع المتزايد داخلي أن منزلنا كان مسرحًا لجريمة قتل. رغم أن بيكي لم تؤكد الجريمة، فإنها لم تستنكرها كذلك. غيظي من بِن يستعر. كيف له أن يخفي الأمر عنَّا؟ هو من أخبر ليو أن السعر المعروض للمنزل منخفض عن ثمنه الأصلي لأنه بقي شاغرًا لأكثر من عام. وعندما سأله ليو عن السبب، لا بد أن بِن كذب عليه، أو تهرَّب من إجابته. سيتحطم ليو نفسيًّا عندما يعلم؛ لو ثبت الأمر، سنضطر إلى البدء من جديد في رحلة للتنقيب عن منزل.

يتخيل عقلي مسبقًا ما هو قادم. سيعرض ليو المنزل للبيع وسننتقل إلى سكن مؤقت حتى نجد منزلًا آخر لنا. أو ننتظر قليلًا، ومن ثم ننتقل إلى منزلي الريفي. تخمد ومضة سعادتي العابرة من فورها، عند التفكير في العودة إلى هارلستون. كأن ذِكر البلدة يأتي في غير محله، وثمة جريمة قتلٍ نحن بصدد التأكد من مكان وقوعها. كما أن منزلي مُؤجر لخمسة أشهر أخرى، على أي حال.

أريد –بل أحتاج إلى– التحدث إلى ليو، لكن عندما أتصل برقمه، يتحول الاتصال إلى البريد الصوتي. أتمهل بضع دقائق ثم أجدد المحاولة، إنما ما زال لا يجيب. أريد الوصول إلى عمق هذا الموضوع بشدة، ولو سأتصل بالوكالة العقارية مرة أخرى مع الإصرار أن أحصل على رقم هاتف بِن. يستوقفني شيء. ماذا لو أنه غير ملزَم بإخبار ليو عن جريمة القتل؟ أفتح محرك البحث وأكتب: هل يُحظر على وكلاء العقارات الإفصاح عن جريمة قتل وقعت في منشأة؟

ظهرت لي مقالة فيها نصائح مفيدة، وبينما أقرؤها يتغير إعجابي بمحتواها إلى نفور. على الرغم من أن معظم وكلاء العقارات قد يذكرون إذا ما وقعت جرائم، ليس عليهم أي التزام للإفصاح بذلك.

أستند إلى ظهر المقعد مصعوقة. لا أصدق أن بِن منعدم الضمير لهذا الحد. حتى ولو لم يكن مُلزَمًا قانونًا بإخبار ليو، ألن يُلزم نفسه أخلاقيًّا؟ لقد رشَّحه لنا جيني ومارك، الذي صار صديقًا له. ينبغي أن أحذرهما منه.

أبعث برسالة إلى جيني: **هل يمكنني محادثتك؟**

ولأنها جيني التي أعرفها، وستميز من خلال كلماتي القليلة أن ثمة خطبًا ما، لا بد وستهاتفني من فورها.

– ما الخطب، يا أليس؟ هل أنتِ بخير؟ هل ليو بخير؟

– نعم، كلانا على ما يرام. إنما أحتاج إلى مساعدة عاجلة منك. في الواقع، أريد التحدث إلى بِن. هل لديكِ رقم هاتفه المحمول؟

– لدى مارك رقم هاتفه. لماذا تسألين؟ هل تواجهين مشكلة تخص المنزل أو شيئًا من هذا القبيل؟

تهزُّ الدهشة أوصالي.

– كيف علمتِ أنني أواجه مشكلة تخص المنزل؟

ألمح بصوتها بعض الارتباك.

– وكيف لي أن أعرف؟ لكن ما دمتِ تبحثين عن رقم بِن، فالأمر متعلق بالمنزل، وهل هنالك سبب آخر لرغبتكِ في الحديث معه؟

– يتعلق الأمر بالمنزل بالفعل. اكتشفت أن امرأة قُتلت في المجاورة، في المنزل رقم ستة.

ما إن تفوهت بذلك، تملكني الرعب مجددًا فأقبض يدي على طرف المقعد الخشبي، لأتمالك نفسي.

تقول وصوتها ينم عن صدمة: «ماذا؟ أقلتِ إن امرأة قُتلت في منزلكِ، المنزل الذي اشتراه ليو؟».

– نعم.

– هل أنتِ متأكدة؟

– نعم، تأكدت بنفسي. هل تتذكرين الخبر الشهير لمقتل نينا ماكسويل؟ المرأة التي قُتلت على يد زوجها؟

– ألم ينتحر؟

– بلى، أظنُّ ذلك. لقد كان هذا منزلهما، والمكان الذي وقع فيه كل شيء، يا جيني. لقد راجعت التقارير الإخبارية، وذُكرت فيها المجاورة باسمها «ذا سيركل»، دون أي ذكر لرقم المنزل، إنما هو المنزل نفسه. بالتأكيد كان هو.

– هذا مروع، يا أليس. يا للأسف!

– لهذا السبب ظل المنزل فارغًا طوال تلك المدة، ولم يرغب الناس في شرائه. لا ألومهم، لكن لا أريد المكوث هنا بعد الآن، لا أتحمل البقاء وحدي فيه. وحتى جلوسي في الساحة، على مقربة منه، لا أطيقه. وجب على بِن أن يخبر ليو، ولم يفعل.

– لكن لا أفهم. ألم يكن ملزمًا بإخباره؟

– حسب بحثي في الأمر، نعم.

– لعلَّه لم يعرف.

– بل أرى أنه عرف وأخفى الأمر عني.

تُفتح بوابة الساحة في صلصلةٍ فأرفع رأسي متطلعة. أرى جيف يغلق البوابة خلفه داخلًا، يرتدي زيه الاعتيادي المكون من بنطال قصير وقميص فضفاض، وأضاف هذه المرة قبعة بطرف مُظلل لتحمي رأسه الأصلع من الشمس. يبتسم لي في ابتهاج، وللحظة كدت أقفز على قدمي وأسأله عما إذا سمع عن جريمة القتل. لكن أكتفي بمبادلته الابتسام ورأسي مائل ناحية الهاتف حتى يدرك أنني أجري مكالمة.

تقول جيني: «لا أصدق أن بِن لم يخبركما. إن معرفتي به ضئيلة بالمقارنة بمارك، ومع ذلك لا أتصوره محتالًا أبدًا».

أردف وجيف يمر من أمامي: «لهذا أريد التحدث إليه. اتصلت به في المكتب وأُخبرت أنه مسافر لبضعة أيام. إنما الأمر لا يحتمل التأخير. هل يمكنكِ الحصول على رقمه من مارك؟».

– سأتصل به وأطلب منه الرقم. هل تريدينني أن أكلم بِن نيابة عنكِ؟

يتصدَّع صوتي: «هلَّا فعلتِ؟ الأمر أن المرأة تُدعى نينا، لذلك، إذا بإمكانكِ التأكد منه أنه عرف بالجريمة حقًّا، سأتابع سؤاله انطلاقًا من هذه النقطة».

– بالطبع سأفعل ما تريدين. وسأعاود الاتصال بك.

صوتها ملؤه التعاطف، ورغم أنها لم ترَ نينا يومًا، تتفهم سبب اضطرابي الشديد مما اكتشفتُه.

***

كأن دهرًا قد مضى قبل سماع رنين هاتفي، دهرًا قضيته وحيدة تمامًا، بعدما غادر جيف ولا أثر لأحد غيره. وحين رنَّ الهاتف، ألمح إيف وتامسين وماريا يعبرن البوابة على الجهة الأخرى من الساحة، وبرفقتهن عصبة ثرثارة من الأطفال. فيما أهمُّ للرد على المكالمة، أضبط جلستي على المقعد، موجهة ظهري إليهم، على أمل ألا يروني ويقرروا الجلوس بقربي. وعند تحققي من الرقم المتصل، لا أتعرَّف عليه. أحملق إلى الشاشة مستاءة من تأثيرها السلبي عليَّ، مما يدفع ضربات قلبي للتسارع. ماذا لو أنه المحقق الخاص؟

أضغط على العلامة الخضراء لقبول المكالمة.

– هل هذا هاتف السيدة داسن؟

هذا صوت رجولي، ولذا سألاحقه في الحديث بما أنه ليس توماس جرينجر.

أقول باقتضاب، متوقعة أنه بِن: «نعم».

– أنا «بِن فوربس» من شركة ريدودز، يا سيدة داسن. لقد اتصلت بي جيني، وارتأيتُ أن أهاتفكِ بنفسي. أتمنى أن لا بأس في التحدث معكِ مباشرة.

– لا بأس. أريد أن أصل إلى جذر هذا الموضوع، أريد أن أعرف كيف انتهى بنا الحال بشراء منزل قُتلت فيه امرأة.

يقول، كما لو يردد كلمات توماس جرينجر: «أتفهم أن الأمر لا بد صدمكِ».

عند تأكدي أنه يعرف، أقول بعنف: «وهل توقعت عكس ذلك؟! ألم يتوجب عليك إخبار ليو، بغض النظر عن أي التزام قانوني؟».

– هل تسمحين لي بسؤالك كيف اكتشفتِ ذلك؟

أختلق إجابة؛ ليس له أن يعرف بأمر المحقق الخاص: «جارة لي أخبرتني. وماذا يهم بأي طريقة اكتشفت؟ ألم يكن من الأفضل أن نعرف منك؟».

– أتسمحين لي بسؤال آخر عما إذا تحدثتِ إلى السيد كيرتس؟

– لا، إنه في العمل. سيصيبه إحباط شديد لأنه لا يمكن أن نستمر في العيش هنا بأي حال. آمل أنك مدرك لذلك.

– أرى أنه ينبغي لكِ التحدث إلى السيد كيرتس، يا سيدة داسن.

– سأفعل حالما تطلعني على سبب عدم إخبارك له عن جريمة القتل.

– معذرة، يا سيدة داسن، لكن السيد كيرتس يعلم الأمر برمته بالفعل. اطَّلع على تاريخ العقار قبل أن يطلب شراءه. اطَّلع على سبب بقاء المنزل شاغرًا لمدة تزيد على العام، وسبب انخفاض سعره مقابل قيمته الحقيقية.

يسكت هنيهةً، ليعطيني فرصة لاستيعاب ما يقول.

– عندما عاد بعرض السعر، سألته إذا ما ترضين السكن في المنزل، لأنه جاءنا بعض الأزواج لمشاهدة المنزل وقالوا إنهم لا يشعرون بالراحة للعيش فيه. أكد لي السيد كيرتس أنكما أعجبتما به، ويمكنكما التغاضي عن ماضيه في سبيل أن تحتفظي بمنزلكِ الريفي، في ساسكس، على ما أذكر.

وقفة أخرى مطولة، ثم يختتم: «أرجو المعذرة، يا سيدة داسن، ولكن أنتِ بحاجة إلى الرجوع إلى السيد كيرتس في هذه المسألة».

الفصل العاشر

تخدَّر إحساسي من أثر الصدمة، وبالكاد أنتبه إلى هاتفي الذي يرن. إنها جيني. لن أجيب مكالمتها، لا أستطيع. ذهني مشوَّش بما قاله لي بِن.

لا أصدق! لا أصدق أن يبتاع ليو المنزل رغم معرفته بجريمة القتل، هذا أمر يصعب عليَّ تصوره. كيف تقبَّل بتلك السهولة؟ كيف يخطر في باله ولو للحظة أنني سأتقبل بدوري، وهو يعرف مدى حساسيتي لمثل تلك الأمور؟ حتى إنني لا أكمل فيلمًا لو استشعرت بمشهد خطر سيحدث وأغادر من فوري. محتملٌ لذلك السبب لم يخبرني، لعلمه أنني سأرفض قطعًا السكن هنا. ما يزيد موقفه سوءًا أنه أخبر بِن كذبًا أنه أطلعَني على كل شيء. وسوءٌ فوق سوءٍ فعلته، أخبره أن السبب في موافقتي على العيش فيه هو ألا أضطر إلى بيع منزلي الريفي. كيف يجرؤ؟! لقد جعلني أبدو طمَّاعة وعديمة الإحساس، وكم أبغضه لما فعله بي. صار بِن على دراية بالحقيقة الآن، على الأقل. لكن لا يكفيني هذا لأرتاح.

ما لا أفهمه هو دافع ليو من وراء عدم إخباري. إنما بالتأكيد توقَّع أن أكتشف عاجلًا أو آجلًا. ألهذا لم يُرِد أن ندعو الجيران لتناول المشروبات، في حال ذكر أحدهم الجريمة؟ ولماذا لم تُذكر ليلتها؟ لماذا لم تنبس إيف أو ماريا أو أي أحد منهم، بكلمة عنها طوال الحفل؟

تفتُر نفسي مدركة أنهم لم يستطيعوا قول شيء. لقد افترضوا أنني أعرف، وأنني أقبل هذا الوضع. وليس يسيرًا أن يذكروها ونحن ما زلنا نتعارف على بعضنا: كيف حالكِ يا أليس وأنتِ تسكنين في منزل هو نفسه مصرع قتيلة؟

أتذكَّر تعليق تامسين في الحفل عن كوني شجاعة. لم تقصد حينها انتقالي من بلدتي إلى السكن في لندن، بل انتقالي للسكن في منزل له ماضٍ رهيب. ومن ثم، هذا الصباح، يأتي الحوار الذي سمعته عرضًا عندما انضممت إليهن، وله المعنى نفسه. ماذا قالت تامسين بالضبط؟ أغمض عينيَّ وصوتها يطنُّ في ذهني: من العجيب أنها تبدو كما لو أن الأمر لا يزعجها. وجاء بعده رد إيف: بدأتُ أتساءل عما إذا لديها معرفة بما حدث حقًّا.

تغمرني دفقة من الامتنان نحو إيف، منتبهة أنني لست متبلدة الشعور إلا في نظر بعض الجيران فحسب. تدهشني معاملتها لي بكل هذا الودِّ، واستقبال الناس اللطيف بصفة عامة. محتملٌ أن بعضهم ينتقدنا سرًّا لشرائنا المنزل، لكن معظمهم أبدوا اهتمامهم...

يا إلهي! أنحني للأمام ويسقط رأسي بثِقَله في يديَّ. لقد أخذتُ الناس جميعهم في جولة في المنزل، وأريتهم الطابق العلوي. ما الذي جعلتهم يظنونه؟ هل تحمَّس أولئك الجيران لرؤية غرفة النوم لسبب بعينه، أن جريمة القتل حدثت فيها؟

الهاتف في يدي كما هو، أبحث فيه عن الجريمة ثانيةً وأجد مقالة دُونت بعد أربعة أيام من وفاة نينا ماكسويل. ثمة مزيد من التفاصيل: عُثر على جثتها في غرفة النوم، مقيَّدة إلى مقعد، رأسها محلوق، وعنقها مخنُوق.

وتُختتم المقالة بجملة:

أُلقي القبض على رجل مشتبَه فيه، ويخضع للتحقيق.

تتجيَّش غصَّة في حلقي. أعرف كيف ماتت نينا ماكسويل؛ طاردتني تفاصيل موتها لأشهر بعد انتشار الخبر. إنما معايشته على أرض الواقع أمر آخر. أكتم إحساسي بالغثيان، وأحوله إلى غضب موجَّه ضد أولئك الذين أرادوا بشدة رؤية الغرفة حيث وقعت الجريمة. رفضت تامسين ومعظم النساء دعوتي لأريهن التجديدات في غرفة النوم، أما الرجال فأكثرهم أبدوا اهتمامًا كبيرًا. لم تصعد إيف إلى الطابق العلوي ليلة الحفل، وإنما صعدت في اليوم الذي جاءتني لتعرِّف نفسها لي، وحَثَثْتها لترى خزانة ملابسنا الضخمة في غرفة النوم. ترددت خطواتها في البداية، وأخذتُ ذلك على محمل أنها لا ترغب في أن تبدو فضولية.

– أليس؟

فيما أرفع رأسي، أرى إيف تقترب تجاهي وحاجبها مقوس في عبوس، هاتفة: «لماذا تجلسين هنا؟ إنكِ ترتجفين! هل أمورك على ما يرام؟».

– لا، ليست على ما يرام.

– هل تشعرين بالمرض؟ هل أتصل بأحد من أجلك؟

أردُّ في نبرة، حاولت أن أجعلها مازحة: «لا، أنا بخير. لا، بل من الواضح أنني لست بخير. لكن ليس لدرجة المرض. أحس فقط أنني في قمة المَهَانة، في قمة الاستياء!».

تجلس إيف بجواري، ورائحة عطرها –«سِي» من أرماني– تريحني على نحو عجيب.

– لا بأس ببعض الغضب. التنفيس عنه أفضل من الشعور بالمرض والحزن. لمَ لا تخبرينني بما حدث؟

أتطلع إليها في حزن، مشيرة بيدي تجاه المنزل.

– اكتشفت لتوي أن منزلنا كان مسرحًا لجريمة قتل بشعة. لم أعرف يا إيف، ليو هو من عرف ولم يخبرني.

حتى نظرة التعاطف في عينيها تريحني.

– يا إلهي. لقد بدأ يخطر لي أنكِ ربما لا تعرفين. أما في البداية، ظننتكِ أحد أولئك العمليين ممنْ لديهم قدرة على الفصل بين مشاعرهم وأفكارهم المتضاربة، ويتفوهون بكلمات مثل «الماضي صفحة وانطوت، والحاضر بداية أخرى».

– لم أكن باردة المشاعر يومًا. إنني مدهوشة من تحاملكِ على نفسكِ لتتحدثي إلي. مدهوشة من قدرة أيٍّ منكم على التحدث معي عندما لم أدرِ شيئًا عن الجريمة، ولم أستطع لجهلي أن أعبِّر عن مدى أسفي لفقدكم جميعًا جيرانكم في ذاك المنزل.

– لا ينتقدكِ أحدنا، يا أليس.

– فيما عدا تامسين.

– ربما تحمل بعض اللوم تجاهك. فقد كانت نينا أعزَّ صديقة لها، لذا فقلقها منكِ يمكن تفهُّمه.

تصمت للحظات ثم تتابع: «عندما رأتكِ أول مرة، ظنتكِ نينا نفسها. لمحتكِ تعبرين الساحة من نافذة غرفة نومها. إن بِنيَة جسمكِ تماثل بِنيَة نينا تقريبًا، ومن ذلك البُعد، لم تر سوى شعركِ الأشقر الطويل، مما أفزعها».

أومئ برأسي في شرود، ثم أسألها: «لماذا لم ينتقدني أحدكم؟ ألم يُفترض بكم فعل ذلك؟».

تمرر إيف يدها في شعرها.

– أعتقدُ أن الجميع شعر بالارتياح أن المنزل بِيعَ أخيرًا، وسيسكنه أناس آخرون ولن يظل فارغًا. لقد كاد المنزل أن يصير ضريحًا، في نظري، وبعض الأطفال بدؤوا يعتبرونه بيتًا مسكونًا، وأبى آباؤهم أن يتمادوا في ذلك. وعندما سمعنا أن أحدًا اشتراه، بدا لنا أن نسمة منعشة تحمل روحًا جديدة إلى مجاورتنا. كما أننا في النهاية، استطعنا جميعًا المضي قدمًا.

تنظر إليَّ بجدية وتضيف: «الناس هنا ممتنون، يا أليس. وكلنا نرى وجودكما معنا بداية جيدة».

– ربما، لكننا لن نقدر على المكوث فيه بعد الآن، بالنسبة لي على الأقل؛ من الواضح أن ليو لا يزعجه العيش هنا.

– لقد أخبر وِيل أن هذا هو سبب رغبته في إجراء تغييرات في الطابق العلوي، فيخفي ملامح الغرفة التي حدث فيها ما حدث. وقال إنه يريد تيسير أمور السكن في ذلك المنزل من أجلك.

أفتش جيبي عن منديل ورقي، قائلة: «تُلمِّح كلماته أنني أعلم. وبالطبع لم يجرؤ أحد أن يأتي على ذكر جريمة القتل في أمسية السبت، رغم توق العديد من الحضور إلى رؤية المكان الذي وقعت فيه. أما خطر ببال شخص واحد، على الأقل، أن يطمئن على حالي وأنا أعيش مع شبح امرأة مقتولة؟».

تقول إيف، والانزعاج بادٍ عليها: «لدي ما أقوله لكِ بخصوص هذا. أوضح ليو إلى وِيل أنه يود ألا يذكر أحد أي شيء عن تاريخ المنزل أمامك، لأنك تأخذين مثل تلك الأمور بحساسية شديدة. وبعدما أخبرني وِيل، أعلمتُ بقية الجيران».

تعود إليَّ ذكرى ذلك اليوم الذي ذهب فيه ليو لمقابلة وِيل، ذلك اليوم الذي تلا اطلاعه على دعوتي للناس لأمسية تناول المشروبات.

أقول وقد عاد الغضب يتملَّكني، متطلعة إليها لعلِّي أجد لديها خلاصة لما يحدث: «لا أصدق ما أسمع! أحقًّا أرادني ألا أعلم؟ إنني عاجزة عن فهمه، يا إيف. لم يفعل أمرًا مماثلًا من قبل، لم يُخفِ أي شيء عني قط، دومًا ما يطلِعني على الحقيقة. ولا بد أنه تحسَّب أنني سأكتشف في النهاية. من المحال أن يبقى أمر كهذا مخفيًّا للأبد».

تسأل، وهي تخرِج قبعتها من حقيبتها وتستخدمها للتهوية: «كيف اكتشفتِ؟».

أجيبها، داعية ألا تنتبه لتلعثمي الطفيف: «تلقيتُ مكالمة هاتفية من أحد مراسلي الصحافة».

هذه ليست كذبة؛ إنني شبه واثقة أن توماس جرينجر صحفي في الواقع، وبدَّل مسماه الوظيفي إلى محقق خاص كي يضفي على حضوره لمحة مقبولة.

تضغط القبعة في رأسها، غير مبالية بنظارة الشمس التي انضغطت تحتها.

– عمَّ سألوا؟

أرتجل موقفًا، مع تغيير الضمير إلى المؤنث، مبتعدة تمام البعد عما حدث، فيما عدا جزءًا صغيرًا: «سألتني عن شعوري حيال السكن في مسرح لجريمة مُوجعة. وعندما قلت لها إنني لا أفهم عما تتحدث، أخبرتني أن أبحث عن اسم نينا ماكسويل في محرك جوجل، وفعلت».

– يا لها من طريقة سخيفة لاكتشاف ذلك.

أهزُّ رأسي ببطء، وأتذكر كيف لُمْتُ بِن ووجَّهت له اتهامًا بالكذب، مما يدفعني إلى الخجل من نفسي.

– لا أزال غير مصدِّقة أن ليو عرف ولم يخبرني. لقد أكَّد للوكيل العقاري أنني لا أمانع ما دام ثمنه منخفضًا، مما يعني احتفاظي بمنزلي الريفي في هارلستون. لقد جعلني أبدو منعدمة الإحساس للغاية.

تحاول معانقتي، إنما نجلس على المقعد بزاوية لا تسمح، فأشعر بالإحراج مدركة أنني ما زلت لا أعرف إيف جيدًا بعد. وهل عرفتُ ليو؟

تسألني: «ماذا تنوين أن تفعلي؟».

– أحتاج إلى التحدث مع ليو لكن ليس عبر الهاتف، بل وجهًا لوجه. من المفترَض أن يعود غدًا مساءً، لذا سأنتظر لحين عودته. إنما لا يمكنني المبيت في المنزل، سأذهب إلى أحد الفنادق.

ثم ألتفت إليها، مضيفة: «هل يمكنكِ أن تسديني معروفًا، يا إيف؟ أريد أن أجلب بعض الحاجيات من المنزل، هل تأتين معي؟ أعلم أنه طلب أحمق، لكنني لست بحالة متزنة حاليًّا لأخطو للداخل وحدي».

– ليس طلبًا أحمق على الإطلاق، سآتي معك. ولا حاجة بكِ إلى البحث عن فندق، يمكنكِ المبيت عندنا.

أقع في حيرة، حتى الشك فيما أريد.

– هل أنتِ واثقة؟

– هذا أمر مَفروغٌ منه!

– لن أجلب الكثير، فقط ثياب النوم وفرشاة أسناني وملابس نظيفة، وبالطبع، كتابي وحاسوبي المحمول.

– هيا بنا.

عند عتبة الباب، أناول إيف مفاتيحي. تفتح الباب وتدخل، بينما لم أتزحزح من مكاني بعد، ومعدتي متشنجة من الذعر. لا أعرف ما الذي ينتظرني، لكن في ظني سأجد كل ما عرفته مختلفًا، كل ما شعرت به مختلفًا. إنما لم يتغير شيء، لذا أتقدم للداخل.

تنحني إيف لتلتقط شيئًا ما.

تقول وهي تعطيني إياها دون قراءتها: «إنها بطاقة عمل شخص ما».

– أشكرك.

أخبئها في جيبي فيما تنزع قبعتها وتدسُّها في حقيبتها، ثم تخلع حذاءها الرياضي. أنزع حذائي كذلك وأتبعها صعودًا على درج السُّلم إلى غرفة النوم. تدخل إيف مباشرة، وأتردد عند الباب.

تقول وكفها مفتوحة نحوي لأدخل: «إنها غرفتكِ نفسها، يا أليس. لم يتغير شيء فيها».

أتنفس بهدوء ثم ألقي نظرة في أرجاء الغرفة. إنها محقة، لا تزال كما تركتها في الصباح، بستائرها المنقوشة التي تنتفخ مع هبَّات النسيم. فرشاة شعري في مكانها على منضدة الزينة، والملابس التي

ارتديتها بالأمس لم تزل ملقاة على المقعد، غير أن...

أتفوه في ذعر متسارع: «يستحيل أن أبقى هنا».

وأهرع إلى الأدراج في منتصف الخزانة، أُقلِّبها بحثًا عن مَنَامة وبعض الملابس الداخلية، ثم أخرج ركضًا من الغرفة قبل أن يمسني ذلك الشعور المشؤوم الذي يتسلل ببطء إليَّ.

الفصل الحادي عشر

تمدُّ لي إيف يدها بقدح من الشاي، قائلة: «تفضلي. اشربي هذا، ثم سنفتح قنينة نبيذ معًا».

– أعتذر منكِ؛ لم يكن ثمة داعٍ لكل تلك الجلبة التي أَثَرْتها ما إن وَطِئت قدماي غرفة النوم.

فيما أنكمش على نفسي في زاوية من الأريكة الجلدية الفاتحة في غرفة معيشة إيف، وقدماي مطويتان، أنتبه أنها تستحق أن أصارحها بحقيقة ذُعري.

– في الواقع، يوجد سبب وراء ما فعلتُ. اسم شقيقتي هو نينا، وإذا ما صادفت أمرًا يتعلق بامرأة تُدعى نينا، دومًا ما يترك في نفسي أثرًا بالغًا.

تعانقني قائلة: «يؤسفني شعورك هذا، يا أليس».

– لو عاشت شقيقتي، لصارت في عمر نينا ماكسويل نفسه. أعرف كيف يبدو تصوري مأسويًّا، ولهذا أشعر وكأن شقيقتي قُتلت مرتين على التوالي.

– وبالإضافة إلى اكتشافكِ أن ليو لم يخبركِ شيئًا عن تلك الجريمة، تضاعف إحساسكِ بالفزع، وهو ليس بحملٍ هينٍ على أي أحد. طبيعي أن يصعب عليكِ التغلب على كل ذلك وحدك.

لاحقًا، مع كأس النبيذ وتحسُّن حالتي، أسألها: «كيف بَدتْ؟».

ترتشف رشفة من كأسها، ثم تبتسم.

– لو تقصدين نينا، فلم تُتَح لي فرصة للتعرف عليها بما يكفي، حيث إننا انتقلنا إلى المجاورة قبل وفاتها بخمسة أشهر فقط. إنما وجدتها جميلة وطيبة القلب بكل ما في الكلمة من رُوحانية. لم تكن معالجة نفسية فحسب، بل ومدربة ماهرة لليوجا. هي من أسست مجموعتنا لليوجا وبعد رحيلها، واصلنا الالتزام بميعادنا، وفاءً لذكراها.

من الرائع أن نينا ماكسويل استمتعت بممارسة اليوجا؛ شقيقتي أحبتْ ممارستها أيضًا. لقد حاولتْ مرات عديدة أن تقنعني بحضور صف اليوجا برفقتها، لكنني غالبًا ما انشغلت بأمور عدَّة. وبعد ما حدث، تمنيت بشدة لو أنني ذهبت معها، ولو لمرة. ويعجبني أن نينا ماكسويل كانت معالجة نفسية، مما يعني أنها حملتْ قلبًا مراعيًا للآخرين.

– وماذا عن زوجها؟

– كان ألطف رجل قد تقابلينه في حياتك. وذلك وفقًا لما رأيته منه، على الأقل. لا يمكنكِ تكهن خبايا الناس أبدًا.

– بالتأكيد صُدمتِ عندما أُلقي القبض عليه بتهمة قتلها.

تلتقط كأسها من المنضدة الزجاجية القصيرة، التي تتخذ شكلًا مبهمًا، لا هي مستديرة ولا مربعة. ثم ترتشف رشفة أخرى.

– صُدم جميعنا. لم نستوعب الأمر، وافترضنا أنه إجراء احترازي، حيث يُعد الزوج مُدانًا دائمًا لحين العثور على الجاني الحقيقي. لكن بعدها سمعنا أنه أَقْدم على الانتحار.

يتجلى في ذهني ما قاله ذلك المحقق عن إخفاق العدالة.

– وهل انتحاره هو ما أكَّد لكِ أنه القاتل؟

– نعم.

– لكن لماذا؟

بغتةً تتطلع إليَّ إيف منزعجة، فأقول: «اعذري أسئلتي المتتابعة. ما أحاول إلا فهم ما جرى حقًّا. إذا ما تودين مني أن أتوقف، سأتفهَّم بالطبع».

– لا بأس، تابعي. يريحني أنه بإمكاني التحدث عما جرى مع أحد لم يحضر حينها. فقد صار ذكره محظورًا هنا.

عندها تسكت لتتفكر في السؤال، ثم تقول: «بغض النظر عن عدم وجود أي علامات لاقتحام المنزل، توجد عدة أسباب للاعتقاد أن «أوليفر» هو من قتلها. تأتي أولًا حقيقة أنه انتحر، وجعلنا نعتقد أنه لم يقدِر أن يتصالح مع ما اقترفته يداه، لأنه أحبَّ نينا، وتلك هي المأساة. أما ما اكتُشف تاليًا من أمور أخرى، جعل ما استحال علينا تصديقه، مقبولًا في نظرنا».

– ما هي تلك الأمور؟

– على رأسها، أنه كذب بشأن الوقت الذي عاد فيه إلى المنزل تلك الليلة.

تقطِّب جبينها، ثم تنتبه لذلك فتومئ لي بعينيها معتذرة.

– في الواقع، ليس من الصواب أن أكرر تفاصيل سمعتها على لسان اثنين أو ثلاثة أشخاص آخرين. فكما ذكرتُ لكِ لم أعرف نينا بما يكفي. تامسين عرفتها لفترة أطول مني. ولورنا هي مَنْ شَهِدتْ كل ما حدث.

ثم تضع كأسها على المنضدة وتحمل قنينة النبيذ، مضيفة: «ناوليني كأسكِ لأصبَّ لكِ المزيد».

رغم فضولي، فإنني راضية بعدم تطرقنا إلى أيٍّ من تفاصيل مقتل نينا. بالإضافة إلى أنني أحترم عدم رغبتها في الثرثرة في أمر لا يخصها.

تقترح عليَّ: «ما رأيك أن نشاهد فيلمًا خفيفًا، لتريحي ذهنكِ مما يشغلكِ لبعض الوقت؟».

– فكرة رائعة.

– لا أظنكِ قد ترغبين في مشاهدة فيلم «عندما التقى هاري سالي»، لكنني لم أشاهده إلا مرة واحدة.

أضحك، قائلة: «لمَ قد لا أرغب في ذلك؟ لعلِّي أرتاح بمشاهدته من همومي قليلًا».

ظل عقلي يتأرجح مشتَّتًا بين الجريمة وأحداث الفيلم، حتى عودة وِيل إلى المنزل.

تقول إيف، وهي تهبُّ على قدميها لتقبِّله: «لا تقل لي إنك تتضور جوعًا من فضلك. اندمجنا في الدردشة معًا، وستبيت أليس الليلة معنا، ألا ترى الأمر لطيفًا؟».

ألَمحها تُرسل إشارة إليه بعينيها ليفهم أنني أمرُّ بوقت عصيب.

يقول مبتسمًا، وهو يهزُّ كتفيه مُنزِلًا حقيبة ظهره على الأرض: «لطيف جدًّا. ودون شكٍّ أنا جائع، دومًا ما أتضور جوعًا بعد تجارب العرض طيلة النهار. هل أكلتما شيئًا؟».

تردُّ إيف بحزن: «لا، ولا حتى رقائق بطاطس».

– إذن، ما رأيكما أن أحضِّر وعاءً كبيرًا من المعكرونة؟

تطوِّقه بذراعيها من فورها.

– تمنيتُ من قلبي أن تفعل.

ثم تلتفت نحوي، مضيفة: «سيحضِّر لنا وِيل أفضل معكرونة في العالم. لقد ورث عن جدته الكُبرى ألذَّ وصفات عمل صلصة المعكرونة. ستعشقينها!».

يوضِّح وِيل: «باستثناء أنني إذا طهوت الصلصة من الصفر، ستستغرق مني ساعتين».

يغتم وجه إيف على نحو يضحكني، وتقول: «للأسف، نسيت. تحتاج الصلصة إلى وقت للغليان ببطء حتى تتكثَّف الطماطم».

– بالضبط، لذلك سأطهو معكرونة «كاربونارا» دون صلصة، لو ما زال لدينا لحم مقدد.

تتهلل أساريرها في وجهه.

– لدينا! أتريد كأس نبيذ في أثناء الطهي؟

يرد متجهًا نحو المطبخ: «لا، لا تتعبي نفسك. سأحضر لنفسي زجاجة جعة. نلتقي حول الطاولة بعد نحو عشرين دقيقة».

صوت رنين هاتفي يقذف في قلبي الرعب فجأة.

– إنه ليو. لا أستطيع التحدث إليه، ليس الآن.

تقول إيف: «لا تجيبي إذن. ابعثي له رسالة نصية وأخبريه أنكِ تتناولين العشاء برفقتنا، وستتصلين به لاحقًا. سيمنحكِ ذلك وقتًا كافيًا ريثما تفكرين بروية فيما تريدين قوله».

يغمرني شعور بالراحة على الفور، فأردف: «فكرة سديدة».

تنهض، مُفسحة لي مجالًا خاصًّا.

– سأذهب لتحضير الطاولة في حين تفعلين ذلك. والحقي بي ما إن تنتهين.

أبعث الرسالة إليه وعندها أتلقى منه ردًّا مبهِجًا: **حسنٌ، استمتعي بوقتك.**

ينتابني إحساس بالذنب أن لا فكرة لديه عما سألومه عليه عندما نتحدث. أذكِّر نفسي أن الذنب ليس ذنبي، هو منْ لم يصارحني من البداية، إنما لا تُحسِّن تلك الحقيقة من حالتي إلا طفيفًا.

الأمر الحسن في إنشاء منازل المجاورة بأكملها بتصميم موحَّد، أنني أستطيع الوصول إلى مطبخ إيف ووِيل دونما مساعدة. وفيما أتجه صوبه أسمعهما يتهامسان، وأخمن أن إيف تخبره بسبب قدومي إلى منزلهما.

أدفع الباب ليُفتح، وأسأل: «أيمكنني المساعدة؟».

تخرِج إيف قنينة نبيذ جديدة من الثلاجة، قائلة: «نعم، فقط شاركيني تناول كأس أخرى».

لقد وضعا في المطبخ منضدة إفطار بدلًا من الطاولة الاعتيادية لدينا. لذا أرفع نفسي على مقعد المنضدة المعدني المرتفع، المشابه لمقاعد الحانات، فيما أراقبهما يتحركان ذهابًا وإيابًا، ويلكز وِيل إيف من آن لآخر، متظاهرًا أنها تعوق طريقه. أبتسم على مرآهما سعيدين برفقة بعضهما، ومن ثم أفكر في وضعي مع ليو. هل نحن سعداء معًا؟ هذا ما ظننته على الدوام، أما في هذه اللحظة، لم أعد واثقة مما أظنه.

ننتقل إلى طاولة الطعام، ونتناول أطباق معكرونة شهية تتصاعد منها الأبخرة، ومن حين لحين أترقب أن يذكر وِيل شيئًا عما حدث، ولن أمانع إن فعل؛ لا أستبعد أن لديه نظرة دقيقة قد تفسِّر اضطرار ليو إلى مداراة تفصيلة بتلك الأهمية عني. مع ذلك، ارتحت لبراعته في حَملي على الضحك، ولعدم ذكره أيًّا ما يخص ليو أو الجريمة على الإطلاق.

***

بينما أستلقي في غرفة الضيوف الأنيقة، أتذكر عندما تحدثت مع ليو منذ وقت قريب، عن صديقة لي اكتشفتْ أن زوجها قامر بكل مدخراتهما.

– لو رأيتها كم كانت محطَّمة، يا ليو. احتارت فيما عليها فعله، أتبقى معه أم تتركه؟ وقالت إنها فقدت الثقة به للأبد.

– ماذا قد تفعلين لو أنكِ في مكانها؟

– إذا لم أعد أثق بك، لن أقدر على البقاء معك. وإذا تركتك للأبد، لن تستحق الحياة أن أعيشها دونك. هل ترى إلى أي مدى أحبك؟

وحدَّقت بعمق إلى عينيه.

حينها لم أتصور أن تعود تلك الكلمات وتطاردني في الحاضر. إنما حدث ما أخشى، وها أنا قلقة من مقابلتي ليو، ويجافيني النوم. لا بد أنه استغرب عدم اتصالي به، أو لعله غفا قبل أن يدرك. عند تذكُّري أن جيني اتصلت بي عدة مرات، أنبش الأرضية حتى أمسك بهاتفي وأبعث إليها رسالة نصية مختصرة:

يعرف ليو عن جريمة القتل، هكذا أخبرني بِن. أمكث في منزل إيف ووِيل المجاور لي. سأتصل بكِ غدًا. مع قُبُلاتي.

نجحتُ في إخلاء ذهني من ليو قليلًا، لكن تسيطر على حيزه نينا ماكسويل. يصعب منع نفسي من التفكير في المعاناة التي اصطبرتْ عليها، إنما تمكنتُ من إحجام تخيلاتي المتعلقة بموتها. وأخلد إلى النوم متسائلة عن طبيعة شخصيتها فيما مضى.

الماضي

أسألها في ابتسامة: «كيف صار حالك؟».

هذه هي جلستنا الثامنة ونحن نحرز تقدمًا ملحوظًا.

تقول: «بأفضل حال. تحسنت نظرتي كثيرًا إزاء كل ما حولي».

يحقُّ قولها، هذه أكثر مرة أراها مسترخية إلى هذا الحد. ارتدت التنانير الكلاسيكية والقمصان الرسمية في الجلسات الأربع الأولى. أما اليوم، ترتدي تنورة قصيرة ذات طيَّات فوق الركبة، وشعرها مربوط للخلف، كالعادة، إنما استنادًا إلى الجلسات السابقة، فثمة مؤشر واضح أنها ستترك شعرها منسدلًا على كتفيها في القريب العاجل.

أخبرها: «تقدُّم باهر. هل أستنبطُ من ذلك أنكِ قضيتِ أسبوعين لطيفين؟».

ترفع يدها وتشدُّ رباط شعرها، وتقول، محرِّكة رأسها من جهة إلى أخرى في حفيفٍ خافت، حتى يُسوِّي شعرها الذي تحرَّر حديثًا على كتفيها: «نعم. لقد قضيتُ تلك الفترة مُتفكِّرة فيما تحدثنا عنه في المرة الأخيرة».

أومئ برأسي في استحسان لما فعلتْ. بيَد أننا استغرقنا مدة حتى نصل إلى هذه النقطة، تقبلتْ في جلستنا السابقة أن زوجها هو أساس معاناتها، والسبيل الوحيد لتجاوزها، إذا ما ارتأت أنها بحاجة إلى بعض السلام الداخلي، هو أن تتركه. أنتظر منها أن تستفيض فيما تفَكَّرت.

لَمَّا لم تُضف شيئًا أستحثها: «تكلمنا أنكِ ستتحدثين مع زوجك. أهذا هو سبب شعورِكِ بالتحسن؟».

تومئ برأسها.

– خضنا مناقشة مطوَّلة، جعلتني أدرك أمرًا. ليس هو سبب التعاسة في حياتي.

أكبتُ تنهِيدة في جوفي؛ لا حق لي في إظهار خيبة أملي، ومع ذلك شعوري واقع. أقرِّبُ إليَّ دفتر ملاحظاتي، وأقول استرشادًا بما دونته: «في أثناء جلستنا الأخيرة، أنتِ منْ توصلتِ إلى خلاصة تفيد أنه السبب.. وأنتِ من اتخذتِ قرارًا بتركه».

– أعلم. لكن الأمور تغيرت. لم أعد تعيسة، ولا أظنني كنت يومًا تعيسة بحق.

الشمس مشرقة هذا النهار، رغم برودة الهواء في الخارج، ومن خلال فتحات الستائر، تنعكس خطوط الضوء على وجهها بمثالية.

– أرى أننا نحتاج إلى اكتشاف سبب تبدُّل وجهة نظرك.

تتبسم لي ابتسامة واسعة.

– أعتقد أنني عدت إلى رُشدي، والفضل يعود إليك.

– أحقًّا؟

– بالطبع. قلت لي إن الصدق هو أسلم طريق ولذا أطلعتُ زوجي «دانيل» على حقيقة مشاعري –ليس ما خصَّ أنني أردت تركه، بل عن تعاستي– وقال إنني لست تعيسة، إنما أعاني الضجر. ومن ثم أدركتُ أنه محق.

تعبث بحرف «J» فضي صغير حول رسغها، مُتدلٍّ من إبزِيم ساعتها ماركة «أوميجا» المصنوعة من الذهب الأبيض.

تستطرد: «لم يخطر في ذهني أن أبحث عن وظيفة من قبل؛ على المستوى المادي، لا ينقصني شيء. مما يعني أن لدي وقت فراغ مفتوحًا بين يدي: وقت طويل للتفكير ووقت طويل أركز فيه على نفسي، بينما في مقدرتي أن أوفره لمنْ حولي، وأوجه طاقتي لمساعدة الآخرين. اقترح عليَّ دانيل أن أشارك في العمل التطوعي، وأوصلني ببضع مؤسسات خيرية».

تختم كلامها ضاحكة: «أخبرتك أنه زوج مثالي».

أبتسم لها، وأقول: «يا له من تقدمٍ باهر».

– أظنُّ أنني مضطرة إلى وقف الجلسات عند هذا الحد. يغمرني الخجل أنني لم أخبر دانيل عنها، ولا أرى حاجة لي إليها بعد الآن. لكن من ناحية أخرى، لا أريد للمجهود الرائع الذي بذلناه أن يضيع إذا أوقفنا الجلسات بغتةً.

ثم تتطلع إليَّ في قلق، سائلة: «ما الأمثل فعله؟».

– كما أوضحتُ لكِ في جلستنا الأولى، أرى أن بضع جلسات من العلاج الاسترخائي هي طريقة يسيرة لتمهيد الاستغناء عن العلاج النفسي. هل يناسبكِ هذا؟

تومئ في سرور: «بكل تأكيد. العلاج الاسترخائي أمر يمكن لدانيل أن يتفهمه».

لا أحبذ خسارة عملائي، وبخاصة عندما أبذل الكثير من الجهد معهم. أتحقق من الوقت في ساعتي ثم أنهض.

– حسنٌ، إذا ما يناسبكِ، ما يزال أمامنا وقت كافٍ لبدأ جلسة في الحال.

الفصل الثاني عشر

في الصباح، يرفع وِيل طبقه وفنجان قهوته من منضدة الإفطار ويضعهما في غسالة الصحون، قائلًا: «ابقي قدر ما تشائين. لكن لا تنسي إغلاق الباب خلفكِ عندما تغادرين».

أقول في امتنان: «أشكرك».

يضيف، وهو يحشر طرف قميصه، الذي تركه فضفاضًا في أثناء تناول الإفطار، داخل حزام بنطاله الجينز: «أسأوصلك في طريقي، يا إيف؟ إنني بحاجة إلى التحرك في الحال».

تنزلق إيف عن المقعد المرتفع متطلعة باضطراب إليَّ.

– ألا تريدين مِني تأجيل زيارتي لأمي؟ لن تمانع لو فعلت.

– لا، لا داعي للقلق. أحتاج إلى بعض الوقت بمفردي للتفكير فيما سأخبر به ليو.

تضمُّني مُتعجِّلة، وتقول: «إذن، سآتي معك، يا وِيل. إذا احتجتِ إليَّ، اتصلي بي فورًا. لديكِ رقم هاتفي».

يضيف ليو ملتقطًا حقيبة ظهره: «وسنعود إليكِ في المساء».

– جزيل الشكر لكما. كلاكما غاية في اللطف معي.

تتردد خطوات إيف، قائلة: «أستكونين بخير؟».

– سأكون بخير. كما أن لدي عملًا عليَّ إنجازه.

غير أنني متوترة بشدة ولا أستطيع التركيز في تكملة قراءة الكتاب، كما خططت، بالإضافة إلى نفسي المُغتمَّة وعدم إحساسي بالأمان. كذْبُ ليو عليَّ وكذْبه بشأني يدفعني للتساؤل عما يخفيه عني خلاف ذلك. بالكاد أعرف عن حياته قبل أن نلتقي، وهو أقل القليل. رحل عن منزله وهو في الثامنة عشرة بسبب خلفية عائلته التي لم يتأقلم معها، وتنقَّل بين الوظائف زهيدة الأجر حتى فهم أن استكمال تعليمه هو المخرج الأمثل من محنته. اجتهد في الدراسة وعمل لدى عدد من شركات إدارة الاستثمار، ثم قرر العمل مستقلًّا بصفته مستشارًا في مجال إدارة المخاطر.

أشتت ذهني عنه بأي طريقة، أفتح حاسوبي المحمول وأسحب بطاقة العمل التي وجدتْها إيف عندما رافقتني إلى المنزل البارحة. أمسكها بإحكام من الطرف، ويظهر فيها اسمه ببُنط حِبْري أسود مَطبُوع في قالب: **توماس جرينجر**. في محرك البحث أكتب «توماس جرينجر، محقق خاص»، كي أتأكد أن عمله مُوثَّق. ولدهشتي هو كذلك. لديه موقع إلكتروني مهني متحفِّظ، ومكتبه يقع في ضاحية «ويمبلدِن». أحفظ عنوانه على هاتفي. عندها يدفعني حماس آخر للبحث في المصادر عن مقتل نينا ماكسويل. أرغب في معرفة كل ما يخص تلك الجريمة، حتى لو لم يتأكد لي سببٌ لرغبتي. ربما ما يدفعني هو عقلي الباطن كما لو ستتحسن حالتي بمجرد استعراضي للحقائق، ووضع الأمور في زمامي، بدلًا من فقد السيطرة عليها دفعة واحدة.

مقالًا تلو مقال أطالعه مع تدوين الملاحظات، ولا أصل إلى أي تفاصيل جديدة. لقد قُتلت في نحو الساعة التاسعة مساءً، وأبلغ زوجها النجدة في التاسعة وعشرين دقيقة مساءً، ليخبرهم أنه عندما عاد من العمل عثر عليها متوفاة في غرفة النوم.

تتقلص معدتي عند تذكر إصرار ليو على دمج الغرفتين. قال حينها: «أرغب في تغيير الأجواء هنا قليلًا».

أقول في نفسي مغتاظة منه: لو راهنتك أنك أصبت مرادك. لو راهنتك أنك رغبت في تغيير الأجواء في المنزل حتى إذا ما اكتشفتُ أمر الجريمة، لن يصيبني الهلع من النوم في الغرفة نفسها، لأن ملامحها القديمة اختفت، ولم تعد هي الغرفة ذاتها -فقد خسرتَ، لأن الأجواء لم تتغير.

وفقًا لأحد التقارير المُفصَّلة، فقد قاومت نينا ماكسويل بكامل قوتها خلال صراع انتهى بفقدانها الوعي، ثم قُيدت إلى مقعد باستخدام أحزمة أرواب الحمام، الخاصة بها وبزوجها. كل ما أصل إليه يشير بأصابع الاتهام إلى زوجها.

تطنُّ رسالة نصية: **آمل أن أتمكن من العودة إلى المنزل بحلول السابعة مساءً، عليَّ حضور اجتماع رابطة السُكَّان الليلة، سأضطر إلى تناول عشاء خفيف. أشتاق لرؤيتك. مع قُبُلاتي.**

أردُّ برسالة: **راسلني عند وصولكَ إلى محطة «يوستن».**

ألاحظَ أنني لم أضف «قبلاتي» المعتادة؟ عند استقبال رسالة ليو، التي تعلن وصوله إلى يوستن، في الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة، أشدُّ من عزم نفسي، وأحمل حاسوبي وكتابي وحقيبتي في يديَّ، عائدة إلى المنزل.

المنزل! أذكِّر نفسي فيما أدير المفتاح في القفل: بات هذا منزلي حاليًّا. خلال الأسابيع القليلة التي قضيتها فيه، اعتبرته منزلنا، أنا وليو. لكن ماذا سيحدث في حال لم أبقَ؟

في البهو، أتخيل الأوقات السعيدة التي قضتها نينا ماكسويل في هذا المنزل. لا بد وأنها عاشت حياة سعيدة؛ حظيت بصديقات ومما فهمتُه من إيف، كان زوجها لها مُحبًّا، عدا أنه قتلها في النهاية. الصور التي رأيتها خلال بحثي والإفادات التي قرأتها، لم يَبدُ ذا قدرة على القتل البتَّة. إنما، لم يرَ كثير من الناس ذلك.

على هدى ذكريات شقيقتي وحبيبها، أتجول في أرجاء المنزل عاقدة العزم على تشتيت ذهني عن نينا وأوليفر، باعتبارهما المقتولة وقاتلها، حتى أتمعن في حياتهما معًا. أتصورهما في المطبخ يتحاوران وهما يحضران العشاء معًا، ثم يسترخيان على الأريكة في غرفة المعيشة لمشاهدة فيلم، وقدماهما متشابكتان، مستمتعان بحياة زوجية مثالية، إلى أن حدث أمر مروع وتغيرت حياتهما إلى الأبد. كما آلت حياة شقيقتي إلى النقيض.

بالتفكير في نينا وأوليفر، كبشر أحياء، يساعدني في تخفيف وطأة القلق الذي تغلغل إليَّ منذ أمس. وفي محاولة لاختبار نفسي، أتجه نحو الدَّرج. أجدني متماسكة الأعصاب حتى وصولي إلى الردهة، ثم دخولي غرفة نوم الضيوف؛ مجرد غرفة نوم مثلها مثل غيرها. أما، عند فتح الباب، على الجهة الأخرى من الردهة، ثم إمعان النظر إلى الغرفة من ورائه، لم أرَ غير ما بذلتُ جهدي أن أمنع ذهني من تخيله: نينا جثة هامدة مقيدة إلى مقعد، وخصلات شعرها الأشقر الطويل متناثرة على الأرض حولها. صورتها الحيَّة

أمام ناظري تخنق أنفاسي في صدري. أصفع الباب خلفي، راكضة على الدَّرج، ويداي تتخبطان الحاجز لتتشبثا به. أنتبه أن ليو سيصل في أي لحظة، فأتجه إلى المطبخ، أغترف ماءً من الصنبور وأسكبه على وجهي، ثم أجلس إلى الطاولة، في انتظار معرفة كيف آل بي الحال للعيش في منزل قُتلت فيه امرأة.

***

لم يطل الوقت حتى سمعت مفتاح ليو يدور في الباب، خطواته في البهو، طرقة حقيبته وهو يسقطها من يده.

- لقد وصلتُ!

انزلاق الخَمِيلَة الناعمة والسترة تنزلق عن كتفيه، صلصلة العملات في جيوبها، وهو يعلقها على قائم الدَّرج، خَفقة ربطة عنقه وهو يسحبها من تحت ياقة قميصه، تنهيدته مُرخيًا الياقة -كل هذه الأصوات أسمعها.

ينادي: «أين أنتِ، يا أليس؟».

لا أرى التجعد الذي يخط جبينه إزاء الصمت المُرحب به، إنما بوسعي تخيله. يخطو عبر البهو قاصدًا المطبخ، ولا يزال الحذاء في قدميه، والعبوس يعلو وجهه، حتى يزول برؤيتي جالسة إلى الطاولة.

يقول في نبرة باسمة: «ها أنتِ ذي».

ثم ينحني ليقبِّلني، فألتفت بعيدًا عنه.

يسأل في جزع: «ما الأمر؟».

- من أنت، يا ليو؟

تهرب الدماء من وجهه بسرعة، مما حرَّك رغبة غريزية داخلي أن أهبَّ إليه وأُجلِسه ليهدأ. لكنني لم أتحرك ومكثت أراقبه بمشاعر فاترة وهو يقبض على ظهر أحد المقاعد، منحنيًا إليه محاولًا جهده استعادة رباطة جأشه.

أقول مستاءة: «كيف أمكنكَ فعل ذلك؟ كيف أمكنك أن تخفي عني أمرًا بتلك.. بتلك الفظاعة، بتلك البشاعة؟ وكيف خُيِّل إليك أنني لن أعلم؟».

لم يخطر في ذهني ما أصف به جريمة القتل التي حدثت في الطابق العلوي أدق من الفظاعة والبشاعة.

في صوت خافت بالكاد أسمعه، يسألني: «من أخبرك؟».

- أحد الجيران.

لا يهم إن كذبتُ عليه الآن، سأطلعه على كل ما يخص توماس جرينجر، لكن ليس قبل أن تتضح أبعاد خِداعه لي.

يرفع رأسه نحوي، ونظرته مذهولة فيما وراء وجهه المُلتاع.

- أأخبركِ أحد الجيران حقًّا؟

أجيبه وعيناي محدقتان إلى عينيه: «نعم».

يتخلل شعره بيده، قابضًا بيده الأخرى على ظهر المقعد.

- لكن... أي واحد منهم أخبرك؟

بنفاد صبر أقول: «وهل يهم مَنْ أخبرني؟ كيف أمكنك الكذب عليَّ، يا ليو؟».

– أنا... أنا...

صوته يقرب من البكاء، مما يوخز في قلبي إحساسًا بالخطر، وقليلًا من الخجل. لا بد أن ليالي مرت به متخوِّفًا من اكتشافي الحقيقة. يمكنني أن أغفر له، لكن لم يحن الوقت بعد.

– الأسوأ من كذبك عليَّ، هو كذبك بشأني.

يتمتم: «ماذا تعنين؟».

– أنك ألمحت إلى بِن أنني وافقت على العيش هنا، حتى أستطيع الاحتفاظ بمنزلي الريفي في هارلستون.

تطول مُدَّة تحديقه إليَّ، حتى ظننته سينكر أو سيتحجج أن بِن أساء الفهم. وبعد فترة بدت لا نهاية لها، يشدُّ المقعد الذي ظل مستندًا إليه ويتهاوى جالسًا.

أرى في الارتياح البادي على وجهه أن نفْسَه طابت لافتضاح الأمر.

– يؤسفني ذلك.

– فيمَ كنت تفكر؟ هل أملت ألا أكتشف أبدًا؟

يقول مُطرِق الرأس: «لا، توقعت أن تعرفي. أملتُ فحسب ألا تكتشفي قبل أن أبوح لكِ بنفسي».

– ومتى كنت ستبوح لي؟

– أردت أن... أردتكِ أن تعتادي المكان هنا أولًا.

– لماذا؟

– كي تستصعبي فكرة مغادرته. لهذا لم أطلعكِ على شيء قبل شراء المنزل. توقعت أنكِ قد ترفضين السكن هنا، رغم أنني...

ثم، يرفع نظره إليَّ، متمِّمًا: «رغم أنني أردته بشدة».

– أرغبتَ أن تسكن فيه لدرجة استعدادك التام للتغاضي عن أن امرأة ماتت فيه؟

– لم يعد المنزل ذاته، يا أليس. لقد أُعيد تجميله وتجديده، وعدَّلتُ تخطيط الطابق العلوي بأكمله.

أنقر الطاولة بيدي تصفيقًا له.

– المنزل هو نفسه لم يتغير! لا أفهم لمَ لا ترى ذلك! ما برح المنزل هو نفسه الذي وقعت فيه جريمة القتل!

يهزُّ كتفيه في استسلام، مما يزيدني اشتعالًا.

– لعلي قادر على التأقلم مع وضع كهذا، وإن بدا لكِ قولي قاسيًا. إن الأمر لا يزعجني حقًّا. وأتذكر أنكِ قلتِ ذات مرة، عندما علَّق أحدهم على أن أجيالًا ماتوا في منزلكِ الريفي، نظرًا لإنشائه منذ ما يقارب مائتي عام، وذكرتِ أن ذلك أمر لا يثير إزعاجك.

– هنالك فرق شاسع بين مَنْ يموت بسلام في سريره، وقد بلغه الكِبَر، ومَنْ يُقتل بقسوة، في عمر الثامنة والثلاثين!

– ليس بوسعنا دومًا التعرُّف على تاريخ المنازل التي نسكنها. ومن المحتمَل أنه قُتل أحدهم في منزل هارلستون. ما أعنيه أنه إذا ما اتصل بكِ أحد في الغد، وأخبركِ «ألم تعلمي؟ لقد اكتشفتُ أنه قبل خمسين

عامًا، قُتل شخص ما في منزلكِ الريفي»، هل ستتخلين عنه في الحال ولن تمكثي فيه ليوم آخر؟

أكره وجهة نظره الصائبة تلك. أتردد في إجابته؛ إنني أحبُّ ذلك المنزل. يفطن إلى ترددي، فيميل تجاهي مضيفًا: «ستمكثين فيه، أليس كذلك؟ ولن تبيعيه لهذا السبب».

– لا، سأتخلى عنه، بل وسأعرضه للبيع. في نظري حتى خمسون عامًا ماضٍ قريب للغاية.

يقول، ماسحًا وجهه بكفيه، فيما يستعر غضبي منه ثانية: «لا أصدقك».

– كيف تحوَّلتْ دفة الموضوع ضدي؟ ومنذ متى صِرتَ تشكك في كلامي؟ لستُ المُلامة هنا، يا ليو، بل أنت!

– أعرف، متأسف.

يقرِّب يده ليمسك يدي فأبعدها عني.

– ماذا ظنَّ بي أولئك الناس ليلة السبت، عندما عَرضتُ عليهم جولة في الطابق العلوي لرؤية التعديلات التي أجريناها؟ بلا شك حسِبوا أنني على علم بالجريمة.

– لم أتوقع منكِ أن تعرضي عليهم ذلك.

– ألهذا السبب لم ترغب في دعوة أي أحد؟

أنهض مبتعدة عنه؛ أحتاج إلى وضع مسافة فاصلة بيننا. أنتقل إلى الجهة الأخرى من المطبخ وأستند إلى المنضدة، متابعة: «خشيتَ أن يذكر أحدهم أمامي ما حدث هنا. لا أفهم، لا أفهم كيف سمحتْ لكَ نفسكَ بفعل ذلك بِنا!».

يفتح كفيه، ملتمسًا أن أحاول فهمه.

– لم أرد أن أحجب شيئًا عنك. ارتأيت أن أخبركِ حين يأتي الوقت المناسب.

– ولحين ذلك الوقت، لم تمانع أن يظنني الناس امرأة مُنحَطَّة غليظة القلب.

– أنا متأكد أن لا أحد منهم يراكِ هكذا.

– تامسين تظنني كذلك.

– المرأة الصهباء؟

– نعم. سمعتها عرضًا تقول إنها لا تصدق أن ما حدث لا يزعجني. حينها لم تكن لدي فكرة عما تتحدث، أما الآن، فقد علمت.

يتنهد، مردفًا: «ماذا تريدين أن تفعلي؟».

أمسك قطعة قماشية لأمسح سطح المنضدة، النظيفة بالفعل.

– لا أقدر على البقاء هنا، بعد ما علمت.

– بإمكاننا المبيت في أحد الفنادق لبضعة أيام.

– وبعد انقضائها، أسنعود ونتظاهر أن تلك الجريمة لم تقع قط؟

يجفل قائلًا: «لا، لن نتظاهر، إنما بوسعنا تقبل الأمر والمضي قدمًا. أرى أن تمنحي المنزل فرصة، يا أليس».

أتوقف عن المسح، ملتفتة نحوه.

- ماذا تعني؟

يتمعن النظر فيَّ، مائلًا إلى الأمام.

- أَضْفي عليه ذكريات جديدة. عيشي فيه بسعادة.

تتفجر أوداجي استياءً، إلى حد قذف القطعة القماشية بعنف في الحوض المطلي بالمينا البيضاء.

- أعيش فيه بسعادة؟ كيف لي أن أفعل؟ قُتلت هنا امرأة اسمها نينا، يا ليو!

- أعلم، وهذا هو السبب الآخر وراء ترددي في إخبارك.

صوته الهادئ الرزين، دومًا ما يهدئ من روعي.

يضيف: «ساورني القلق عندما قررتِ الانتقال والتخلي عن ماضيكِ بالرحيل عن هارلستون، أن يعيد إليكِ المنزل ذكريات مؤلمة. إن موافقتكِ على الانتقال إلى هنا في حد ذاتها خطوة حسنة. أليس بمقدورنا أن نلتفتَ لهذا التقدم؟».

ينتظر أن أتحدث ولا أقدر؛ ما قاله بخصوص الذكريات الجديدة ما يزال يطن برأسي.

يمسح وجهه مرة أخرى، قائلًا: «ماذا تريدين فعله؟ هل ترغبين في العودة إلى هارلستون؟ هل تريدين مني أن أعرض هذا المنزل للبيع ونستأجر شقة في لندن، ريثما يُباع؟ جُل ما في الأمر أنه انبغى لي شراء منزل. لم يكن في وسعي تحمُّل السفر المتكرر من هارلستون إلى برمنجهام بصفة يومية، لذا احتجت إلى السكن في منزل في لندن حيث آتي لرؤيتكِ في العطلات الأسبوعية، كما اعتدنا رؤية بعضنا –من حين لآخر أو في العطلات– قبل أن ننتقل إلى المجاورة. هل تريديننا أن نرجع إلى سابق عهدنا؟».

يجلس هنالك مترقبًا رَدِّي، والخطوط الدقيقة حول عينيه أعمق من ذي قبل. إنما لا أستطيع. أرغب في كل ما اقترحه، ولا شيء منه في الوقت نفسه. لا أريد البقاء في هذا المنزل، ولا أريد مغادرته. أريده هو أن يغادر، لكن لو مكثتُ هنا، الليلة على الأقل، لا أريد المكوث وحدي. الأمر الوحيد الواثقة منه، في هذه اللحظة، هو أنني لا أرغب في الوجود في أي مكان بالقرب منه، أو بالقرب من الغرفة العلوية.

أتجه نحو الباب، وأقول بصوت متهدج: «لا أعرف ماذا أريد. ولحين أن أعرف، سأنام في غرفة مكتبي».

لا أنتبه، إلا عند توضيب الأريكة السرير، أنني لم أسأله عن سبب رغبته الشديدة في شراء هذا المنزل.

الفصل الثالث عشر

في الصباح التالي، أسأله: «لماذا أردت شراء هذا المنزل بشدة؟».

نقف كلانا في المطبخ، الذي يبرق نظافة. لم يكلف أحدنا نفسه عناء تناول الطعام ليلة أمس، حتى طلع علينا الصباح وانعكس ضوؤه على الأسطح الرخامية الفاتحة.

التعب بادٍ عليه، إنما ليس بقدر تعبي.

– معذرة؟

– ذكرتَ البارحة أن السبب في عدم إخباري عن الجريمة قبل انتقالنا، هو أنك توقعت أن أرفض العيش هنا، رغم أنك أردتَ ذلك بشدة. لذا أسألك عن سبب رغبتك الشديدة في شرائه. إنه منزل رائع بلا ريب، لكن روعته محدودة بالنسبة إلى أي شخص واعٍ لا يمكنه إغفال أن جريمة قتل وقعت فيه.

أدرك أن كلماتي باتت قاسية، لكن لم يغمض لي جفن والإرهاق يُثقلني.

يتجه إلى الماكينة الداكنة لتحضير القهوة المطلية بطبقة لامعة من الكروم.

– أتريدين قدحًا من القهوة؟

أتحرَّق لواحدٍ بشدة.

– لا أريد، أشكرك.

يشرع في عمل قهوته قبل إجابة سؤالي، كما لو يأمل أن أسأمَ من الترقب. لكنني مستعدة لمنحه ما شاء من الوقت.

يجيب أخيرًا: «أردت هذا المنزل لأنه يقع في نطاق مُؤمَّن. يعجبني أن لا أحد مسموح له بالدخول، ما لم يسكن هنا. وهذا ما يجعله أكثر أمانًا. كما أن ثمنه توافق مع إمكاناتي. ولم أكن لأقدر على تحمل تكلفته، دون ماضيه».

– منذ متى تهتم بالمزايا التأمينية إلى هذا الحد؟

– منذ أن بدأت أتعرض لمضايقات من العملاء.

– لم أعلم أنك تواجه مضايقات من العملاء.

يتطلع إليَّ، مردفًا: «لأنني لم أرد إخبارك».

أقول، متذكرة المرات التي أجاب فيها على هاتفه، لينهي المكالمة على الفور، والطريقة التي يحدق بها إلى الشاشة أحيانًا، قبل أن يقرر ألا يجيب ثم يخبرني أنه رقم خاطئ: «أعلم أنك تتلقى مكالمات غير مرغوب فيها، لم أعلم أنها من عملاء. ومع ذلك، لم يأتِ أحدهم خلفك».

أسكت لبرهة عند استرجاع ذكرى من الماضي، وعندها أضيف: «فيما عدا تلك المرأة الشقراء، التي جاءتك في هارلستون. في ذلك الحين، سألتك عنها وقلت إنها أرادت أن تتعرف على ماهية الحياة في الريف. هل كانت إحدى عملائك؟».

– لا. لو أراد عميل أن يعرف مكاني، لتمكن من ذلك. لم أعطِ لأحدهم عنوانكِ مطلقًا، ولو أن شخصًا ما جاء إلى هارلستون بحثًا عني، يمكن أن يرشده أي أحد من البلدة إلى حيث منزلكِ، وسيطلِعه في الطريق على ما تناولتُه على العشاء الليلة السابقة.

لا تحمل حُجَّته هذه أي قدر من الصدق على الإطلاق. ما فتِئ يجنبني معرفة أي شيء عنه. ما الذي يُصرُّ على إخفائه؟

أقول في حيرة من أمري: «لكن مجاورة «ذا سيركل» مجتمعها محدود مثل هارلستون تمامًا».

يتنهد ضجرًا.

– ولهذا اخترتها. إنني أفضِّل الوحدات السكنية العادية التي ليس لها تصميم خاص، إنما مزودة بنظام أمان داخلي، مثل التي سكنتُ فيها سابقًا. لكنكِ أوضحتِ أنكِ لا ترغبين في العيش في وحدة سكنية، ولذلك بحثتُ عن اختيار آخر يُرضي كلينا. وهنا، لدينا الصحبة اللطيفة التي تهتمين بها، والأمان الذي أحتاج إليه. وها قد توصلنا إلى تسوية بيننا، يا أليس، تسوية لعينة أخرى!

أقول مصعوقة: «أهذا ما تعنيه لك العلاقات؟ تسويات؟».

يأخذ قدحه من الماكينة.

– سأتركِكِ تتناولين إفطاركِ في هدوء. إذا أردتِ التحدث إليَّ، ستجدينني في غرفة مكتبي.

الدمع يحرق مقلتيَّ. بقيت مستيقظة معظم الليل وما زلت لا علم لي بما يجب فعله. أميل إلى العودة إلى هارستون، لكن لو فعلت، سأضطر إلى استئذان ديبي للمبيت عندها مدة الأشهر القليلة المتبقية، فلن أستطيع إجبار المستأجرين على ترك المنزل دون إنذار مسبق. وكيف سيصير حالي وليو؟ إنه محق، حينها سنضطر إلى الرجوع إلى سابق عهدنا، ولا نرى بعضنا إلا في العطلات الأسبوعية، رغم أن هدفنا الأساسي من الانتقال إلى لندن هو تمضية وقت أطول معًا. كما يصعب عليَّ إخراج ما قاله بشأن صنع ذكريات جديدة من عقلي. لقد خلَّفت هذه الفكرة في داخلي إحساسًا بالالتزام أتخوَّف منه؛ إذا لم أقبل، سأكون كما لو أدير ظهري، ليس إلى نينا ماكسويل وحدها، التي أستشعر رابطًا بيني وبينها لا يقبل التفسير، بل وإلى شقيقتي أيضًا.

يأتي صوته من خلفي، فالتفت لأراه واقفًا عند المدخل: «نسيت أسألك. قلتِ إن أحد الجيران أخبركِ عن الجريمة، هل هي إيف؟».

– لا.

– إذن، من أخبرك؟

لا مفر. يجب أن أخبره بما أخبرت به الآخرين. فأجيب، مستوعبة فظاعة الأكاذيب التي تتراكم متخللة علاقتنا: «لم يخبرني أحد الجيران، بل أحد المراسلين».

– مراسلين؟ أتعنين من الصحافة؟

– نعم.

– هل جاؤوا إلى هنا؟

– لا، كانت مكالمة هاتفية.

– أمِنْ رجل أم امرأة؟

– من امرأة.

يمرر أصابعه في شعره يمشِّطه، علامة استيائه.

– هل ذكرَت اسم الجريدة التي تعمل لديها؟

ألتفت صوب ماكينة القهوة وأضغط الأزرار.

– لا.

– ألم تسأليها؟

– نعم، تأثرتُ للغاية ولم أنتبه.

– هل لديكِ اسمها؟

– لا.

– ماذا قالت، بالضبط؟

– أرادت أن تعرف إحساس العيش في منزل قُتل فيه أحد.

عندئذ توقفتُ على حين غرة، متسائلة عما إذا سيلاحظ أنني استخدمت أسلوب عبارته نفسه تقريبًا، التي أسمَعَني إياها عندما سألته عن المرأة التي جاءت إلى هارلستون -إنها مجرد امرأة تريد أن تتعرف على ماهية الحياة في الريف- مما يعني أننا صرنا متعادلين في الكذب.

– هل أضافت أمرًا آخر؟

أردُّ، ناظرة إليه في فضول: «لا. لماذا تسأل؟».

– لا سبب بعينه.

يغادر وأجلس إلى الطاولة. ثمة أمر غريب. يظهِر ليو ارتيابًا مريبًا إزاء المراسلة الوهمية. وفي بداية مواجهتي له البارحة، تصرَّف على نحو مبالَغ فيه، حتى أوشك أن يفقد وعيه. إنما سبب مداراته لمسألة شرائه هذا المنزل، دون غيره، لأنه مُزوَّدٌ بخدمة تأمينية يحتاج إليها -لا يُعَوَّل عليه.

أتجه إلى مكتبي، مُوصِدة الباب خلفي. منذ الليلة الماضية، لم تمسِ هذه الغرفة مقر عملي فحسب، بل وملاذي الآمن. عاد السرير إلى هيئته السابقة في صورة أريكة، والغطاء مطوي بعناية في الخزانة السفلية؛ لا يمكنني العمل في أجواء فوضوية. أجلس إلى مكتبي، وبي حاجة لمهاتفة جيني، فيما أستقبل رسالة إيف، لتطمئن عليَّ. أبعث إليها برسالة وأخبرها أنني بخير، وأني سأراها بعد انقضاء عطلة الأسبوع. تردُّ: **إذا احتجتِ إليَّ قبل ذلك، لا تترددي في الاتصال بي، مع قُبُلاتي.**

كم أنا محظوظة أن صارت لي صديقة تسكن على مقرُبةٍ من منزلي. منزلي! ما يزال لهذه الكلمة صدى غريب في عقلي. هل بوسعي اعتباره منزلي؟

أتصل بجيني.

تسأل: «كيف حالك؟».

– لستُ بأفضل حال.

– هل تحدثتِ إلى ليو؟

– نعم، وقال إنه لم يرِد إخباري لأنه رغب في الحصول على المنزل، ولو علمت عن الجريمة ما قبلت المجيء للعيش معه هنا. في هذا الشأن هو محق. إنما سبب رغبته في شراء هذا المنزل تحديدًا، لا تُعقل. قال إن السبب يرجع إلى أنه يقع في ضاحية مسوَّرة ولا أحد يدخلها ما لم يُسمح له من قِبل ساكنيها، فلقد تعرَّض لمضايقات من بعض عملائه.

تتساءل: «هل تعنين أنه وقع ضحية نوع من التهديد؟».

– لا أدري. لم يذكر أمر تلك المضايقات من قبل. ما أعلمه أنه كانت ترده مكالمات هاتفية لا يجيب على بعضها وفي البعض الآخر يغلق الخط على الفور. وذات مرة انزعج من ظهور امرأة أرادت التحدث إليه أمام منزل هارلستون. قال إنها ليست عميلة لديه، لكن بمجرد ذِكرها بلغ استياؤه منتهاه.

– كيف تبقين بجواره وهو بهذا الحال؟

– لقد نمت على الأريكة المتحولة إلى سرير في غرفة مكتبي، وسأستمر في النوم عليها الليلة كذلك.

– آسفةٌ كل الأسف، يا أليس.

– ممتنة لشعورِك هذا، لكن الوضع على ما يرام، أو سيصبح على ما يرام، على ما آمل.

أنهي المكالمة، وفي ذهني تساؤل عما إذا ستتحسن الأمور بيني وليو. لن أستطيع النوم في الغرفة العلوية مجددًا، ما دمت قد عرفت ما حدث فيها. هذه المسألة في حد ذاتها لا تمثل أي مشكلة، فبوسعنا النوم في غرفة الضيوف، وليو يمكنه أن يضع أجهزته الرياضية في غرفتنا بدلًا من المرأب، حيث يتدرب بدنيًّا في غالب الأحيان. أما في الوقت الحالي، لا أقدر على تصور مشاركتي معه سريرًا واحدًا. لكن ما الذي يسعى له توماس جرينجر وراء تحقيقه في جريمة القتل؟ ذكر أنه يحقق بالنيابة عن موكله الذي له قرابة أخوَّة، من المتهَم بالجريمة التي لم يرتكبها. لا بد وأن موكله شقيق أوليفر، أو شقيقته، ولذا أستبعدُ احتمالية إخفاق العدالة الذي يدَّعيه، إلى حد ما. من الطبيعي ألَّا يصدِّق أفراد العائلة المقرَّبون أن لدى أحبابهم قدرة على القتل. إنما اعتقادهم لا يمكن أن يلغي الواقع.

أبحث في هاتفي عن لقطة الشاشة التي أخذتها لصورة نينا. شعرها الأشقر الطويل مرفوع في عقيصة مُرتخية، وطوقان ذهبيان رفيعان يتدليان من أذنيها. تبدو سعيدة ومرتاحة البال في حين تجتاحني موجة مألوفة من الحزن.

أتمتم: «من قتلكِ، يا نينا؟ هل هو أوليفر؟».

تحدِّق نظرتها إليَّ، وثمة ابتسامة عند زاوية فمها، كما لو تقول لي: هذا دوركِ لتعرفي.

أتأمل الصورة بحثًا عن أثر لشقيقتي فيها. لا أجد شيئًا؛ شقيقتي نينا شعرها أغمق من شعر نينا في الصورة، وأغمق من شعري. أرادت شقيقتي أن يصير اسمي نينا مثلها. عندما كانت في الثالثة من عمرها، ووُلدتُ، أصرَّت على تسميتي فطلب منها والداي أن تختار اسمًا آخر، واختارت لي اسمًا من قصتها المفضلة، أليس في بلاد العجائب.

***

تنقضي عطلة الأسبوع، ونحن نتجنب الاحتكاك ببعضنا، نتحرك في المطبخ في اتجاهات متنافرة إذا تصادف وجودنا في الوقت نفسه. صِرنا نتصرف بتحفظ مبالَغ فيه وكأننا غرباء. عندما أخبرني أنه ذاهب

للعب التنس مع بول، أخفيتُ ذهولي من أفعاله. لو كنت مكانه، لاستحيتُ أن أَري أحدًا وجهي. عندئذ أفطن أنه، خلاف إيف ووِيل، لا أحد في المجاورة يعرف أنه لم يُطلعني على الجريمة.

استغلالًا للوقت، تمكنتُ من متابعة العمل الذي توقَّف يومَي الخميس والجمعة، وبحلول مساء الأحد، أنهيتُ القراءة الأولى للكتاب.

ما إن أشدُّ الأريكة السرير، يفتح ليو الباب.

يقول، فيما يساعدني على رفع المساند: «أشكركِ على بقائكِ معي في المنزل».

– ما زال احتمال مغادرتي قائمًا. لم أقرر بعد.

يومئ برأسه، موضحًا: «سأذهب إلى عملي في برمنجهام يوميًّا بداية من هذا الأسبوع. لذا لن تضطري إلى المبيت بمفردكِ في المنزل ليلًا، إذا ما قررتِ البقاء».

– أشكرك.

كدت أنسى أنني كنت سأبقى وحدي حتى الخميس. نرتِّب السرير معًا ثم أوصد الباب خلفه، مدهوشة من سخرية الموقف. فما يحدث لا يعني إلا بداية جديدة، فرصة أخرى تجلَّت من أجلنا –بمجرد أن ينتهي عقد عمله الحالي– لنعيش حياة عادية مثل زوجين، يلتقيان في المساء، وفي كل مساء، بعد انقضاء العمل ويتحدثان عن يومهما وجهًا لوجه. حتى لو استطعنا تجاوز محنتنا هذه، ماذا سيحدث في حال فشلت علاقتنا؟ ماذا لو اكتشفنا أنه يصعب علينا العيش معًا بصفة يومية؟ ربما يرجع استمرار علاقتنا حتى اللحظة إلى أننا كنا نقضي معظم أوقاتنا، منفصلين؟

لم أغفُ بعد، متذكرةً أنني بحاجة إلى بعض الملابس من أجل صباح الغد. ما زلت أستخدم التي أخرجتها من سلة الكَيِّ يوم الجمعة، لكنها أمست في الغسالة. الملابس النظيفة في غرفة النوم، التي لا أريد الاقتراب منها.

أراسل ليو:

قبل أن تغادر في الصباح، من فضلك اجلب لي بعض الملابس من غرفة النوم، واتركها على المقعد في البهو: بنطالي القصير الأبيض، وفستاني الأحمر، وبنطالي الجينز، وقميصان أبيضان قصيرا الأكمام، وآخران بلون أزرق كُحليٍّ، وأربعة أطقم من الملابس الداخلية. ولا تنسَ حذائي الرياضي الأبيض وصندلي الأزرق ذا الشريط الذهبي، مع بعض الجوارب. أشكرك.

ثم أطفئ هاتفي وأخلد إلى النوم.

الفصل الرابع عشر

في الليل أستفيق وقلبي يخفق بقوة بين ضلوعي. أيقظني شيء لا أعرف كُنهه. أنهض جالسة دون حراك، كاتمة أنفاسي، وأوصالي متشنجة، محاولة أن أستوعب ما يجري. عندها أدرك الأمر. ثمة أحد دخل الغرفة، وأحس غريزيًّا أنه ليس ليو.

لا يوجد قنديل لأنيره بجانبي، أقرب مصدر ضوء هو المصباح على مكتبي. أخاف بشدة أن أتحرك، أخاف بشدة أن أفتح عينيَّ. من وراء جفنيَّ المغمضين تتلفت عيناي في الأرجاء من حولي. أين هو؟ لِم لا أسمع أنفاسه، أو ألتقط حركة له؟ لا شيء، عدا إحساس أن أحدًا ما يراقبني. يثقل عليَّ مجهود إمساكي عن الإتيان بحركة أو نَفس، ويتلاشى شعوري أن أحدًا في الغرفة.

أنفاسي المحبوسة تنفجر في شهقة مرتجفة تشقُّ هذا الصمت الخانق هذه الليلة. أنتظر ريثما تنتظم ضربات قلبي، ثم أحرك قدمي تحت الغطاء. يعوقني ضعفي من مغادرة السرير، لذا أمدُّ ذراعي نحو المكتب لإنارة المصباح. لا يصل الضوء الأصفر الخافت كفاية إلى أركان الغرفة، إنما لا ألمح أحدًا مختبئًا هناك. الباب موارب قليلًا، ولا يمكنني التذكر إذا ما أغلقته قبل أن أنام أم لا.

أنهض من السرير، متحفزة للاتصال بليو، لكن أمسك عن ذلك. سأعتمد على نفسي. وقلبي يرتجف أضيء البهو، ثم آخذ نفسًا عميقًا وأتجول في غرف الطابق الأرضي بثقة مُفتعَلة، وأتابع إشعال الضوء مع تقدمي، لأدعم نفسي ببعض الشجاعة. ثمة كومة من الملابس على المقعد في البهو، لا بد أن ليو أحضرها إلى هنا، بعد أن غفوت، حتى يوفر على نفسه فعل ما طلبته منه في الصباح. أتابع تفقدي صاعدة السُّلم، أبحث في غرفة مكتبه وغرفة الضيوف، أما باب غرفتنا فموصد. أمسك مقبض الباب برفق وأَلُفُّه ليفتح. يصدر عنه صرير خفيف، فأكتم نفَسي متوقعة أنني أيقظت ليو وسيسأل عمن يدخل الغرفة. إنما لم يحدث. أقترب على أطراف أصابعي، وأجده مستغرقًا في النوم وأنفاسه عميقة منتظمة.

أعود أدراجي إلى الأسفل، لألمحها في انتظاري. أجد وردة بيضاء مقطوفة من الحديقة، موضوعة على إطار النافذة المجاورة لباب المنزل الأمامي. أبتسم بامتعاض لنفسي، مدهوشة من اعتقاده أن بوسعه استدرار رضاي عنه بتلك السهولة. آخذها إلى المطبخ، وألقيها في صندوق القمامة.

أنزلق إلى سريري، تاركة المصباح مضاء والباب نصف مفتوح، غير قادرة على النوم في ظلام دامس. ظننتُ أنني لن أنام، وفجأة، طلعت الشمس وتعدَّى الوقت موعد ذهاب ليو إلى برمنجهام.

***

في الصباح، أتلقى رسالة من إيف: **أتحتسين القهوة معي؟**

أتحقق من الوقت، إنها التاسعة لكن بإمكاني تأجيل البدء في العمل لفترة قصيرة. ثم أتجه إليها من فوري. تستقبلني عند الباب في ثياب هرولة بيضاء، فيما تأكل خبزًا محمصًا مغطًّى بطبقة كثيفة من زبدة الفول السوداني.

تقول، وهي تقدِّم إليَّ طبقها: «أتممت مسافة خمسة أميال ركضًا هذا الصباح، لذا يحق لي تناول الكمية التي أريد. تحتاجين إلى ذلك أنتِ أيضًا، بعد الأسبوع المروع الذي مررتِ به. أم أنه لم يكن بذلك السوء؟».

أتناول قطعة من الخبز المحمص وأتبعها إلى المطبخ.

– في نظري كان أسبوعًا مروعًا بالنسبة إلى ليو، أما من جهتي فقد تمكنت من إنجاز الكثير من العمل. مما شغل ذهني عما خلافه، وهذا أفضل ما صار.

– هل هذا يعني أنكِ احتملتِ المبيت في المنزل؟

– نعم، لكنني أستخدم غرفة مكتبي في الطابق السفلي للنوم.

تضع الطبق على منضدة الإفطار، ثم ترفع نفسها لتجلس إليها، وتحمل طبقها ثانية.

– كيف يتعامل ليو مع هذا الأمر؟

– نحافظ على مسافة بيننا حتى أكتشف طريقة لتحسين شعوري، فقد باتت كل الأمور توترني. أشعر أنني أود الابتعاد عن هذا المنزل، وحتى الابتعاد عن ليو، لولا أنه قال إن بمقدورنا صنع ذكريات جديدة فيه معًا.

تميل رأسها إلى الجانب، متطلعة إليَّ.

– وماذا ترين في قوله هذا؟

– لست واثقة مما أراه. إنه اقتراح غريب، ومع ذلك يعتريني إحساس منذ أن اقترحه ليو، كما لو وعدتُ نينا بالمكوث في المنزل. في بعض الأحيان، أنغمس في ذكرياتها بطريقة ما. عندما عدتُ إلى المنزل الخميس الفائت، بنحو ما استشعرت روحها في المكان، حتى صرتُ أراها تجلس في غرفة المعيشة برفقة أوليفر، أو أراهما معًا في المطبخ.

أتوقف للحظة، ثم أضيف بنبرة خافتة: «أما عند التفكير في مدى المعاناة التي عاشتها، تتهاون في نظري أي مشقة أواجهها. ربما ليو محق، ربما الطريقة الوحيدة لتخليص المنزل من أجوائه المشؤومة، جراء ما وقع فيه، هي أن نخلق فيه ذكريات جديدة».

– مَلء المكان بالأوقات السعيدة لتطرد الأخرى التعيسة، مسألة لا غرابة فيها على الإطلاق. ألن تجلسي؟

لم أنتبه أنني أروح وأجيء في المطبخ على غير هدى. أسحب مقعدًا وأجلس.

– أرجو المعذرة. سيواصل ليو ذهابه إلى عمله في برمنجهام حتى الخميس، كما هي عادته، إنما سيعود مساء كل يوم، لذلك لن أمكث في المنزل وحدي ليلًا.

– يا له من اهتمام حسنٍ من جانبه.

– ماذا قد تفعلين، لو كنتِ في مكاني، يا إيف؟

– ما دمتُ أستطيع التأقلم مع الأوضاع الجديدة، كما أراكِ تفعلين، فقد أمكث في المنزل لفترة أخرى بعد، وأرى إلى ماذا سيؤول الحال.

– قد يتحسن شعوري إذا ذهبت لأقرع أبواب كل المنازل، موضِّحة للجميع أنني لم أعلم شيئًا عن جريمة القتل إلا بعد انتقالي إلى هنا. إنما قد يبدو تصرفي غريبًا.

– لو تودين أن تُعلِمي الجميع، يمكنني إخبار تامسين وماريا، وهما ستخبران جيرانهما، الذين سيخبرون جيرانهم، وفي غضون وقت قليل، سيصبح الأمر معلومًا في المجاورة بأكملها. هل تريدينني أن أفعل ذلك؟

– نعم، من فضلك. لا أريدهم أن يظنوني قاسية القلب.

لكن يخطر في بالي خاطر يقلقني، فأتساءل: «ماذا سيظنون بي عندما يعلمون أنني أمسيت على معرفة بأمر الجريمة، ومع هذا مستمرة في العيش في المنزل، ولو للوقت الراهن فحسب؟».

– يعتقدون بالفعل أنكِ على دراية بالأمر، وجُل نظرتهم إليكِ كانت نظرة إعجاب بشجاعتك. وهذا ما سيواصلون رؤيتكِ عليه، أنكِ شجاعة. كما لا يقدر معظم الناس على احتمال تكاليف الانتقال والاستئجار، ومنازلهم لم تُبَع، ولذا سيتفهمون سبب احتياجكِ إلى العيش فيه. ومنزلكِ الريفي غير متاح بعد، ولا يمكنكِ العودة إليه. بخلاف كل ذلك، لماذا تولين اهتمامًا كبيرًا لما يظنه الآخرون؟

– لا أريد أن أُعامَل كالمنبوذة، رغم أنني ساكنة جديدة هنا.

تنفجر إيف في الضحك.

– لن تصبحي منبوذة أبدًا!

أردف، مُفاجِئة نفسي، فلم أفكر في الأمر بجدية قبل التفوه به: «إذن، إذا دعوتكن، أنتِ وتامسين وماريا، لتناول الغداء يوم الأربعاء قبل ذهابكن لصف اليوجا، هل ستحضرن؟».

– بلا أدنى شك! ألم نحضر أمسية المشروبات في منزلك؟

– أودُّ أن أدعو كارا كذلك، إنما لا أظنها تكون في المنزل في أثناء النهار. أصحيح أنها تعمل لدى جوجل؟

– نعم، إنها مهندسة برمجيات، وساعات عملها غير محدودة. لذلك لن تعثري عليها إلا في عطلات الأسبوع.

– إذن، سيقتصر العشاء علينا نحن الأربع.

أغادر بعد حديث وجيز آخر، عرضت عليَّ خلاله إيف أن أنجز عملي في منزلها، لكن ما دمتُ سأمكث هنا في هذا المنزل، فأحتاج إلى اعتياد وحدتي فيه. أتمتم لشقيقتي في الصورة المعلَّقة على الثلاجة: «ماذا قد تفعلين، يا نينا؟ أكنتِ ستبقين أم ترحلين؟».

لم يأتني جواب، عدا السكون المُطبِق في المنزل الخالي.

قررتُ ألا أقرأ الكتاب لمرة ثانية وأبدأ في ترجمته. تتطلب الترجمة التركيز، وأحتاج في الوقت الحالي إلى تكثيف انتباهي إلى أي شيء، عدا ما يخص جريمة القتل.

لدهشتي ينقضي النهار بسرعة. ويعود ليو، متخذًا منهجًا مغايرًا للاعتذار، في محاولة لإصلاح الأمور التي أفسدها.

يقول، معلِّقًا على شعري الذي ضفَّرته كي أبعده عن وجهي فيما أعمل: «يبدو شعركِ لطيفًا هكذا».

– أشكرك.

يردف متنهدًا: «أخبريني، كيف يمكنني مصالحتك؟».

– لا أدري كيف، ولا أدري إن كان باستطاعتك. كيف أثق بك، وقد أخفيت عني أمرًا بتلك الجَسامة؟

أكثر ما أبغضه هو شعوري أني أظلمه. لكنني لن أرتمي بين أحضانه وأطلب منه العفو، هذا أمر أرفضه بشدة. يعرض أن يحضِّر عشاءً لنا ولا أقبل، فيأكل في عجالة ثم يتجه إلى غرفة مكتبه ليتوارى فيها. لم يذكر شيئًا عن الزهرة البيضاء التي رميتها في سلة المهملات، ربما لم يرها.

يسود المنزل الهدوء، هدوء تام. أنتبه أنني لم أطلِع ليو على أني أظن أحدًا دخل المنزل ليلة أمس، لدي رغبة شديدة في أن ألحق به وأخبره. إنما لا أريده أن يرى ذلك ذريعة مني لأتحدث إليه. لم يكن ثمة أحد، على أي حال، لم تكن سوى ذكرى الجريمة بصحبتي تتلاعب بعقلي.

الفصل الخامس عشر

أترك لإيف مهمة إبلاغ ماريا وتامسين بدعوتي لتناول الغداء، ويصل ثلاثتهن معًا في الساعة الثانية عشرة من الظهيرة، يحملن باقة زهور مقطوفة من حديقة ماريا وزجاجة نبيذ. يرتدين البناطيل القصيرة والقمصان الخفيفة، مما يجعلني أبدو في تنورتي الفِضفاضة ومتوسطة الطول، أنني أفرطتُ في ارتداء ملابسي.

أقول، مفسحة لهن المجال للدخول: «مرحبًا بكن».

تدخل إيف وماريا على الفور، بينما تامسين تتردد عند الباب للحظة متوترة، أظنها ما زالت متحفظة بعض الشيء تجاه تناول الغداء معي.

تقول: «أرجو المعذرة؛ دومًا ما يذكِّرني المنزل بها، نينا».

– لكِ حق.

أومئ لها متعاطفة، وما إن أهمُّ بمواساتها ومعانقتها، تخطو إلى الداخل في عجالة.

تسأل ماريا، وهي تعانقني: «كيف حالك؟ لا بد أن صدمة اكتشافكِ لأمر نينا لم تكن هينة عليك. لا يمكنني تخيل سوء المشاعر التي اعترتكِ حينها».

أوضِّح لها، فيما أرشدهن إلى الحديقة: «كنت غاضبة ومرتعبة. أردتُ أن أترك المنزل، ولم أرَ أنه بوسعي المكوث فيه».

تقول تامسين بحدة: «لكنكِ ما زلتِ تمكثين فيه».

ومَنْ سينتقدني، غيرها.

ألتفت نحوها، مبتسمة بحذر، قائلة: «هذا صحيح، ما زلت أمكث فيه. إنما أملتُ أن تخبريني عن نينا. لن أقدر على النوم في الغرفة العلوية مجددًا، ما دمتُ لا أعلم إن عاشت أوقاتًا سعيدة هنا، مما قد يسهم في التهدئة من روعي».

تلين ملامح وجهها، قائلة: «لقد عاشت الكثير من الأوقات السعيدة هنا».

تقول إيف: «هلَّا تابعنا حديثنا ونحن نأكل؟ سنضطر إلى الذهاب في نحو الساعة الواحدة وأربعين دقيقة من أجل صف اليوجا».

أقول: «نعم، أدري ذلك، ولذا حضَّرتُ على الغداء فطيرة السلمون مع السلطة، وفراولة للتحلية. أتمنى أن يعجبكن اختياري».

تبتسم ماريا.

– أحسنتِ الاختيار!

اليوم هو أحد أيام منتصف سبتمبر اللطيفة، التي يعم فيها دفء الشمس الحديقة. تحمل نسمة رقيقة الرائحة الخلابة لزهور «الفُلُوكس» مُبهِجة الألوان، إلى حيث نتناول غداءنا في الشرفة، مما يضفي انطباعًا

أن الصيف لم ينقضِ بعد. لديَّ العديد من الأسئلة عن نينا لأوجهها لهن، إنما أكبح قلة صبري بالسؤال عن أحوال أبناء ماريا، كما أن لتامسين، طفلتين، «آمبر» و«بيرل».

أعلِّق: «كم يعجبني اسماهما».

تبتسم، قائلة: «أشكرك. إذا زرتِنا أيام الأربعاء بعد الظهيرة، ستتعرفين إليهما بنفسك».

أردف، مسرورة أن الدعوة جاءت منها شخصيًّا: «أودُّ ذلك. لم أرهما إلا من مسافة بعيدة».

أتريث قليلًا حتى يرجِعن ظهورهن للوراء، وتفرغ أطباقهن. ثم أبادر بالقول: «علمتُ أن نينا بلغت الثامنة والثلاثين من عمرها، وأعلَمتْني إيف أنها كانت معالجة نفسية، وهذا جُل ما أعرفه عنها».

تنفض تامسين بعض الفتات عن قميصها الأبيض الناصع قصير الأكمام، قائلة: «أحبَّت عملها، أحبَّت مساعدة الآخرين. أعطتْ من وقتها للجميع، وقتما واجه أحد مشكلة واحتاج إليها استقبلتْه. كثيرًا ما ساعدتني».

– وماذا عن أوليفر؟ فيمَ عمل؟

تجيب ماريا: «عمل في شركة شحن. لا أعرف وظيفته تحديدًا، غير أنه كثيرًا ما سافر للخارج».

– وهل عاشا سعيدين معًا؟

– نعم، للغاية.

– باستثناء.. أنه قتلها.

تخترقني نظرة تامسين المحدقة عبر الطاولة.

– من قال لكِ ذلك؟

أرد سريعًا: «لا أحد. هذا ما قرأته في التقارير الإخبارية».

– وهل أفادتكِ التقارير بمعرفة وافية؟!

تتدفق الدماء إلى وجنتي، متحرجة من هذا التغير المفاجئ، كما لو انخفضت الحرارة عشر درجات فجأة.

في محاولة لاسترجاع الحال لسابق عهده، أقول لها: «جُل ما أسعى له هو فهم لطبيعة شخصيتها فيما مضى. ذكرتْ إيف أنها كانت تميل إلى الروحانيات وأنها مَن ابتدأت صفَّ اليوجا. هل مارستْ هوايات أخرى؟».

تذهب محاولتي سُدى، وببرود تقول: «وبماذا سيفيد ذلك؟ لم يعد للأمر أهمية».

أكره أن أضطر إلى البوح بما يخص شقيقتي، كتذكرة خروج من المأزق، إنما أعجز عن التفكير في حل آخر لتتفهم قصدي. أدفع مقعدي للخلف، فتنظر إليَّ إيف بأعين قلقة.

– لا بأس. سأذهب لإحضار الفراولة. وسأحمل الأطباق الفارغة لأضعها هناك.

في المطبخ، أتدبر أمر الأطباق، ثم أخرِج الفراولة من الثلاجة، وأسحب صورة نينا عن سطح بابها.

أسأل تامسين، فيما أضع أمامها الفراولة، قبل أن أعود إلى مجلسي: «أأخبرتكِ إيف عن شقيقتي نينا؟».

تتململ في إحراج: «نعم، أخبرتني. آسفة لمصابك».

أردف رافعة الصورة: «هذه هي».

تأخذها ماريا من يدي، قائلة: «كانت جميلة».

تطلب إيف: «أيمكنني رؤيتها؟».

تتأمل الصورة ثم ترفع نظرها تجاهي، وتضيف: «عيناها تشبهان عينيكِ».

ألتفت إلى تامسين، متابِعة قولي: «هذا صحيح. عسى إيف أخبرتكِ أن شقيقتي تُدعى نينا. قد يبدو دافعي أحمق، إنما منذ وفاتها، لديَّ اهتمام بالتعرف على حياة كل «نينا» أقابلها».

تبتسم ماريا، معلقة: «ليس أحمق على الإطلاق. لم أعرف شقيقتكِ نينا، إنما نينا التي نعرفها أحبَّت التقاط الصور العَفوية. أمسى الأمر مزعجًا أحيانًا، لأنها قد تلتقط لكِ صورة وأنتِ في أسوأ حالاتكِ، في أثناء تناولكِ الطعام وفمكِ مفتوح أو ممتلئ بالأكل».

تضيف إيف، وتُضحكني مُقلِّدة وضع آخر: «أو بعد إسرافكِ في الشراب، وتصير في عينيكِ تلك النظرة الزائغة وأنفكِ محمر».

عبر الطاولة، توجِّه ماريا نظرة إلى تامسين، قائلة: «رغم ذلك، التقطَت العديد من الصور المميزة. لديَّ صور رائعة لأولادي، ولديكِ صور لبنتيكِ أيضًا، أليس كذلك؟».

على غير ما آمُل، تمتلئ عينا تامسين بالدموع، مردفة: «بلى. ما زلتُ حزينة لفراقها».

مستشعرة بالذنب، أقول: «اعذريني. ليتني ما سألتكِ عنها. أردتُ فحسب... لست واثقة. ربما وددتُ استرجاع روحها، ووددتُ أن أتعرف إليها كأنها لم تزل حاضرة، على أمل أن يساعدني ذلك على اتخاذ قرار سواء بالبقاء أو بالمغادرة».

تبحث عن منديل ورقي وتمسح أنفها.

– أتمنى أن تبقي. من الرائع أن المنزل سُكن من جديد، وإلا ظل ضريحًا للأبد.

بدا كلامها من صميم القلب.

– أشكركِ على شعوركِ هذا.

ثم تضيف: «ذكرت إيف أنكِ اكتشفتِ أمر جريمة القتل من مراسلة صحفية، أصحيح؟».

– نعم، صحيح.

ثم تمسك حقيبتها وتنقِّبها، لتسحب حزمة مناديل ورقية أخرى.

– ماذا قالت لكِ، تحديدًا؟

لا أرغب في أن ترتد عليَّ كذبتي، لذا أذكِّرُ نفسي بما أخبرتُ به إيف، لأقوله لها: «سألت عن شعوري حيال السكن في مسرح جريمة قتل بشعة».

– ألم تقل شيئًا غير ذلك؟

– بلى. قلتُ لها إنني لا أعلم عما تتحدث ونصحتني أن أبحث في جوجل عن مقتل نينا ماكسويل.

– هل أطلعتكِ على اسمها، أو المؤسسة الإخبارية التي تعمل لصالحها؟

أسئلة تامسين لا تريحني. هل تعلم أنني أكذب؟

– لا، لم تفعل.

– إذن، ماذا جعلكِ تجزمين أنها مراسلة صحفية؟

بالتأكيد تعلم أني أكذب.

– لم.. لم أجزم، إنما افترضتُ فحسب أنها كذلك. ومَنْ قد تكون، إن لم تكن مراسلة؟

تقول ماريا بلطف: «كفى، يا تامسين. إنكِ تضيقين الخناق على أليس».

– عذرًا. يبغِضني أمر الغرباء عندما يدسون أنوفهم، ويفتحون جروح الماضي، بعد أن بدأت أمورنا تستتب.

بنبرة مبهجة تقول إيف: «لنتحدث عن أمر آخر، عن عيد الميلاد أو الهالوين أو دعوة ماريا لنا لتناول العشاء يوم الجمعة».

ثم تنظر إلى ماريا إزاءها، مضيفة: «أما تزال الدعوة قائمة؟».

تضحك ماريا، قائلة: «من الجيد أنكِ ذكرتِني. تامسين وأليس، هل يناسبكما الجمعة القادمة لتناول العشاء في منزلي؟ لم أخبر إيف عن الدعوة إلا بالأمس، وستتمكن هي ووِيل من الحضور، وسيسعدني أن تتمكنا من الحضور أيضًا».

لم يأتِها رد من تامسين، التي تحدق نحو النافذة، شاردة في أفكارها.

تسألها بصوت أعلى: «هل أنتِ وكونر متفرغان يوم الجمعة، يا تامسين؟».

تهزُّ تامسين رأسها بسرعة، كما لو تزيل غمامة عن ذهنها.

– ماذا؟ نعم، لماذا تسألين؟

– من أجل العشاء في منزلي.

– من دواعي سرورنا، أشكركِ على دعوتنا.

– وماذا عنكِ، يا أليس، هل أنتِ وليو متفرغان؟

أقول: «حسبما أعتقد».

– تأكدي أن الموعد مناسب مع ليو وأبلغيني.

أعِدها أن أفعل: «سأعلم منه الليلة».

بعدها بقليل يغادرن وأنهمك في التنظيف، وفي ذهني أمر دعوة ماريا. أودُّ الذهاب كي لا تفوتني فرصة التعرف عن قرب إلى مجموعة أصدقاء نينا وأوليفر. أرغب في أن أرى كيف ينسجم هؤلاء الأزواج مع الآخرين، وكيف يتعاملون مع بعضهم بعضًا، كما أرغب في توطيد علاقتي بهم. هنالك الكثير مما لا أفهمه، مثل اتفاقهن على أن نينا وأوليفر كانا أسعد زوجين. لو أن الحال كذلك، ما الذي دفعه لقتلها؟ يخطر في بالي ما ذكرته إيف بشأن لورنا وأنها شهدت كل ما صار، فأقرر الخروج لزيارتها.

في غرفة مكتبي، أبدِّل بقميصي الذي لطَّخته تتبيلة السلطة آخر نظيفًا، ثم ألتقط مفاتيحي من المنضدة في البهو، وأسرع بفتح الباب الأمامي، ليصطدم نظري بوجه توماس جرينجر.

الفصل السادس عشر

بُهتَ لرؤيتي بقدر ما بُهتُّ لرؤيته. ينزِل ذراعه التي رفعها ليضرب الجرس، إلى جانبه بسرعة، ويتخذ خطوة للوراء كما لو يتجهز لمفاداة مهاجمته لفظيًّا.

ثم يرفع يديه في وضع دفاع عن النفس.

– آسف لإزعاجكِ، يا سيدة داسن. سأغادر من فوري، لا داعي للجزع.

– انتظر لحظة.

يقف، وجذعه نصف مُلتفٍّ نحو الممر. وأضيف: «ذكرتَ المرة السابقة أنك تحقق في قضية مقتل نينا ماكسويل».

يلتفت إزائي، مردفًا: «هذا صحيح».

– لماذا تحقق في القضية الآن، بعدما مرَّ أكثر من عام على وفاتها؟

– إنني أحقق فيها منذ أن أنْهى زوجها حياته منتحرًا. لكن اضطررتُ إلى تأجيل التحقيق بسبب عدم حصولي على معلومات وافية. أعمل محققًا خاصًّا، مما يعني أنني شخص غير مرحَّب به، كما لا تلقي الشرطة بالًا لتحقيقاتي.

– ما المعلومات التي تريد الوصول إليها؟

يشدُّ انتباه عينيَّ ويمعن النظر فيهما. أذكر أن هذا ما فعله بالضبط المرة الماضية. أريد أن أبعد نظري عنه ولا أقدر. إن في عينيه سحرًا يفتنني.

– لم أتصور أنني سأشرح الأمر وقوفًا على عتبة الباب.

إما أن أستغلَّ الفرصة الآن، وإما فَلا. إذا لم أدعُه للدخول، سيذهب دون عودة. أزيد فُرجَة الباب، ويخطو إلى البهو.

– أشكركِ، أقدِّر بشدة سماحكِ لي للحديث إليك.

أرشده إلى غرفة المعيشة، مستغربة من تصرفي وسماحي لشخص غريب بدخول منزلي. على الرغم من أن ملابسه أنيقة –سترة خفيفة غير رسمية وقميص أزرق باهت مفتوح الياقة– فإنها لا تنفي احتمال كونه قاتلًا. يُحتمَل أنه قاتل نينا. أسحب هاتفي من جيبي، وأمسكه في يدي. أشير إلى مقعد وثير ليجلس عليه، بينما أمكث واقفة مكاني عند باب الغرفة، حيث يمكنني الفرار سريعًا، إن احتجت إلى ذلك.

يقول توماس: «أودُّ أن أعتذر منكِ ثانية عن الصدمة التي سببتها لكِ الأسبوع الفائت، عندما أخبرتكِ عن جريمة القتل. لم أدرِ أنكِ لا تعرفين».

– أدرك ذلك.

– أتمنى أنني لم أسبب لكِ مشكلة دون قصد.

لن أخبره أن ليو لم يطلعني على الجريمة وأننا شبه منقطعين عن محادثة بعضنا. كما لا يخصه من أمرنا شيء حتى لو أخبرته أننا متزوجان، ونحن لسنا كذلك.

– لا مشكلة على الإطلاق. ما زلتُ وزوجي نتباحث فيما سنفعله، بعد أن تغير شعورنا حيال العيش هنا.

– يمكنني تفهم ذلك.

– أرى أن تبدأ في التوضيح من البداية. كيف علمتَ بشأن حفل تناول المشروبات الذي أقمناه هنا؟

– أخشى أنني لا أستطيع البوح لك.

– لماذا؟ هل لك علاقة بأحد بعينه في المجاورة؟

يقابل نظرتي في ثبات وبرود.

– لا، مطلقًا.

ينتظر حتى أتخطى هذه النقطة، ولَمَّا لم أفعل، يومئ، مضيفًا: «دعينا نقول إنني علمتُ من خلال الدعوة التي أرسلتِها».

أستغرق برهة حتى أستوعب.

– هل اخترقتَ مجموعة الدردشة الخاصة بنا على الواتساب؟

لم ينفِ ولم يؤكد، كما لا أدري إذا ما تُخترق مجموعات الواتساب حقًّا. إنما لا أريد الضغط عليه أكثر للإجابة؛ مهما سأحاول لن ينطق بكلمة.

أنتقل إلى نقطة أخرى، قائلة: «ولماذا قررتَ التطفل على الحفل ليلتها؟».

يبتسم ابتسامة ودودة.

– أعي أنه ليس تصرفًا أخلاقيًّا من قِبلي. لكنني أحاول أن يُسمح لي بدخول المنزل على مدار عام كامل. ذات مرة، تظاهرت أنني جئت لشرائه، لكن ظل الوكيل العقاري برفقتي طيلة الوقت، ولم أتمكن من إتمام ما تمنيت فعله، وهو إلقاء نظرة متفحصة في أرجاء الغرفة التي وقعت فيها جريمة القتل. دون معرفة واضحة بنطاق المكان الذي لقيت الضحية فيه مصرعها، يصعب إعطاء تصور ممكن موازٍ لما حدث ليلة مقتلها. عندما تبين لي في أثناء زيارتي للمنزل متخفيًا أنني لا أُترك بمفردي لحظةً، تأكدت الشكوك لدي أن شقيق موكلي لم يتسبب في مقتل نينا ماكسويل. إنني مُتيقِّن أن الوكالة العقارية لديها تعليمات من الشرطة ألا يغضوا الطرف عن أي أحد يُبدي أدنى اهتمام بشراء المنزل.

أُثير فضولي، فأتحرك إلى المقعد الأقرب إلى الباب، وأستند إلى ذراعه جاثمة.

– لماذا قد تطلب الشرطة ذلك؟

– عسى أن يعود القاتل الحقيقي إلى مسرح الجريمة، وعندها بطريقة ما سيكشف نفسه بنفسه.

– لكن ألا تعتقد الشرطة أن القاتل مات، وأن القضية أُغلقت؟

يتطلع إليَّ ووجهي متجهم.

– لا، حسب مصادري. لكل محقق خاص مصدره السري داخل الشرطة، كما لدى الصحفيين تمامًا. وفي كثير من الأحيان يتشارك المحقق والصحفي المصدر نفسه. ولقد أَخبَرني مصدري أن التحقيق لم يزل

ساريًا.

يسكت للحظة، ثم يسأل: «هل كانت خبرتكِ مماثلة لما ذكرته لكِ عند زيارتكِ الأولى للمنزل؟».

– زوجي هو من زاره دون حضوري. لم أرَ المنزل إلا بعد أن اشتريناه.

يسرع إلى إخفاء اندهاشه، إنما ليس بالسرعة الكافية. عندئذ أعيد عليه السؤال: «إذن، ماذا حدث في أمسية المشروبات؟».

يوجِّه لي ابتسامة هادئة.

– ظننتُ أنني سأنضم إلى الحفل دون أن يلاحظني أحد. لم يخطر في بالي أنكِ لم توجِّهي الدعوة إلا للساكنين هنا فحسب. وما إن أدركتُ ذلك غادرت على الفور.

– إن السيدة التي تعيش في المنزل المجاور لي، التي سمحت لكَ بعبور البوابة، امرأة مُسنَّة وتأثرت بصورة مبالَغ فيها جرَّاء ما حدث. اعتراها الاستياء عندما علمت أنك لست أحد أصدقائي.

– آسف لذلك. أكرر لكِ أنني تصورتُ أن الحفل كبير واعتقدتُ أنني سأتمكن من التسلل من البوابة وراء أحد المدعوين.

– وكيف تمكنتَ من تجاوز البوابة هذه المرة؟ أأزعجتَ جارتي لتدخِلك ثانية؟

يهزُّ رأسه نافيًا.

– اعتزمتُ أن أتصل بكِ على الهاتف الداخلي، متأملًا أن تقبلي الاستماع إلى ما أريد قوله. ثم، وجدت أحدهم يسبقني متجاوزًا البوابة، فسمح لي بالدخول معه. أملتُ لو أنصحه أنه يجب عليه توخي الحذر، لكنني افترضتُ أنه لو أراد أن يتصرف وفق القواعد التأمينية، لصفق البوابة في وجهي ببساطة، غير أن الناس لا يفعلون ذلك بطبيعتهم، بل يميلون إلى التصرف بتهذيب مبالَغ فيه. وفي المرة السابقة التي جئت فيها لزيارتكِ، دخلتُ من البوابة الرئيسية مشيًا على قدمي في إثر سيارة.

يصمت للحظات أخرى. ثم يقول: «لا أدري إذا صرتِ أو زوجكِ أعضاء في رابطة السكان أو اللجنة الخاصة بالمجاورة، إنما من الأفضل أن تناقشا مسألة سهولة التسلل، وإمكانية تغيير رموز الدخول. لقد استطعت أن ألتقط الرمز الخاص بالرجل الذي أدخلني، دون أن يلاحظ».

– معذرة، لا أفهم حتى اللحظة سبب مجيئك إليَّ.

يتململ في جلسته.

– صدقيني، ما جئتُ لإزعاجكِ في هذه الآونة، لولا أن الوقت ينفد.

– ماذا تعني؟

تغشو وجهه غمامة من الحزن.

– إن صحة موكلتي تتدهور. وهي عاقدة العزم على تبرئة شقيقها من التهمة الملحَقة باسمه، بكل قوتها.

يسكت للحظة، وألمح نوعًا من التَخبُّط يعتمل داخله.

يقول، متمالكًا تخبطه: «لقد ارتدتُ الجامعة نفسها مع «هيلين». لم أتعرَّف إلى أوليفر عن قرب لأنه صَغرنا بخمسة أعوام، إنما حينها لم يخف عني مقدار حبِّ شقيقته له. عندما أخبرتني أنها لا تصدق أن

أوليفر هو المسؤول عن مقتل نينا، وطلبت مني أن أساعدها، لم أقدر على الرفض».

أومئ في تعاطف، وكُلي أسف على ما تمر به شقيقة أوليفر.

أستفهم منه: «ما الذي جعل شقيقته تتبنى اقتناعًا شديدًا أنه لم يقتل نينا؟ لا يقبل الناس تصديق سوء يخص أحباءهم. ربما لا يمكنها فحسب أن تصدق أن شقيقها استطاع القتل».

– هذا ما جال في خاطري في البداية بالضبط. أكره الاعتراف بذلك، إنما هذا ما حدث، حتى إنني –رغم فظاعة تصرفي– لم آخذ طلبها بالنظر إلى القضية على محمل الجد إطلاقًا واستخفَفتُ بموقفها، لأنه وفقًا لخبرتي، رأيتُ ملف القضية يحمل بين طياته دلائل لجريمة قتل عن انفعال عاطفي، مكتملة الأركان. ومع ذلك، شهد أناس كثيرون أنه كان من ألطف وأطيب الرجال، كما أنه عشق نينا. أما الشامتون اعتبروا انتحاره اعترافًا ضمنيًّا أنه قتل نفسه لعدم تحمله لما فعله بها. وأولئك الذين عرفوه عن قرب اكتفوا بانتحاره دليلًا على كسره قلبه، فلم يتحمل العيش دونها، ولم يتحمل العيش مع ذكرى فراقها مقتولة بعنف.

أتساءل، إلى أي فريق تنتمي كلٌّ من إيف وتامسين وماريا؟ لقد عرفن أوليفر، ووصفنه بأنه أروع رجل قابلنه، ومع ذلك، يقتنعن أنه مَنْ قتل نينا. كيف يُعقل هذا التناقض؟

أنتبه إلى أمر، فأسأله: «انتظر لحظة. أقلت إنها تُعدُّ «جريمة قتل بدافع عاطفي»؟».

– نعم.

يسكت للحظة ثم يوضح: «على ما يبدو أن نينا تورطت في علاقة غرامية».

– علاقة غرامية؟

أحدق إليه، وينحني إلى الأمام في مقعده. بشرته شاحبة، تقرب للشفافية، تتباين بشدة مع شعره الداكن.

– نعم.

– لكن... مع مَنْ؟

– هذا ما أحاول اكتشافه.

– وبماذا سيفيد ذلك؟

– لأنني أرى أن له يدًا في مقتلها.

يترنح عقلي.

– هل لدى الشرطة عِلم بشأن تلك العلاقة الغرامية؟

– بالطبع.

– إذن لا بد أن عشيقها اكتُشفتْ هويته، واستُبعد من قائمة المشتبَه بهم.

يوافقني القول: «تفكير صائب».

أردف: «أفترض أنه لو عرف أوليفر أن نينا لها عشيق، فهذا يعتبَر دافعًا لقتلها».

– باستثناء أنه، وفقًا لأقوال مَنْ عرفوه، لم يكن ليؤذي نينا على الإطلاق.

أضيف في نبرة تحمل بعض الحدة: «لا أدري سبب ظنك أنني سأقدم يد المساعدة. لقد انتقلتُ إلى هنا حديثًا، كما ترى».

يقول بجدية: «لهذا السبب تحديدًا ألتمس مساعدتك. حينما طلبت مني هيلين، بادئ الأمر، أن أتمعن في حيثيات القضية، حاولت التحدث إلى الساكنين في المجاورة بنفسي. لكن فاجأني، ليس عدم ترحيبهم بالمعنى الدقيق، بل كَم الأفواه المتكتمة. وذلك سبب آخر أنني لم أطل البقاء ليلة أمسية المشروبات. عندما نظرتُ من نافذة المطبخ، ورأيت كل أولئك الذين دعوتِهم مِمنْ سبق لي محاولة التحدث إليهم، ارتأيتُ أنه من الحكمة المغادرة من فوري، قبل أن يتعرف عليَّ أحدهم».

يتوقف قليلًا، ثم يقول مضيفًا: «لم تلتقي نينا، ولا تعرفين الساكنين هنا عن قرب بعد، مما يضعكِ في طرف محايد. أدرك أنني أغالي في طلبي، إنما جُل ما أحتاج إليه منكِ إذا سمعتِ أمورًا تخص الجريمة، خلال محادثات الجيران، أن تتكرمي بإطلاعي عليها».

أقف معتدلة.

– متأسفة، أرفض بشدة.

بالكاد يبتسم، ناهضًا على قدميه. ثم، يمدُّ يده للمصافحة.

– أتفهم بالتأكيد. أشكركِ على الاستماع إليَّ. وداعًا، يا سيدة داسن.

يده قوية في المصافحة، وتوحي أنه شخص يُعتمَد عليه. مما يشعِرني أن باستطاعتي الثقة به، إنما في الوقت نفسه، تعتريني خيبة الأمل، بعد طلبه مني أن أخون ثقة هؤلاء الناس الذين أرغب في اتخاذهم أصدقاء لي. ونظرًا للظروف التي أوضحها، أرى أنه يمكن تفهم رغبته في الوفاء بوعده لشقيقة أوليفر قبل فوات الأوان. رغم انبهاري باستعداده لبذل ما في وسعه من أجل صديقته، فلا يعجبني مسألة إعطائها أملًا كاذبًا، أو تولي قضية خاسرة إرضاءً لها. لقد اعترف بنفسه أنه في البداية استخفَّ بموقفها الدفاعي عن شقيقها ولم يأخذ قضيتها على محمل الجد.

إنما، ما الذي دعاه إلى تغيير وجهة نظره؟

الفصل السابع عشر

ما إن شرعتُ في العمل على كتابي، حتى جفَّ قلم التظليل الذي أستخدمه بين يدي فجأة. لدى ليو بعض أقلام التظليل في مكتبه، لذا أحمل على نفسي مشقة الصعود لأعلى. صار التعايش مع شبح نينا أمرًا ثقيلًا. أسكن مكاني لبرهة، قدم في الأسفل وقدم على الدرجة التالية. التعايش مع شبح نينا!

في أعقاب وفاة شقيقتي، قضيت أوقاتًا شعرت فيها بروحها، شعرت بوجودها معي، وبخاصة في سكون الليل أو عندما يحيطني اليأس. كما لو تأتي إليَّ لتذكِّرني أنني لست وحيدة. لم أَلقِ بالًا للعلوم الروحانية قبل رحيلها، غير أنني فُتِنتُ بها، وبدأت في القراءة عن الحياة بعد الموت، وبسبب ما خَبرته من استشعاري لوجود شقيقتي حولي، تقبلت فكرة أن البشر، في بعض الأحيان، قد تواصل أرواحهم العيش لفترة، وخصوصًا في حالات موت الفَجأة. قرأت ذات مرة عن اعتقاد يقول إنه إذا مات أحدهم ميتة وحشية، قد تظل روحه هائمة في محيط مقتله، حتى يلقى القاتل جزاءه من العدالة. وقد أثار ذلك انتباهي، حيث لم أعد أحس بحضور شقيقتي بجواري، منذ اليوم الذي رُفعت فيه قضيتها إلى المحكمة، وعلى الرغم من أنني لم أرضَ بالحكم، أظنُّ أن شقيقتي رضيت به، ولذلك غادرتني روحها. ماذا لو أن روح نينا ماكسويل ما برحت هائمة، هنا في هذا المنزل، تترقب أن يأخذ العدل مجراه؟

يُعَد مكتب ليو في الطابق العلوي مساحته الخاصة، ولذا دومًا ما أندهش من ترتيبها الأنيق. مكتبه خالٍ تمامًا إلا من مسطرة خشبية وقليل من الأقلام. أفتح الأدراج على جانبَي المكتب. أجد الدُّرج الأخير على الجانب الأيسر، مكتظًّا بالعديد من أقلام الحبر والرصاص والتظليل. أختار قلمَ تظليل أصفر، وفيما أمسك به يلمس ظهر كَفِّي شيء ملتصق بأسفل قاعدة الدُّرج الذي يعلوه. بفضولٍ، أزيح الأقلام المتزاحمة إلى أحد جانبَي الدُّرج، وأزيل الشريط اللاصق الشفاف بأصابعي. هنالك شيء معدني تحته. أتركه يسقط في كَفِّي وأفاجَأ بأنه مفتاح صغير، يشبه أحد مفاتيح تلك الصناديق المعدنية التي اعتدت توفير النقود فيها خلال سنوات المراهقة. أقلِّبه في يدي متفحصة. إن اضطر ليو إلى إخفاء هذا المفتاح، فلا بد وأنه لا يريد لأي أحد، وهذا يشملني، أن يعثر على شيء ما. ألهذا السبب اضطرب للغاية عندما أطلعته على الجولة التي اصطحبتُ فيها الضيوف إلى الطابق الأعلى، ليشهدوا التعديلات التي أنجزناها؟

ألتفت صوب خزانة الملفات المعدنية الرمادية، القابعة في ركن الغرفة، حيث يحتفظ ليو بملفات عملائه. أشدُّ الدُّرج الأعلى منها ولا يُفتح. ولم تُفتح الأدراج الثلاثة التالية كذلك؛ كل الأدراج محكَمة الغلق بقفل مركزي. تتملكني الحيرة فأعود إلى المكتب باحثة عن مفتاح آخر، وأتحسس الجوانب السفلية من الأدراج جميعها، في حال أخفى ليو مفتاحًا آخر بالطريقة نفسها. لَمَّا لم أعثر على شيء، أتفقد بقية أرجاء الغرفة.

أفرغ حاوية الأقلام على المكتب، أمرر أصابعي على الحافة الرفيعة فوق مدخل الباب، وأنتهي خالية الوفاض مجددًا، إلا من بعض الأتربة. أنحني على يدي وركبتي وأتفقد تحت المكتب، على أمل أن أعثر على مفتاح خزانة الملفات، ملتصق بأي زاوية من قاعدته. أقلِب مقعد ليو رأسًا على عقب، أبحث خلف

حاسوبه وتحت لوحة المفاتيح، ثم أعيد المحاولة كاملة من بدايتها. لكن لا أثر للمفتاح. في إحباط، ألصق المفتاح الصغير حيث وجدته بالضبط، وأعود لمتابعة عملي.

***

في استراحة الغداء، أتذكر أنه قبل الظهور المفاجئ لتوماس جرينجر بالأمس، كنت في طريقي لزيارة لورنا. ما برح الوقت مبكرًا من بعد الظهيرة، أخشى أن أقطع عليها وإدوارد غداءهما. لا يُجاب لطرقي على الباب، ولا أريد أن ألحَّ الطرق فربما يأخذان قيلولة. أستدير عائدة إلى المنزل لألمح وِيل واقفًا عند نهاية الممر، في طريقه للخروج.

ينادي: «أهلًا أليس. كيف تسير أمورك؟».

– لا جديد. أَملْت أن أزور لورنا، لكن أخالُها ليست في المنزل.

– لولا أن إيف عند والدتها الآن لاقترحتُ عليكِ أن تذهبي إليها، لو تبحثين عن بعض الرفقة. لكنها ستعود في نحو الخامسة.

– أشكرك، يا وِيل.

يلوِّح لي، وألتفت نحو الباب ثانيةً عند سماع صوت مفتاح يدور في القفل. يُفتح الباب والسلسلة المعدنية في محلِها. تسترق لورنا إليَّ نظرة وَجِلة عبر الفُتحة الضيقة.

أقول بتروٍّ: «أنا التي طرقت بابك. ولا أقصد إزعاجكِ البتة».

تحدق للحظات، أظنها تقرر أتدخلني أم لا.

– لم أُرِد أن أستجيب للطرق غير أنني سمعتُ صوتك.

على ما يبدو لا ترغب في استقبالي، فأعتزم الاعتذار لها على أن آتي لزيارتها في وقت لاحق، إنما أراها ترفع السلسلة على مهل، كما لو تتمنى أن أمِل الانتظار وأرحل.

أسألها مُرتابة، عندما تفتح الباب أخيرًا: «هل أنتِ متأكدة أن لا مانع لديكِ؟».

– نعم، تفضلي. الأمر أن إدوارد غير موجود، ودومًا ما أزيد من حرصي عندما أمكث وحدي.

– تصرف سليم منك. كيف حاله؟

– تحسنت صحته كثيرًا، أشكركِ لاهتمامك.

تفتح بابًا إلى اليمين وأتبعها لنجلس في غرفة معيشة مريحة.

أبدي لها إعجابي بطلاء جدرانها ذي الدرجات الهادئة الرقيقة، قائلة: «الغرفة رائعة الجمال».

المكان مُعبَّق برائحة اللافندر المنعشة، تفوح من مزهرية كريستالية، قابعة على منضدة منخفضة. تطل الغرفة، مثلها مثل التي لدينا، على الساحة، ومن خلال النافذة، أرى ممر السيارة الخاص بنا واضحًا تمام الوضوح.

نجلس معًا. ومحياها باسِمٌ في تقلق.

– أترغبين في فنجان من الشاي؟

– لا، أشكرك. لا أريد غير سؤالكِ عن أمر بعينه.

– لعله لا يخص السماح لذلك الرجل بالدخول إلى حفلك. لا أدري ماذا ألَمَّ بي لأفعل أمرًا كذلك. عادة ما أتوخى الحذر في الأمور المماثلة.

أطمْئنها: «لا يخص ذلك الموضوع مطلقًا».

كم يحزنني أن اكتشافها لما فعلتْه أضرَّ بثقتها في نفسها لهذا الحد، لا أراها يقظة كما قابلتها أول مرة، ولا حتى متأنقة في ملابسها. رغم حفاظها على اللآلئ في أذنيها، ترتدي تنورة برتقالية في لون وَبر الجمل، مع بلوزة زرقاء مزركشة –لا يتماشيان معًا– كما أن شعرها ليس القصير المهندَم نفسه.

تسأل: «هل تعرَّفتِ على هويته بعد؟».

أتردد؛ إذا أطلعتها على حقيقة أن الرجل هو محقق خاص، قد يتحول شعورها إلى ارتياح أنها سمحت له بعبور البوابة. إنما، من ناحية أخرى، إذا علمتْ أنه يحقق في قضية مقتل نينا، ستتساءل عن السبب، وسأضطر رغمًا عني إلى التوضيح أن توماس جرينجر يعتقد أن أوليفر بريء، ولا أريد فتح الجراح القديمة بهذه الطريقة.

أتخذ قراري سريعًا وأجيبها: «ليس بعد».

وأضيف، ممتنة أنني وجدتُ الخيط الذي سأبتدئ منه محادثتها فيما أريد معرفته: «لكن لم أعد قلقة بشأنه وأتمنى ألا تحملي قلقًا بشأنه أيضًا. أعرف كم هو أمر مُربِك وبخاصة بعد ما حدث مع نينا».

تلمس لورنا لآلئها. ثم تقول في خفوت أقرب للهمس: «ما حدث كان رهيبًا. رهيبًا بحق».

– لم أعلم عن تلك الواقعة، إلا منذ بضعة أيام.

الصدمة بادية على محياها.

– يا إلهي، هذا فظيع. إنما.. لا أفهم. كيف لم تعلمي مسبقًا؟

– قرر ليو ألا يطلِعني على شيء، على أن يخبرني لاحقًا. ولحين تأتي اللحظة التي أَملَها ليخبرني، سيتعمق عشقي للمنزل بقدر ما يعشقه، ولن أقدر وقتها على مغادرته.

– أتودين ترك المنزل؟

– يصعب عليَّ القول. لم أتأكد من شعوري إزاء المنزل، رغم أنني أحببتُ مجاورة «ذا سيركل»، وقد استقبلني الجميع بترحاب رائع، وأرى أنه سيصير لدي أصدقاء هنا. أردتُ أن أرحل، قبل أن يقول ليو شيئًا لم أستطع منع نفسي من التفكير فيه. قال إن هذا المنزل يستحق ذكريات جديدة، ذكريات سعيدة.

أقف وقفة وجيزة، لأتمالك مشاعري، ثم أستطرد: «الأمر ليس ببساطة قوله. بالكاد أتحادث مع ليو في الوقت الحالي، لأنني لا أقدر على مسامحته على عدم صراحته معي قبل انتقالنا إلى هنا. الوضع ليس مستقرًا بيننا، حقيقةً».

تقول لورنا: «أتفهَّم ما تمرين به».

أبتسم لها ممتنة. يا لها من راحة أن أفضي ما في قلبي إلى أحدٍ خَبرَ آلام الحياة، مثلما خبرتها، وفَقَد عزيزًا عليه.

أندفع قائلة من دون وعي: «لا عائلة لي غير ليو. توفي والداي وشقيقتي في حادث سيارة عندما كنت في التاسعة عشرة من عمري».

تضرب لورنا صدرها.

– أفقدتِ والديكِ وشقيقتكِ معًا؟ يا لكِ من مسكينة، كيف تجاوزتِ تلك المحنة؟ خسارة ثلاثة أحباب لقلبك، أمرٌ لا يُحتمَل.

– لو لم أتماسك من أجل جدَّيَّ، لا أدري كيف كنت لأتجاوز الأمر. ظلَّ جدَّاي على عزْمهما، لكنهما لم يفقدا إلا ابنهما، ابنهما الوحيد...

توقفت بغتة، وقد منعتني عن المتابعة تلك النظرة الضبابية الشاردة التي غشيت عينيها.

أقول: «آسفة بشدة، يا لورنا، اعذري لساني الطائش. علمتُ أنكِ فقدتِ ابنكِ أيضًا. بلا ريب مررتِ بظروف صعبة».

لا تنطق بكلمة، وأصابعها تتشبث بثنايا تنورتها، كم أكره نفسي أنني تسببت في إزعاجها.

تقول في نبرة أقرب إلى الهمس: «صحيح، كانت صعبة. أي خسارة لعزيز مروعة، وليس بيدنا منعها».

نبقى صامتتين للحظات. أتساءل إذا ما ينبغي أن أتركها على راحتها وأذهب، لكنني أريد أن أعرف قدر ما أستطيع.

– هل بوسعكِ أن تحدِّثيني عن نينا؟ من الممكن أن يساعدني تعمق معرفتي بها، في تفهم كيف كانت، كأني أراها أمامي.

تتواثب نظرات عينيها، كما لو تبحث عن ذريعة لتتهرب مني. ثم أجدها تومئ وتشدُّ ظهرها ليستقيم في إشارة لقبول طلبي.

تقول: «كانت غاية في اللطف، وكذلك أوليفر. اعتبرناه مثل ابننا، ساعدنا في الاعتناء بالحديقة، من تنسيق للشجيرات، وجز العشب، وأعمال مشابهة. لذلك ما زلت غير مستوعبة لما حدث، ولماذا آلت الأمور بينهما إلى ذلك السوء؟ كنا نراهما أسعد زوجين في العالم، وفجأة، سمعنا جدالًا عنيفًا بينهما في مساء أحد الأيام. سمعنا صوت أوليفر مُفعَمًا بغضبٍ لم نعهده منه، بل لم أره من قبل يبالغ في أي شعور مهما يكن. إنما، ألا يُقال إنه في غالب الأحيان، يخرج الشخص الحليم عن شعوره منفجرًا، ذلك يحدث فعلًا. حينها لم يعرف كلانا، أنا وإدوارد، ماذا نفعل، نذهب إليهما أم نتصل بالشرطة. ساورنا القلق بشأنهما للغاية».

– وهل اتصلتما بالشرطة؟

– لا، لأن الوضع هدأ قليلًا. رغم أن أوليفر ظل غاضبًا، فإن صياحه سكن تمامًا.

– هل سمعتِ عما تجادلا؟

يتسلل العبوس إلى وجهها، وأدرك كما أدركتُ ردة فعل تامسين، أنني تجاوزتُ حدودي نوعًا ما.

أسرع بالقول: «سامحيني، لا أقصد التطفل مطلقًا».

صراعها الداخلي بادٍ على وجهها، تحاول تقرير مدى ما يمكنها إطلاعي عليه. تسترخي كتفاها.

– طلب مني إدوارد ألا أثير الموضوع مجددًا، لكن لم يعد يتكلم أحد، مما يجعل الأمر أسوأ.

أقول بلطف: «أتفهَّم ذلك. عندما توفيت شقيقتي، توقف الناس عن ذِكرها، اعتقادًا منهم أن ذلك قد يزعجني. لكن أكثر ما أزعجني هو كَفُّ الجميع عن ذِكرها نهائيًّا، كما لو لم يعرفها أحدهم قط».

– لا يُسمَح لي بالتحدث عن ابننا، أو تعليق صور له في المنزل.

– لا بد أن الأمر صعب عليك.

تترقرق الدموع في عينيها، وقبل أن أتفوه بشيء، تجففهما.

– هو كذلك. لكن.. دعينا نعد إلى نينا وأوليفر...

تبتسم لي ابتسامة مترددة، صامتة لبرهة حتى تتذكر أين توقفنا، ثم تتابع: «ذهبتُ اليوم التالي –لليوم الذي سمعناهما فيه يتجادلان– للاطمئنان على نينا، وانتظرتُ ريثما غادر أوليفر إلى عمله. كانت في حالة يُرثى لها، ومنهارة تبكي. أُحرجتْ مني ومن إدوارد أننا سمعنا شجارهما. قالت إنها المخطئة، لانغماسها في علاقة حب اكتشف أوليفر أمرها».

– هل ذكرت لكِ مع مَنْ تورطت في تلك العلاقة؟

ذعرتُ من طريقتي الفظَّة في السؤال، فهَممتُ أن أعتذر منها على عجل، لكنها تقبلته كسؤال عادي وتابعت الحديث.

– لا، لم تقل سوى إنها ستنهي علاقتها به. ثم، في تلك الليلة ذاتها، بعد بضع ساعات، أقدم أوليفر... ما زلت غير مصدقة أنه فعلها.

أفترض على حذر: «لعله لم يفعلها. يُحتمَل أن الرجل الذي وقعت نينا في علاقة معه هو الذي فعلها. ذكرتِ بنفسكِ أنها أرادت قطع علاقتها به. اعذري جرأتي، إنما لمَ لا يكون ذلك الرجل هو قاتلها؟».

تخرِج منديلًا من كُمِّ بلوزتها، قائلة وهي تجفف عينيها: «لأن أوليفر كذب على الشرطة، وهذا برهان أن له يدًا في مقتلها. يا ليتني عرفت، يا ليتني عرفت ما عزم على إخباره للشرطة، لا ينبغي أن أقول ذلك، لكنني أملتُ لو استطعت الكذب. لا أقصد أن أكذب على الشرطة بالضبط، إنما ما أدليتُ أني شهدتُ بأم عيني أي شيء. عندما جاؤوا إلينا تلك الليلة، لم أدرِ أن نينا قُتلت، لم يخبرونا. جُل ما أرادوا معرفته إذا ما رأينا أو سمعنا أي أمر يخصهما، وحينها أجبت بصدق أنني رأيت أوليفر عائدًا بعد الساعة التاسعة مساءً بقليل ودخل المنزل من فوره. أدركت أن الوقت تعدَّى التاسعة لأننا دومًا ما نجلس لمشاهدة الأخبار على قناة بي بي سي في تمام التاسعة. يُقال إن العادات القديمة لا تفنى بين ليلة وضحاها، وحينها، بالكاد مضى بنا الوقت ولم يزل هنالك متسع منه حتى بدأ برنامج «أخبار العاشرة». عندما سمعت صوت سيارة أوليفر، نهضتُ وتطلعتُ من النافذة. عادة لا أتصرف على هذا النحو، حتى في الشتاء والستائر مُسدَلة، لكننا كنا قلقين بسبب الشجار الحاد الذي سمعناه الليلة السابقة. انتظرتُ للحظات، متخوفة من أن يشرعا في الجدال من جديد. ولمَّا لم يتهادَ لسمعي شيء، عدتُ لمتابعة الأخبار».

تسكت لبرهة، فيما تعتصر المنديل في يديها.

– أظنُّ أنه مضى نحو نصف ساعة، بالتزامن مع انتهاء الأخبار، حتى سمعنا سيارات عدَّة تتوقف في الخارج، فنظرت لأجدها الشرطة. ظننا أن أوليفر ونينا عادا للتشاجر، واتصل أحد منهما، أو لعله أحد الجيران، بالنجدة للحيلولة دون إيذاء نفسيهما. ولأصدقكِ القول، شعرنا بالارتياح أن أحدًا ما غيرنا تولَّى أمر تهدئتهما، لأنه إذا تكرر جدالهما وسمعناه كما الليلة السابقة، لاتصلنا بالنجدة بأنفسنا، أو ذهبنا إليهما لنحاول إصلاح ما بينهما، كأقل مساعدة منَّا. فوجئنا بعناصر الشرطة يطرقون بابنا، لتوجيه بعض الأسئلة، ولم نكتشف إلا في الصباح التالي، أن نينا قُتلت.

بلطف أقول، رغم شرودي في الماضي، وفي ظني أن لورنا بالكاد سمعتني: «لا بد أن الصدمة لم تكن تُحتمل».

– أَخبر أوليفر الشرطة أنه لم يدخل المنزل فور وصوله، بل جلس في الساحة لبعض الوقت. إنما هذا منافٍ لما حدث.

أفترض ثانية: «أليس من الجائز أنه دخل المنزل ثم عاد أدراجه سريعًا، وقرر الجلوس في الساحة؟».

تهزُّ رأسها وتكرر نفيها.

– لو فعل ذلك لأخبر الشرطة. ولو أنني علمت أنه سيخبر الشرطة أنه لم يفعل سوى الجلوس في الساحة، لما ذكرت أمر رؤيتي له داخلًا المنزل. إنما لم أدرِ، لم أتكهن أنه سيكذب. وما الذي يستدعي جلوسه في الساحة في التاسعة ليلًا، في الظلام والبرد؟

– هل أطلعتِ عناصر الشرطة على الحوار الذي دار بينكِ وبين نينا، عن علاقتها بأحدهم؟

– نعم، وأبدوا اهتمامًا كبيرًا، لأنه أوضح دافعًا قويًّا لقتل نينا.

– ألم يفترضوا أن الرجل الذي تورطت في علاقة غرامية معه، من الممكن أنه هو مَنْ قتلها، وليس أوليفر؟

تنظر إليَّ بأسى.

– ولماذا يفترضون أمرًا كهذا؟ إن أوليفر هو مَنْ قتلها.

أومئ لها.

– لا أريد أن أهدر المزيد من وقتك. أشكركِ على التحدث معي.

تسألني: «هل ستقدرين على البقاء في المنزل لفترة أخرى، بعد ما عرفتِه عن جريمة القتل؟».

– لست متأكدة بعد. كان اسم شقيقتي نينا كذلك، ولذا يصعب عليَّ وصف شعوري، فإذا غادرت، فكأنني أتخلى عن شقيقتي، وليس المنزل وحده. أدرك أن مثل تلك الحالة ليست صحية لنفسيتي، إنما ما زلت غير قادرة على نسيانها.

– شعورِكِ هذا يمكن تفهُّمه.

– رغم أنه مضى ما يقارب عشرين عامًا؟!

– أرى أن مرور الزمن لا يداوي عندما يتعلق الأمر بفقد الأحبة.

يندفع الدمع إلى مقلتي، لِما ألاقيه من حنان في صوتها. أومئ لها في امتنان لتفهُّمها مشاعري.

أعدها: «سأخبركِ بقراري ما إن أستقر إليه. الجميع هنا يرحب بي تَرحيبًا طيبًا: إيف ووِيل رائعان، وماريا وتامسين تعاملانني بلطف. كما أني ما زلت أكنُّ حبًّا إلى ليو، رغم كل ما جرى».

تقول: «من الرائع التحدث إليكِ، وأشكركِ على زيارتكِ لي».

ثم تنحني إليَّ لتقبل وجنتي، وأسمع همسها في أذني.

أتراجع بغتة، محملقة إلى وجهها.

– عذرًا؟!

ترفع لورنا يدها ثانية إلى لآلئها، المتدلية على عنقها، والارتباك بادٍ على قسمات وجهها.

– أودِّعكِ فحسب. ربما ما انبغى لي أن أَحرجكِ بتلك الطريقة، إنما بعد ما ذكرتِه عن والديكِ وشقيقتكِ جعلني...

تهدَّج صوتها.

– لا، لا بأس، لم أتحرج. ظننتُ فقط...

أتحرك عائدة إلى المنزل، وتفتح لي لورنا الباب.

– وداعًا، يا أليس.

الفصل الثامن عشر

ما إن أوصِد الباب خلفي، يحاصرني القلق ضاغطًا على أعصابي.

هل حقًّا همست لي لورنا عندما اقتربت مني: «لا تثقي بأحد». أم كانت تلك مجرد تخيلات من نسج عقلي؟

بلا شك تخيلتُ ذلك، وما الذي قد يدعوها للهمس ولم يكن في المنزل غيرنا؟ كما أوضحت أن إدوارد ليس موجودًا. أسترجع قدر استطاعتي ما قُلتُه قبل همسها في أذني. تحدثتُ عن وِيل وإيف، وذكرتُ ماريا وتامسين، ومن بعدهم، ليو. لا يُعقل أنها تحذرني من ليو، فهي لا تعرفه. أقصدتْ بكلامها وِيل وإيف؟ عساها سمعت محادثتي الخاطفة مع وِيل قبل أن تفتح لي الباب. وقد تعني ماريا أو تامسين، أو لا أحد على الإطلاق، لأنها لم تهمس بشيء قط.

أتجه إلى غرفة مكتب ليو حتى أرى إذا ما سيعود إدوارد إلى المنزل، عابرًا الساحة مشيًا على قدميه، رغم أنني لا أُكذِّب لورنا فيما قالته بشأن مكوثها بمفردها في المنزل، عندها يستوقفني جرس الباب. أستدير نازلة الدرجات التي صعدتُها، أفتح الباب وأجد تامسين أمام ناظري، تدسُّ يديها في جيبَي سترتها الجلدية البُنية.

أقول متفاجئة: «مرحبًا، يا تامسين. كيف حالك؟ تفضلي بالدخول».

تهزُّ رأسها.

– أشكرك. جئتُ لأقول فقط إنه لا داعي للتسبب في إحزان لورنا بفتح موضوع الجريمة من جديد.

يحتقن وجهي.

– لم أرد غير أن أعرف المزيد عن نينا.

– لماذا؟

– أنا...

تقاطعني: «لماذا تريدين أن تعرفي أكثر مما عرفتِ عن نينا؟ ألم نخبركِ بما يكفي على الغداء بالأمس؟ ماذا لدى لورنا لتطلعكِ عليه خلاف ما ذكرناه لكِ بالفعل، نحن، صديقاتك؟».

أتلجلج مجيبة: «وددت.. وددت أن أكون في عونها. قالت لي لورنا إنها سعيدة لتحدُّثها معي عن نينا».

– هذا هراء!

أجفل لنبرة البُغض في صوتها، ومن ثم تضيف: «اسمعي، أتفهَّم أنها لصدمة بالنسبة إليكِ أن تكتشفي جريمة قتل وقعت في منزلك. ولا أدري غرض تلك المُراسِلة من وراء التواصل معكِ، لكنكِ تتسببين في أذى من حولكِ، حتى لو تقصدين خيرًا، عندما تدسِّين أنفكِ في أمور لا تعنيكِ بالمرة. من مصلحتكِ ألا تحكمي على نفسكِ بالانعزال هنا، في حال قررتِ المكوث في المجاورة».

تدير لي ظهرها، وتخطو مبتعدة في الممر، حتى من دون سلام.

أهرول على الدَّرج، في قمة حنقي من عدوانية تامسين التي لا مبرر لها، متجهةً صوب مكتب ليو، وأراها تعبر الساحة عائدة إلى منزلها على الجهة الأخرى. ربما كلماتها اللاذعة تلك تحمل بعض الحقيقة، أنني أحزنتُ لورنا. لقد تألمتْ لفقدان أوليفر كما لو فقدَت ابنها للمرة الثانية، إنما بصورة أشد هذه المرة، كونها مَنْ طعنته في ظهره. ظلَّتْ جالسة، تفرك أصابع يديها في حِجرها، مما أكَّد لدي مدى ثقل إحساسها بالذنب. ومع ذلك، لا أحبُّ أن أتلقى أي نوع من التهديد، ومجيء تامسين بهذه الطريقة تهديد صريح. على أي حال، كيف علمتْ أنني سألت لورنا عن نينا؟ هل رأتني في أثناء خروجي من منزلها، ووضعت تخمينًا دقيقًا واستنتجت ذلك بنفسها؟

لم يظهر إدوارد بعد. أمعن النظر في بقية المنازل وألمح تِيم واقفًا خلف نافذة الطابق الأرضي في منزله رقم تسعة، يراقب الساحة، أيضًا. على الرغم من أنني أفعل الأمر نفسه في هذه اللحظة، فإنني لا أشعر بارتياح لرؤيته واقفًا هناك. تمر عشر دقائق، ثم خمس عشرة دقيقة. تلفت أنظاري حركة على اليسار، حيث ينفتح باب مرأب لورنا وإدوارد لأعلى، ويمتد للخارج. أدقق النظر لأجد إدوارد وفي قدميه حذاء البستنة الأخضر، يسير في الممر نحو حاوية القمامة ذات العجلات. يمسك بمقبضها ويجرها عائدًا ببطء، حتى اختفى داخل المرأب. إذن، فهو خلاف ما ذكرته لورنا، لم يخرج من المنزل. ما قالته حرفيًّا هو «إدوارد غير موجود». من الجائز لم أعِ ما قصدَتْه، فهو لم يذهب للخارج، إنما لم يكن برفقتها داخل المنزل، بل في الحديقة.

***

يسألني ليو، بعد عودته إلى المنزل، إذا ما يحضر لي طعامًا معه. ما زلتُ مستاءة من زيارة تامسين، وذهني مشغول بتحذيرها من محادثة لورنا –لو كان ذلك تحذيرًا بحق– ولا أشعر بحاجة إلى الأكل. أجلس إلى الطاولة فيما تلتصق نظرتي بحركته من الموقد إلى الثلاجة، ومن ثم يعود مرة أخرى إلى الموقد. تعتمل أسئلة صامتة في عقلي: ما هي حقيقتك، يا ليو؟ كيف وثقتُ بك لدرجةٍ لم أظن معها أنك قد تكذب عليَّ يومًا؟ والأهم من ذلك كله، لماذا لديك مفتاح مُلصق أسفل قاعدة درج مكتبك؟ ما الذي تخفيه عني؟

أكسر الصمت المخيم بيننا، قائلة: «لقد دُعيتَ إلى تناول العشاء في منزل ماريا في الغد».

يلتفت إليَّ، مبعِدًا نظره عن الموقد.

– ألن يزعجكِ حضوري؟

يتفوه السؤال بنبرة توحي أنه ينتظر الإجابة بالنفي.

– سيبدو الوضع مريبًا إن لم تحضر.

– لو تفضلين الذهاب من دوني، يمكنني التعذر بالمرض.

لبرهة، يتبادر إلى ذهني أن أتصل بماريا ونعتذر كلانا عن عدم الحضور. لا أرى أنني سأستطيع التصرف على طبيعتي في وجود ليو، كما لا أرغب في أن يتسبب ارتباك علاقتنا في إفساد الأمسية. بالإضافة إلى أن تامسين ستكون حاضرة. لكنني أريد أن تتوطد معرفتي ببقية الساكنين، وإذا اعتذرت عن عدم الحضور فكأنني أُسدي إلى ليو معروفًا. سيتفهم الجميع إذا لاحظوا أن الأمور بيننا مشحونة بالتوتر، لدى علمهم أنه لم يطلِعني على الجريمة.

أخرِج هاتفي.

– سأتصل بماريا وأخبرها أن تتوقع حضورنا، معًا.

تقول ماريا، بعد إخبارها أن كلينا متفرغ يوم الجمعة: «هذا جميل».

أسألها: «هل تحتاجين إلى شيء لأحضره معي؟».

– لا، أبدًا. هل يناسبكما الحضور في السابعة؟

– مناسب جدًّا.

عندئذ، أغلق المكالمة، وأخبر ليو: «العشاء في السابعة مساءً».

يقول، محاولًا إضفاء نبرة مرحة في صوته: «رائع».

لا يبالي بخوض حوار قصير في أثناء تناوله عشاءه، ويكتفي بمطالعة الأخبار على هاتفه، وفي يده كأس نبيذ أحمر غنيٍّ النكهة. إنني في حيرة بين الاستياء منه والارتياح لانشغاله عني.

أقول: «لقد ذهبتُ لزيارة لورنا هذا النهار».

– وكيف حالها؟

أضيف، دون أن ألجم نفسي من السخرية على حالنا: «ما زالتْ مستاءة أنها سمحت لشخص غريب بالدخول إلى «ذا سيركل» ليلة السبت. كما أخبرتها أنني لم أعرف أمر نينا إلا منذ أيام».

يرتشف رشفة من كأسه.

– جيد.

– تحدَّثنا عن نينا وعلمتُ منها أنها انغمست في علاقة سرية مع شخص ما. وبتُّ أفكر أن زوجها من الجائز ليس هو قاتلها، وإنما هو ذلك الشخص الآخر، عشيقها.

تنزلق الكأس من يده لترتطم بالطاولة. وينساب النبيذ على سطحها الخشبي، كما ينساب الدم من الجرح. للحظات، مكثنا محدقين إلى النبيذ المنسكب، وكأننا مأخوذان بالمنظر، قبل أن يقفز على قدميه ويلتقط منشفة الأطباق على الجانب الآخر، وينشف الطاولة برفق، فيما أبعد الكأس عن نطاق التنظيف.

يقول: «آسف، أفلتت يدي فجأة».

يعبس وجهي جرَّاء الفوضى التي سببها النبيذ المنسكب، وأضع كأسه مكانها، معتدلة على قاعدتها ثانية.

– لا مشكلة.

يقول، نازلًا على ركبتيه لينظف النبيذ الذي انسكب على الأرض: «لا أجدُ في الثرثرة عن الموتى أي أمر حسن».

أحدق إلى مؤخرة رأسه، وألاحظ للمرة الأولى أن شعره خفيف من الأعلى، وتومض فروة رأسه الوردية خلال شعره وهو يفرك ألواح الأرضية بقوة.

أقول: «لم تثرثر لورنا معي، أنا مَنْ طلبتُ منها أن تحدثني عن نينا».

يكور المنشفة متجهًا صوب الحوض ويتركها في ركن منه. ثم يفتح الصنبور ويغسل يديه.

– ما الداعي؟

– أريد التعرف على المرأة التي صرت أعيش في منزلها.

يأتي قوله: «بسبب أنها ماتت مقتولة فحسب. لو لم تمت بتلك الطريقة، لما اعتراكِ الفضول بشأنها».

محدقة إلى ظهره، الذي يوليه إليَّ، وأردف: «قل لي، يا ليو، كيف استقبلت ما أطلعك عليه بِن أن امرأة قُتلت في المنزل الذي تريد شراءه؟ ألم يعترِك الفضول؟ ألم تجد حاجة في نفسك لتتساءل عنها، أو حتى عن هويتها فيما مضى؟».

يجلب منشفة أخرى نظيفة ثم يستدير.

يقول مجففًا يديه ببطء شديد: «لا، لم يحدث لي شيء من هذا. وعلى ما أذكر، بِن هو من أطلعني على اسمها دون سؤاله».

– ولم تبحث في محرك جوجل لتكتشف ما حدث؟! ألهذا الحد لم تكترث للأمر؟

– لا علاقة للأمر بالاكتراث أو عدمه. عرفتها من اسمها كما عرفت ما حدث لها، فلقد تذكرت قضيتها. أي أحد في مكاني لتذكرها على الفور؛ وُثِّقت قضيتها بتفاصيلها في الصحافة ووسائل الإعلام.

– على الرغم من ذلك لم يُذكَر في أيٍّ منها أنْ كانت لها علاقة غرامية.

يضع المنشفة ويعود إلى الطاولة.

– ربما لم تكن على علاقة بأحدهم، وهذه مجرد إشاعة.

أقول، ملتفتة لأعيد ملء كأسه، لكنه يهزُّ رأسه: «لا أعتقد ذلك. لقد اعترفتْ بنفسها إلى لورنا».

– إذن، من المحتمل أن زوجها قتلها لهذا السبب. اكتشف أنها تخونه وقتلها في نوبة انفعالية من غَيْرته عليها.

– يُحتمل ذلك، إلا إذا كان الرجل الآخر هو قاتلها.

يتقطب جبينه. يبدو وقد بلغ حدَّه من التوتر، ومع ذلك، لم يَمل الاستماع إلى ثرثرتي.

– لماذا تقولين ذلك؟

– لأنه وفقًا لما ذكرته لورنا، اعتزمت نينا أن تخبر ذلك الشخص أن علاقتهما انتهت. والسبب الآخر أن شهادة الجميع في أوليفر هي أنه كان ألطف رجل رأوه في حياتهم.

– الجميع؟!

يضغط على الكلمة متهكمًا.

– نعم، جميع الناس هنا! كل أصدقائه وجيرانه.

يمسك بكأس النبيذ شبه الفارغة ويتجرع المتبقي فيها.

– لو ما يزال هنالك أمور مُريبة للوقوف عليها، فإن بإمكان الشرطة التكفل بهذا الدور.

ثم يدفع نفسه ناهضًا عن الطاولة، مختتمًا كلامه: «لديَّ عمل ينبغي إنجازه. أراكِ فيما بعد».

أنصت إلى خطواته صاعدًا درج السلم، متجهًا إلى غرفة مكتبه. بعد دقائق قليلة، أسمع صرير احتكاك جسم معدني بآخر، أعرف هذا الصوت، إن أحد أدراج خزانة الملفات يُفتح. مما يعني أن مفتاح الخزانة مُخبأ في مكان ما في الغرفة، أم لعله...

أخرج إلى البهو. لا أجد حقيبته بجوار باب المنزل وكذلك سترته، ليست موجودة حيث يعلقها على قائم الدَّرج، كما هي عادته. لعله يحتفظ بالمفتاح معه على الدوام. إنما ما الداعي لفعل ذلك؟ لا يُعقل أن وثائق

عملائه بمثل تلك السرية القصوى، أليس كذلك؟

الفصل التاسع عشر

مع طلوع الصباح، أدرك أنني لن أستطيع. لن أقدر على الذهاب إلى منزل ماريا. لا أريد أن أُجبَر على التظاهر أن الأمور تجري على ما يرام بيني وبين ليو، ولا أريد مواجهة تامسين. ماذا لو أذاعت للجميع أنني أحزنتُ لورنا بحديثي معها؟

أخبر ليو: «سأذهب إلى هارلستون في عطلة هذا الأسبوع. وسأعود مساء الأحد».

يتطلع إليَّ مدهوشًا.

– حسنًا، كما تريدين. هل ستمكثين مع ديبي؟

– نعم. أحتاج إلى الابتعاد عن «ذا سيركل» لبعض الوقت.

– ماذا عن دعوة العشاء في منزل ماريا؟

أقول، متيقنة أنه لن يمانع: «يمكنك الذهاب من دوني، إذا أحببت».

أهاتف ديبي، قائلة لها: «هل أنتِ متفرغة في نهاية هذا الأسبوع؟».

– لماذا تسألين؟ أستأتين إلى هنا؟ يا إلهي، إنني سعيدة لسماع ذلك، لا تعرفين كم أفتقدك! هل سيأتي ليو برفقتك؟ أستمكثان لفترة معي؟ إن منزلي يسع الجميع!

أقهقه، وعلى الفور يبتهج مزاجي. تعيش ديبي بمفردها في منزل ريفي كبير ذي أربع غرف للنوم. لم تتزوج قط، إنما ارتبطت بعدد من الرجال في حياتها، أما حاليًّا، تستمتع بعُزوبيَّتها.

– لا، سآتي وحدي. ونعم، من دواعي سروري المكوث في منزلك.

– هذا أفضل! لا أعني أنني لا أحب ليو، إنما سنستطيع الثرثرة على راحتنا وتحكي لي كل ما رأيتِه في لندن، خلال فترة عيشكِ فيها.

تتحدث عن لندن كما لو أنها في الجانب البعيد من العالم. غير أن ديبي تشبهني كثيرًا، وُلدتْ وتربَّتْ في هارلستون. لم تذهب إلى لندن من قبل، تفضِّل عليها رفقة خيولها، ومدرسة الفروسية التي تديرها.

– أيناسبكِ إذا جئتكِ في الغد؟

– بالطبع. هل ستقودين سيارتكِ حتى هنا؟

– نعم، وآمل أن أصل إلى منزلكِ قرب الظهيرة.

– رائع!

أتصل بماريا، ويخالجني ارتياح أن المكالمة تحوَّلت إلى البريد الصوتي. أترك لها رسالة وأغالي في الاعتذار منها، وأخبرها أنني بحاجة إلى بعض الوقت للاسترخاء، ولذلك قررت الابتعاد ليومين. تبعث لي رسالة نصية بعد عدة دقائق، تقول إنها تتفهم احتياجي إلى ذلك، مما بعث في نفسي الطمأنينة.

***

لرحلة العودة إلى هارلستون حلاوة مُرَّة. أقود سيارتي عبر البلدة، بين زهور الخَطْميَّة زاهية الألوان المصطفة في اعتداد وشموخ، تحرس الجدران الطُّوبية الدافئة، وزهور الأُرطُنْسِية، التي تطل قُبَبها البيضاء الكبيرة من فوق أسوار الحدائق، تجعلني أدرك مدى اشتياقي لبلدتي. تغير الكثير خلال الشهر الذي ابتعدتُ فيه عنها. لقد حُرث حقل اللِّفت الذي أحببت السير بين زهوره الصفراء حتى أصل إلى السوق، يا تُرى مَنْ هو أول من شقَّت قدماه هذه الكتل الترابية المتعرجة؟

ما إن تعود ديبي من جولتها على حصانها المخيف «لوسيفر»، تستشعر مزاجي المتعكر. أسرد لها ما فعله ليو وكيف أنه لم يطلِعني على حقيقة المنزل الذي اشتراه، بينما تنظف حذاءها المخصص لركوب الخيل فوق صفحة من جريدة ورقية.

تقول ديبي، وجبينها مُقطَّب في ذهول: «إنني عاجزة عن الاستيعاب. ليس من حقه إخفاء أمر جسيم كهذا عنك. لا غرابة ألَّا تريدي العودة إلى ذلك المنزل، لو كنتُ مكانكِ لما شعرتُ براحة للعيش في منزل قُتل فيه شخص ما، رغم أنني قوية الاحتمال».

بمجرد أن صار حذاؤها نظيفًا، تتجه إلى الحوض لتغسل يديها.

أضيف: «ووصل الحال إلى أنني بتُّ أسبب الضيق لهؤلاء الناس بمحاولتي اكتشاف المزيد عن جريمة القتل تلك».

تستدير والماء يتساقط من مرفقيها، لتسألني وهي تمسك منشفة منقوشة بنمط مربَّعات: «لماذا؟».

– لأنهم لا يحبون أن أطرح عليهم أي سؤال.

– لا أقصد ذلك. إنما قصدتُ، لماذا تريدين معرفة المزيد عن تلك الجريمة؟

– لأنها ليست بالوضوح الذي يتصوَّرونه. هنالك إشاعات تشير إلى أن العدالة أخفقت في تحقيق مسعاها، حيث لم يكن زوجها هو مَنْ قتلها.

تستفهم، بينما تتأمل انعكاسها في المرآة المعلَّقة على الجدار، التي إطارها من الخشب الصنوبري: «هل هذا يعني أن الشرطة تعيد فتح القضية؟».

انبسط شعرها الكستنائي الهائج الجامح، في العادة، تحت قبعة الفروسية، لذا ترجع إليه حيويته وتحرِّكه بأصابعها.

أرد: «لا أظنها أُغلقت من الأساس».

يتقطَّب جبينها.

– ولماذا تشغلين نفسك بهذا الأمر؟ اعذريني، يا أليس، إنما بوسعي تفهُّمهم، على نحو ما، وتفهُّم سبب عدم رغبتهم في التحدث عما حدث. ينبغي أن تكفِّي عما تفعلين، اتركي الأمور وشأنها ودَعيها على ما هي عليه.

– لا أقدر.

– ولم لا؟

أتحاشى النظر إليها.

– لأن المرأة اسمها نينا.

تقترب مني وتجلس بجواري، لتحيط كتفي بذراعها ثم تعانقني.

– آهٍ، يا أليس. متى ستتخطين هذه الذكرى؟

أطأطِئ رأسي خجلة منها. شهدت ديبي هوسي بابنة صديقة مشتركة بيننا، هنا في هارلستون، وُلدت قبل وفاة شقيقتي بوقت طويل، وللمصادفة سُميت نينا. رغم أنني أُغرمتُ بالطفلة، صار حبي لها هوسًا بعد وفاة شقيقتي. أهديها أغلى الهدايا وشغفتُ بكل ما خصَّها، حتى أوضحت لي والدتها بلباقة أن أتوقف لأن تصرفاتي بالغت الحد. أخذت على خاطري بحماقة وشعرت أني جُرحت، ونتج عن ذلك أن انتهت صداقتنا.

أقول بنبرة خافتة: «إنني أحاول».

تبيِّن ديبي: «حتى لو أخفقت العدالة في شيء، لا يعني هذا أن تضعي نفسكِ محل مَنْ يطرح الأسئلة، وخصوصًا بالاعتماد على إشاعة».

– هذه ليست إشاعة. لقد زارني محقق خاص، يدقق البحث في القضية من أجل شقيقة زوج نينا، التي تصدق ببراءة شقيقها من تهمة القتل.

– بالطبع، هذا متوقَّع منها.

– لكن ذكرتْ لي جارتي أن نينا اعترفت بأنها انغمست في علاقة مع شخص ما. لذلك، لمَ لا يُحتمل أنه هو قاتلها؟

– ألم تحقق الشرطة معه؟

أردف مترددة: «لا أدري. طلب مني ذلك المحقق الخاص أن أظل يقظة لما أراه وأسمعه، وأبقيه مطلعًا إذا ما توصلت إلى أمر مهم».

انفتح فَمها.

– هل طلب منكِ التجسس على جيرانك؟!

رددت بسرعة: «لقد رفضت ذلك».

تضيف بنبرة لطيفة: «آمل أنكِ فعلت. إذا ما قررتِ الاستمرار في العيش في «ذا سيركل»، وأردتِ أن تُقبَلي بين هؤلاء الناس، وأن تصيري جزءًا من تلك المجاورة، فعليكِ أن تحافظي على هدوئكِ وألا تلفتي الأنظار إليك. والأفضل لكِ أن توجهي انتباهكِ لنفسكِ وإلى ليو، بدلًا من صبِّ تركيزكِ على مقتل امرأة لم تقابليها في حياتك».

قضينا بقية عطلة الأسبوع في لقاءات مع أصدقائنا من البلدة، لكن صارت خططنا للتجول لمسافات طويلة سرابًا بسبب العاصفة المطيرة والريح الباردة التي هبَّت من الشرق. مما طابق حالتي المزاجية في أثناء رحلة عودتي إلى لندن بعد ظهيرة يوم الأحد. رغم ذلك، كلما اقتربتُ من المدينة دفعتُ نفسي لنفض الأفكار من ذهني. مَنَحَني الوقت الذي قضيته في هارلستون، بعيدة عن «ذا سيركل»، بعدًا مختلفًا لرؤية الأمور. إذا أرادنا، أنا وليو، تجاوز الأثر الذي تركته فعلته، فالخطوة الأولى يجب أن تأتي من جهتي.

أوقف سيارتي في الممر وأدلف إلى المنزل. ظننت أن ليو قد يستقبلني عند الباب بمجرد علمه بوصولي، لكن لا أرى له أثرًا. أجده في المطبخ جالسًا إلى الطاولة، في يده كأس من النبيذ، وهاتفه يعرض أمامه أحد التطبيقات الإلكترونية الإخبارية.

أتنحنح قائلة: «مرحبًا».

يرفع نظره إليَّ.

– مرحبًا. هل قضيتِ وقتًا ممتعًا بصحبة جيني؟

– نعم، أشكرك لاهتمامك. وماذا عنك؟ هل استمتعت بالعطلة الأسبوعية؟

يرفع يديه أعلى رأسه، ويتمطَّى ثم يشبكهما خلف عنقه.

– نعم، كانت رائعة. لعبت التنس مع بول، ثم قضيت الوقت المتبقي في مشاهدة بعض البرامج على نتفلكس.

يبدو مرتاحًا وخليَّ البال، فيما تضربني موجة من الغيرة. لكن أبتلعها في جوفي.

أسأله: «أأعد لنا عشاء؟».

– تناولت وجبات خفيفة طيلة النهار، لذلك لست جائعًا. إنما خذي راحتكِ كيفما تشائين.

يعيد انتباهه إلى الأخبار، متغافلًا عينيَّ المحدقتين إليه، متغافلًا هذا السخط الذي يضطرم داخلي. كنت على وشك سؤاله أن يصبَّ لي كأسًا من النبيذ معه، قبل أن يحتدم غيظي منه فجأة. كيف يجرؤ على الجلوس مكانه كما لو لا يعنيه شيء في العالم، رغم ما اقترفه في حقي؟

أقول: «سأذهب إلى غرفة مكتبي».

– ألا تريدين كأسًا من النبيذ؟

– لا أريد.

– حسنًا.

يلتفت إلى شاشة هاتفه، مُظهِرًا عدم اكتراثه. وأراقبه في هدوء فاتر للحظات.

ثم أقول له: «بوسعك المبيت في برمنجهام هذا الأسبوع».

يتطلع نحوي منتفضًا. استطعت لفت انتباهه أخيرًا.

– ماذا تقولين؟

– لستَ بحاجة إلى العودة إلى المنزل كل مساء، بإمكانك المبيت في برمنجهام، كما اعتدت.

– لكن... وأنتِ، إلى أين ستذهبين؟

– إلى لا مكان.

– ماذا؟ أتقصدين أنكِ ستمكثين هنا بمفردك؟

– نعم.

يحملق إليَّ كما لو لا يعرف المرأة التي أمامه.

– وماذا عن عودتي أيام الخميس؟ هل آتي إلى المنزل حينها؟

– سأخبرك يوم الأربعاء.

في غرفة مكتبي، أراجع كل ما توصلت إليه فيما يخص مقتل نينا. سمع كلٌّ من لورنا وإدوارد شجارًا بين نينا وأوليفر، وفي اليوم التالي، أفضت نينا إلى لورنا أنها وقعت في علاقة حب مع أحدهم. وفي مساء

اليوم نفسه، وفقًا لأقوال لورنا، عاد أوليفر إلى المنزل في الساعة التاسعة تقريبًا، ودخل إلى المنزل مباشرة. وبعد مضي عشرين دقيقة، لقيت نينا حتفها. أما وفقًا لأقوال أوليفر عن تلك الليلة، فقد وصل المنزل الساعة التاسعة، ثم ذهب للساحة وجلس فيها لبعض الوقت، ولم يدخل المنزل إلا بعدها. وهو من عثر على نينا ميتة. أيهما الأصدق قولًا؟ أصرَّت لورنا أن ما رأته هو الحقيقة. إذن، لماذا لجأ أوليفر للقول بأنه جلس في الساحة رغم أنه على نحو جَليٍّ، لم يفعل؟ أأصابه الذعر وتفوه بأول ما جال في خاطره؟ أم لعله بيَّت حجته آنفًا، على أمل ألا يقول أحد خلاف ما يدَّعيه، لأنه لم يظن أن أحد الجيران قد يراقبه من النافذة في تلك الساعة المتأخرة؟

الفصل العشرون

في الصباح، يتلكأ ليو فيما يستعد للذهاب إلى عمله، ليمهلني بعض الوقت علَّي أتراجع عن رأيي بشأن بقائي بمفردي. يتحرك في الطابق العلوي في خطوات ثقيلة، على غير العادة. يحاول أن يشعِرني بوجوده، ويلمِّح إليَّ بالفراغ الذي سيحدِثه غيابه عن المنزل.

ينزل الدَّرج إلى الطابق الأرضي، ويُسقِط حقيبته في البهو محدثةً رُطمة مفتعَلة. إنه لأمر مزعج، كل هذه المبالغة لمجرد تذكيري أنه سيغادر لبضعة أيام. اتفقنا منذ بداية عيشنا معًا، ريثما ينتهي عقده في برمنجهام، أنه يغادر صباح أيام الاثنين ولا يعود قبل الخميس. أما الآن، يتعامل مع الأمر باعتباره عقابًا.

أمكث في السرير لمدة أطول، بعد مغادرته للعمل، مستغرقة في نُعاس لا أستطيع نفضه عني. صدمني التذبذب الذي ضرب حالنا بغتة. كنت مفعمة بالأمل قبل مجيئي إلى هنا، وعلى الرغم من توتري قليلًا من مسألة اعتيادي العيش في لندن، فإنني تطلعت إلى تكملة حياتي مع ليو بصفة يومية طبيعية. إنما علاقتنا وصلت حاليًّا إلى مرحلة التداعي. حتى في أعقاب رحيل والديَّ وشقيقتي، لم يعتِرني شعور بالوحدة إلى هذا الحد.

احتياجي إلى قدح من القهوة يدفعني للنهوض عن السرير. أحمله إلى غرفة المعيشة وأرتشف منه وقوفًا بجوار النافذة، متأملة الأشجار وأوراقها التي تتساقط ببطء. تعدَّى الوقت التاسعة صباحًا، وتأخرتُ على موعد بدء عملي. تلفت انتباهي حركة ما. إنها إيف خارجة من منزلها، ترتدي ملابس الهرولة. هممتُ أن أطرق على زجاج النافذة وألوِّح لها، لولا أن تامسين ظهرت خلفها، فأتراجع مبتعدة، إنما ما زالتا في مجال رؤيتي. تتبادلان بضع كلمات، ثم تهرول إيف عبر الطريق وتدخل الساحة، تاركة تامسين واقفة مكانها في الممر.

أتجه إلى المطبخ لاحتياجي إلى تناول الفطور، فأضع الخبز في المحمصة وأبحث عن العسل في الثلاجة. جرس الباب يفزِعني، فينزلق وعاء العسل من يدي ويتهشم على الأرض، عند قدميَّ الحافيتين. أحملق إلى الشظايا الزجاجية التي تحفُّ طرف منامتي الزرقاء، متحيرة من أين سأبدأ تنظيف هذه الفوضى، وعندها يضرب جرس الباب مجددًا. من ذا الذي يصرُّ بهذه الطريقة ولا يريد أن يرحل؟

أتحرك نحو البهو، في خطوات حذرة متفادية شظايا الوعاء المكسور، أفتح الباب لأقف وجهًا لوجه أمام الشخصية الوحيدة التي يمكنني العيش بارتياح ما دمت لم أحتك بها. إنها تامسين.

– مرحبًا، يا أليس.

انسجامًا مع برودة الهواء في الخارج، ترتدي سترة مُبطَّنة بيضاء تتماشى مع حذاء أبيض برقبة حتى الكاحل من جلد الشمواه. إن طلتها مثالية.

أقول، مدركة أنني ما زلتُ بملابس النوم: «عذرًا. لست في مزاج حسن هذا الصباح. إذا ما لديكِ ما تصيحين به في وجهي هذه المرة أيضًا، فمن الأفضل أن تؤجليه ليوم آخر».

تتمايل من جهة إلى أخرى.

– لا، لن أفعل، لقد جئت لأعتذر منك. ما انبغى لي محادثتكِ بتلك القسوة. لكنني مررتُ بأسبوع شديد السوء.

– لا بأس. كما أخبرتكِ حينها، لم أتعمد إحزان لورنا، بل هي منْ قالت إن التحدث عن نينا يشعرها بالراحة، لأنه لم يعد أحد يذكُرها.

تومئ، فيما أتجاهل صورة لورنا التي تبادرت إلى ذهني، وهي تعبث بلآلئها. تقول تامسين: «أستقبلين إذا ما دعوتكِ لاحتساء القهوة يوم الجمعة في منزلي؟».

كما لو تظن أنني قد لا أقبل، إذا ما ستقتصر الجلسة على كِلْتينا، تضيف: «صباح يوم الجمعة، في نحو الساعة العاشرة والنصف، ورغم علمي بأنكِ تعملين أتمنى أن يناسبكِ الموعد، كما ستأتي إيف».

أحرص ألا أنشغل أيام عملي، لكن يظل بإمكاني العمل وقت الغداء تعويضًا عما يفوتني من ساعات العمل في الصباح.

لذا أقول لها: «أشكركِ على الدعوة. من اللطيف الانضمام إليكما».

يبتهج وجهها ويتلاشى توترها في اللحظة ذاتها.

– رائع! أتركِكِ الآن، يا أليس، وأتمنى أن تشعري بتحسن في القريب العاجل.

أتابعها بنظري وخطواتها تبتعد في الممر. أناديها: «بالمناسبة، طلتكِ جميلة اليوم!».

تستدير وتلوِّح باتجاهي في حركة خاطفة، إنما ألمح حزنًا باديًا على محياها، كأنها لا تصدِّق قولي.

عودةً إلى المطبخ، أنظف الفوضى التي خلَّفها وعاء العسل المكسور، بحيوية متجددة. أنتبه إلى أن المنزل نفسه هو الذي يخنقني. وما أحتاج إليه هو نفحة من الهواء البارد. ربما قضاء بضع دقائق في الحديقة سيفي بالغرض. يمكنني الانشغال بتشذيبها. أحبُّ تشذيب الحدائق، حيث تسمح لي هذه النوعية من المهام أن أنجزها بصورة تلقائية، تاركة ذهني منطلقًا بحرية.

إن المطر الذي انهمر في الأمس يسَّر من حركة جزِّ العشب. كدت أنتهي مقتربة من الجانب الأيسر من الحديقة، لأكتشف أن أحد ألواح السور الذي يفصل منزلنا عن منزل إيف ووِيل، مفقود. إنما ليست هذه مسألة تستدعي القلق لأن الفتحة مغطاة جزئيًّا بأوراق شجر خضراء كثيفة. أدفعها جانبًا، لأجد أنه بإمكاني عبور السور إلى حديقة إيف ووِيل مباشرة، إنْ أردت. محتملٌ أن إيف ونينا استخدمتا هذه الفتحة لزيارة بعضهما بدلًا من الالتفاف حول المنزل والدخول من الممر. سأحتفظ بهذه المسألة في بالي حتى أسأل عنها إيف، عندما أراها.

يرنُّ هاتفي، فأقف معتدلة، وأُسوِّي ظهري. إنها جيني.

– مرحبًا، يا أليس. أتصل بكِ لأطمئن على حالك. آمل أنني أهاتفكِ في وقت مناسب؟

– نعم، لا تقلقي. إنني في الحديقة في استراحة من العمل. من الرائع الخروج للهواء لبعض الوقت. كيف حالكِ أنت؟ هل قضيتِ وقتًا طيبًا في عطلة الأسبوع؟

– بدأت أعتاد قضاء العطلة منفردة، مثل زوجات هواة الجولف مِمَّن يتركونهن في المنزل كالأرامل، لكنه وضع أرتاح له كثيرًا. قضى مارك وبِن طيلة نهار أمس في ملعب الجولف. ثم جاء بِن إلى منزلنا في المساء لتناول مشروب، وسأل عن أحوالك.

– إنها لفتة لطيفة منه.

تسكت لبرهة.

– للحقيقة، أتصل بكِ لأن ليو هاتفني صباح اليوم.

– ليو؟

– نعم. قال إنكِ لا ترغبين في عودته إلى المنزل هذا الأسبوع، وإنكِ طلبتِ منه البقاء في برمنجهام. أرادني أن أطمئن أنكِ ستقدرين على الاعتناء بنفسكِ بمفردك.

أعلِّق في نبرة تنم عن شجاعة تفوق ما يخالجني حقًّا: «إنني قادرة على الاعتناء بنفسي».

رغم أنه يعتريني توجس إلى حد ما من المبيت وحدي هذه الليلة.

– هل تودين مني أن آتي وأمكث معك؟

– هذا شعور لطيف، لكن لا داعي لذلك، صدقيني. أحتاج إلى أن أفعل ذلك، يا جيني، أحتاج إلى أن أختبر نفسي إذا ما سأحتمل المكوث هنا بمفردي. لم يمر على مجيئنا إلى هذا المنزل سوى شهر واحد، ولا رغبة لدي في التخلي عنه بعد.

– يتراءى لي أن ليو هو مَنْ يتخوف أن تتخلي عنه.

أتنهد بعمق.

– لا أخفيكِ سرًّا، لم أعد أفهم شعوري تجاه ليو. لا أزال غير قادرة على نسيان أنه كذب عليَّ.

– ما رأيكِ أن نتناول الغداء معًا خلال هذا الأسبوع؟ سأعمل على مدِّ استراحة الغداء إلى ساعة.

– من الرائع لو فعلتِ. أي الأيام تناسبك؟

– إما غدًا وإما الجمعة.

أردُّ، متذكرة دعوة تامسين لاحتساء القهوة في صباح الجمعة: «إذن، نلتقي في الغد. ما رأيكِ أن نذهب إلى ذلك المطعم في ساحة «كوفنت جاردن»، الذي يُقدِّم سمك الراهب اللذيذ؟ لا أظنه يبعد كثيرًا عن مقر عملك».

– مطعم «نِبْتُون»؟ إنه على بعد بضع دقائق سيرًا على قدمي. سأتصل به وأحجز لنا طاولة في الساعة الثانية عشرة والنصف في الظهيرة.

– رائع، أراكِ هناك.

***

بعد تلقي دعوتين اليوم، بالإضافة إلى تشذيب الحديقة، أمتلئ حماسًا لمتابعة العمل. تعجبني الرواية التي أترجمها حتى إنني انهمكت فيها حتى الثالثة بعد الظهيرة دون أن أدري، ولم أتوقف إلا لتناول الطعام. لاحت الشمس بين الغيوم في السماء، فأعتزم بدلًا من مواصلة العمل بعد انتهائي من تناول الشطيرة، أن أذهب للتنزه في فينسبيري بارك وأؤجل عمل الترجمة للمساء. وما دام لن يعود ليو الليلة، فإنني بحاجة إلى فعل شيء يشغلني عن القلق من المبيت وحدي في المنزل.

بعد نصف ساعة، صرت في طريقي للمتنزه، مسرورة لخروجي من المجاورة، بعيدًا عن أجوائها المتكلِّفة الخانقة. تستقر رؤيتي على أن السبب يكمن في البوابات الحديدية؛ إنها توحي بالعيش داخل أسوار سجن. لو لم تكن موجودة، لباتت «ذا سيركل» طريقًا سكنيًّا عاديًّا، مثله مثل أي طريق آخر في لندن.

إن المتنزه بديع المنظر بألوانه الخريفية المبهجة. أتمشى لساعة من الزمن، أحاول خلالها ألا أطيل التفكير في شيء، ثم أجلس على مقعد وأتأمل الحياة من حولي. يسرع عدد قليل من الناس الخطى قاصدين مكان ما، بينما يتمشى معظم الباقين متمهلين، لا سيما الأمهات اللاتي يصطحبن صغارهن، أو الأزواج كبار السن، وبعضهم يتشابك الأيدي. أبتسم، ثم ينقبض صدري حزنًا. هل سيصبح لدي وليو أطفال، هل سنكبر في السن معًا؟ أليس غريبًا أننا لم نتطرق إلى مسألة إنجاب الأطفال؟ أم لعلها محادثة ننتظر خوضها ما إن تستقر حياتنا الجديدة معًا في لندن؟

– أليس!

أتطلع لأبصر إيف تركض نحوي. أسألها متظاهرة بالاندهاش: «أما زلتِ تركضين حتى اللحظة؟ لقد رأيتكِ تغادرين في التاسعة هذا الصباح».

تضحك وهي تجلس على المقعد، وتنتظر لحظات حتى تلتقط أنفاسها.

– لا، ركضتُ لبعض الوقت برفقة صديقة لي، ثم ذهبت إلى منزلها لتناول الغداء. أما الآن، أركض لمعاودة العمل على مدونتي. ماذا عنك؟ هل استمتعتِ بعطلة الأسبوع؟ ذكر ليو أنكِ سافرت.

– نعم، ذهبت إلى هارلستون والتقيتُ بعض أصدقائي هناك. شعرت بالأسف لاضطراري إلى الاعتذار عن دعوة ماريا في اللحظة الأخيرة، إنما كنت في أمسِّ الحاجة لتغيير الأجواء.

– لا داعي للقلق، لقد تفهمتْ شعورك.

– ومن جانب آخر، وقع خلاف بيني وبين تامسين، ولذا ارتأيت أنه من الأفضل أن أحافظ على مسافة بيننا.

تُجعِّد أنفها، قائلة: «صحيح، لقد أخبرتني. لو ما سأقوله قد يخفِّف من سوء الوضع، فإنها نادمة حيال ما بدر منها».

– أعلم ذلك، جاءت لتعتذر هذا الصباح، مما أراه تصرفًا لطيفًا منها. كما دعتني لاحتساء القهوة يوم الجمعة.

– حسنًا فعلتْ، ذكرتْ بالفعل أنها ستدعوك. لا تظنِّي فيها سوءًا، يا أليس. لقد أثَّرت وفاة نينا عليها بقسوة.

أقول فيما أراقب كلب «داكسْهوند» صغيرًا يتشمم كومة من أوراق الشجر: «إنه لأمر مروِّع أن يفقد أحد أقرب أصدقائه بتلك الطريقة الفظيعة».

– وكان الحال أشدُّ بالنسبة إليها، فرغم أنه لم تقع خلافات حادة، أو أمور من هذا القبيل، أظنُّ أن انتقالنا إلى المنزل المجاور لمنزل نينا، جعل تامسين تشعر أنها فقدتْ مكانتها.

– كيف ذلك؟

– الأمر أنني لم أعرف أن تامسين ونينا كانتا صديقتين، أعني فيما سبق، إلا بعد وفاة نينا، عندما جاءت تامسين لزيارتي. عانتْ حينها حالة اضطراب شديدة، وأرادت أن تعرف إذا ما تسببتْ في إثارة استياء نينا منها، على أي نحو. سألتها عما تقصده، وقالت إنهما كانتا أعزَّ صديقتين لبعضهما، حتى شهور قليلة قبل وفاتها، وقد دامتا على تبادل الزيارات بكثرة، وتناول العشاء معًا في العطلات الأسبوعية. ثم فجأة، تبدَّل الحال بينهما. قالتْ إنها مرَّتْ ذات يوم من أمام منزل نينا، ورأتني من خلال النافذة أثرثر

معها، وتساءلتْ عن سبب عدم دعوة نينا لها لمشاركتنا الثرثرة. أخبرتها أنه أحيانًا يتطلب الحال احتساء قدح من القهوة، دون تخطيط مسبق. اعتادت نينا عندما تلمحني عائدة من جولة الركض، أن تناديني صائحة «ألم يحن الوقت لاحتساء القهوة؟»، وفي أحيان أخرى، يتكرر لقاؤنا في العشاء. ذهبنا إلى منزل نينا وأوليفر عدة مرات، بصحبة ماريا وتِيم، إنما لم تأتِ تامسين ولا كونر قط، ولذلك لم أفطن أنها ونينا صديقتان، كما هو مفترَض. استفهمتُ عن هذا الأمر من ماريا في وقت قريب، وسألتها إذا ما تدري ما حدث بينهما، وقالت إنها لا تعلم شيئًا. توقفت نينا عن حضور صف اليوجا كذلك، وارتابت تامسين في تصرفها، واعتبرت أن نينا لا ترغب في رؤيتها.

تسكت قليلًا، ثم تضيف: «لقد أحببتُ نينا حقًّا، وتضايقت لشعوري هذا بعد ذلك، عندما تراءى لي أنها تصرَّفت بطريقة... أنها تصرَّفت بلؤمٍ بعض الشيء».

أومئ برأسي على مهل.

– هل عُرف أن نينا لديها عشيق؟

– من أخبركِ بذلك؟

هل سمعتُ نبرة حادة خفيضة في صوتها أم أنني تخيلتُ ذلك؟

– لورنا.

تهزُّ رأسها.

– لا، لم نكتشف إلا بعد رحيلها.

ثم، تلتفت ناظرة إليَّ، وتستطرد: «أصبحتِ تفهمين الآن سبب قبولنا أن أوليفر هو مَنْ قتلها».

أودُّ لو أسألها: أتقبلتم ببساطة هكذا دون أدنى شك في الأمر؟

لكن أوجه لها سؤالًا آخر: «لكن، لِم لا يُحتمل أن الرجل الذي تورطت في علاقة معه، هو الذي قتلها؟».

تنحني إيف لتربط حذاءها، وتقول وهي تعتدل ثانية: «إنني متأكدة أن الشرطة نظرت في هذا الاحتمال. وإذا ما رأت أنه لا داعي للتحقيق، فبأي صفة نجادل الشرطة؟».

أودُّ لو أنطق: بصفتكم أصدقاء أوليفر. كنتم أنتم أصدقاء أوليفر.

أقول: «ذكرتِ أن تامسين كانت صديقة حميمة لِنينا. فهل عرفتْ بشأن علاقتها الخاصة مع ذلك الرجل؟».

– لا، لم تعرف وقتها. لم تتحدث نينا إليها بشأن علاقتها قط.

– أذكُر أن تامسين، في غدائنا الأسبوع الفائت، تحدثت عن نينا ومساعدتها لها، هل تعاملتْ نينا معها بصفتها المهنية؟

– لا، لم يُسمح أن تصير نينا معالجتها النفسية، اعتبارًا لصداقتهما. تعاني تامسين الاكتئاب –لا أظنها قد تمانع إذا أطلعتُكِ على حالتها– وعلى ما أعتقد، اقترحت عليها نينا بعض العلاجات العشبية، لأن تامسين رفضت الاعتماد على مضادات الاكتئاب. ولهذا، لاقت الأمرَّين عندما بدأت نينا في إبعاد نفسها عنها. شعرت تامسين أنها منبوذة، وليس على المستوى المكاني فحسب.

– هل عملت نينا من المنزل؟

– لا، من مكتب خاص على بعد نحو عشرين دقيقة من هنا.

– وماذا عن كونر، ما هي طبيعة شخصيته؟

– كونر هو كونر، لا يتغير. عندما تعرفتِ إليه، كان في أفضل حالاته. إنما يبدو في غالب الأحيان متبلد الإحساس، لا سيما تجاه تامسين.

لا أريد التطفل إنما يزداد فضولي. لحسن الحظ، بعد أن شربتْ من زجاجة المياه الخاصة بها، تستطرد دون أن أستحثها.

– فمثلًا بعد وقوع جريمة القتل، أرادت تامسين الانتقال من المجاورة. كُلنا أردنا ذلك، وهي ردة فعل طبيعية لم تحتمل أدنى تفكير، فقد حدثت جريمة قتل عنيفة على بعد خطوات من منازلنا، والذعر شمل الجميع. أما كونر فأصرَّ على البقاء ورفض مجرد النظر في احتمالية الانتقال. لو أنهما توصَّلا إلى حلٍّ وسط، ونزل على رغبة تامسين، وأمعنا التفكير معًا في أمر الانتقال كيفما أرادت، لَمَا تحطمت نفسية تامسين لهذا الحد. في حين تصرَّف وِيل بذكاء، وقال إنه بإمكاننا عرض المنزل للبيع مرة أخرى، حتى لو سيعني ذلك أن نبقى لخمسة أشهر أخرى. إنما لورنا، بوجه خاص، واجهت حالة عصيبة. رغبت في المغادرة والمبيت لدى شقيقتها في مقاطعة «دورْسِت»، حتى ولو لفترة قصيرة، وعرض عليها وِيل أن يوصِلها هي وإدوارد. لكن في الصباح التالي، نُقل إدوارد إلى المشفى لإصابته بنوبة قلبية، بسبب التوتر الذي تعرَّض له جراء الجريمة في المنزل المجاور، لذا لم يستطيعا ترك منزلهما. على أي حال، قبل أن يتخذ أحدنا أي خطوة، أُلقي القبض على أوليفر، وبعد ذلك قتل نفسه. عاد إلى الجميع الإحساس بالأمان من جديد. ولم يغادر المجاورة فعليًّا في ذلك الحين، سوى ساكني المنزل رقم ثلاثة، وهم عائلة «تينزِلي».

أهمهم بشفتيَّ تعليقًا فحسب؛ ما يزال ذهني متوقفًا عند التَّخاصُم ما بين تامسين ونينا. لا أريد لفت انتباه إيف إلى أنها أمدتني بتفاصيل تستدعي الإمعان فيها، لذا أفكر في موضوع آخر للحديث عنه.

– بالمناسبة، عندما خرجتُ للحديقة هذا الصباح، اكتشفتُ فتحة في السور الفاصل بين منزلينا.

– يا إلهي، نسيت هذا الأمر! استغلها أوليفر ليُعير وِيل جزَّازة العشب، لأنها كانت من أحدث طراز متطور تكنولوجيًّا. ومن ثم، لجآ لفكرة الفتحة في السور لتحريك الجزَّازة بسهولة بدلًا من الالتفاف بها من الجهة الأمامية. على الأرجح، ستجدين فتحة أخرى على الجانب الآخر من الحديقة، فقد اعتاد أوليفر مساعدة لورنا وإدوارد في جزِّ العشب. ثم صار جيف يساعدهما بعد ذلك.

– إنه يسكن في المنزل المجاور لهما، على الناحية الأخرى، أليس كذلك؟

– بلى.

– هل يعيش بمفرده؟ ذكر أحدهم أنه مُطلق.

– نعم، انفصل عن زوجته منذ بضع سنوات. لم ألتقِ زوجته لكن ماريا تعرفها، كانت جارتها. تعرَّفَت المرأة إلى شخص ما في مقرِّ العمل، وهكذا قُضي على زواجها.

عندئذ تنهض إيف وتتمطَّى رافعة ذراعيها فوق رأسها، مستعيدة الحيوية لعضلاتها. ثم تقول: «اعذريني، يجب أن أرحل. أتريدينني أن أطلب من وِيل أن يعيد اللوح إلى مكانه في السور؟».

أردُّ باسمة: «لا، لا داعي. لقد تغطَّت الفتحة بالشجر على أي حال. وما أدراكِ لعلنا نستغلها استغلالًا حسنًا».

– هل ما زال ليو يعود إلى المنزل مساء كل يوم، كما فعل الأسبوع الماضي؟

– لا، طلبت منه ألا يفعل. إن المسافة شاقة ليجتازها مرتين يوميًّا.

– إذن، ألا ترغبين في المبيت معنا في المنزل؟

– هذه لفتة لطيفة منك. إنما إذا وددتُ العيش هنا، فأحتاج إلى التعود على المكوث في المنزل بمفردي.

– لو غيرتِ رأيكِ، أخبريني. ألا تريدين الركض برفقتي في طريق العودة إلى المنزل؟

– لا، أشكرك، لست مِمَّنْ يمارسون الركض على هذا النحو.

تقهقه، مردفة: «وداعًا، يا أليس. استمتعت بالتحدث إليك. أراكِ يوم الجمعة في منزل تامسين، ما لم يكن قبل ذلك».

أراقبها مبتعدة ركضًا، فيما أتفكر بعمق. إنني ممتنة لكل ما أطلعتني عليه، إنما هذه كمية هائلة من التفاصيل انهالت على رأسي في محادثة واحدة. ربما هي إيف، التي يُفترض ألا أثق بها. ووفقًا لما بدأت أعلمه عن نينا، بخصوص علاقتها الغرامية وخصومتها مع تامسين، فمن الجائز أن نينا لم تكن شخصية لطيفة كما تصورتُها.

الماضي

باتت لديَّ عميلة جديدة ومكتب جديد، في الطابق الأول من مبنى قديم متداعٍ. أسمع خطواتها تهرول صاعدة الدَّرج، وأقدامها تطرق الدرجات الخشبية. تأخرت على موعدها.

تقول مرتبكةً: «إنني آسفة، لقد تهتُ في الطريق. لقد انتقلتُ إلى هنا حديثًا، وما زلت لا أعرف أي الطرق أسلك بعد».

بابتسامة أقول: «لا بأس. ما كان عليكِ أن تَشُقِّي على نفسكِ بالركض».

أُصدِقها القول دونما مجاملة؛ إن وجنتيها جمرتان وبشرتها متعرِّقة، وشعرها في حالة فوضوية، بعضه لم يزل مربوطًا، وبعضه الآخر تبعثر في خُصَل على جانبَي وجهها.

أنتظرها ريثما تخلع معطفها ووشاحها الطويل، وكلاهما أسود قاتم. والفستان الذي ترتديه أسود، وحتى حذاؤها طويل الرقبة، أسود. تنتبه أنني أتطلع إليها فتضحك على استحياء.

توضح: «أحاول التأقلم مع سكني الجديد. يبدو أن معظم النساء هنا يرتدين الملابس السوداء».

أكتفي بالابتسام دون تعليق، وأخبرها أن تأخذ راحتها، بيد أنه قد لا تجدُها في المقعد ذي الظهر المنحني، الذي اخترته لمكتبي الجديد. أسألها إذا ما تشعر بالدفء كفايةً، حيث إن الهواء شديد البرودة في الخارج، حتى تكاد برودته تصل إلى الصفر.

تقول: «نعم. أشكرك».

ألتفت نحو النافذة حتى أعطي لها بعض الوقت لتسكن في مجلسها. يتكدس الطريق بحركة أناس كثيرين يعودون إلى منازلهم بعد انقضاء ساعات عملهم.

أبادرها بالسؤال، ما إن تجلس: «بماذا تشعرين؟».

تتململ في جلستها، مجيبة: «في الحقيقة، لست متأكدة من سبب مجيئي إليك. أعني، لا أعاني خطبًا بعينه، لكن أخالُني بحاجةٍ إلى التحدث مع أحد يفهمني».

أحاول أن أخفف من توترها، بقولي: «وهذا جُل ما أفعله هنا».

تومئ برأسها.

– لا أعرف من أين أبدأ؟

– هل تسمحين لي أن أطرح عليكِ بعض الأسئلة في البداية؟

تومئ ثانية.

– بالطبع، لا مانع.

أقرِّب منِّي دفتر ملاحظاتي.

– قبل أن نبدأ، أريدكِ أن تعرفي، وتتذكري، أن أيًّا ما تذكرينه داخل هذه الغرفة فهو سريٌّ تمامًا.

تطلق ضحكة خافتة.

– هذا حسنٌ، لو أنني سأطلعك على أمور مروعة في حياتي. إنما كما قلتُ سابقًا، لا أعرف سبب مجيئي حقًّا. إن حياتي مثالية، غير أنني لست سعيدة بها. يعتريني شعور رهيب عند اعترافي بذلك، لكنها الحقيقة.

تنتشر ذبذبات توترها الداخلي في أرجاء الغرفة. أمسك قلمي وأدوِّن كلماتها: «مثالية» و«لست سعيدة»، ثم أميل للأمام إزاءها.

– أتعرفين ما قاله هنري ديفيد ثورو؟

«إن السعادة مثلها مثل الفراشة، كلما طاردتِها، تتمادى في مراوغتِك. لكن ما إن ينصرف انتباهكِ عنها، حتى تقتربُ منكِ وتسكن على كتفك».

تبتسم وتستكين. ما خذلتني هذه المقولة قط.

الفصل الحادي والعشرون

أستفيق من نومي. أوشك أن أفتح عينيَّ لكن، تنبِّئني غريزتي أنني بحاجة إلى التظاهر بالنوم. يتخبط ذهني، في محاولة لاستيعاب ما يحدث. ثم، أعي الأمر، هنالك أحد بالغرفة.

يتدفق الأدرينالين في عروقي، دافعًا ضربات قلبي للجنون. يخفق قلبي في صدري وأقول لنفسي محمومة إنني أتخيل، وأذكِّرها بآخر مرة اعتراني هذا الشعور، لم أجد أحدًا حينها. لكنني أعلم، بكل ما بي من يقين مرعب ورهيب، أن شخصًا ما يقف عند نهاية السرير. إنني ممددة في حالة أقرب إلى الشلل، لا أجرؤ أن آتي بنَفَس، منتظرة أن يهجم عليَّ ذلك الشخص ساحقًا جسدي، أن يضيِّق قبضتيه حول عنقي. توتري على أشده، أبذل جهدي لتمالك هلعي، إنما لا أحتمل.

– اغرُب عني!

خرجت الكلمات ممزقة من جوفي، أرفع نفسي كُرْهًا، وأعدُّها لمواجهته أيًا مَنْ يكن. الغرفة غارقة في الظلام، ويتفاقم ذُعري، لأنني تركت المصباح مُضاء. تطول يدي الأرضية، أتحسسها بحثًا عن مفتاح الإنارة، وأشدُّ من عزم نفسي حتى لو قبضت يدٌ على ذراعي العارية وجرَّتني جرًّا من السرير. أنير المصباح وأمعن النظر في الغرفة، وأنفاسي لاهثة متلاحقة فيما أحدِّق في الظلال. لا يوجد أحد. أتمهل، مُنصتة لكل همس يصدر عن المنزل. لكن لا صوت غريب.

يستلقي ظهري على الوسادة والعرق البارد يتصبب على جبهتي، أحاول تهدئة ضربات قلبي. لا تخافي، لا تخافي. لم يحدث شيء.

إنما تسلل شخص ما، أعلم أنه دخل إلى هنا. أسحب هاتفي من تحت الوسادة، أضغط رقم النجدة 999 ثم أغير رأيي وأبحث عن رقم هاتف ليو. أحتاج إلى سماع صوت أحد آلفه، وهو الشخص الوحيد الذي يمكنني الاتصال به. أتحقق من الوقت، وعندما أجدها لم تتعد الثانية، أدرك أن هنالك وقتًا متبقيًا من الليل ما يزال عليَّ تجاوزه وحدي، فيخالجني شعور مُنهك. لن يطلع النهار قبل خمس ساعات أخرى، ولن أستطيع الخلود للنوم ثانية، ليس بعد ما حدث. أجبر أَعصابي على الهدوء. لا يمكن أن أهاتف ليو. لم يحدث لي شيء، ولن يحدث شيء لي، الآن. لكن لماذا يكلف أحدهم نفسه عناء اقتحام المنزل دون فعل شيء على الإطلاق؟ وكيف تمكَّن من الدخول؟

أنهض من السرير، على مضض، وأدور في أرجاء المنزل كما فعلت منذ أسبوع مضى، لكن بقدر أقل من ادعاء الشجاعة، لأن هذه المرة، لا ينام ليو في الطابق العلوي. أتفقد النوافذ فرنسية الطراز في المطبخ. لا أرى زجاجًا مكسورًا ولا علامة دخول عنوة. أتجه صوب المنضدة وألتقط من الدُّرج سكينًا. هذه السكين ذات المقبض الأسود والطرف المُشَرشَر، المستخدَمة في تقطيع الليمون، لن تصير خطرة إلا إذا غرزتها بعمق في جسد أحد. وهذا ما لن أقدر عليه أبدًا، رغم ذلك، تمدُّني بدرجة ضعيفة من الثبات.

نوافذ الطابق الأرضي كلها سليمة، لم يمسها شيء، والباب الأمامي لم يزل محكم الغلق من الداخل. أستمر في التحقق صعودًا للطابق العلوي على مهل، ودقات قلبي تتسارع مع كل درجة أصعدها. أحاول

تغافل ما يتصوره ذهني أن يطل شخص ما بوجهي من غرفة الضيوف، أو غرفة المكتب. بعد إشعال كل تلك الأضواء، صار المنزل بأكمله متوهجًا، فيما عدا غرفتنا، تلك الغرفة التي اعتدتُ وليو النوم فيها، تلك الغرفة التي قُتلت فيها نينا. أدفع الباب ليفتح، أشعل الضوء، ثم أختلس نظرة إلى الداخل. إنها مثلها مثل الغرف الأخرى، فارغة. ومع ذلك، أقف متسمرة مكاني، ممعنة النظر في أرجائها. هنالك نوع من الحضور، إنما ليس حضورًا ماديًّا، بل آخر غير مرئي، غير ملموس. حضورٌ أحسُّ به، لكن لا أقدر على وصفه. أصفق الباب خلفي، وأنزل ركضًا إلى أسفل.

استطعت، بطريقة ما، أن أقضي الساعات القليلة المتبقية. كي يمر الوقت، ارتشفتُ عدة فَنَاجين من الشاي في غرفة المعيشة، وأشعرَني جلوسي في الجهة الأمامية من المنزل ببعض الأمان. أردتُ التحقق من الطريق في الخارج، لكن مجرد تخيل رؤية شخص ما واقف هناك، يراقب المنزل، يراقبني، يبثُّ فيَّ الرعب بدرجة تفوق تخوفي من وجوده بين الجدران، لذلك أبقيت الستائر مُسدَلة. بحلول الساعة الخامسة، أنسل إلى السرير ثانية. سينفلج الفجر عما قريب، وسيستيقظ الجيران، لبدء يوم جديد. لن يأتي أحد في هذا الحين.

***

عند استيقاظي، أتفكر في الليلة الماضية، من المستبعَد الظنُّ أن ما حدث كان أي شيء سوى نسج من خيالي. محتمَلٌ أنني أطفأت المصباح بنفسي، دون أن أدري، في أثناء تعمقي في النوم. أتجول في أرجاء المنزل مرة أخرى، أتحقق من النوافذ والأبواب بحثًا عن أدنى أثر لشخص تمكَّن بطريقة ما أن يتسلل من خلالها. لكن لا يبدو أن شيئًا غير مألوف.

أُصاب بخيبة أمل صادمة، ما إن أرى خُصَلًا من شعري على منضدة المطبخ. بالإضافة إلى الخُصَل الأخرى التي عثرت عليها في الحمام هذا الصباح، فهذه إشارة لأكثر ما أخشاه، أنني أفقد شعري مجددًا. بعد مُضي بضعة أشهر على وفاة والديَّ وشقيقتي، صار شعري ضعيفًا على نحو ملحوظ، وأقنعتني ديبي أن أذهب إلى طبيب، وشُخِّصت حالتي بتساقط الشعر الكَرْبي، الذي سبَّبه الضغط النفسي نتيجة ما حدث. منذ الحادثة، بالكاد تناولت طعامًا، وفقدت الكثير من وزني. أخبرني الطبيب أنه إذا أردت ألا تزداد حالتي سوءًا، فينبغي أن أبدأ بتناول طعامي على نحو صحي، في وجبات متوازنة من جديد. عاد شعري إلى طبيعته، إنما خضتُ مراحل طويلة، وشاقة للغاية، بالنسبة إلى فتاة في التاسعة عشرة.

أما الضغط النفسي الذي يعتريني هذه الآونة، بسبب ما وقع في هذا المنزل، ولم يخبرني به ليو، لا يُقارَن بذلك الضغط الذي شعرت به في الماضي. لقد أصبح عمري أكبر، ومن الطبيعي أن يضعف شعري. ألفُّه في عقدة مرتخية وأثبِّتها بمشبك؛ إذا ارتفع عن كتفي، لن أنشغل بأمره أكثر من اللازم.

أبحث عن شيء، في الثلاجة، لأتناوله على الفطور وأجد في دُرج الخضراوات بجانب ثمرة أفوكادو ذابلة، زجاجة شمبانيا من نوعية باهظة الثمن، لا بد أن ليو هو من وضعها هنا قبل أن يغادر بالأمس. لا أعرف إذا ما جُلبت من أجلي –مثل الوردة البيضاء التي تركها لي في البهو– أم أنه وضعها في هذا الدرج ليشرب منها عندما يعود إلى المنزل.

أستقبل رسالة نصية منه على هاتفي: **هل كل شيء على ما يرام؟**

فأجيب عليه: **كل شيء على ما يرام.**

ألتفتُ ثانية إلى فطوري ولكن فقدت شهيتي، شتَّتها قلقي بشأن وضع علاقتنا. كم ينشرح صدري لمقابلة جيني اليوم على الغداء، إنني في أمسِّ الحاجة للتحدث إلى أحد قريب مني.

أعمل لبضع ساعات قليلة، ثم أغادر المنزل. يعتني إدوارد بالزهور المزروعة في حديقة منزله الأمامية، مما يذكِّرني بما قالته تامسين عما سبَّبته من حزن في نفس لورنا، بأسئلتي عن نينا، ويغمرني الإحراج فجأة.

أحييه، محاولة جسِّ نبضهما تجاهي: «مرحبًا!».

ابتسامة إدوارد تهدئ من ذلك الرَّوع في ذهني.

– مرحبًا، يا أليس. كيف حالك؟

أتجه نحوه عبر الممر.

– إنني بخير، أشكرك لاهتمامك، آمل أنك بخير كذلك.

– نعم، نعم، بحال لا بأس به. هل أنتِ ذاهبة للتسوق؟

– لا، سألتقي صديقة لي على الغداء. كيف حال لورنا؟

– إنها بأفضل حال. من اللطيف أنكِ أتيتِ لزيارتها منذ بضعة أيام؛ إن الوحدة تحاصرها من حين لآخر.

– لكن ليتني ما تسببتُ في إحزانها.

– إحزانها؟ ولماذا قد تتسببين في إحزانها؟

– أخشى أنني سألتها عن نينا وأوليفر.

– لا تشغلي بالك. إن حزنها لم يكن لذلك، بل حزنتْ من أجلك. أخبرتني أنكِ فقدتِ والديكِ وشقيقتكِ، أليس كذلك؟

– بلى، هذا صحيح.

– يا لها من صدمة موجعة. أكان السائق سكران؟

– لا، كان مجرد سائق شاب لا خبرة كافية له.

يهزُّ رأسه، مردفًا: «مررتِ بوقت رهيب بلا ريب».

– نعم، إنما صار ذلك الوقت ينتمي إلى الماضي.

يقول متذمرًا: «لا فائدة تُرجى من التفكير في الماضي».

أتبين من النظرة الحادة التي تطل من وجهه، أنه يفكر في ابنه. إنه واحد من ذلك الجيل من الناس، الذين تعودوا إخفاء عواطفهم.

أعلِّق: «ربما معك حق».

يبعد ناظريه عني.

– حسنًا، من الأفضل أن أتابع عملي.

– إذا احتجتما إلى التسوق أو إلى أي شيء آخر، أتمنى أن تخبراني على الفور.

– أشكركِ، لكن تأتينا احتياجاتنا من خلال التوصيل المنزلي. لم نعد نخرج من منزلنا هذه الأيام.

باستثناء أنه منذ أيام قليلة، من المفترَض أنه خرج من المنزل.
أومئ برأسي.
- حسنٌ. وداعًا، يا إدوارد. وأخبر لورنا من فضلك بأنني أودُّ زيارتها مرة أخرى.

الفصل الثاني والعشرون

لدى وصولي، أجد جيني قد سبقتني إلى مطعم «نِبْتُون»، متأنِّقة في ملابسها المكونة من تنورة جلدية بُنية في لون الشكولاتة، وسترة جلدية لم أرها ترتديها من قبل.

تقول عندما أشير إليها: «إنها هدية عيد ميلادي من مارك».

أقول لها: «هذه هي مشكلة العمل من المنزل، لا يهم ماذا أرتدي في الصباح. أودُّ لو لدي سترة مثلها، إنما حينها قد لا أرتديها أبدًا حتى تَبْلَى».

نتبادل الحديث عن أحوالنا سريعًا ونطَّلع على قائمة الطعام، لكن ما إن طلبنا، ترتاح نفسي لأفضي إليها مخاوفي.

أُقلِّب شوكتي على سطح غطاء الطاولة الأبيض بلا توقف، قائلة: «لا أستطيع التأكد إذا ما ترجع الصعوبة التي أجدها لمسامحة ليو، إلى أن علاقتنا محكوم عليها بالفشل حتى قبل أن يكذب عليَّ. حينما كنا نرى بعضنا في العطلات الأسبوعية فقط، أظهرنا أفضل ما لدينا، حتى لا نفسد على أنفسنا الوقت الذي نمضيه برفقة بعضنا. لم نكن نعرف بعضنا حقًّا، ولم نكتشف مَسَاوِئ بعضنا ونقاط ضعفنا إلا في الآونة الأخيرة».

تقول جيني: «رغم ذلك، تحبينه».

أتطلع إليها مُقرَّة بذنبي.

– أحبه، إنما لم أعد أشعر أن حبي تجاهه بالقدر الكافي للتغاضي عن سلبياته. أعلم أن كلامي يجعلني أبدو امرأة مريعة.

– لا، مطلقًا، بل امرأة صادقة.

أبتسم لها.

– لا أريد أن أفقد الأمل في علاقتنا ولذا أحتاج إلى أن أجد حلًّا لتستمر. إنما في الوقت الحالي، لا أراني قادرة على التحمل. دعينا من هذا، لنتحدث عن أمر آخر.

يقاطعنا النادل محضرًا طلبنا.

أقول، عند انتهائنا من تناول الطعام: «لقد حدث أمر غريب منذ بضعة أيام. أتذكرين عندما أخبرتكِ أن نينا اعترفت إلى لورنا، تلك السيدة التي تعيش في المنزل المجاور، أنها انغمست في علاقة مع شخص آخر؟ ما إن أطلعت ليو على هذا الأمر، كادت الدماء تهرب من وجهه».

– حتى أنا نفسي ذُهلت، عندما أخبرتِني.

تسند جيني ظهرها إلى المقعد وتضع يدها على معدتها، مضيفة: «كانت وجبة شهية».

– إنما ردَّة فعله تعدَّت الذهول، لقد أوقع كأس النبيذ من يده وانسكب في كل الأنحاء. لا أعرف بالضبط، لكنه بدا مرتبكًا على نحو مبالَغ فيه.

تقهقه جيني.

– ردَّة فعل مريبة، ما لم يكن هو نفسه العشيق الذي تورطتْ في علاقة غرامية معه.

– ماذا؟

أحدق إليها، فيما تعتدل في جلستها سريعًا، وتمدُّ يدها عبر الطاولة لتمسك يدي، وسواراها الفضيان يصلصلان.

– إنني أمزح، يا أليس! لم يعرف ليو نينا من قبل.

فات الأوان، لا رجعة لهذا التصور الذي حلَّق إلى ذهني.

– ماذا لو أن هذا حقيقي؟ ماذا لو أنه عرفها حقًّا؟

تهزُّ يدي.

– كُفِّي عن ذلك. لا تنساقي وراء تصور أمر لم يحدث على الإطلاق. كيف له أن يعرفها من قبل؟

– لا أدري. لقد كانت معالجة نفسية، وربما عرفها بصفته عميلًا لديها.

تتأوه جيني، وهي تمسك بقائمة الطعام: «ليتني ما تفوهتُ بشيء. لم تكن سوى مزحة، لتأخذيها بهذه الجدية، يا أليس. أترغبين في التحلية؟».

– عذرًا. لا، سأكتفي بفنجان من القهوة.

ثم، أغلق القائمة وأضعها جانبًا على الطاولة، مضيفة: «وجَّهت لي تامسين دعوة لزيارتها في منزلها الجمعة القادمة».

– تامسين؟ عدوتكِ اللدودة؟ لا يُعقل! أخبريني عما قالته، أريد معرفة ما حدث بأدق التفاصيل.

أبتدئ في سرد ما صار مع تامسين وخلافها معي، ثم اعتذارها مني، وفي طريق خروجنا من المطعم بعد نصف ساعة أخرى، ألمح في الارتياح البادي على وجهها أنها تعتقد أني تغاضيت عن مزحتها بشأن العلاقة بين ليو ونينا. إنما لم أفعل، إن ما ذكرته استقر في أعمق جزء في عقلي.

***

رحلة العودة مباشرة، عبر قطار الأنفاق من محطة «كوفنت جاردن» إلى محطة فينسبيري بارك. هذه هي الطريق التي اتخذتُها حين مجيئي إلى هنا، من خلال خط «بيكاديلِّي»، لكن أقتربُ من الخريطة التوضيحية على جدار المحطة النَّفَقية، لأتمعن إلى أي الأماكن قد أذهب على هذا الخط كذلك. تقع عيناي على محطة «ليستر سكوير»، القريبة من حي المسارح، ومحطة «نايتسبريدج»، حيث مركز تسوق «هارودز». كما يوجد هناك متحف التاريخ الطبيعي، وها هو مكان آخر أتوق لزيارته. أتتبع الخط الأزرق الداكن إلى ما بعد محطة «إيرلز كورت» وحتى نهايته، وأندهش من إمكانية أن أصل إلى مطار «هيثرو»، من باب منزلي تقريبًا. إن خط «بيكاديلِّي» من أروع الخطوط التي يمكن الاعتماد عليها طوال الحياة. وإذا غيَّرت الخط من محطة «إيرلز كورت»، فبوسعي أن أصل إلى محطة «كيو جاردنز» وإلى... –أتتبع تفرعًا آخر– إلى «ويمبلدِن». أحبُّ وليو مشاهدة مباريات التنس، يا تُرى ما مدى صعوبة الحصول على تذاكر لحضور مباراة هنا؟ عندئذ أتساءل، إذا ما ستصمد علاقتنا حتى الصيف القادم.

كدت أبعد نظري عن الخريطة، غير أنني أتذكر أن مكتب توماس جرينجر في حي ويمبلدِن. أخرج هاتفي من حقيبة يدي وأبحث عن العنوان: البناية رقم 26 شارع ويليام. أسكن لبرهة. يرغب جزء مني في أن أذهب وأتحقق من صحة العنوان، للتأكد أنه أخبرني الصدق عن هويته، في حال احتجت إلى التحدث معه. لا أدري لِم يخطر في بالي أنني قد أحتاج إلى التحدث إليه، ما لم يتضح أن هنالك مسألة أخفقت فيها العدالة؟ وإذا توصلت إلى أمر يُخفي الجاني الحقيقي عن الأنظار، ألن يصبح من واجبي حينها أن أطلِعه على ذلك؟ كما أن هنالك حالة غريبة لدى الجميع في سهولة تقبلهم أن أوليفر هو قاتل نينا. عساهم يحمون شخصًا ما، شخصًا من «ذا سيركل»، يشتبهون في أنه تورط في علاقة سرية مع نينا. لكن مَنْ هو؟

أعبر حواجز المحطة وبدلًا من اتخاذ طريق العودة شمالًا على خط «بيكاديلِّي»، أتجه جنوبًا صوب محطة «إيرلز كورت» ومنها إلى خط «ديستريكت». لم أتنقل عبر قطار الأنفاق لمسافات طويلة بمفردي من قبل، عند وصولي إلى ويمبلدِن، فقد تخطيت نطاق راحتي تمامًا حتى إنني شعرت بقوة تجذبني لأعود أدراجي من فوري. يبدو الجميع من حولي يعرفون وجهتهم، ما عداي.

أقف جانبًا لأحدد موقع شارع ويليام على تطبيق «سيتي مابر». إنه على مسافة بعيدة، وكلما تعمقتُ في الطريق إليه، أتساءل عما جاء بي إلى هذا المكان. يتكون هذا الطريق الطويل من منازل عصرية متلاصقة، تحوَّل معظمها إلى مكاتب أعمال. أقترب من المنزل رقم 26، ومعلق على الجدار في مدخله، لوحة ذهبية مخفية الملامح حتى إنني اضطررت إلى صعود درجتين من الدرجات الرخامية الأربع، لأقرأ المكتوب عليها: توماس جرينجر، محقق خاص. من وراء الباب الأزرق الداكن، يتهادى إلى سمعي همهمات وعندما تعلو بوتيرة ثابتة، أفطن أن أصحابها يتقدمون في رواق الباب. تدفعني خشيتي من أن يكتشف توماس جرينجر وقوفي عند عتبة الباب، إلى التراجع بسرعة نحو الرصيف. تسنَّت لي بضع لحظات لأختبئ في مدخل على بعد منزلين، قبل أن أسمع أحدهم يقول وداعًا –إنها امرأة– وتلتقط أذني صوتًا رجوليًّا يجيبها. أحني رأسي إلى الهاتف متظاهرة بالبحث عن شيء ما، راجية ألا يُفتح الباب الواقفة إزاءه بغتة. وظهري ناحية الطريق، أسمع نَقْرات كعب حذاء تخبو على الرصيف، فأتنفس الصعداء. ألتفت برأسي على مهل نحو المنزل رقم 26، لأطمئن إلى أن توماس جرينجر لم يعد واقفًا هناك. لا أجده، لذا أتحرك من مخبئي وأبصر امرأة ترتدي معطفًا أنيقًا في لون وَبر الجمل، تبتعد في الطريق. إنني مضطرة إلى أن أعود من الاتجاه نفسه على أي حال، لذلك أتبعها حتى محطة القطار النَّفَقية، وذهني مشغول بالشأن الذي جاءت من أجله إلى محقق خاص. يظهر أن معظم القضايا التي يتولاها، تخص عملاء يريدون معرفة ما يفعله شركاء حياتهم من وراء ظهورهم. يخطر في بالي، قد أتعامل معه ليتحقق نيابة عني، مما يضمره ليو. إنما يؤنبني ضميري.

أعود إلى المنزل، وحتى فيما أضغط أرقام هاتف توماس جرينجر، ما زلت مدهوشة مما أفعل. ما الهدف من مكالمته وليس لدي شيء لأخبره إياه؟ لكن فات الأوان، يُستجاب للاتصال قبل أن أتمكن من التراجع.

أقول، بعد أن ميَّزت صوته على الفور: «أنا أليس داسن».

– أشكركِ لاتصالكِ، يا سيدة داسن.

لم تخفَ عني نبرة الاندهاش في صوته، وهي ردَّة فعل معقولة بعدما أعلنتُ له رفضي مساعدته.

ألاحظ تحدثه إليَّ برسمية مبالَغ فيها، فأقول: «أليس فقط. يمكنك مناداتي باسمي دون ألقاب».

– ويمكنكِ مناداتي توماس.

– أرجو المعذرة، إنما لست متأكدة من سبب... أعني لا يوجد سبب لاتصالي بك تحديدًا.

أكره أن أبدو مرتبكة، لكن أستطرد: «ليست لدي أخبار بعد. لقد ذهبت لزيارة جارة لي، ولم تخبرني إلا بأمور لديك علم بها بالفعل. إنها المرأة التي شهدت أوليفر يصل إلى المنزل ليلة جريمة القتل...».

يقاطعني، قائلًا: «بوسعي المجيء لزيارتكِ بعد الظهيرة في الغد».

تضطرب نبضات قلبي.

– لكن ليس لدي الكثير لأخبرك به. يمكنني أن أقول لك ما لدي في إيجاز الآن، إذا أردت.

– أفضل ألا نتشارك هذا الحديث عبر الهاتف. لدي عمل قريب من منطقة سكنكِ، على أي حال، لذلك لا مشكلة لدي على الإطلاق. أيناسبكِ حضوري في الساعة الثانية بعد الظهيرة؟

– نعم، إنما لست واثقة...

– أشكركِ، يا أليس. أراكِ في الغد.

على الرغم من محاولتي أن أصب تركيزي على عملي للساعات المتبقية من اليوم، لا يفارقني شعوري المؤنِّب الذي تشنجت له معدتي، لأمسك بهاتفي وأتصل بتوماس جرينجر كي أطلب منه ألا يكلف نفسه عناء المجيء. مع أنني لن أطلعه على أمر جديد لا يعرفه مسبقًا، يخالجني شعور أنه ليس من الآمن التحدث معه. أتمنى لو لدي أحد لاستشارته، لكنني أعرف ما قد تقوله ديبي. كما لا أقدر أن أطلب من جيني النصيحة؛ لا يعرف ليو أن الرجل الذي تطفَّل على حفلنا محقق خاص. لو عرفت جيني، فقد تنقل الخبر إلى مارك، الذي سينقله بدوره إلى ليو، بينما أودُّ أن أطلِعه على هوية الرجل بنفسي. يرجع السبب في أنني لم أطلِعه على شيء حتى اللحظة، أنه لو عرف سيتصل بالشرطة، مما سيعرِّض توماس لمعضلة عند اكتشافهم أنه يحقق في مقتل نينا، ولا أريد أن يحدث ذلك.

أعمل حتى ساعة متأخرة من المساء للتعويض عن استراحتي الطويلة لفترة ما بعد الظهيرة، ومع سدول الظلام الحالك، ولأن صدمة ما خبرته في ليل البارحة لم تغادرني، أنشغل بالقراءة في غرفة المعيشة تاركة الستائر مفتوحة، وأنهض بين الحين والحين لأتحقق مما يفعله باقي ساكني «ذا سيركل». ينشرح صدري لمرأى الأضواء، مما يطمئنني أنه رغم تأخر الوقت، لم يخلد الجميع للنوم بعد.

بحلول الساعة الواحدة، تنطفئ أغلب الأضواء ويخالجني التوتر فيما أقف أمام النافذة مكشوفة للعالم. لعل أحدهم يختبئ في الظلال مترقبًا، شخص يراني ولا أراه. ينبعث أحد الأضواء القليلة المتبقية من منزل تامسين، ويروح ذهني إلى أنها لم تزل مستيقظة مثلي.

في طريقي إلى السرير، أنير بئر السُّلم حتى لا يبيت المنزل في ظلام دامس. إنما لم ترتح أعصابي، وقد خدعت نفسي مطولًا بالاعتقاد أنه بوسعي أن أجد راحة في العيش هنا. ارتعبتْ جيني عندما أخبرتها أنني استشعرت بوجود شخص ما في المنزل الليلة الماضية، واستحثتني أن أنتقل للعيش في منزلها ومارك ريثما أسوي أموري العالقة مع ليو. انبغى لي أن أقبل عرضها في الحال، لكن سأفعل ذلك غدًا. لا أدري ما سيؤول إليه الحال مع ليو، الأمر الوحيد الذي أعلمه، هو أنني لم أعد أحتمل البقاء في مجاورة «ذا سيركل».

الفصل الثالث والعشرون

يحضر توماس في تمام الساعة الثانية من بعد الظهيرة. توقعت أن يتصل بي على الهاتف الداخلي، لكن فوجئت به يطرق الباب الأمامي.

يقول موضحًا، في نبرة مستنكرة: «فكرت أن أتحقق إذا ما تغيَّر رمز الدخول، ووجدته ما يزال فعَّالًا».

– سأتحدث إلى أحد الجيران بهذا الشأن.

أوصد الباب في وجه الريح الباردة التي أتت معه، ثم أرشِده إلى حيث غرفة المعيشة. إنه لمن سوء الضيافة ألا أقدم له فنجان قهوة، إنما عساه يرحل في أسرع وقت ممكن. على الرغم من أنني استطعت تجاوز الليل من دون أذى، ما زلت غير راغبة في البقاء هنا. إنما لدي تردد حيال أمر واحد، أأذهب إلى منزل جيني أم إلى منزل ديبي في هارلستون؟

يقول، كما لو يقرأ أفكاري مما أَذْهب توتري: «أخشى أنه ليس لدي وقت طويل».

أتريث حتى يتخذ مجلسًا، ويستقر هاتفه على المنضدة بجواره.

– أتفهَّم انشغالك. كيف حال شقيقة أوليفر؟

– من الناحية الصحية، لم تتحسن. لكن تحسنت روحها المعنوية على نحو باهر، لدى علمها أنه يمكننا إحراز تقدم في تبرئة شقيقها من التهمة المنسوبة إليه. إنها غاية في الامتنان لكِ، يا أليس.

أعبس في وجهه.

– كما قلت لك عبر الهاتف البارحة، أشكُّ أن لدي ما أخبرك به خلاف ما تعلمه بالفعل. لا أحبذ أن يتولد لديك، أو لدى شقيقة أوليفر، أمل زائف.

– إن آخر ما أرغب في أن أقدمه إلى هيلين هو أمل زائف، صدقيني.

أطلِعه في إيجاز على ما صار في زيارتي إلى لورنا. ثم أسأله: «هل علمت هيلين –شقيقة أوليفر– أن نينا كانت في علاقة غرامية؟».

– لم تعرف حتى أخبرني مصدري في الشرطة عن شهادة جيرانك.

– وهل وصلت إلى علمها أي مشكلات زوجية بينهما؟

– لا، لكنها أوضحت أنه حتى لو واجه أوليفر مشكلات من ذلك النوع، على الأرجح لم يكن ليخبرها.

– لقد أصرَّت جارتي أنها رأت أوليفر يدخل المنزل. لكن ماذا لو أنه دخل ثم خرج ثانية؟ من الجائز، أنه سمع نينا تجادل لتنفصل عن الرجل الذي تورطت في علاقة معه، وقرر أن يترك الاثنين لحالهما حتى ينتهيا. ومن بعدها، وفيما ينتظر في الساحة، قتلها ذلك العشيق.

– لا تدرين كم أرغب في أن تكون هذه هي الحقيقة. لكن إذا أخذنا بهذا الافتراض، ألم يكن من الأجدر لو اعترف أوليفر بذلك للشرطة؟ لقد تمسَّك بقوله إن قدمه لم تطأْ المنزل قط، رغم محاولات محاميه ليوضح له أن ذلك ما يُحتمل أنه حدث، وفقًا للشهود.

أستفهم منه: «ما الذي حدث في رأيك؟».

يميل للأمام، ويتمعن النظر في عيني، مجيبًا: «أصدق ما أفاد به أوليفر، لأنه لم يكن بحاجة إلى الكذب. وكذلك أصدق السيدة «بومونت»، جارتكِ المسنَّة في المنزل المجاور. تصوري الأمر معي: ترى السيدة بومونت أوليفر يصل، ثم يخرج من السيارة، وفي تلك اللحظة، يتسلل شخص ما من وراء السيارة داخلًا المنزل. أما أوليفر، فيتجه صوب الساحة، دون أن يرى ذلك الشخص لتحركه في الاتجاه الآخر. وتكفُّ جارتكِ، التي تراقبه تخوفًا من أن يتشاجر مع نينا مرة أخرى، عن مراقبته على ظن أنها رأته يدخل المنزل. لهذا السبب لم تر أوليفر وهو يعبر الطريق إلى الساحة. وما دام لم يأتِ أحد آخر بشهادة مضادة، عُدَّ في نظر الشرطة كاذبًا، ولم يُعْتد بحجة غيابه».

ببطء أومئ برأسي، مدركة أن ما قاله توماس ليس ما يُظن أنه حدث، بل ما لا يُستبعد حدوثه. كما يعجبني أنه يصدق أوليفر ولورنا على السواء.

– إذن، نحتاج إلى معرفة ذلك الشخص الذي استطاع التسلل من وراء أوليفر إلى المنزل. من الممكن أنه هو الرجل الذي كانت نينا في علاقة معه.

أنتبه إلى أنني قلت «نحتاج» وليس «تحتاج»، فأحمر خجلًا.

– بالضبط.

– ما لا أفهمه، لماذا لم يتردد الجيران جميعهم في توجيه أصابع الاتهام إلى أوليفر، ولماذا لا يريد أحدهم التصديق بأن شخصًا آخر هو القاتل؟ هل تعتقد أنهم يحمون أحدًا بعينه؟

يردُّ بهدوء: «نعم، هذا ما أعتقد».

– أيحمون شخصًا هنا، في «ذا سيركل»؟

– ولماذا قد يوحدون جهودهم ما لم يكن واحدًا منهم؟

– هذا صحيح، حتى إنهم لا يحبذون أن أطرح عليهم أسئلة عن نينا، وبخاصة تامسين. لقد كانت أقرب صديقات نينا ولم ترض عن زيارتي إلى لورنا.

أتوقف عن المتابعة، منتبهة أنني أخبره بأكثر من اللازم.

– إنه أمر يمكن تفهمه، في حال أنها أقرب صديقاتها. هل تامسين هذه شعرها أصهب؟

– نعم، كيف عرفت؟

– لأن نينا كثيرًا ما تحدثت مع هيلين عنها، لكن لم تستطع هيلين أن تتذكر اسمها ولم يتأكد لي أي واحدة هي من بين صديقات نينا. كما لها صديقة أخرى اعتادت حضور صف اليوجا معهما.

يسترشد بملاحظات على هاتفه.

– ربما تقصد إيف، جارتي في المنزل المجاور الآخر.

يومئ برأسه.

– ربما هي، «إيف جاكمان». هل هي متزوجة؟

– نعم، ويُدعى زوجها وِيل.

– علمت أنهما لم ينتقلا إلى المجاورة إلا قبل خمسة أشهر من مقتل نينا.

- هذا صحيح.

يرفع نظره عن الهاتف.

- لا بد وأنه توجد صديقة غيرها، عرفتها نينا لفترة أطول من ذلك.

أقول بجفاء: «إذن، عسى أن تكون ماريا، تلك المتزوجة بتِيم، عدا أنه يدعوها ماري لأنها ارتادت مدرسة ملحقة بدَير».

يبتسم ابتسامة خفيفة.

- آه، حسنًا، هذه هي إذن ماريا الحقيقية، «ماريا كُنواي» وزوجها الذي يُدعى تيم.

- نعم.

يتوقف عن النقر على شاشة هاتفه، ثم يضعه في جيبه. يقول ناهضًا على قدميه: «جزيل الشكر لكِ، لكن دعيني أكرر قولي، لا تفعلي شيئًا لا ترضين عنه، من فضلك. إن آخر ما أريده هو أن أثقِل أمرًا على كاهلك، لذلك سأحرص ألا أتصل بك. وإذا حدث أمر وارتأيتِ أن تتحدثي معي بشأنه، فاتصلي بي متى شئت».

لا داعي لأخبره أنني لن أكون هنا لأشهد حدوث أي شيء بالمرة.

أردف: «أرجو أن تبلغ هيلين أطيب تمنياتي بالشفاء».

- سأبلغها، أشكركِ لاهتمامك.

أوصد الباب خلفه وأتكئ عليه بظهري، وفكرة أنني لن أقابله مرة أخرى تؤرقني أكثر مما ينبغي. أجد في حديثي معه ما يطمئنني؛ إنه شخص واثق من نفسه، يمكن الاعتماد عليه إذا ساءت الأحوال، مما يجعلني أتساءل عن طبيعة علاقته بشقيقة أوليفر، وإذا ما تعدت الصداقة بينهما إلى حب أفلاطوني. أسترجع ما أطلعته عليه، لأتحقق من أنني لم أتفوه بشيء قد أندم عليه. لم أذكر له ما أخبرتني به إيف البارحة، عن الخصام الذي وقع بين نينا وتامسين؛ لم يتأكد لي بعد سبب إخبارها لي عنه، كما أن تحذير لورنا ما برح عالقًا في ذهني، لذا من الأفضل أن أتحرى الحذر. ليتني أعرف إذا ما همست لي بذلك حقًّا. وما الفارق؟ إنني راحلة بأي حال. إنما لم تزل هنالك أمور تخصني ينبغي لي إنهاؤها قبل أن أرحل.

أهاتف ليو ويجيب اتصالي على الفور.

- إنني ممتن لاتصالكِ، يا أليس.

تهفُّ أنفاسه المرتاحة في أذني عبر الهاتف، فأتذكر أنني وعدته بأن أتصل به لأخبره إذا ما سأسمح له بالمجيء إلى المنزل في الغد أم لا. لن تسعه السعادة عندما أخبره أن يأتي، إنما لن يجدني هنا في انتظاره، وحينها قد تخبو سعادته.

أسأله: «لماذا فقدت أعصابك فجأة حينما ذكرتُ لك أمر علاقة نينا الغرامية؟».

بإمكاني سماع أفكاره التي تشتَّتت بعيدًا عمَّا حسب أنني أتصل به بشأنه، ليتساءل عن السبب الذي من أجله أتصل به حقًّا.

- بسبب تلميحكِ المريب أن ذلك العشيق هو قاتل نينا الحقيقي.

- وما المريب في ذلك؟

– عندما ذهبتُ للعب التنس مع بول، أخبرني أن نينا اعتادت مقابلة عدد لا بأس به من الرجال ساكني «ذا سيركل».

يعبس وجهي.

– أتقصد أنها قابلتهم بصفتها معالجة نفسية؟ لكن لا أظن أنها استطاعت فعل ذلك، لا سيما وأنهم أصدقاؤها وجيرانها.

– لا، لا أقصد بصفتها معالجة نفسية. لقد مدت لهم يد المساعدة لحل معضلات أخرى واجهتهم، مثل وِيل وتمارين أدائه، وكونر وعمله في تجارة الويسكي، وغيرها من نوعية تلك المساعدات.

– لكن ذلك لا يعني أنها تورطت في علاقة مع كل منهم مقابل مساعدته.

– لم أقل ذلك البتة.

– كيف تطرَّق الحديث بينكَ وبين بول إلى تلك النقطة؟

– سألته فحسب عن العلاقة بين نينا وأوليفر فيما مضى. وقال لي إنهما كانا ألطف زوجين، ودومًا ما قدما الدعم للجميع. اعتاد أوليفر مساعدة الجيران الأكبر سنًّا في أعمال البستنة، أو تقديم أي مساعدة أخرى يحتاجون إليها.

يصمت لبرهة ثم يضيف: «ما أحاول قوله إنه كان هنالك العديد من ساكني المجاورة على علاقة وثيقة بِنينا، بما فيهم الرجال والنساء على السواء، ولهذا السبب من المستحسَن في نظري ألا تتحدثي مع أحدهم عن أمر علاقتها الغرامية، وتفصحي لهم عن ظنكِ بأن عشيقها هو قاتلها، على النحو الذي فاجأتِني به».

– وإذا اكتُشف أنها قُتلت على يد مجرم آخر، ألا تعتقد أنه يجب أن يُحاسب على فعلته؟

– بلى، دون أدنى شك.

– حتى ولو وُجد أن ذلك الشخص أحد ساكني «ذا سيركل»؟

يطول الصمت وأكاد أرى التجعدين العميقين اللذين ينغرزان بين عينيه وقتما يتجهم.

– ألديكِ أمر تخفينه عني؟

– جُل ما في الأمر أن البعض لا يعتقد أن أوليفر مذنب.

– ماذا تعنين؟

صرت أذرع البهو، في حيرة من أمري، أأخبره عن توماس، وأنه محقق خاص وليس مراسلًا صحفيًّا، وأنه من يصدق ببراءة أوليفر؟ لكن لو عرف ليو أنه صديق لشقيقة أوليفر، قد يقول إنه يسعى لمنفعة خاصة من وراء ذلك. والأدهى لو سألني أين تقابلتما، سأضطر إلى الإفصاح له أنه هو نفسه الرجل الذي تطفل على حفل المشروبات تلك الليلة، وستُقضى على مصداقية توماس تمامًا، سواء باعتباره محققًا خاصًّا أو خلافه. وعندئذ أذكِّر نفسي، أن الأمر برمته لا شأن لي به بعد الآن.

ما إن تصل قدماي حتى النافذة أتوقف، قائلة له: «من غير المعقول في نظري أن أتقبل ذلك التصور عن أوليفر بصفته الرجل المثالي، وبصفته المجرم القاتل، في آنٍ واحد».

ألمح ماريا وتيم برفقة أولادهما يتحدثان إلى جيف عند بوابة الساحة. أتأملهم للحظات متفكرة، هل مدَّت نينا يدها لمساعدة تيم وجيف لتخطي عقبات واجهتهما، كما فعلت مع وِيل وكونر؟

يقول ليو مقاطعًا سيل أفكاري: «ربما لكِ حق. لكن لا أفهم سبب إصرارِكِ على التفكير في أمرها، ما لم يكن السبب هو شقيقتك. لو أن ذلك هو ما يجعلك على هذه الحال، فأنتِ بحاجة إلى أن تدعي الأمور على ما هي عليه. قد تؤذين نفسكِ على هذا المنوال، يا أليس».

أغلق المكالمة قبل أن يتمكن من إضافة كلمة أخرى، تذكِّرني بما قالته لي معالجتي النفسية، أنني لن أقدر أن أعيد شقيقتي إلى الحياة مهما عشتُ حيوات نساء أخيرات يُدعين «نينا».

الفصل الرابع والعشرون

لا ترحلي!

يضج نومي ذلك الصوت الهامس الخفيض، ولا أجد بي رهبة منه، بل تفيض صدى الكلمات التي لم تزل تتردد من حولي، باللطف والرقة.

أغمغم: «نينا!».

جاء إحساسي بها صامتًا، إنما قويًّا مؤثرًا، كأنه بلسم يطبب ذهني المضطرب.

أَعِدُها بداخلي: لا تحزني لن أرحل عنك، قبل أن أُظهر حقيقة ما حدث. ما لم يكن أوليفر هو مَنْ قتلكِ، سأكتشف قاتلكِ الحقيقي.

توقعت أن تذهب من فورها، لكنها بقيت معي، ووجدتُني أستغرق في النوم ثانية دون عناء.

***

أستيقظ في ساعة متأخرة، مستمتعة بتلك الهالة المطمئنة التي تحيط بكياني. أتفكر في السبب وراء هذا الشعور غير المتوقع بالارتياح والرضا، وأتذكر أنني استشعرت حضور نينا في سكون الليل. لا مانع لدي أن أتصور أن رُوحها حضرت إليَّ –كما حدث مع شقيقتي– وأنها ما فتئت روحها عالقة بين هذه الحياة وما بعدها، في ترقب حتى تأخذ العدالة مجراها. أدفع الأغطية عني، متحمسة أنني بصدد هدف جديد. لن أرحل إلى أي مكان، لقد أخذت على نفسي وعدًا، يجب أن أفي به.

يطن هاتفي برسالة من ليو.

لم تخبريني بعد، عما إذا ستسمحين لي بالعودة إلى المنزل هذه الليلة.

يخفق قلبي، وأنتظر للحظات قبل أن أردَّ على رسالته: **آسفة ليس بعد، ما زلت بحاجة إلى مزيد من الوقت.**

أترقب رسالته في قلق، ويغمرني إحساس بالذنب أنني لا أريده بقربي. ثم يأتي رده: **لا بأس، أتفهَّم شعورك. سأظل بجوارِكِ متى احتجتِ إلى مساعدتي. مع قبلاتي.**

تترقرق الدموع في عيني، كم كانت علاقتنا رائعة فيما مضى.

إنما ينصرف ذهني إلى توماس. لقد تفكَّرت في عمره ووصلت إلى أنه لا يقل عن الأربعة والأربعين، وما برحت متسائلة عن طبيعة علاقته بهيلين. كلما ذُكر اسمها ألمح نظرة حنونة في عينيه، مما يصعب عليَّ تصور –سواء تربطه بها علاقة صداقة أو تمتد إلى أبعد من ذلك– مدى احتماله معرفة أن أيام حياتها تنفد من بين يديها. يظنُّ ليو أنه لولا أن شقيقتي اسمها نينا، ما أوليتُ اهتمامًا بمقتل نينا ماكسويل، لكنه مخطئ. لو اتُّهم زوجي أو شقيقي بارتكاب جريمة قتل بالباطل، لبذلت أقصى ما في وسعي لإظهار الحقيقة. وخلال الأسابيع القليلة التي عشتها في «ذا سيركل» حتى اللحظة، صرت على اقتناع أن هنالك حقيقة يجب أن يُرفع عنها الستار.

أهاتف توماس.

أقول له: «لقد سمعت أمرًا حديثًا».

– صحيح؟

ينصت إليَّ بينما أكرر على مسامعه ما أخبرني به ليو عن مساعدة نينا لجيرانها في المجاورة، بما فيهم أزواج صديقاتها.

يردف ما إن أنتهي: «إنني ممتن لمشاركتكِ هذا الأمر معي».

– إنني أشاركك هذا لسبب واحد، وهو أنه حدث شيء غريب. عندما هممت بمغادرة منزل لورنا في اليوم الذي زرتها فيه، وبعد سؤالي لها عن نينا، أكاد أقسم إنها همست في أذني «لا تثقي بأحد».

– على الأرجح، هي محقة في قولها. فكلما تعمَّق بحثي في قضية مقتل نينا، تصدمني المزيد من الأسرار.

– صحيح، إنما ليس هذا ما أقصد. لقد قالت لي إن زوجها ذهب إلى الخارج، ولذلك وجدتُ أنه من الغريب أن تشعر بحاجة ماسة إلى الهمس في أذني. ثم بعد فترة وجيزة، بعدما عدتُ إلى المنزل، لمحتُ زوجها خارجًا من المرأب. ولذا ظننتُ أنها كذبت عليَّ، على الرغم من أنه ربما كان في الحديقة حينها، لأنني رأيته منتعلًا حذاء البستنة.

– كيف بدت حالة لورنا في أثناء تحدثكِ إليها؟

– لم تبدُ مرتعبة بدرجة كبيرة، لكن متوترة بكل تأكيد. لعلها اعتراها القلق من إدوارد ألَّا يرضى عن حديثها معي، لو أنه في المنزل، إلا إذا كان هناك أحد آخر، لم يعجبه على الإطلاق أن آتي للتحدث إلى لورنا... أرجو المعذرة، يجب أن أنهي المكالمة.

– أهنالك خطب ما؟

أغلق الخط دون ردٍّ، وقلبي يهوي بين ضلوعي إزاء ما أدركته لتوي. لقد جاءت تامسين حتى عتبة منزلي بعد دقائق معدودة من مغادرتي لمنزل لورنا، وحذرتني من طرح الأسئلة عليها مجددًا. ظننتُ أنها رأتني خارجة من منزلها وحزرتْ دافعي من وراء زيارتها. لكن ماذا لو أنها كانت معنا في الداخل طوال فترة حديثنا؟ محتملٌ أنها ذهبتْ لتحذر لورنا من التحدث إليَّ، في الوقت نفسه الذي قررت الذهاب لزيارتها. أتسمَّعت إلى حديثنا من زاوية خفية في المنزل، ولهذا توترت لورنا بشدة؟ إن ذلك قد يفسر كيف عرفت تامسين بحديثي مع لورنا.

أزفر في انزعاج من الموقف الذي وضعت نفسي فيه. لقد اتخذت خطوتين في اتجاهين مضادين، في إحداهما أسعى لمساعدة هيلين في إظهار حقيقة مقتل زوجة شقيقها، وفي الأخرى تدفعني رغبة لأحظى بأصدقاء لي في المجاورة، مما يجعل الأمور تزداد صعوبة وتعقيدًا.

عند حلول المساء، أكرر ما فعلته الليلة السابقة، وأنعكف على العمل في غرفة المعيشة حتى ساعة متأخرة من الليل. يتشتت ذهني إلى نينا من حين لآخر، وأذهب إلى السرير، وما زلت أفكر فيها. لم أعد أرى أنها كانت شخصية لئيمة، كما أوحت لي إيف. إذا صدق أنها مَنْ بدأت بتجنب تامسين، فلا بد وأنها فعلت ذلك لسبب وجيه. ربما تامسين هي مَنْ فعلت أو قالتْ لها شيئًا أزعجها. هل ذلك ما حدث، يا نينا؟

أوجه لها السؤال بداخلي، عسى أن أستشعر حضورها الليلة أيضًا. ولم تأت، على الرغم من استيقاظي في الصباح بشعور من الانتعاش كما صباح أمس، وغمرني إدراك ما أنها كانت هنا، تراقبني في أثناء

نومي.

***

تضرب إيف جرس الباب.

أقول سعيدة برؤيتها: «أهلًا بك. تفضلي».

عندئذ ألمح تامسين من ورائها، تعبر الساحة مسرعة صوب منزلها، فتذهب سعادتي أدراج الرياح. من المرجح أن هذه الزيارة ليست بالعفوية التي توقعتُها.

تسأل، وهي تتبعني إلى المطبخ: «كيف هي أحوالك؟».

– على خير ما يرام. وماذا عنك؟

تجذب مقعدًا وتجلس.

– جيدة جدًّا. كنت سآتي لزيارتكِ الثلاثاء الفائت، قبل الظهيرة، لكن رأيتكِ تغادرين المنزل.

– لقد خرجت حينها لتناول الغداء.

تومئ برأسها.

– برفقة صديقة لك؟

أقهقه.

– بالطبع، برفقة صديقة لي. ومع من سأتناول الغداء إلا برفقة إحدى صديقاتي؟

تتململ في مقعدها.

– لا أدري، إنما لِمَ لا تكون المراسلة الصحفية؟

أشدُّ المقعد المقابل لها، في محاولة لكسب بعض الوقت. هل رأت توماس عندما حضر إلى منزلي بالأمس؟

أستفهم: «المراسلة الصحفية؟».

– نعم، تلك المرأة التي عرفتِ منها بأمر جريمة قتل نينا.

– آه! لا، ذهبتُ لتناول الغداء مع صديقتي جيني.

أنتبه إلى خصلة شعر على الطاولة فأزيحها إلى الأرض خُلسة، وعقلي يصرخ بي: تجاهلي! تجاهلي! فإذا تفاقم توتري بشأن تساقط شعري، سأفقد المزيد منه، وهي حلقة مفرغة بائسة لا مفر منها.

– هل عاودت هذه المراسلة الاتصال بك؟

تفطن إلى تجهم وجهي، فتتراجع محرَجة: «آسفة. إنني أسألك طلبًا من صديقة».

أقول بلطف: «إذا لم تتوخَّ تامسين الحذر في تصرفها، قد أظن أنها تخفي أمرًا ما».

– إن تصرفها طبيعي، يا أليس، فهي قلقة. لقد وضعنا أمر الجريمة وراء ظهورنا ولا رغبة لدينا في سبر غورها من جديد.

لَمَّا لم أقل شيئًا تتنهد، ثم تستطرد، متخيرة ألفاظها بعناية: «سأخبركِ بشيء، في الفترة ما بعد مقتل نينا وقبل إلقاء القبض على أوليفر، وعندما اكتشفنا لتونا أن نينا رافقت أحدهم، أعتقد أنه للحظة، تخوَّفتْ جميع صديقاتها وتساءلن عما إذا أحد أزواجهن هو ذلك العشيق المجهول. لم تكن سوى لحظة عابرة،

إنما مرَّت بنا. وبعدما توجهت أنظار الشك إلى أزواجنا، تشككنا في أمر أصدقاء أزواجنا وتساءلنا عما إذا كان العشيق أحدهم. بات الحال مروعًا حينها، يا أليس. انشغلت كل واحدة منَّا بسرية، في حل لغز أن أحدًا من «ذا سيركل» تورط في علاقة غرامية مع نينا».

أسألها في نبرة مراوغة: «لماذا تعتقدين أنه أحدٌ من المجاورة؟».

ترتجف بعض الشيء، وتقول: «كانت نينا شخصية محبوبة للغاية. وقد أحبَّت مساعدة جميع من حولها، ودومًا ما أعطت من وقتها بسخاء. ويعلم الربُّ كم وقت قضته مع وِيل، لمساعدته للتدرب على أدائه لأدواره. لقد قدَّمتْ بعض الأدوار التمثيلية في الماضي، على مسارح الهواة، وأبدت ابتهاجًا كبيرًا عندما علمت أن وِيل يعمل بالتمثيل. لم أكن يومًا امرأة غيورة على زوجها، ولم أمانع أن يذهب لمقابلتها قط، وإنما سعدتُ أنه بوسعها دعمه، لأنني بصراحة واجهت حين كنت أستمع إليه مكررًا الجمل الأدائية، بعض الضجر. لكن لا أنكر، أنه لحظة أن سمعت بأمر علاقتها الغرامية، صُدمت بشدة. وعلى الرغم من أننا لم نناقش هذا الموضوع معًا، فإن ماريا وتامسين خطر في ظنهما ما ظننته بزوجي».

– وما الداعي للظن بهما؟

– عندما قرر تيم أن يستكمل دراسته التخصصية، ساعدته نينا ليتطلع إلى خيارات متعددة، وبسببها استقر اختياره على العلاج النفسي. واعتاد كونر أن يجلب الويسكي إليها لتتذوقه؛ فقد كانت أكثر مَنْ يعطي رأيًا عن دراية بأمور الويسكي في المجاورة بأكملها. لقد امتلك والداها مصنعًا لتقطير الخمور قبل تقاعدهما، ولذلك تكررت دعابتها بشأن نشأتها على المشروبات الروحية. كما أن الجذور الأسكتلندية التي جمعت بينها وبين كونر، لعبت دورًا في التقريب بينهما كذلك، في نظري.

تميل تجاهي متطلعة إليَّ بجدية، مضيفة: «لكن عليكِ أن تفهمي أنه لم يمانع أحد، لا أوليفر ولا أيٌّ منَّا، نحن الزوجات. جميعنا أحببنا نينا، ورحَّبنا بوقتها المتسع، في ظل فترات غياب زوجها، أن تمدَّ يد العون إلى أزواجنا وتساعدهم على إنجاز أعمالهم المختلفة. ولم يقتصر الحال على الرجال، بل وابتدأت صفًّا مسائيًّا لليوجا من أجل الأمهات الحوامل أسبوعيًّا في منزلها، حينما كانت تامسين حُبلى في بيرل. وكذلك أدارت ناديًا للقراءة بصفة شهرية. لم يخلُ منزلها من الزيارات على الإطلاق. في بعض الأحيان، إذا ذهب وِيل لزيارتها، قد يأتيها من بعده كونر حاملًا إحدى زجاجات الويسكي من مجموعته، فتتصل بي نينا، ويجتمع أربعتنا في جلسة للثرثرة لعدة ساعات».

أعلِّق، ممتنَّة لأنها أطلعتني على ما ذكره لي ليو مسبقًا: «ألم ترتابي أنها على علاقة بأحد؟».

– مطلقًا، ولذلك وقع علينا الخبر كالصاعقة.

– لا يمكنني تصور كيف كان الحال، وكل واحد منكم يشك بالآخر.

– كان رهيبًا، وبخاصة عندما تبادر إلى ذهننا أن ذلك العشيق المجهول، هو قاتلها. بدا ذلك التصور مروعًا، رغم ذلك ارتاحت أعصابنا ما إن وُجهت التهمة إلى أوليفر. بهتنا من الصدمة، إنما خالجنا الارتياح في الوقت نفسه؛ عرفنا مَنْ هو قاتلها، واستطعنا متابعة حياتنا، وذهب عنَّا الخوف. وإذا تورطت نينا في علاقة مع أحدهم، لم يعد يُهم معرفة هويته في شيء، ما دام ليس مشتبهًا بمقتلها. ولم يعد لمعرفة اسمه أي أهمية، لا سيما بعد وفاة نينا. لم يهمنا غير أن الجاني المسؤول عن قتلها، لن يعود بيننا ليقتل أحدًا آخر.

– أما زلتِ تعتقدين أن أوليفر هو مَنْ قتلها؟

– نعم.

في صياغة تشبه التقرير، أقول بلطف: «بالطبع، لأن تصديق ذلك يبعث على الراحة. إنما، ماذا لو أن قاتل نينا ما زال حرًّا طليقًا؟».

يبدو الانزعاج على وجهها.

– لا أعتقد ذلك.

ثم تلتقط هاتفها، تتفقد شاشته وتنهض قائلة: «إنني آسفة، يا أليس. يجب أن أتحرك في الحال، لدي موعد لتصفيف الشعر. أراكِ في الغد في منزل تامسين».

لا يُخفى ارتياحها لتمكنها من الهروب سريعًا.

– أراكِ في الغد.

أغلق الباب بعد خروجها، وأتفكر مليًّا فيما أخبرتني به، وقد زاد يقيني بأن مقتل نينا، لم يكن بالبساطة التي تسعى إيف لتقنعني بها. أحدهم يخفي سرًّا ما.

لكن مَنْ يا تُرى؟

الفصل الخامس والعشرون

أتوقع أن تأتي إيف صباح اليوم، لنسير معًا حتى منزل تامسين. لكن عندما نظرتُ من النافذة رأيتها تخرج مسرعة من الممر الخاص بمنزلها، كما لو تسابق الزمن لتكون في مكان ما في التو واللحظة. أتحقق من الوقت، إنها العاشرة ولقد دُعينا لاحتساء القهوة في العاشرة والنصف، علَّها خرجت لجولة ركض وجيزة قبل ذهابنا، غير أنها لا ترتدي ملابس الهرولة المعتادة.

أهرع صاعدة إلى غرفة مكتب ليو، وأرقب إيف وهي تعبر الطريق نحو الساحة. إنما قبل أن تصل إليها، وتتجه إلى بوابتها الرئيسية، تنحرف عنها إلى اليسار قاصدة منزل تامسين مباشرة. خطر في بالي أنني قد أخطأت الوقت الذي حددته تامسين، فربما هو في تمام العاشرة وليس في العاشرة والنصف، ولذا أهرول من فوري إلى الطابق الأرضي، أنتعل حذائي الرياضي وأخرج من المنزل على عجل، مدهوشة من أن إيف لم تأتِ لتصحبني في طريقها. لكنْ عساها ظنت أنني سبقتها إلى هناك.

لحقتُ بها بعد دقائق قليلة ركضًا. أضافت تامسين وكونر تعديلًا في الشرفة الأمامية مثل بعض الساكنين في المجاورة، وصارت مغلقة، وبينما أفتح بابها الخارجي، يتهادى إلى سمعي صوت إيف آتيًا من البهو، فيما وراء الباب الآخر الداخلي. كدت أطرق الباب لولا أن سمعت اسمي.

تتساءل تامسين: «... أقالت لكِ أليس بوضوح إن المراسلة لم تتصل بها مرة أخرى؟».

تجيب إيف: «لا، لم تؤكد».

– أعرفتِ منها إلى أين ذهبت يوم الثلاثاء الفائت؟

– لم تقل سوى إنها ذهبت لتناول الغداء مع إحدى صديقاتها.

– وهل صدقتِها؟

– نعم، ولِم لا؟

– لكنها لم تنفِ أن تلك المراسلة تواصلت معها ثانية. أليس كذلك؟

– بلى، لقد تهربت من السؤال بطريقة ما.

– يساورني القلق، يا إيف. ماذا لو أنها تسعى لكشف أمر ما؟

– أمرٌ مثل ماذا؟

– مثل قاتل نينا الحقيقي.

أجمد مكاني. وتردف إيف في أنفاس مكتومة: «يا إلهي، لو أن ذلك صحيح، أستعيدين كل ما فعلتِه من جديد؟».

– لم يقتل أوليفر نينا، يا إيف.

يتخبط قلبي بين ضلوعي.

يتخذ صوت إيف نبرة حادة، قائلة: «تتحدثين وكأن لديكِ دليلًا على ما تتفوهين به. هل تستطيعين إثبات أن أوليفر لم يقتلها، يا تامسين؟ إذا لم يكن لديكِ ما يثبت قولك، فمن الأفضل أن تتقبلي أنه هو من فعلها».

– لكنه اعتاد أن يجلس وحده في الساحة.

– عمَّن تتحدثين؟

بات صوت تامسين أقرب إلى البكاء: «عن أوليفر. ذكرت لي نينا ذلك في أحد الأيام، قالت إنه في غالب الأحيان، بعد يوم عمل شاق، يوقف سيارته في الممر ويتجه إلى الساحة ليجلس فيها وحده لبعض الوقت، حتى يصفو ذهنه. وفي أحيان أخرى، إذا رأته متجهًا إلى الساحة، تلحق به لتجلس برفقته».

– إنما... أأخبرتِ الشرطة بذلك؟

تحمل نبرة إيف فزعًا، فأتخذ خطوة للوراء، ويعتريني القلق مما قد تسمعه أذني. أودُّ لو أرحل، بل يجب أن أرحل وأعود لاحقًا ما

إن تنتهيان من محادثتهما الخاصة. لكنني أخشى أن تسمعا خطوات قدميَّ متراجِعة على الممر، كما لم يعد يصل إليّ حديثهما بوضوح كافٍ، بعدما تحركت من مكاني. حين أدرك أمرًا آخَر، أشهق بحدة حتى كدت أظنهما سمعتاني، ويتخبط قلبي بين ضلوعي ثانية. أحقًّا يشير كلام تامسين إلى أن كونر ربطته علاقة سرية بِنينا؟ لا يمكن أنها فعلت، إنما لا يُستبعَد، لأن إيف تخبرها أنها بحاجة إلى التحدث معه في أقرب وقت. ثم، تذكر لها أمرًا يخص وِيل، لا ألتقط منه سوى بضع كلمات: «مقابلة نينا» و«فُتحة السور»، وتطوف في ذهني الهواجس.

تقول تامسين، في نبرة حادة صاخبة حتى إن أذني لم تسقِط كلمة واحدة: «أعتقد أن أي أحدٍ قادر على القتل، إذا وقع تحت تهديد».

لا يصل إلى سمعي شيء من ردِّ إيف، فيما عدا اسمي. أتفكر في أمر اكتشاف أمري واقفة أتنصت على حديثهما، فيوشك قلبي أن يتوقف. لكن لم تزدَد فتحة الباب الداخلي، وتباعدت أصوات أقدامهما في رواق الباب حتى اختفت، فكدتُ أتنفس الصعداء حتى انتبهت أنه ما يزال عليَّ مقابلتهما. لا أدري كيف سأقدر على فعل ذلك، إنما جُل ما يحتاج إليه الأمر هو أن أجلس معهما وأحتسي القهوة، وما يدفعني ليس ما تهادى إلى سمعي من خلال محادثتهما فحسب، بل يأتي فوق ذلك إحساسي بالخزي أنني تنصَّتُّ عليهما. لكن مهما يكن الحال، يجب أن أمضي قدمًا في الطريق الذي اخترته.

أتريث لبضع لحظات، ثم أمسح كفيَّ المتعرقتين في بنطالي الجينز، وآخذ نفسًا عميقًا قبل أن أطرق الباب.

تفتح لي تامسين.

أبادرها لاهثة حتى يبدو أنني جئت ركضًا: «آسفة لتأخري».

ترمقني بنظرة، توحي بأن لديها علمًا بوقوفي على الشرفة منذ عدة دقائق مضت.

– لم تتأخري. إن موعدنا في العاشرة والنصف.

تتورد وجنتاي خجلًا.

– أرجو المعذرة منك. لقد رأيت إيف تغادر منزلها، فظننت أنني أخطأت موعدنا. أتفضِّلين أن أعود وآتي في الموعد؟

تزيد فتحة الباب.

– لا تكوني سخيفة. تفضلي بالدخول.

– أشكرك.

أتلكَّأ في خلع حذائي، لأعطي نفسي بعض الوقت حتى تهدأ، بعدما تضاعف ارتباكي أضعافًا. ثم أتبعها خلال البهو وصولًا إلى المطبخ. إنه بسيط وغاية في الأناقة والنظافة، ولا شيء فيه في غير مكانه. بالمقارنة بمطبخي، بما فيه من كتب طبخ مرصوصة على المنضدة وصور فوتوغرافية تغطي باب الثلاجة، فمطبخها لم يزل بحالته الأصلية. تهدأ نفسي، وأشعر بالثقة بها فجأة. إنني قادرة على فعل ذلك.

تلوح إيف باتجاهي، قائلة: «أهلًا يا أليس. مرحبًا بكِ في منزل تامسين المتأنق على الدوام».

أقول متطلعة من حولي: «إنه رائع. كما أنه مثير للإعجاب باعتبار أن لديكِ طفلتين صغيرتين تعيشان فيه».

تضحك تامسين بلطف.

– لا أحتمل المنزل غير مرتب أبدًا. إنه الأمر الوحيد في نظري الذي أستطيع أن أفرض سيطرتي عليه، الأمر الوحيد الذي يقع في مسؤوليتي. كما أن المنزل هو الجزء الوحيد في حياتي الذي يخصني.

ها هي لمحة الوهن تطل من عينيها ثانية. تقترب مني حاملة قدر القهوة فأبتسم في وجهها، وأقول: «أرى أنه جميعنا كثيرًا ما يخالجنا هذا الشعور، أننا نفقد السيطرة على حياتنا. هذا بالضبط ما مررتُ به عندما علمتُ بأمر جريمة القتل».

تتوتر ملامحها، ليتني أستطيع التراجع عما قلت. ما انبغى أن آتي على ذكر الجريمة الآن، لا سيما بعد ما سمعته من حديثهما.

تنقذني إيف بسؤالها: «كيف ذلك؟».

– كل ما ظننته حقيقيًّا، بات مزيفًا في نظري. لم يعد المنزل مثلما اعتقدته، ولم يعد ليو هو نفسه الرجل الذي عرفته. رأيت المستقبل الذي تصورته في ذهني يتداعى أمام ناظري. وتوالت أحداث لم يكن لدي أي سيطرة عليها. أعرف أن قولي قد يبدو مبالَغًا فيه، إنما تزعزع حالنا على نحو رهيب.

تسأل تامسين: «وماذا عن حالكِ هذه الأيام؟ هل تشعرين أنكِ استعدتِ السيطرة على حياتك؟».

– أحاول ذلك. تمكنت من البقاء في المنزل بمفردي، على الرغم من أنني لم أقدر على النوم في غرفة الطابق العلوي بعد. وبالأمس أخبرت ليو أنني بحاجة إلى بعض المساحة في علاقتنا، ولذلك يمكث في برمنجهام هذا الأسبوع.

ترفع تامسين حاجبها.

– هل رضي بهذا الحال؟

– نعم، في الوقت الحالي على الأقل.

تقرِّب مني طبقًا من كعك الشوفان المُحلَّى منزلي الصنع.

– وهل تغاضيتِ عن الأمر الآخر، مغادرة المنزل؟

أتناول قطعة من الكعك، مجيبة: «لم يعد ذلك اختيارًا أمامي».

– لماذا؟

تحذِّرها إيف برفق: «تامسين!».

تهزُّ تامسين كتفيها، قائلة: «اعذريني، لم أقصد أنني لا أريدكِ أن تبقي. إنما أتعجب من أمرك، ليس أكثر. إذا ما تنامين في الطابق الأرضي، فذلك يعني أنكِ ما زلتِ تشعرين بعدم الراحة في المنزل».

– أنتِ محقة، لم أستعِد كامل راحتي بعد. لكنني أعمل على ذلك.

تتبادل إيف نظرة مع تامسين، قبل أن تقول: «لو تواصلتْ معكِ تلك المراسلة الصحفية مرة أخرى، ستتفاجأ أنكِ ما زلتِ تسكنين في المنزل نفسه».

لم تحمل طريقتها أي قدر من اللباقة، فما تحاول معرفته هو ما تريده تامسين نفسها. لذا، أعتزم أن أصرف نظرهما عن أمر تلك المراسلة الذي يشغل تفكيرهما تمامًا.

أقول: «لا تقلقي، إذا حاولَت الاتصال بي مجددًا، لن تسمع مني شيئًا، غير أن تدعني وشأني».

تستفهم تامسين: «أيعني ذلك أنها لم تعاود الاتصال بكِ منذ المرة التي أخبرتكِ فيها بأمر الجريمة؟».

– نعم.

ينزاح توترها بعيدًا ويرتخي جسدها المتشنج، مما يذكِّرني ببالون ينكمش ما إن يفرغ هواؤه. تمدُّ يدها نحو قطعة من الكعك، تأخذ منها كسرة صغيرة وتقذفها في فمها، ثم تكسر أخرى وتضعها في فمها، كأنها تتضور جوعًا. إن تامسين تجوِّع مشاعرها الداخلية، بينما أغذي مشاعري، وهو أمر لم ألاحظه حتى هذه اللحظة. إذا ما تفكرت في الأمر، سأجد أنني لجأت في العديد من المرات لفتح الثلاجة، كي أغذي حالة قلق انتابتني، في محاولة لتخفيف وطأتها، بل ولتخلص نفسي منها.

تستقر صورة عائلية فوتوغرافية جميلة أعلى خزانة رمادية مصقولة السطح، تظهر فيها تامسين وكونر وابنتاهما الصغيرتان.

أتأملها قائلة: «إن آمبر نسخة مصغرة منك».

تقول إيف: «وبيرل نسخة مصغرة من كونر».

– هذا صحيح، لاحظت ذلك. لديها عيناه نفسهما.

ثم ألتفت إلى تامسين، وأضيف: «كان شعركِ أطول بكثير عند التقاط هذه الصورة».

تتناول قطعة كعك أخرى، وهي ترد: «كان شعري بطول شعرك، لكنني قصصته بعد وفاة نينا».

– يا إلهي!

– لا أعرف السبب تحديدًا الذي جعلني أُقدِمُ على قصِّه، جُل ما أعرفه أن رغبة أقوى مني دفعتني لفعل ذلك. لقد حُلق رأس نينا ولذا، أظنُّ أنني غريزيًّا تصورتُ أن قاتلها لديه ولعٌ بالشعر الطويل، وأردت حماية نفسي، في حال عاد ليقتلني. أو لعلها رغبة لا شعورية وفاءً لذكرى نينا، أو شعور آخر من هذا القبيل. لقد بكت آمبر بشدة عندما رأت شعري مقصوصًا، واضطررت إلى أن أعدها بتركه حتى يعود إلى طوله من جديد. ولا أعرف متى سأقدر أن أوفي بوعدي لها.

ترتسم على شفتيها ابتسامة يائسة. وتعلِّق إيف: «لقد تمتعتُ بشعر طويل جدًّا منذ أعوام في الماضي، عندما كنت في السابعة عشرة. وقصصتُه كي أبدو أكبر من عمري. إن بنياني الصغير لا يتناسب مع الشعر الطويل، مما جعلني أبدو حينها مثل دُمى الأطفال. كما كان شعري داكنًا، غير ما هو عليه حاليًّا».

– هل صبغتِ شعركِ بالأبيض حين قصصتِه؟

– نعم، لم أرد أن أغيِّره، لكن هكذا اقترح عليَّ مصفف شعري. وفقد وِيل عقله، لم يعجبه شعري القصير في البداية. أما الآن، صار يعشق كل ما فيه، حتى خصلاته الوردية.

أقول: «إنني أفكر في قص شعري كذلك».

يعبس وجه تامسين، قائلة: «لماذا؟ إنه جميل وطويل».

– إنه يتساقط. بعد رحيل والديَّ وشقيقتي، فقدت خصلًا كثيفة منه. كان الوضع فظيعًا، ومأسويًّا في نظري. وعاد شعري إلى تلك الحالة هذه الأيام.

– ألهذا السبب بتنا نراكِ تعقصين شعرك؟

– نعم.

تسأل إيف: «هل يتساقط شعركِ عندما تغسلينه؟ يمكنني أن أرشح لكِ غسولًا مذهلًا للشعر».

– لا، ليس بالضبط. أعني أنني لا ألاحظ سقوطه في أثناء الاستحمام، أو حتى عندما أمشطه بعد الاستحمام، خلاف القدر المعتاد. لكنني أظل أصادف خصلات متساقطة في جميع أنحاء المنزل، وبخاصة في المطبخ، وهو أسوأ مكان ممكن؛ فقد تسقط الخصلات في الطعام دون أن أدري. ولو أن شعري قصير، بالكاد سيُلاحَظ تغير في كثافته. وعلى أي حال، فإن العناية بالشعر القصير أهون بكثير.

تشير إيف إلى شعرها.

– لا يغرُّكِ هذا. إن شعري يحتاج إلى كثير من المستحضرات وإلى كثير من الصبر لإنجاز تصفيفة واحدة.

ألتفت صوب تامسين، قائلة: «أخبرتني إيف أنكِ كنتِ عارضة أزياء. أتعرفتِ إلى كونر في ذلك الحين؟».

– نعم، التقينا في إحدى الحفلات خلال أسبوع الموضة في لندن. لم أُبدِ اكتراثًا به على الإطلاق، فقد رأيته متعجرفًا للغاية، وعندما سألني عن المواصفات التي أبحث عنها في الرجل، أخبرته أنني أريد رجلًا يأخذني إلى المسرح، ويستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية برفقتي، ويقضي ساعات في قراءة الكتب بجواري. لم أجد حرجًا فيما أفضتُ به؛ أردت أن أصدَّ محاولته للتقرب بطريقة مهذبة، ولم يخطر في بالي أن لديه اهتمامًا بأي من هذه الأمور. لكنه قال إنني محظوظة وبعد بضعة أيام، أرسل لي تذكرة لحضور مسرحية «العاصفة» لشكسبير. رغبت في أن أشاهد المسرحية حقًّا، فوافقت على الذهاب. بعد ذلك، حضرنا حفلات موسيقية وسافرنا في العطلات الأسبوعية، حيث قضينا فترات ما بعد الظهيرة المطيرة، مستلقيين وبرفقتنا كتب نقرؤها. توافقت شخصيته معي تمامًا، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الوقوع في حبه.

ترتشف رشفة من قهوتها، مضيفة: «ليتني ما أخبرته أنني أبحث عن رجل في حياتي، لكان حينها تركني لحال سبيلي».

أعلق، مدهوشة من قسوة تعبيرها الأخير: «لكنه من الرائع أنكما تتشاركان الذوق نفسه».

تهزُّ رأسها، مطلقة ضحكة خافتة.

– لا نتشارك شيئًا. فبمجرد أن تزوجنا، كل زياراتنا للمسرح وحضور حفلات الموسيقى الكلاسيكية وقراءة الكتب، انتهت دون رجعة. إذا حدث وأردت حضور حفل ما، يخبرني أن أذهب برفقة إحدى صديقاتي. يصعب التعايش مع تصور أن الرجل الذي تزوجتِه اختفى للأبد.

في خفوت، أقول متفكرة في ليو: «أفهم ما تقصدين، رغم أنني وليو لسنا متزوجين».

تسألني إيف: «ألم تفكرا في الزواج؟».

– لم نتطرق لذلك الموضوع على الإطلاق. لا يؤمن ليو بالزواج التقليدي على أي حال، وقال إنه لم يشهد زواجًا سعيدًا في حياته.

تحتج إيف: «إنني ووِيل سعداء بزواجنا».

أقول وتامسين في آن واحد: «أوه، يا للهول!».

وننفجر ثلاثتنا في الضحك.

***

أعبر الساحة برفقة إيف، في طريق العودة، ثم نفترق عند مدخل منزلينا. وفي غرفتي، أجلس إلى المكتب. من المفترض أن أباشر العمل إنما لا يمكنني التوقف عن التفكير فيما سمعته من تامسين، أن نينا ذكرت لها في أحد الأيام عن عادة أوليفر أن يجلس في الساحة بعد عودته من العمل. وددت لو أعرف إذا ما أخبرت الشرطة أم لا، ليته كان باستطاعتي سماع ردِّها على سؤال إيف. لكن لا يُعقل أنها لم تخبر الشرطة، قد يُعد إخفاء ذلك جريمة في حد ذاته. عندها، أتذكر ما قالته عن تورط كونر في علاقة غرامية مع نينا. هل تعمدت تامسين إخفاء معلومات، كانت من الممكن أن تساعد في قضية أوليفر، لتحمي كونر؟ باستثناء أنني لست واثقة تمام الثقة أنني سمعتها تؤكد العلاقة الغرامية بين كونر ونينا.

كما يظل ذكر إيف للفتحة في سور الحديقة محيرًا. هل لَمَّحت إلى استخدام وِيل للفتحة حتى يسهل عليه التنقل بين المنزلين، لمقابلة نينا دون أن يدري أحد؟ وما الذي جعل تامسين تقول إن أي أحدٍ قادر على القتل، إذا وقع تحت تهديد؟ هل اكتشف أحدهم أن كونر أو وِيل تورط في علاقة مع نينا وهدد أن يفضح أمرهما؟ أم أن تامسين وإيف هما مَنْ شعرتا بالتهديد أن شريكَي حياتهما سيتركانهما من أجل نينا؟ كل من كونر ووِيل وتامسين وإيف، لديهم دوافع محتملة لقتل نينا.

بغتةً يداهمني شعور بالخجل، من سهولة انجراف تفكيري في أن أحد جيراني، الذين استقبلوني جميعهم بالحب والحفاوة، لديه مقدرة على القتل. أضع رأسي على المكتب متأوهة. إنني بالكاد تعرفت إلى كونر ووِيل، هذه غلطتي لأنني اعتذرت عن عدم الذهاب إلى منزل ماريا الجمعة الماضية. أتفكر لبرهة، ثم أرفع رأسي وأمسك بهاتفي.

أسأل إيف: «هل أنتِ ووِيل متفرغان مساء الغد لتناول العشاء في منزلي؟».

تقول إيف، في سرور: «نعم، متفرغان. أيعني ذلك أن ليو عاد؟».

– لا، سأستقبلكما وحدي. آمل ألا يزعجكما ذلك.

– لا، بالطبع.

– سأدعو تامسين وكونر، وتيم وماريا أيضًا. وربما أوجه الدعوة إلى بول وكارا كذلك. ما رأيك؟

أضيف الأخيرين، عند تذكري أن بول هو من أخبر ليو عن مساعدة نينا لجيرانها من الرجال.

– أراها فكرة رائعة. أمتأكدة أن تلك الدعوة لن تثقل كاهلك؟

– لا، أبدًا. سأحضِّر أطباقًا سهلة مثل وصفات الكاري.

– وسأجلب أنا ووِيل حلوى «تيراميسو»، على الطريقة المذهلة لجدته الكبرى!

– هذا رائع، أشكرك.

يناسب ماريا وتيم الموعد ولا يناسب كارا وبول، أما تامسين فتحتاج إلى أن تتأكد من مناسبة الموعد لزوجها. تعاود الاتصال بي وتقول إن كونر لم يخطط لأي شيء بخصوصهما في الغد.

تقول ممازحة: «فضَّلت أن أسأله أولًا، في حال اشترى تذكرتين للمسرح على سبيل المفاجأة».

أعلق ضاحكة: «رائع جدًّا، إذن أراكِ في السابعة مساءً».

الفصل السادس والعشرون

في منتصف الليل، أحس بوجود أحد في الغرفة. أذكِّر نفسي قبل أن يتملك مني الخوف: لا أحد يأتيني غير نينا.

فأطمئنها: أعتقد أن قاتلكِ لم يزل هنا في الجوار، وسأكتشف من هو.

إنما في مُخيِّلتي، لا أرى وجه نينا ماكسويل، بل شقيقتي نينا.

أتذكر ما صار عند استيقاظي وتعتريني حالة مفزعة من الشك. مِن أجل أيهما أفعل ما أفعل؟ هل بسبب أن قاتل شقيقتي لم يحصل في نظري على الجزاء الذي يستحقه، فأصرُّ ألا تتكرر المأساة مع نينا ماكسويل؟ لست واثقة حتى مما أفعله في سبيل منع ذلك. كيف قد أبرر المساعدة التي أقدمها سرًّا لإظهار الحقيقة التي أخفقت العدالة في التوصل إليها، في حين أنه يظل احتمال أن العدالة لم تخفق في شيء، قائمًا؟

عندئذ يصل إليَّ خطاب، دفعه ساعي البريد عبر فتحة الباب. من غير المعتاد أن تُرسَل خطابات بخط اليد هذه الأيام، لذا أتحقق من مغلفه مطولًا، أحاول تخمين هوية المرسِل. لا أستطيع تبيُّن المكتوب عليه؛ إن خطَّ اليد مرتجف بعض الشيء، وربما مرسل الخطاب شخص مُسن. تخطر لورنا في بالي لكن ما إن أفضُّ المغلف، وأفتح الورقة المطويَّة الوحيدة داخله، أعِي الأمر على الفور.

عزئزتئ ألئس،

أكتب إلئكِ لأشكركِ شخصئًّا أنكِ أعطئتِ تؤماس الفرصو لتسمعئ ما لدئه بخصؤص أولئفر ونئنا. أتفهم أنكِ قد لا تقدرئن علي مساعدتنا، أو لا ترغبئن. إنما أرئدكِ أن تعرفئ كم أمتن لمجرد استعدادكِ لتصؤر أن أولئفر لم ئكن مذنبًا، فئ حئن أن جمئع مَنْ عرفهم فئ حئاته لم ئتؤانؤا عن تؤجئه أصابع الاتهام إلئه.

أرجؤ أن تعذرئنئ علي خطابئ الؤجئز، وعلي خطِّ ئدي المرئع. علي حد علمئ، فقد أوضح لكِ تؤماس وضعئ الصحئ، وأثق أنكِ ستقدِّرئن ذلك.

أتمني من كل قلبئ أن تُتاح لنا أن نلتقئ ئؤمًا ما.

مع أطئب أمنئاتئ لك،

هئلئن

للحظة أستغرب من أن هيلين تعرف عنوان منزلي، قبل أن أتنبه أن شقيقها كان يعيش هنا قبلي. تضطرب مشاعري على نحو فظيع، بينما أعيد الخطاب إلى مغلفه، وتختفي الشكوك التي ساورتني تجاه مساعدة توماس بالسرعة نفسها التي تولدت فيها. لا يعني ذلك أنني سأطلِعه على أيٍّ من تصوراتي بشأن كونر ووِيل، أو غيرهما. سأعلمه بما سمعته فحسب، وأتركه لاستنتاجاته الخاصة. لو ثبت أن أوليفر لم يقتل نينا والجاني شخص آخر، لن أسامح نفسي إذا تراجعت لخوفي الزائد من إزعاج الناس وإحزانهم في سبيل إظهار الحقيقة.

***

إن لديَّ معظم المكونات التي أحتاج إليها من أجل عشاء هذا المساء، فقد ذهبت للتسوق البارحة في «ستوك نيونتِن». لكنني نسيت أن أشتري الكزبرة، لذلك ألقي السترة على كتفيَّ سريعًا وأتجه صوب المتاجر المحلية.

أعبر الساحة مسرعة الخطى، وألوِّح إلى تيم وأولاده عند اجتيازي منطقة اللعب. جعلت ريح باردة، لم أحسب لها حسابًا، خصلات من شعري تنفكُّ عن المشبك، فأزرر سترتي حتى الرقبة نادمة أنني لم أرتدِ سترة أخرى أشد دفئًا. أصل في وقت قصير إلى محل الخُضريِّ، حيث أبتاع عُنقودًا كبير الحجم من العنب الأرجواني المُسودِّ، وبعض الكمثرى والتفاح والبرتقال، بالإضافة إلى الكزبرة التي أحتاج إليها. ثم أتجه إلى متجر الأطعمة المحفوظة بجوار الخُضريِّ، لشراء عبوتين من الجُبْن القِشديِّ. وثمة سوق للأزهار بالقرب من المتجر، فأندفع نحوها من دون تفكير، لأشتري باقة من الزهور الوردية الهادئة من أجل لورنا. سأحملها إليها في وقت لاحق، ولعلِّي أجدها بمفردها كليًّا حينها.

تباغتني حاجة إلى احتساء القهوة، فأعبر الطريق تجاه مقهى ذهبتُ إليه من قبل. وفيما أقترب منه، ألمح تامسين جالسة بجوار النافذة وبين يديها قدح تتصاعد منه الأبخرة. أهمُّ أن ألتفت مبتعدة، إنما تتنبه فجأة أنني أنظر إليها، فتدير رأسها إزائي. أبتسم لها بإحراج وأرفع يدي ملوِّحة، كما لو صادف مروري من أمام المقهى فحسب. لكنها، تقفز من مكانها، وتندفع بين الطاولات حتى وصلت إلى الباب.

تصيح، لتغطي على ضجيج الطريق المكتظ: «هل لديكِ متسع من الوقت لتناول قدح من القهوة؟».

أقول، ممتنة أنها سألتني: «لا مانع البتة».

أحبُّ هذا المقهى وذبذبة همهمات الناس التي تتخللها هسهسة آلة تحضير القهوة، وقعقعة الأكواب الخزفية ورنين أدوات المائدة مصطدمة بالأطباق. إن أجواءه دافئة ومزدحمة، إنما ليس لدرجة أن ما يقوله الجالسون إلى الطاولات المجاورة يصل إلى آذاننا. كما أن الهواء بداخله معبأ برائحة القهوة والكعك المخبوز الطازج.

تعلِّق تامسين فيما تحمل الحقائب من يدي، وتضعهم أسفل الطاولة ذات السطح الخشبي الخشن: «يبدو أنكِ تجولتِ كثيرًا في السوق. هل كل هذه الأشياء من أجل عشاء الليلة؟».

– نعم، بعضها فقط.

تومئ مستحسنة باقة الزهور.

– يعجبني أن تبتاع النساء لأنفسهن زهورًا. لولا أنني أشتري لنفسي الورود كل حين، ما رأيتها تُهدى إليَّ في حياتي أبدًا.

– إنها ليست من أجلي، بل ابتعتها من أجل لورنا. لقد بدت حزينة في آخر زيارة إليها.

– هذا لطف منك.

تضع حقيبة يدها على قدميها، وتزيح جانبًا هاتفها وقفازها الجلدي الأحمر، وقبعتها البيضاء ذات الكرة المنفوشة، حتى تفسح مجالًا على الطاولة، ومن ثم تخرِج محفظتها.

– ماذا أحضر لك؟

– أشكرك لدعوتي. يبدو مشروبكِ من الشكولاتة الساخنة لذيذًا، أودُّ أن أتناول مثله من فضلك.

تعود بعد بضع دقائق، في إحدى يديها قدحٌ وتقبض الأخرى على طبقين مائلين فوق بعضهما، في كل منهما قطعة من الكعك. على الأرجح أن واحدة منهما بالشكولاتة، أما الأخرى فلا أدري بالضبط بأي طعم هي، ربما بالقهوة.

تقول تامسين عندما أسألها: «إنها قهوة بعين الجمل. اختاري ما تحبين من بينهما».

– هذا لطيف للغاية، أشكرك. لم أتوقع أن تحضِري كعكًا كذلك. كلتاهما لذيذة، ما رأيك لو نتقاسم القطعتين معًا؟

– مذهل!

ثمة لمحة أقرب للطفولية على وجهها المبتهج، فيما تقسم كلتا القطعتين نصفين متساويين.

أسألها: «هل نحن نحتفل بمناسبة ما؟ هل اليوم عيد ميلادك؟».

– لا، لكنني أشعر كما لو أنه اليوم.

– هل حدث أمر بعينه؟

تأخذ بعض الوقت حتى تجيب: «جرى بيني وكونر حديث مطول ليلة أمس، بشأن أمر ظل يؤرقني لمدة طويلة، وأخيرًا اطمأننت أن ذلك الأمر لم يكن كما ظننته قط. ولذا، يخالجني شعور طيب تجاه كل شيء حولي».

أردف في نبرة لا توحي باهتمام، على الرغم من أنني صرت أكثر انتباهًا بعد ما استمعت إليه أمس: «هذا رائع. من الجيد دومًا أن نبوح بما يؤرقنا، وإلا تراكم سوء الفهم وزاد الأمور سوءًا».

تومئ برأسها على مهل.

– إنني ممتنة لرؤيتي لكِ في هذه الساعة، لأنني شعرت بالذنب حيال الكلام السيئ الذي تفوهتُ به عنه بالأمس، عندما جئتِ لاحتساء القهوة معنا، لا سيما وأنكِ ستلتقينه مساء اليوم. إنه ليس رجلًا شديد السوء، فهو يظل أبًا محبوبًا، لكننا مختلفان عن بعضنا، وهو ما لم أدركه في بداية تعارفنا.

أتفكر فيما ذكرته سابقًا أن كونر تظاهر أنه يستمتع بالأمور نفسها التي تهتم بها، عندما التقيا أول مرة، وأقول: «أرى أننا جميعًا نحاول أن نقولِب أنفسنا وفق التخيُّل المثالي للآخر، الذي نرغب في إثارة إعجابه».

– هذا ما قاله بالضبط. قال إنه وقع في حبي بجنون وحاول أن يبدو الرجل المثالي من أجلي. لكنه لم يقدر أن يستمر على ذلك المنوال، هذا كل ما في الأمر.

تمسك الشوكة وتقطع جزءًا من كعك الشكولاتة، وترفعها إلى فمها لكن توقفها في نصف المسافة، وتضيف: «رغم أنه لذلك الأمر جوانب أخرى. دومًا ما ارتبت أنه على علاقة بِنينا، إنما لم أجرؤ يومًا على مواجهته لأنني خشيت مما قد يقوله، خشيت مما قد أكتشفه. ليتني واجهته منذ فترة طويلة لكنت وفرت على نفسي ليالي مضنية من العذاب».

تكمل الشوكة طريقها المنشود، ثم تردف: «إن طعمها شهي. تذوقيها».

فأنقض على قطعة كعك الشكولاتة أمامي، مستفهمة: «إذن، فلم تكن هنالك علاقة بينه وبين نينا، أليس كذلك؟».

– بلى، لكنه ودَّ لو أن ذلك حدث.

أضع الشوكة جانبًا.

– يا إلهي. كيف تشعرين حيال ذلك؟

تلف طبقها وتبدأ في تناول قطعة كعك القهوة بعين الجمل.

– بخير تمامًا على نحو فاجأني؛ لقد بيَّن ذلك أمرًا بات ينهش تفكيري لفترة طويلة للغاية.

ثم تخبرني بما سبق أن علمته من إيف: «قبل شهور قليلة من وفاة نينا، بدأتْ تتجنبني. ظننت أنني ضايقتها عندما طلبت منها أن توصي عليَّ لدى معالجها النفسي. ظلَّت تساعدني حتى أقدر على التمييز بين مشاعري –بصفتها صديقة وليست معالجة نفسية– وشعرت أنني بحاجة إلى مساعدة أكثر عمقًا، وذلك كان يُعد خارج حدود صداقتنا. ساورني القلق من أنها أخذت الأمر على محمل إهانتها، وبخاصة عندما لم تخبرني باسم معالجها منذ حينها على الإطلاق».

– قد ذهبتُ إلى معالجة نفسية عقب وفاة شقيقتي ووالديَّ، ولا أعرف لو أنني لم أرَ أحدًا متخصصًا كيف كانت لتتحسن حالتي. إنما... كيف يُعقل أن نينا لها معالج نفسي؟

تغرز شوكتها بقوة في الكعك.

– إن العديد من المعالجين النفسين يذهبون هم أنفسهم لمعالجين. يفعل بعضهم ذلك لحاجتهم إلى العلاج، وبعضهم يؤمن أن اختبار العلاج بأنفسهم يمدهم بخبرة أفضل بصفتهم معالجين نفسيين محترفين. وبالنسبة إلى نينا، أعتقد أن ما جعلها تذهب لمعالج آخر هو خليط من السببين. على أية حال، فإن السبب الذي من أجله لم ترغب في رؤيتي، لا علاقة له بمضايقتي لها، بل بِكونر نفسه. فقد اعتاد أن

يحمل إليها زجاجات الويسكي حتى تتذوقها، ولم أجد أي مانع في ذلك؛ إنني أكره الويسكي وسعدتُ أن لديه أحدًا آخر يشاركه عشقه له. لكن ذات ليلة، حاول أن يقبِّلها، فدفعته نينا بعيدًا عنها، وكونر لا يقبل الرفض ردًّا على شيء يريده أبدًا. حينها أصرَّ وهددتْه أنها ستخبرني، ترجاها ألا تفعل، ووافقت في النهاية أنها لن تنطق بكلمة عما حدث. ومع ذلك، تسببت في الإضرار بسمعته وفضحت أمره، وقالت إنها تحتقره لمجرد تفكيره أن باستطاعته خيانتي.

– وهل شاهد أمره يفتضح وحسب؟

تتمعن النظر فيَّ، قائلة: «أدرك ما يجول في فكرك. تتساءلين عما إذا جره غضبه من نينا بسبب ما قالته، إلى قتلها».

– لا، لم أفكر في ذلك على الإطلاق.

تشتعل وجنتاي، وليس لاضطرابي أن يسمع حديثنا شخص ما حولنا، على الرغم من المسافة بين الطاولات، إنما سردها للأمر بذلك الأسلوب الواقعي البحت صعقني. ولأن كلمات لورنا لا تغيب عن ذهني لحظة مطلقًا، لا يمكنني التغاضي عن احتمال، أن كل هذه التفاصيل ما هي إلا أقوال ملفَّقة أخرى.

أقول: «من المذهل في رأيي أنه لا يزعجكِ أمر محاولة تقبيله لها».

تدفع طبقها الفارغ إلى الجانب وترجِع ظهرها إلى المقعد.

– بل يزعجني، بلا أدنى شك. لكن يظل الارتياح الذي خالجني عند معرفة أن نينا تجنبتني لأنها شعرت بعدم راحة بجواري، أهم عندي من مسألة تقبيل كونر لها. أتفهمينني يا أليس؟

تتأملني بدقة بعينيها الخضراوين، ثم أومئ لها ببطء. بالطبع أفهمها، فلقد أثَّر كذب ليو عليَّ وكذبه بشأني، تأثيرًا يماثل –بل لعله يفوق– تأثير تصور نينا مقتولة في غرفة نومنا.

أحاول ألا يظهر شك في نبرتي، مردفة: «أأطلعكِ كونر على كل تلك الأمور بنفسه؟».

– نعم.

– من الرائع أنكما استطعتما مناقشة كل ذلك بوضوح فيما بينكما.

تومئ في سرور.

– اتفقنا أن نبدأ حياتنا من جديد، ونترك كل ما صار وراء ظهرنا.

ثم تنظر إلى قطعة الكعك المتبقية، وتسأل: «أستأكلين قطعة كعك القهوة هذه؟».

أضحك فيما أقرِّب طبقي منها، قائلة: «تناوليها نيابة عني. ينبغي أن أذهب في الحال، فقد تأخرت».

الفصل السابع والعشرون

يهاتفني ليو في طريق عودتي إلى المنزل، لكن حتى تمكنت من حمل الحقائب بيد واحدة وتأبطت باقة الورود تحت ذراعي ثم أخرجت هاتفي المحمول من جيبي، تحوَّل اتصاله إلى البريد الصوتي. أستمع إلى رسالته ويغمرني الارتياح لقوله إن جيني ومارك دعياه ليقضي نهاية هذا الأسبوع برفقتهما، لقد شعرت بالندم تجاهه لاضطراره إلى قضاء العطلة بمفرده. يرن هاتفي ثانية وأبتسم عندما أجد أنها جيني.

أضع الحقائب أرضًا بين قدمي ريثما أجيب مكالمتها، وأقول: «نعم، لقد علمت أن ليو سيقضي عطلة هذا الأسبوع معكما».

أعرف أنها تشعر أنه من واجبها أن تخبرني بنفسها. لكن تسألني بنبرة قلقة: «آمل أن ذلك لا يزعجك. إن مارك هو من أشار أننا يجب أن ندعوه».

– بالطبع لا يزعجني. إنها للفتة لطيفة منه.

– لا أريدكِ أن تظني أننا نتحيز له ضدك.

– لا أظن ذلك أبدًا. لقد عرضتِ عليَّ بنفسكِ المبيت في منزلكِ من قبل.

– وكيف حالكِ هذه الأيام؟ أتستمتعين بوقتك؟

– لقد دعوت كلًّا من إيف وتامسين وماريا وأزواجهن على العشاء هذا المساء. وسأقدم لهم وصفات بسيطة بالكاري، لا مبالغة فيها على الإطلاق.

– هذه خطوة مذهلة.

– لن أستطيع أن أطيل المكالمة، إنني في طريق العودة من التسوق والطقس شديد البرودة اليوم. دعينا نكمل دردشتنا خلال عطلة الأسبوع.

– سأنتظر بفارغ الصبر! سأتصل بك يوم الاثنين.

أتابع السير، وأعاود التفكير في حديثي مع تامسين. أستطيع أن أتفهم ارتياحها بعدما عرفت أن كونر لم تربطه أي علاقة غرامية مع نينا؛ فلا بد وأنه من المروع أن يظل الشك معلقًا في ذهنها طوال تلك المدة. لكن في حالة أنها لم تطلع الشرطة على عادة أوليفر بالجلوس في الساحة، من أجل أن تحمي كونر، ألم يوهنها الذنب تحت وطأته؟ لم تبدُ كذلك قط، ربما أطلعت الشرطة بالفعل إنما استُبعدت أقوالها. أو لعل الأمر كما اعتقدتُ، وكلتا المحادثتين –أولهما التي استمعتُ إليها خلسة بالأمس، وثانيهما التي جرت منذ دقائق مع تامسين– مصطنعتان على شرف خداعي.

بينما أعبر الساحة متجهة صوب المنزل، أتطلع لأعلى لسبب أجهله، وأرى وجهًا غير واضح الملامح يطل من نافذة غرفة المكتب. ينقبض قلبي، لا بد أن ليو جاء ليأخذ بعض أشيائه قبل ذهابه إلى منزل جيني ومارك. ليته ذكر في البريد الصوتي أنه سيأتي إلى المنزل. لو قال لي، لمكثت وقتًا إضافيًّا في مقهى آخر حتى لا أضطر إلى مقابلته. لا أريده أن يستميلني كي أسمح له بالعودة إلى المنزل.

أترك حقائب التسوق في البهو، متوقعة أن أراه عند أعلى درج السلم.

أناديه: «ليو!».

لا يأتيني أي رد، لذا أصعد الدرج وأفتح باب غرفة مكتبه. لكنه ليس هنا. أتابع مناداته فيما أتحقق من غرفة الضيوف، لأن نافذتها تطل على واجهة المنزل أيضًا، ولربما خلطت بين النافذتين. أقف في مدخل غرفة نومنا، ولا أرى ليو فيها كذلك، إنما هنالك رائحة ما، تشبه رائحة مستحضره الخاص لما بعد الحلاقة، مما يؤكد احتمال أنه هنا. كما أن باب الحمام موارب. أخطو نحوه في اضطراب.

– هل أنت في الداخل، يا ليو؟ أرجو ألا تكون مختبئًا وراء الباب لإخافتي!

أبذل جهدي حتى يبدو صوتي ممازحًا، إنما بداخلي أرتجف لمجرد تصور أنه قد يقفز في وجهي.

أدفع الباب بقوة فيصطدم بالجدار محدِثًا طرقة مدوِّية، يرتد صداها في أرجاء المنزل، كما لو تنطلق رصاصات متعاقبة من مسدس بلا توقف. لقد تسببتُ في إخافة نفسي بلا داعٍ، بتصرفي الغبي هذا.

أسرع عائدة إلى الغرفة، وأتسمر للحظة عند رؤيتي للصورة الفوتوغرافية المؤطَّرة، التي التُقطت لنا معًا في هارلستون، التي أضعها أعلى وحدة الأدراج، مقلوبة على وجهها.

أخاطبه في بالي، فيما أنزل السلم، وخطواتي تدبدب على الدرج من الغضب المضطرم داخلي، جراء اللعبة السخيفة التي يلعبها عليَّ: لبئس ما تفعل بي!

على الأرجح، نزل إلى المطبخ ما إن رآني قادمة من ناحية الساحة. لكنه اختفى تمامًا، على ما يبدو، ولا أثر على وجوده في أي ركن في المنزل. لا يُعقل أنه غادر من خلال النوافذ الفرنسية، وتسلل بهدوء بمحاذاة جانب المنزل في أثناء دخولي من الباب الأمامي، حتى يتجنب رؤيتي.

يتساءل صوت في عقلي: ألم تريدي أن تتجنبي رؤيته أنتِ أيضًا؟ لو علمتِ مسبقًا أنه آتٍ للمنزل، لكنتِ انتظرتِه في أحد المقاهي حتى يرحل.

يبرِّد ذلك الصوت من غضبي المشتعل. إنما من المؤرق أن ليو لم يعد يرغب في رؤيتي أكثر مما أرغب في عدم رؤيته.

في نحو الساعة السابعة وعشرين دقيقة، وصل الجميع. وكانت تامسين وكونر آخر الواصلين، وأوضحت تامسين وهي تقبِّلني أنه واجهتهما مشكلة حَمْل الفتاتين على النوم حتى حضرت جليستهما وأنقذت الموقف.

يتذمر كونر: «تقصدين حتى هددتُهما أن أبرحهما ضربًا إن لم تخلدا للنوم من فورهما».

أنظر إليه بعصبية، قلقة من وجهه المقطَّب.

تبتسم تامسين، قائلة: «لا تقلقي، إنه يمزح».

يتركنا كونر ليتحدث إلى ويل وتيم، ويروح ذهني إلى لورنا. عندما حملت إليها الورود بعد الظهيرة، فتح لي إدوارد الباب. أملت أن يدعوني للدخول لكنه ظل يحدِّثني عند عتبة المنزل، وأخبرني أنها تأخذ قيلولة. وهكذا لم أقترب قيد أنملة من التأكد مما همست لي به، أو إذا ما همست بشيء حقًّا.

ذكرتُ في رسالة نصية بعثتها إلى تامسين وماريا، أن ليو لن يحضر العشاء الليلة، لذلك لم أتلق من أحدهم أسئلة محرجة بشأنه. تنغمس إيف وماريا في حديث عميق وأدع تامسين تنضم إليهما، ريثما أقدم لها ولكونر شرابًا للترحيب بهما. لا أميل في غالب الأحيان إلى إطلاق الأحكام جُزافًا على أي أحد، إنما أجد

في كونر أمرًا يبعث على القلق منه. أتعجب من أنه وتامسين متزوجان، فهي جميلة ومشاعرها مرهفة، بينما يبدو في طبعه غلظة رهيبة. إنه رجل ضخم الجسم، مفتول العضلات، ويمكن تصوره يهجم على شخص ما ويغلبه ببساطة.

– تبدين شاردة للغاية.

تلتقي عيناه عينيَّ فأدرك أنه رآني أحدق تجاهه. وأفكر في أي أمر لأتحجج به.

– كنت أتساءل لماذا لم تطلب مني أن أقدم لك الويسكي، في حين أن عملك يتمحور حوله.

– لهذا لا أشربه في المناسبات الاجتماعية. إنني أعشق الويسكي، لكنني لا أسرف في الشرب منه لأسباب تخص العمل. هل يفضِّل ليو الويسكي؟

– لا، مطلقًا. إنه يفضِّل مذاق الكحوليات المخلوطة.

أناوله زجاجة الجعة التي طلبها، وأحمل كأسًا من النبيذ إلى تامسين.

تتناولها من يدي بامتنان، قائلة: «هذا رائع».

تقول ماريا: «سأذهب لألقي التحية على كونر، وإلا ارتاب أنني أتجاهله».

تنتظر تامسين حتى تبتعد، وعندها تقول: «لقد أخبرتُ إيف قبل مجيئكِ عن مصادفتي لكِ هذا الصباح، وعن دردشتنا عقب ذلك».

إن اختيارها الحذر للكلمات يحمل في طياته معنى آخر، كما لو تريدني أن أعرف أنها أخبرتْ إيف أنني علمتُ بشأن ما صار بين كونر ونينا.

– أتمنى أنكِ أخبرتِها كذلك عن قطعتَي الكعك اللتين انقضضنا عليهما.

تتسع ابتسامتها وترد: «بالطبع».

أتلفت حولي بحثًا عن كأسي التي وضعتها من يدي، لكي أفتح الباب. إنها على الطاولة، وأذهب لأحضرها، فإذا طال حديثي مع إيف وتامسين ستتضاعف حيرتي أضعافًا كثيرة. دومًا ما يبدو أن هنالك أمورًا خفية لا أقدر على معرفة كنهها.

رغم ذلك، فهذه الأمسية ممتعة. إن شخصيتَي كونر ووِيل على النقيض من بعضهما. يلقي وِيل النكات ويروي القصص بأسلوب حماسي منفعل، وتتداخل معها تعليقات ذكية ساخرة من كونر، وهو مسترخٍ تمامًا، على نحو غير متوقَّع. أما تيم فهو أشد هدوءًا، وتهذيبًا، ينهض سريعًا ليساعدني على حمل الأطباق وإفراغها من دون تردد، رغم أنه في منزلي داخل مطبخي، مما يشير أنه على الأرجح يماثل المطبخ الآخر بمنزله، لأنه لم يسألني عن مكان أي شيء. يخطر في ذهني: من غير المعقول أن أحد هؤلاء الرجال هو قاتل نينا.

وأخجل من نفسي مجددًا لظنِّي أن لدى أحدهم مقدرة على قتلها. يجذب كونر أنظاري إليه ويتطلع إلى عينيَّ بثبات، كأنه يقرأ أفكاري، ويفطن إلى أن الغرض من وراء دعوتهم الليلة لا يمتُّ إلى علاقة الجِيرة بيننا بِصلة. لسبب ما أو لعله لهذا السبب تحديدًا، أحس ببعض الخوف منه.

يعترض الحوار الذي لم يزل يدور بين جميع الحضور، فينقطع على نحو مباغت، قائلًا: «لقد ذكرتْ تامسين أنكِ اكتشفتِ أمر نينا من خلال مراسلة صحفية».

– هذا صحيح. كنت أفضِّل لو عرفت من ليو نفسه، حينها لما صُدمت عندما سألتني المراسلة عن شعوري حيال العيش في منزل وقعت فيه جريمة قتل.

– ولماذا لم يخبركِ ليو؟

ألاحظ أن عينَي كونر لهما درجة الأصفر البُني نفسها التي للون شعره. أتخيل لو أنه خُلق حيوانًا، لكان أسدًا.

– لأنه يعرف جيدًا أنني إذا علمت، لن أرغب في العيش هنا، في حين أنه أراد هذا المنزل بشدة. وعلى أية حال، فقد اتخذ القرار الذي رآه صائبًا، وما إن علمت، لم أجد مفرًّا بعد أن فات أوان المغادرة.

يتساءل فضولًا، وليس تعسُّفًا: «لماذا تقولين ذلك؟».

– لقد ارتبطت حياتي بالمجاورة وبساكنيها، ولا أريد أن أتخلى عنها بسهولة بعدما ارتحت إليها.

يردف، رافعًا كأسه نحوي: «أقدِّركِ على صراحتك».

تقول إيف: «ونحن سعداء أنكِ ما تزالين بيننا، ألسنا كذلك يا وِيل؟».

– بلى، بكل تأكيد. لا يمكنني تصور أي أناس آخرين قد يحلون محل نينا وأوليفر، غيركِ أنتِ وليو.

ها هي تظهر التعبيرات المُربِكة مرة أخرى، وهذه المرة على لسان وِيل. أهذا حقيقي أم أن حساسيتي لكلامهم صارت زائدة؟

يسأل تيم: «بالمناسبة، هل توصلتِ إلى هوية ذلك الرجل الذي تطفل على حفلك، وادَّعى أنه أنا؟».

– لا أعتقد أنه ادَّعى شخصيتك. لقد استغل فقط أنني ظننته أنت حتى يتمكن من دخول المنزل. لكن، لم أتوصل إلى هويته. ولكي أصدقك القول، نسيت أمره من بعدها تمامًا.

تتفكر تامسين: «من الغريب أنه لم يره أحد».

– أظنه لم يطل البقاء ليلتها.

– إذن، ما الذي جاء من أجله؟

أرتشف رشفة من النبيذ لتمالك نفسي، ثم أقول لها: «للأسف، ليست المسؤولة بأعلم من السائلة».

تتبادل مع إيف ابتسامة، لا تعجبني. ولحسن الحظ، يطلق كونر مزحة تلطف الأجواء ويندمج الجميع في الأمسية من جديد.

***

لا أدري إذا ما كان ذلك تأثير وجود أناس كثيرين في المنزل، أم لا، لكن عندما أوصدتُ الباب بعد خروجهم لاحقًا، شعرت أن الصمت أثقل من المعتاد. أكدِّس الأطباق في غسالة الصحون بأعصاب منزعجة، عند تذكر زيارة ليو للمنزل خُلسة. ما سبب مجيئه؟ هل أتى ليأخذ شيئًا من خزانة الملفات المقفلة، شيئًا لم يردني أن أراه؟ ألهذا غادر بتلك السرعة؟

أمسك نفسي عن الذهاب للنوم لبعض الوقت، متضايقة من أن زيارة ليو السرية قضتْ على راحة بالي التي مكَّنتني من التكيف إلى حد ما، خلال الأيام القليلة الماضية. أراه في أحلامي التي ظلَّت تخلط بينه وبين نينا، وفيما بين النوم واليقظة في منتصف الليل، أستشعر وجود ليو واقفًا عند نهاية سريري، وليست نينا. أعود للنوم لكن فجأة، أقفز جالسة على السرير وظهري معتدل، أحاول على نحو محموم أن

أمسك بزمام أمر خطر لي في منامي، أمر له علاقة بما قالته جيني عن أن ليو ربطته علاقة سرية مع نينا. عندئذ، أتذكر أن المرأة، التي جاءت إلى منزلي في هارلستون، كي تتعرف على ماهية الحياة في الريف، حسبما زُعِمَ، كان شعرها أشقر طويلًا.

الفصل الثامن والعشرون

لم أرد أن أفسد على ليو استمتاعه بعطلته برفقة جيني ومارك، لكنني أتحرق للتحدث معه بخصوص نينا ماكسويل. يحدِّثني عقلي أنه لم يعرفها قط، إنما يرى قلبي أنه عرفها وهذا هو سبب رغبته الشديدة في شراء المنزل. وحتى تصور أنه لم يعرفها فحسب، بل وربطته علاقة غرامية بها، لا يغيب عن ذهني. وتسري رجفة في بدني عندما أتذكر قول توماس، عن الجاني الحقيقي الذي سيعود إلى موقع الجريمة. أسرع بطرد هذا التصور من ذهني؛ على الرغم من أنه أخفى عني أمر الجريمة، لا يمكن أن أراه قاتلًا.

لا أريد إزعاجه في أيام انشغاله بالعمل أيضًا، ولذا أتريث حتى زوال النهار، ثم أبعث له رسالة نصية: **أحتاج إلى التحدث إليك، ما الوقت المناسب لديك؟**

يجيب: **الآن.**

ويرن هاتفي، إن لهفته هذه مقلقة. لست مستعدة بعد، أردت أن يُتاح لي وقت لترتيب أفكاري أولًا.

يسأل: «كيف حالك؟».

– بخير. هل استمتعتَ بعطلتك؟

– نعم، من الرائع أنني قضيتها مع جيني ومارك. ماذا عنكِ، كيف حالكِ مع التكيف على العيش بمفردكِ في المنزل؟

– صارت الأمور أفضل حاليًّا.

– جيد.

لا تنم نبرة صوته عن شيء بعينه، إنما لا يعجبني أن يخطر في باله ولو بصورة عابرة، أنني تجاوزت صدمتي الشديدة مما فعل بسهولة.

أقول: «في بعض الأحيان، تحدث أمور سيئة ثم تتبعها أمور أخرى أشد سوءًا منها، مثل أن يكذب عليك شخص تثق به، وحينها لن تبدو الأمور الأولى بالسوء الذي تخيلته».

يتنهد: «ما الذي تريدين التحدث عنه معي؟».

– عن نينا.

– أتقصدين شقيقتك؟

هل يتهرب عن عمد؟

– لا، أقصد نينا ماكسويل. هل عرفتها من قبل؟

يرد في حيرة: «لا».

– حسنٌ، هل قابلتها في أي وقت في الماضي؟

– أليس ذلك السؤال نفسه؟

– هل المرأة التي تحدثتْ إليك في هارلستون في أحد الأيام، تلك المرأة الشقراء التي من المفترض أنها سألتك عن ماهية الحياة في الريف –هي نينا؟

– ماذا؟ لا، لم تكن هي. ما الذي جعلكِ تعتقدين ذلك؟

– هل انغمستَ في علاقة معها؟

– مع مَنْ؟

– مع نينا.

لقد بان غضبه.

– هل أنتِ جادة فيما تقولين؟! بحق الرب، من أين لكِ بهذه الهواجس، يا أليس؟ أحقًّا تظنين أنني كنت على علاقة غرامية مع نينا ماكسويل؟ لم أعرفها في حياتي حتى!

– إذن، مَنْ هي تلك المرأة التي جاءت إلى هارلستون؟ ولا تقل إنها أرادت التعرف على ماهية الحياة في الريف.

بعد برهة صامتة، يقول: «حسنٌ، إنها إحدى عملائي الذين أخبرتكِ عنهم، مِمَّنْ أتعرض لمضايقاتهم».

– ولماذا كانت تضايقك؟

تصير نبرته باردة.

– لن أوضح معاملات تخص العمل عبر الهاتف. وعلى أي حال، يسرني أنكِ اتصلتِ بي، فإنني بحاجة إلى بعض الملفات من غرفة مكتبي. هل تمانعين إذا جئت للمنزل؟

– ماذا؟ أتريد أن تأتي الليلة؟

– نعم، في الحال.

– ألست في برمنجهام؟

– لا، اضطررت إلى أن أمكث اليوم في لندن.

– حسنًا.

– أراكِ بعد نصف ساعة.

ينهي المكالمة وأسكن مكاني والهاتف في يدي، متفكرة في المحادثة التي جرت بيننا. هنالك أمر غامض من وراء طلبه المجيء للمنزل. لقد حاول أن يجعل الأمر كأنه أراد أن يطلب ذلك مسبقًا، غير أن القرار خطر له في لحظتها من دون سابق تخطيط، ما إن ذكرتُ له اسم نينا. كما لو أنه بحاجة إلى المجيء، لاتصل بي وقتما شاء وطلب ذلك، دون أن ينتظر حتى أن أتصل به. بات القلق ينهشني، ماذا لو ربطته علاقة مع نينا حقًّا؟

***

لم ينقضِ سوى أسبوع واحد منذ آخر مرة رأيت فيها ليو، إنما يبدو شخصًا آخر لا أعرفه، ليس بسبب ذقنه الذي يبدو أنه لم يحلقه منذ أيام، لكن لذلك التصرف المتحرج فيما بيننا. لقد خلع معطفه وتركه في البهو، كما لو يأمل أن يمكث لوقت أطول. مما يشعرني أنه من الواجب عليَّ أن أقدم له شرابًا، على الرغم من أنه لا رغبة لي في ذلك أبدًا.

يقول: «مرحبًا».

– مرحبًا.

يتمهل قليلًا ولمَّا لم أضف إلى ردِّي شيئًا، يهز كتفيه.

– سأصعد لأحضر ما أحتاج إليه.

– لا مانع.

يعود إلى البهو، وأسمع حفيف بحثه عن شيء ما في جيب معطفه. فأخطو بهدوء نحو الباب، وأراه صاعدًا درج السلم، درجتين درجتين، وفي يده محفظته. بعد لحظات، يتهادى إلى سمعي الصرير المألوف لأحد أدراج خزانة الملفات، وهو يُفتح. إذن، فهو يحتفظ بمفتاح الخزانة في محفظته.

لكن لماذا يحتفظ به في محفظته وليس في أحد أدراج مكتبه، أو أعلى سطح الخزانة، حيث يسهل الوصول إليه متى احتاج إليه؟ أحقًّا وثائق عملائه بمثل تلك الأهمية لدرجة أنه لا يريد لأي أحد، ولا حتى أنا نفسي، أن يتمكن من الوصول إليها؟ أم أنه يخفي شيئًا بداخلها، شيئًا لا يُفتح إلا بذلك المفتاح الصغير المُلصق أسفل دُرج مكتبه؟

تمر بضع دقائق، ثم يهرول نازلًا الدرج، ويعبث بمعطفه، قبل أن يعود إلى المطبخ متأبطًا عدة ملفات.

أسأله: «أنسيت أن تأخذها معك عندما جئت يوم السبت؟».

يضعها فوق الطاولة، ويقول: «عمَّ تتحدثين؟».

– عن هذه الملفات. لماذا لم تأخذهم معك عندما جئت إلى هنا يوم السبت؟

– لقد كنت في منزل جيني ومارك يوم السبت.

– أعرف، لكنك حضرت إلى المنزل قبل ذهابك إليهما، لقد رأيتك في غرفة مكتبك. وبعد ذلك، وبمجرد أن رأيتني أعبر الساحة غادرتَ من فورك.

يهز رأسه.

– لم أفعل.

– لقد رأيتك، يا ليو!

– أقسم لكِ إنني لم أفعل، يا أليس.

– أين كنتَ عندما اتصلتَ بي يومها؟

– كنتُ في غرفة نومي في منزل جيني ومارك.

ثم يتقطب جبينه، مضيفًا: «أتعنين أنكِ رأيتِ غريبًا في المنزل؟».

أستعيد بذاكرتي ملامح الوجه المُضبب الذي طلَّ من النافذة. لا أريد الظنَّ أنني أخفت نفسي بمجرد تخيل شخص ما دخل المنزل، بينما من المحتمل أن ذلك كله من فعل شمس أواخر سبتمبر، التي ألقت أشعتها المتوهجة على نوافذ الطابق العلوي.

– ظننت أنني لمحت أحدًا في غرفة مكتبك، إنما ربما توهمت ذلك.

– هل تحققتِ في أرجاء المنزل؟

لن أذكر له شيئًا عن الرائحة الخفيفة لمستحضر ما بعد الحلاقة الذي شممته في غرفة النوم. فهو لم يغب عن المنزل سوى أسبوع فحسب، ولا غرو في أن تظلَّ رائحته تعبق في أرجاء الغرفة. وربما قلبتُ صورتنا على وجهها في أثناء كنس الغرفة بالمكنسة الكهربائية، دون أن أنتبه.

– نعم، ولم أجد أثرًا له. لكنني لم أتحقق من النوافذ، سأكون ممتنة لو أنكَ...

– بالطبع سأفعل.

يتأهب متجهًا صوب النوافذ فيما يداهمني شعور بالدناءة لأنني لم أعرض عليه أن يشرب شيئًا.

– هل ترغب في كأس من النبيذ؟

فتتراجع خطواته، مجيبًا: «نعم، أشكرك».

أخرج كأسين من الخزانة، وأجلب قنينة نبيذ أحمر، أفتحها وأصبُّها.

يرتشف من كأسه.

– آمل أنكِ لم تتحدثي بجدية عندما سألتِني إذا ما انغمست في علاقة غرامية مع نينا. إنني لم أعرفها مطلقًا، صدقيني.

– لا بأس، أصدقك.

يسحب مقعدًا ويجلس.

– إن المرأة التي جاءتني في هارلستون كانت صَحفية، أرادت أن تجري معي مقابلة عن مجال عملي من أجل مقال تحضِّر له. لقد رفضتُ طلبها لمرتين مسبقًا عبر الاتصال الهاتفي، وظنَّتْ أنها قد تجعلني أَعْدِل عن قراري إذا تجرأت وقابلتني شخصيًّا.

– ألم يكن من الأيسر بالنسبة إليها أن تتجرأ وتقابلك شخصيًّا في شقتك الخاصة في لندن، بدلًا من أن تكلِّف نفسها عناء السفر إلى هارلستون؟ وكيف عرفتْ أنكَ ستكون هناك في ذلك الوقت، على أي حال؟ كيف حصلت على عنوان منزلي الريفي؟

يرتشف رشفة أخرى.

– ليست لدي أدنى فكرة.

– لا أخفيكَ سرًّا، إنما لم تصِبني دهشة في مجال عملك إلى حد اعتباره مثيرًا للاهتمام، أو على الأقل مثيرًا بما يكفي لتُكرَّس من أجله مقالات صحفية.

– لكن جوانب بعينها في هذا المجال تستحق. إن إدارة المخاطر موضوع ذو أهمية كبرى في هذه الآونة.

أومئ برأسي؛ عسى الأمر كذلك. أسأله عن عطلته الأسبوعية التي قضاها مع جيني ومارك، ويسألني عن عطلتي مع جيراني. ولحماقتي، أخبره أنني خلدت للنوم بصعوبة، بسبب الوجه ضبابي الملامح الذي طلَّ من النافذة.

– يجب ألا تظلي بمفردكِ هنا، يا أليس.

– إنني بخير وحدي.

يحرِّك كأسه، مردفًا: «أودُّ أن أعود إلى المنزل».

– لكنني ما زلتُ بحاجة إلى متسع من الوقت.

يميل إلى الأمام، محدقًا إلى عينيَّ.

– إلى كم من الوقت تحتاجين أكثر؟ إنني أحبكِ، يا أليس. وأريد أن أعيش معكِ، وليس محبوسًا في شقة مظلمة في برمنجهام.

– لست مضطرًّا إلى أن تعيش في شقة مظلمة أبدًا.

– ليس هذا ما أرمي إليه.

– بل هذا ما ترمي إليه. تحاول أن تظهِر نفسك بأقصى صورة بائسة ممكنة.

– أترينني بائسًا؟!

لَمَّا لم أرد عليه، يتنهد ثم يقول: «هل تريدين مني أن أتحقق من نوافذ الطابق العلوي أيضًا؟».

– نعم، من فضلك.

يتجرع ما تبقى في كأسه.

– إذن، سأتحقق منها أولًا.

أتبعه حتى البهو ويحتك ذراعي بمعطفه، بينما أقف عند أولى درجات السلم. أتمهل لبرهة، ثم أقرر التراجع.

أقول له: «سأنتظرك هنا في حال احتجت إلى مفك براغي أو إلى أي شيء آخر».

– حسنًا.

أتريث حتى يختفي في الطابق العلوي، وتخطو أقدامه إلى غرفة الضيوف، ثم أنتظر لدقائق قليلة أخرى.

أناديه، ويدي داخل معطفه: «هل كل شيء على ما يرام؟».

– حتى الآن. أحتاج إلى أن أتفقد غرفة نومنا.

هنالك ثلاث نوافذ في غرفة النوم، بالإضافة إلى نافذة أخرى في الحمام الملحق، مما سيمنحني الوقت الذي أحتاج إليه. أخرِج المحفظة وأفتحها، وأبحث خلال ثناياها على عجل. في البداية ظننت أن المفتاح ليس داخلها لكنني عثرت عليه بعد ذلك، مَدْسوسًا في أحد الشِّقين الصغيرين في الناحية الأمامية للمحفظة، اللذين عادة ما توضع فيهما البطاقات. آخذه وأدعه ينزلق في جيب بنطالي.

أناديه فيما أعيد المحفظة إلى مكانها: «هل كل شيء بخير؟».

– كل شيء على خير ما يرام.

تتسارع دقات قلبي، إن صوته يأتي من زاوية قريبة، بل أشد قربًا. أرفع رأسي وأراه واقفًا عند أعلى الدرج. أيستطيع رؤية يدي من مكانه وهي داخل معطفه؟ يشرع في نزول الدرج فأعود خطوة إلى الوراء سريعًا.

أتفكر في أي أمر حتى أشتت انتباهه عن إحساسي بالذنب، الذي سيظهر على وجهي بلا ريب، وأقول: «بالمناسبة، هل كنت تعلم أنه توجد فتحة في السور بيننا وبين منزل وِيل؟ اعتاد أوليفر أن يقرِضه جزازة العشب الخاصة به، ولذا استخدما الفتحة لتسهيل انتقالها بين الحديقتين. وعلى الجانب الآخر من

الحديقة، توجد فتحة أخرى مثلها؛ فكما يبدو اعتاد أوليفر أن يساعد إدوارد ولورنا في تشذيب حديقة منزلهما».

– لا، لم أعرف. إنما وجود الفتحتين فكرة جيدة.

يسكت لبرهة، ثم يضيف: «أتعتقدين أنني يجب أن أعرض على إدوارد ولورنا أن أشذب حديقتهما؟».

– قالت إيف إن جيف يتولى هذه المهمة حاليًّا.

يذهب ليفحص نوافذ الطابق الأرضي، بينما يعتريني القلق من أنه قد يريد فتح خزانة الملفات ثانية قبل مغادرته، وحينها لن يجد المفتاح، وسيخمن أنني أخذته.

أسأله، لأستعجله الرحيل: «ما موعد رحلة قطارك العائد إلى برمنجهام؟».

– لدي عمل في لندن في الغد كذلك، ولهذا سأبيت الليلة في منزل جيني ومارك.

– لا بد أنهما ينتظرانك لتتناول العشاء معهما.

يبتسم ابتسامة خاطفة.

– هذا صحيح، يجب أن أغادر.

أردف لائمة نفسي: «إنني آسفة. ليت غضبي منك قد زال منذ مدة، لكنه لم يزل بعد».

أنتظر حتى يغادر، وعندئذ أخرِج هاتفي وأتصل بجيني.

– عندما اتصلتِ بي يوم السبت لتخبريني أن ليو سيقضي معكما العطلة الأسبوعية، أين كان حينها بالضبط؟

– على ما أعتقد، أنه كان في غرفة نومه في الطابق الأعلى. أخبرني أنه ترك لكِ رسالة ليعلمكِ أنه سيمكث معنا، وأدركتُ أنني لم أخبركِ أن مارك هو الذي دعاه، ولم أرد أن تظني أننا ننحاز له. هل أمورِكِ على ما يرام؟ هل لسؤالكِ علاقة بأنه لا يزال هنا في الجوار؟ لكنه مضطر إلى أن يبقى اليوم والغد في لندن.

أجيبها: «لا، ليس له علاقة، وأموري على خير ما يرام. كما أنه من الرائع أن تستضيفاه في منزلكما».

– أأنتِ واثقة من أن مكوثه معنا لا يزعجك؟

– نعم. جل ما في الأمر، أنني خرجت يوم السبت ولدى عودتي، كنت متأكدة أنه جاء إلى المنزل في غيابي، غير أنه نفى ذلك وقال إنه كان في منزلك.

– نعم، هذا صحيح تمامًا. لقد وصل مساء الجمعة ولم يذهب للخارج طوال عطلة الأسبوع، حتى إن مارك اقترح عليه أن يرافقه للعب الجولف مع بِن يوم السبت، إنما انشغل بالعمل وقضى النهار بأكمله في غرفته.

– عظيم، أشكركِ يا جيني. دعينا نتناول الغداء معًا مرة أخرى في وقت قريب.

– هاتفيني متى ارتأيتِ موعدًا مناسبًا.

– أعدك.

أغلق الخط، وألقي باللوم على نفسي أنني لم أصدق ليو، عندما قال إنه لم يأت إلى المنزل. أسحب من جيبي ذلك المفتاح، الذي اختلسته من محفظته، وأسقطه داخل الوعاء الفخاري الصغير الموضوع على مكتبي. لن أفعل به شيئًا، لا قدرة لي. لست مِمَّنْ يفعلن ذلك.

الفصل التاسع والعشرون

أهرع على درج السلم، أريد فتح خزانة الملفات إنما أسمع خطوات متسللة لشخص ما يتنقل بين غرف الطابق الأرضي. أصل إلى غرفة المكتب، أخرِج المفتاح من جيبي، وأصابعي تتحسس القفل فيما أدس فيه المفتاح. لا يدور، هنالك خطب ما. أسحبه للخارج وأكرر المحاولة. يجب أن أسرع، إنه يتفقد الغرف، إنه يبحث عني. يأبى المفتاح أن يدور، أهزه بقوة في القفل فيدور. بحذر أشدُّ الأدراج أفتحها، وأنفاسي لاهثة مختنقة، وأذني متيقظة لخطوات قدميه الخافتة على السلم. تتكدس الأدراج الثلاثة الأولى بوثائق العملاء، وعند فتح الأخير، أجده خاليًا، لكن ما إن جَثَوتُ على ركبتي ومددت يدي داخل فراغه المظلم، ألمس صندوق النقود المعدني مُخبَّأً في عمقه.

تقترب خطوات قدميه في الردهة، فأحكم قبضتي على الصندوق، أخرجه من مكمنه وأضعه على الأرض. يعلو صرير باب غرفة الضيوف ليختلس النظر إلى ما وراءه، أكتم أنفاسي وأصابعي تدس المفتاح الصغير في قفل الصندوق. لم يعد أمامي وقت، سيأتي في غضون لحظات. ينفتح الصندوق، وينفتح معه باب الغرفة من خلفي ببطء، فأجثو في الظلال لأخفي نفسي عنه. أرفع الغطاء المعدني وتسري في جوفي صرخة ذعر مروعة، لكن قبل أن أتمكن من إطلاق العنان لها، تطبق يدٌ على فمي لتخرس صرختي وتئِدها في مهدها.

أستفيق، مستعيدة أنفاسي في شهقات متقطعة حادة، جراء الضرر الذي تعرضت له في حلمي. أمدُّ يدي المرتجفة لأشعل المصباح، وأتذكر أن أفكاري قذفتني في غياهب ذلك الكابوس، إنما في مستوى آخر من عقلي الباطن، أَحسَستُ بوجود نينا حولي تراقبني. أردت أن أناديها وأطلب منها أن تنقذني مما هو آتٍ، لكن لم أقدر على فعل شيء.

ألقي الأغطية بعيدًا وأنهض مرتعدة من السرير. لم أعد واثقة أنه يمكنني فعل ذلك، لم أعد واثقة أنني أستطيع المكوث وحدي في المنزل. تستحثني نفسي لأتصل بليو وأطلب منه أن يأتي، فآخذ هاتفي المحمول إلى المطبخ. إنني في أمسِّ الحاجة إلى مشروب يرطب على قلبي، لذا أصبُّ بعض الحليب في قدح وأجلب مسحوق الشكولاتة. يريحني الإنصات إلى الهدير الهادئ للميكروويف، بينما أحاول استرجاع ما رأيته داخل صندوق النقود المعدني، غير أنه توارى في ذاكرتي مثله مثل وجه الرجل الذي كتم صرختي.

تمكنت من أن أمسك نفسي عن مهاتفة ليو، وصارت الساعة حينها الخامسة صباحًا وبالكاد استطعت العودة للنوم. وعلى الرغم من أنني غالبًا ما أنام في ساعة متأخرة، فإنه لم تخالجني راحة لبقية النهار، منزعجة من ذلك الكابوس. كما أن اكتشافي لمزيد من خصلات شعري متساقطة في المطبخ والحمام، ضاعف من اكتئابي؛ إنه يتساقط بلا توقف.

يُضرب جرس الباب، فأذهب لأفتحه وأجد إيف أمامي، في طريقها لبدء جولة الركض الصباحية.

تقول: «أودُّ أن أشكركِ على دعوتنا على العشاء مساء السبت. لقد استمتعت أنا ووِيل للغاية».

أبتسم لها، بينما تتأرجح على عتبة منزلي متواثبة على قدم واحدة في المرة، حفاظًا على إحمائها. وأردف: «لقد استمتعتُ بعشاء أمس أيضًا، ومن الرائع أنني تعرفتُ إلى كونر وتيم على نحو لائق. ألن تتفضلي بالدخول؟».

– لا، أشكرك، يجب أن أذهب للركض.

ثم تمرُّ برهة صامتة، وتضيف: «لا أسألكِ من باب الفضول مطلقًا، إنما من الصعب ألا تُلاحَظ بعض الأمور هنا في المجاورة. هل عاد ليو؟».

– لا، لقد جاء ليأخذ بعض الملفات.

– وكيف حاله؟

أَلْوِي فمي وقسمات وجهي، قائلة: «يبذل جهده حتى يحسسني بالذنب أني أظلمه وأقسو عليه».

– ليس له حق. لقد وجب عليه أن يكون صريحًا معكِ بخصوص ماضي المنزل في المقام الأول.

– أعرف ذلك، إنما لو فعل لَما جئت إلى هنا قط. وحينها لَما تعرفت إليكِ، وما تعرفتُ إلى أي أحد من الجيران. ألا ترين كيف تُقدَّر أقدارنا على نحو مثير للعجب؟

تتوقف عن الوثب، وتتطلع إليَّ في فضول.

– هل تعتقدين أنه قُدِّر لكِ أن تأتي إلى هنا؟

– نعم، إنني أومن بأن أقدارنا تأخذنا إلى حيث قُضي لنا.

– أتقصدين لغرض بعينه؟

– نعم، على الرغم من أنني لا أدري ذلك الغرض بعد.

– إذن، فأنتِ لا تحاولين اكتشاف حقيقة مقتل نينا، أليس كذلك؟

تسألني والبراءة بادية في عينيها.

أجيبها متحيرة: «ما دام يصدِّق الجميع أن أوليفر هو من قتلها، ألا يؤكد ذلك أنه لا حقيقة هنا لتُكتشف؟».

– فيما عداكِ، فأنتِ لا ترين أن أوليفر مذنب.

أودُّ لو أقول: ولا حتى تامسين ترى ذلك.

لكن لا أقدر، لأنه لم يُفترض بي أن أتسمَّع إلى حديثها مع تامسين.

تستطرد: «هذا ما أعجز عن فهمه، يا أليس. لماذا تعتقدين أنه ليس القاتل؟ في حين أنكِ لم تعرفيه من قبل».

– أنتِ محقة، لم أعرفه إلا من خلال ما ذكرتموه جميعكم عنه، مما وجدت صعوبة في هضمه؛ حيث لا تتوافق الصورة الرائعة التي رُسمت عنه والوقائع العنيفة التي أدت إلى مقتل نينا. ومع ذلك، لم آتِ لفك طلاسم ذلك الغموض. فأولًا، هذا الشأن لا يخصني، وثانيًا، ما دمتم ترتاحون إلى التصديق بأن أوليفر قتل نينا، فليس هنالك من داعٍ لأي محاولة لحل أي غموض.

يقاطعنا وِيل خارجًا من المنزل. وينادي عاليًا، متطلعًا إلى إيف في استغراب: «أما زلتِ هنا؟ ظننتكِ تتحرقين إلى بدء جولة الركض؟».

تتحرك من مكانها صائحة: «نعم، هأنذا. وداعًا، يا أليس!».

تهرول لتلقاه عند نهاية الممر، حيث يتبادلان بضع كلمات ثم تطبع قبلة على فمه قبل أن تعبر إلى الساحة وتختفي داخلها، ثم يلوح وِيل باتجاهي ويتبعها في خطوات متريِّثة. أراقبهما يبتعدان، وهذه ليست المرة الأولى التي أقرُّ فيها، أنه كلما طال الوقت الذي أقضيه بجوار هؤلاء الناس، الذين عرفوا أوليفر ونينا، يتعمق إحساسي بأن هنالك أمرًا مريبًا. لقد قالت إيف إنها علمت بمجيء ليو إلى المنزل في الأمس، لأنه من الصعب ألا تُلاحَظ بعض الأمور في «ذا سيركل». ومع ذلك، رافقت نينا أحدهم لعدة أشهر قبل وفاتها ولم يلحظ أحد -لم يلحظ أي واحد منهم على الإطلاق- أي شخص يتردد على منزلها، أكثر مما ينبغي. مما يعني أن نينا إما قابلته خارج المجاورة، وإما كان يتسلل إلى المنزل دون أن يُكتشف أمره، مما يُشير بأصابع الشك إلى وِيل مباشرة. فقد سهل عليه أن يدخل المنزل ويخرج منه متى شاء، باستخدام الفجوة التي في سور الحديقة دونما أي خوف من أن يكشفه أحد. وعلى الرغم من أن إيف تعمل من المنزل، فإنها تذهب للركض لمدة ساعة على الأقل، في صبيحة كل يوم، كما تقضي أيام الخميس من كل أسبوع برفقة والدتها. لقد حِيزت له فرصٌ لا حصر لها ليذهب إلى نينا متى شاء، وإيف أبعد ما يمكن عن المنزل.

***

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى تقبلتُ أنني من النساء اللاتي قد يتطفلن على الشؤون الخاصة لشركاء حياتهن. بات مفتاح خزانة الملفات يشغلني كَحَكَّةٍ في الجلد أعجز عن تجاهلها. ظللتُ أحاول إلهاء نفسي عن الالتفات ناحيته والتركيز على العمل، حتى أتى موعد استراحة الغداء يوم الأربعاء، ولم أعد أقوى على تجاهله.

آخذ المفتاح من الوعاء الفخاري وأصعد إلى غرفة مكتب ليو. ليست ثمة جدوى من فك المفتاح الآخر الصغير الملتصق بالجانب السفلي لدُرج مكتبه، إن لم تَحْتوِ خزانة الملفات على شيء سوى وثائق العملاء. ينفتح القفل، والأدراج الثلاثة الأولى ليست فيها غير ما ظننتُ بالفعل: صفوف منسقة من وثائق العملاء محكمة الترتيب داخل عدة منظِّمات للملفات. أنحني لفتح الدرج الأخير وأجد فيه وثائق عملاء أيضًا، ولكنها قليلة بالنسبة إلى مثيلاتها في الأدراج الأخرى؛ فهذه الملفات دُفعت إلى مؤخرة الدرج، وتُرك ما تبقى من المساحة فارغًا لإضافة ملفات جديدة. يتسرب إليَّ شعورٌ بحماقة ما فعلت.

ويخالجني الخجل كذلك، فأجلس على الأرضية محرجة أن جزءًا مني رغب بشدة في العثور على شيء داخل الخزانة. لكنني بحاجة إلى سبب أكثر إقناعًا، فإذا عزمتُ على قطع علاقتي بليو، يقلقني أن تغفيله لي وكذبه بشأني -الأمران اللذان تغيَّر بسببهما شعوري تجاهه- قد لا يُعتد بهما سببين وجيهين، ليس من قِبل ليو وحده، بل ومن قِبل الآخرين الذين يعنيني رأيهم: جيني ومارك وديبي. من وجهة نظرهم، قد لا تبدو هذه الأكاذيب شيئًا جديرًا بالذكر حتى أتخذ بناء عليها مثل هذا القرار. ما زلت أكنُّ له بعض الحبِّ إنما ذهبت ثقتي به دون عودة. لقد أخبرته في المرة التي تحدَّثنا فيها عن حال صديقتي، أنني إذا لم أعد أثق به، لن أستطيع أن أظل معه. وعلى الرغم من علمه بذلك، لم يتوانَ عن المجازفة بعلاقتنا.

ما برح الدرج الأخير مفتوحًا، وبخيبة أمل أصفقه لينغلق. تزحزح شيء ما مختبئ تحت الملفات، ألمحه قبل أن يرتج الدُّرج بعنف، عائدًا إلى وضعه السابق. كاد قلبي تتوقف دقاته، أجثو على ركبتي وأفتح

الدُّرج، ثم أمدُّ يدي أسفل الملفات. تتلمس أصابعي ملمس شيء صلب، أسحبه للخارج وأقربه مني، متوقعة أنه كتاب أو مُفكِّرة مكتبية، غير أن ما أحمله بين يدي هو صندوق نقود معدني أسود.

أدقق النظر إليه، فبعيدًا عن أنني تخيلتُ لونه أحمر مثل صندوقي في مرحلة المراهقة، فذلك النوع من الصناديق لا يُفتح إلا بمفتاح صغير يلائم فتحة قفله، كما تخيلتُ بالضبط. وعندئذ أتذكر الكابوس الذي راودني، حيث كان الصندوق فيه أسود مثل هذا تمامًا، ورأيت داخله ما بعث في جوفي تلك الصرخة، التي أخرستها قبضة أحدهم على عنقي. أنهض بصعوبة على قدمي، متطلعة إلى الباب في توتر. هنالك عدة أصوات تتهادى إلى سمعي من الطريق في الخارج، ما بين آباء يتحدثون وأبناء يضحكون ردًّا عليهم، تهدئ من روعي؛ ما زالت الشمس ساطعة وأناس كثيرون في الجوار، لن يحدث أمر سيئ إذا فتحت هذا الصندوق الآن، في وضح النهار.

أفكُّ اللصق عن المفتاح الصغير المثبت على الجانب الأسفل من درج مكتب ليو، وتحدِّثني نفسي أنه قد لا يتناسب مع قفل الصندوق. وعند رفعه من مكمنه في درج الخزانة، أفاجأ أنه خفيف الوزن للغاية. أحرِّكه بهدوء ويتخبط شيء في داخله، ربما هو كتاب صغير الحجم أو مفكِّرة أو دفتر يوميات. تضطرب دقات قلبي، وتسيطر نينا على تفكيري.

أضع الصندوق على المكتب وأدس المفتاح في القفل، فيلائمه. أدير المفتاح وأرفع الغطاء المعدني.

للوهلة الأولى، يتراءى لي أن ما في داخله مفكِّرة، لكن لا، إنه جواز سفر أزرق داكن، من النماذج القديمة التي لم تعد مستخدَمة. فيندفع الأدرينالين في عروقي، أهو جواز سفر نينا؟ أحمله بحذر بين أصابعي المرتعشة، ولا أستوعب لماذا قد يحتفظ ليو بجواز سفر نينا؟ أفتحه على صفحة الصورة الشخصية، وتنقطع أنفاسي. على الرغم من أنها التُقطت منذ نحو عشرين عامًا في الماضي، لا يمكن ألا يُتعرف عليها في الحال، ونينا ليست هي صاحبة تلك الصورة، بل هو ليو. ومن ثم، أرى الاسم المسجَّل تحتها، ويتداعى من حولي العالم الذي ظننت أنني أعرفه، ثانيةً. إن جواز السفر باسم «ليو كارتر»، وليس «ليو كيرتس».

أتحسس المقعد من خلفي وأهوي جالسة عليه، أنتبه مذهولة أن جرس الباب يرن. لماذا أخبرني ليو أن لقب عائلته هو كيرتس بينما هو في الحقيقة كارتر؟ عندها أتذكر نظرة عينيه التي بدت كما لو سيُغشى عليه، حينما واجهته بأمر إخفاء الجريمة عني، وسألته مَنْ يكون. ما قصدته هو مَنْ يظن نفسه ليكذب عليَّ؟ إنما على الأرجح، اعتقد أنني اكتشفتُ هويته التي يخفيها عني.

يرنُّ جرس الباب مرة أخرى، ويبعث الذعر في كياني كله؛ من المؤكد أن ليو أدرك أن المفتاح اختفى من محفظته، وتوصل إلى أنني أخذته منها. أقفز على قدمي، كيف سأوضح له السبب الذي جعلني آخذ المفتاح؟ إنما عندئذ أتبين، أنه ما دام يحمل جواز سفر باسم مختلف، فبلا شكٍّ لديه أمرٌ يخفيه، أمرٌ يفوق اختلاس المفتاح من محفظته سوءًا.

الفصل الثلاثون

أنزل درج السلم وبحوزتي جواز السفر، ويداهمني شعور بالغثيان، خشية المواجهة التي أوشك أن أخوضها معه. أفتح الباب ومن ثم أتراجع للخلف بغتة. إنه ليس ليو، بل توماس.

– أنت!

انبغى لي أن أدرك مسبقًا أن ليو لن يضطر إلى ضرب الجرس، فلديه مفاتيحه. إنما، ما الذي جاء بتوماس إلى المنزل دون موعد مسبق؟

– إنني آسف لإزعاجكِ في هذا الوقت، يا أليس، لكن أتسمحين لي بالدخول؟

يعتريه الارتباك كيفما يبدو، بالقدر نفسه الذي يعتريني. أفتح الباب على اتساعه ليدخل، وذهني مشغول بجواز سفر ليو الذي اكتشفته. لكن أنتبه لنبرتي الفظَّة فيما أقول له: «نعم، تفضل على أي حال».

يخطو إلى البهو وأوصد الباب.

– هل تلقيتِ خطابًا من شقيقة أوليفر، هيلين؟

يصعب عليَّ التركيز فيما يقول.

– نعم نعم، تلقيته.

ينظر نحوي في قلق.

– أرجو المعذرة، لقد ذهبتُ لزيارتها الأسبوع الماضي وذكرت أنها تريد كتابة خطاب لك. ارتأيت الاطمئنان أنكِ لا تمانعين أن تتلقي منها خطابًا. لكن عندما رأيتها صباح اليوم، أخبرتني أنها كتبت إليكِ خطابًا بالفعل، وطلبت من المسؤولة على رعايتها أن ترسله بالبريد إليك. أتمنى أنها لم تكتب في خطابها ما يضع ضغطًا عليكِ من أي نوع.

أطمئنه: «لا، على الإطلاق. إن خطابها غاية في اللطف، ولا بد أن كتابته أرهقتها جسديًّا».

يومئ برأسه.

– لقد باتت ضعيفة جدًّا لدرجة أنها بالكاد تستطيع الإمساك بالقلم. لا يمكنها حمل كتاب كذلك رغم عشقها للقراءة. إنما من الرائع أنه توجد كتب مسموعة.

ثم، تعبس ملامح وجهه، سائلًا: «هل أمورك على ما يرام؟ تبدين مضطربة».

حتى أنا نفسي، أسمع صوتي يتردد في نبرة تنم عن اختناق: «إن سؤالك في محله، لكن لا أدري ما يحدث حقًّا. لقد اكتشفتُ لتوي شيئًا لا أفهمه البتة».

– هل يمكنني فعل شيء لمساعدتك؟

– لا، لا بأس. أشكرك.

ألتفت من خلفه، عازمة على فتح الباب حتى يغادر، إنما أُفاجأ بنفسي أتوقف. إنه محقق خاص، مما يعني أن بإمكانه مساعدتي. أقول: «في الواقع.. ألديك وقت كافٍ للتحدث إليك؟».

– نعم، بالطبع.

– إنني بحاجة إلى قدح من القهوة. أتشرب قدحًا معي؟

– أودُّ ذلك من فضلك.

يتبعني إلى المطبخ.

– تفضَّل بالجلوس. كيف تحبُّ قهوتك؟

– سوداء دون سكر، من فضلك.

يجلس وما زلت أحمل جواز سفر ليو، لذا أضعه على الطاولة وأتجه لتحضير القهوة. أشعر بثقل في حركتي فيما يجب أن أركز على إدخال الكبسولة في مكانها في الماكينة. أحمل القدح الممتلئ إلى الطاولة، ثم أعود من أجل قدحي.

ينتظر حتى أجلس في المقعد إزاءه، وعندها يشير برأسه باتجاه جواز السفر، قائلًا: «لم أرَ جوازات السفر تلك منذ مدة طويلة».

أرفعه بين يدي.

– إنه يخص ليو، رفيقي. أخبرني أنه لا يحمل جواز سفر، غير أنني عثرتُ لتوي على واحدٍ بين أغراضه.

– ربما قصد أنه ليس لديه جواز سفر محدَّث. فهذا النموذج بَطُلَ استخدامه منذ عقود.

– ليس هذا هو الأمر. إن اسمه مختلف في جواز السفر هذا.

يتقطَّب وجهه.

– في هذه الحالة، أأنتِ متأكدة أنه له؟

أفتح جواز السفر على الصفحة المعنية.

– إنه يحمل صورته، والاسم فقط هو الذي لا يتطابق؛ إن لقبه كيرتس، بينما المذكور هنا كارتر.

– أتسمحين أن أراها؟ من الممكن التحقق من مصداقيتها بمقارنتها بشهادة الميلاد.

أناوله إياه، ويتأمل الصفحة للحظات قبل أن يتطلع إليَّ.

– ليست لدي فكرة عن مكان شهادة ميلاده.

– وماذا عن بطاقاته البنكية؟ أهي جميعها باسم كيرتس؟

– نعم، أفترض ذلك. أعني، لم ألاحظ ذلك من قبل.

– وماذا عن المراسلات البريدية؟

– لا أدري عنها شيئًا. لم أر أي مراسلات بريدية له بعد.

أنظر إليه وجبيني متجعد من القلق المتزايد.

– أليس ذلك غريبًا؟ فنحن لم نعش معًا قبل أن ننتقل إلى هنا، لقد كان يسكن في شقة في لندن وبالتأكيد تلقَّى مراسلاته البريدية على عنوانه هناك. إنما منذ انتقالنا إلى هذا المنزل، وبعد مضي شهر علينا، لماذا لم يتلقَ أي شيء في البريد هنا؟

– لو أنني مكانكِ، لجاء في فكري تساؤلك نفسه.

أرفع قدحي إلى شفتي، في محاولة لإزاحة هذه السحابة السوداوية من الذعر التي تشوش ذهني. لكن ترتجف يدي بشدة حتى انسكبت القهوة.

أردف، والدمع يندفع من مقلتي على نحو مروع: «إنني آسفة».

يمد يده ويحمل القدح من يدي، ثم يتجه صوب الحوض ويأتي بقطعة قماشية.

يسألني، وهو ينظف هذه الفوضى: «هل أحضر لكِ قدحًا آخر من القهوة أم تفضلين أن تشربي بعض الماء؟».

– أحتاج إلى بعض الماء، من فضلك.

يعود إلى حيث الحوض ثانية، وأسمع الماء ينهمر من الصنبور، يليه صوت الخزانة يُفتح بابها ويُغلق، كما لو يبحث عن كوب زجاجي. تمنحني تحركاته المتأنية بعض الوقت لتمالك نفسي.

يجلب لي كأس الماء، وأتناولها منه.

– أشكرك.

تحتك أيدينا، فأسرع بإبعاد يدي متحيرة من تلك القشعريرة التي سرت في عروقي عند ملامسة بشرته.

يجلس مكانه.

– أتحتاجين إلى أن أساعدكِ في شيء؟

آخذ نفسًا مهترئًا.

– أعتقد أن ليو سبق له معرفة نينا.

لم يبد عليه أي قدر من التفاجؤ، بل ينظر إليَّ باهتمام، فخطر في ذهني أنه ربما عرف طوال هذه المدة، أن هنالك علاقة جمعت ليو ونينا. من المحتمل أن هذا ما دفعه للمجيء إلى المنزل ليلة حفل المشروبات، ربما أراد أن يرى عن قرب، ذلك الرجل الذي يعتقد أن له يدًا في مقتل نينا. ألهذا السبب تتكرر زيارته لي، على أمل أن يزل لساني بأمر عنه؟ يتسارع خفقان قلبي لإحساسي بذلك الهلاك القادم في إثري، مما يزيد من دوار رأسي.

يسألني: «ما الذي يجعلكِ تعتقدين ذلك؟».

تخفف نبرة صوته الهادئة الرَّصينة من حدة ذعري قليلًا. وأخبره عن المرأة الشقراء التي جاءت إلى ليو في هارلستون.

يقول: «أتظنين أنها كانت نينا؟».

– لست متأكدة مما أظن. أعني أنني لم أر وجهها؛ لم ألحظ سوى شعرها الأشقر.

– هل سألتِ ليو عنها؟

– نعم. في البداية أخبرني أنها إحدى عملائه الذين يتعرض لمضايقتهم...

– أيعمل بالمحاماة؟

– لا، إنه يعمل مستشارًا متخصصًا في تقييم المخاطر.

يرفع أحد حاجبيه الداكنين.

– ويعاني مضايقات من عملائه؟!

– هذا ما أخبرني به، لكن بعد ذلك قال إنها تعمل بالصحافة وأرادت أن تجري معه مقابلة صحفية.

– أتتذكرين متى حدث ذلك بالضبط؟

– بعد تعرفنا إلى بعضنا بفترة قصيرة، تقريبًا في أواخر يناير أو أوائل فبراير من العام الماضي...

أتوقف بغتة عند تذكري أن نينا قُتلت في نهاية شهر فبراير.

يومئ برأسه، وبات يتحدث بأسلوب المحققين: «في أي منطقة يعمل ليو؟».

– في منطقة ميدلاندز. لكنه كان يعمل في لندن قبل ذلك.

– هل لديكِ معرفة ما إذا تَردَّد على معالج نفسي؟

– لا أظن ذلك. لم أكن أقابله إلا في العطلات الأسبوعية، وفي بقية الأيام لم يبرح شقته، لكن ربما تردد على أحدٍ خلال تلك الفترة.

يدقق النظر إليَّ، وألمح في نظرته القلقة ما يحملني على الخوف. رغمًا عني، أجدني خائفة على ليو، خائفة على نفسي، حتى تكاد دموعي تنهمر من جديد.

يقول: «يظل من المحتمل أن هذه المرأة الشقراء لم تكن سوى صَحفية».

– أعي ذلك، بل إنني متأكدة أنها كانت صَحفية. جل ما في الأمر، أن ليو عرف بجريمة قتل نينا قبل شرائه للمنزل، إنما آثر ألا يخبرني بشيء.

هذه المرة لم ينجح في إخفاء تفاجئه.

– لا بد أن الخبر...

أكمل جملته: «صدمني بشدة».

– وهل قال لكِ سبب إخفائه للأمر عنك؟

– قال إنني لو عرفت بأمر الجريمة لما وافقت على المجيء إلى هنا، وهو يرغب في العيش في هذا المنزل.

– لماذا هذا المنزل دون غيره؟

– لعدة أسباب بديهية، فثمنه أرخص من منازل أخرى ذهبنا لرؤيتها، ولذا أخذ على عاتقه أن يشتري المنزل وحده نظرًا لأنني لم أرغب في بيع منزلي في إيست ساسكس. كما صرَّح لي أنه أراد هذا المنزل بعينه لأنه يقع داخل ضاحية مُسوَّرة، ولم يصرِّح بذلك إلا في المرة التي أخبرني فيها أنه يتعرض لمضايقات من عملائه، وهو الأمر الذي لم يسبق أن سمعته منه.

أرفع نظري إليه، وأستطرد: «لقد سألته عما إذا ربطته علاقة مع نينا. وقال إنه لم يعرفها قط، وصدَّقته. إنما كان ذلك قبل أن أعثر على جواز سفره».

– هل تودين مني أن أتحقق من أمر ليو كارتر، وأفضي إليكِ بما سأجد؟

لعله يرى الذعر مطلًّا من عينيَّ؛ فعلى الرغم من أنني أريد معرفة الحقيقة، أن يتكفل محقق خاص بأمر النظر في خلفية الرجل الذي تمنيتُ أن أمضي بقية حياتي معه، تُعد خطوة بالغة الخطورة.

يستدرك قوله سريعًا: «لا أقصد بصفتي محققًا خاصًّا، بل بصفتي صديقًا. هنا وفي هذه اللحظة، يمكنني أن أبحث عنه في محرك جوجل، وأرى إذا ما سيظهر شيء عنه».

أقول: «حسنًا، هلَّا فعلت من فضلك؟».

يخرِج هاتفه المحمول، ويردف مطَمئنًا: «يظل هنالك احتمال ألا نجد شيئًا أبدًا».

– وماذا نفعل إذا لم نجد شيئًا؟

يبتسم كي يخفف من توتري.

– حينها سيتوجب عليكِ أن تتحدثي إليه. عساه لم يعجبه لقب عائلته وعمل على تغييره.

أراقبه وبالكاد أجرؤ على الإتيان بنفس، فيما ينقر على شاشة هاتفه. وعلى وجهه أثبِّت أنظاري وليس على أصابعه التي تكتب على الشاشة، في ترقبٍ لأي علامة على أنه توصَّل إلى شيء. باتت تعابير وجهه جامدة، تنم عن احترافيته. ألاحظ أن أصابعه تتحرك لأسفل عبر صفحة البحث، ثم تتوقف. يمسك جواز السفر بيد واحدة ويفتحه على صورة ليو. تتنقل عيناه ما بين الشاشة والصورة، ليعود مركِّزًا على شاشة هاتفه ويبقى هكذا لبضع لحظات، يقرأ شيئًا.

أخشى أن أسأله، إنما لا مفر: «أتوصلتَ إلى أمر ما؟».

يرفع نظره إليَّ، ثم يقول بهدوء وهو يناولني هاتفه: «قد تفضلين أن تقرئي هذا بنفسك».

أتمعن في الشاشة وقلبي يخفق. أرى صورة مشابهة لتلك الموجودة داخل جواز سفر ليو، مرفَقة بخبر صحفي عن ليو كارتر الذي أُحيل للسجن في عام 2005 ليقضي عقوبة عامين، بتهمة النصب والاحتيال.

تتباطأ نبضات قلبي حتى تكاد تخبو دقاته، وتتزامن مع الإيقاع الرتيب المتردد في ذهني. أسُجن ليو؟ إنه أمر أبعد مما تصورت وبتُّ فاقدة للتركيز على سطور المقال، التي تذكر أنه عَمِل مسؤولًا للالتزام لدى شركة متخصصة في إدارة الأصول. ويتفشى الهلع في جوفي.

أتمتم: «لا أستوعب».

يتنحنح: «مع الأسف، كثيرًا ما تصادفني في مجال عملي حالات تغيير للهوية من أجل إخفاء تاريخ إجرامي».

يسكت هنيهة، ويضيف: «ألم يطلعكِ ليو على شيء من ماضيه؟».

– نعم.

– إذن، فأنتِ بحاجة إلى التحدث معه.

أومئ برأسي، مردفة: «أعرف».

ينهض على قدميه.

– ينبغي أن أغادر الآن. لا داعي لتنهضي من فضلك، أعرف طريق الخروج.

يخطو نحو الباب، لكن يتمهل، قائلًا: «إذا احتجتِ إلى أي شيء، مهما يكن ذلك، ما يزال بإمكانكِ الاتصال بي».

الفصل الحادي والثلاثون

يحيطني الصمت من كل جانب ويغطيني كالدثار، فيما أجلس مكاني دون حراك، أحاول السيطرة على مشاعري المتضاربة التي تهاجمني بلا هوادة، شعور تلو آخر، من إنكار وذهول إلى خوف وغضب. وبالنهاية، لم يدفعني سوى إحساسي بالبرد حتى أتحرك إلى غرفة مكتبي لأرتدي كنزة ثقيلة. لا أجد أي كنزة في الغرفة، فأتَلَفَّف بردائي المنزلي وأربطه بإحكام حول جسدي.

لم أهاتف ليو، لم أقدر أن أحمل نفسي على ذلك. دومًا ما يتكرر أن يكون هنالك موضوع لا أرغب في أن أناقشه معه عبر الهاتف، كما أنه سيبقى في برمنجهام حتى مساء الغد. إنني بحاجة إلى التحدث إلى أحد. في حال آخر، قد أتصل بجيني لأنها الأقرب إلى سكني، وبوسعها أن تأتي إلى هنا في وقت قصير. لكن علاقتها وثيقة بليو، فأتصل بديبي.

تقول، مدهوشة مما أخبرتها به: «أشعر بالأسف من أجلكِ، يا أليس. وفوق ذلك أخفى عنكِ أمر جريمة القتل، لا بد وأنكِ في صدمة شديدة».

أمسح دموعي التي أخفقت في كبحها، قائلة: «إنني مصدومة حقًّا. أشعر أنني ضائعة، لقد أخبرته بكل ما خصَّ حياتي، أخبرته بكل شيء. لم أخفِ عنه شيئًا، وأخلَصت في كل ما قلت. إن الوضع بات لا يُحتمل».

– أفهمك. ما رأيكِ أن تأتي وتقضي بضعة أيام في هارلستون، ريثما يصفو ذهنكِ قليلًا؟

– أودُّ المجيء لكن أحتاج إلى التحدث مع ليو قبل أي شيء. لن يعود إلى لندن إلا غدًا مساءً. نويت أن أطلب منه المكوث في منزل جيني ومارك مثلما فعل الأسبوع الفائت، إنما سأدعه يأتي إلى المنزل، على الرغم من أنه قد يعتقد أنني سامحته على عدم إخباري مسبقًا بمقتل نينا.

– أتودين أن آتي إليك؟

– هذه لفتة محببة منكِ، لكنني بحاجة إلى التحدث إليه على انفراد.

– طمئنيني كيف ستسير الأمور، وإذا ما احتجتِ إلى مساعدة، هاتفيني وسآتي من فوري.

– أشكركِ، يا ديبي.

يستغرق الأمر مني بعض الوقت حتى أهاتف ليو.

– أليس؟

أسمع في صوته ذلك الأمل مجددًا، أنني أتصل به ليعود إلى المنزل.

– ألديك عمل يوم الجمعة في لندن؟

– نعم.

– إذن، يمكنك المجيء إلى المنزل في مساء الغد.

– أحقًا؟ هذا خبر رائع. هل ترغبين في تناول العشاء في الخارج؟

- لا، لا داعي لذلك. أراك في الغد.
- كيفما تشائين. أشكركِ، يا أليس.

***

تواجهني صعوبة جمَّة صبيحة اليوم التالي، للتركيز على ترجمة الرواية التي من المفترض أنني أعمل عليها. وتتشنج معدتي عند تصور ليو عائدًا إلى المنزل هذا المساء. يبعث برسالة نصية لينبئني بوصوله إلى محطة يوستن، ويتملكني ذعر مباغت، لا أدري كيف ستكون ردَّة فعله عندما أخبره أنني اكتشفت هويته الحقيقية. لا أظنه قد يؤذيني، إنما لا يمكن التأكد مما هو قادر على فعله، في ضوء كل ما قد استطاع فعله فيما مضى.

أقرِّب وجهي من زجاج النافذة، وأهاتف جيني. لم أخطُ خطوة للخارج طيلة النهار. في الساحة، تَجلِد ريح شديدة الأوراق اليابسة فتحوم في دوامة مسعورة، وتحت شجرة قريبة، يمدُّ صبي صغير ذراعيه لأعلى في محاولة للإمساك بالأوراق، فتتساقط على الأرض من حوله مثل قصاصات ورق ملونة كبيرة الحجم، والمشهد بأكمله يصوِّره والده على هاتفه. أنتبه إلى أن الوالد ليس سوى تيم، وهذا الطفل هو ابنه الأصغر.

تجيب جيني في نبرة مرحة: «مرحبًا يا أليس. كيف حالك؟».

أقول وعيناي ما زالتا مثبتتين على الصبي الصغير: «إنني بانتظار وصول ليو إلى المنزل في أي لحظة».

- أعرف ذلك، لقد أخبرني أنكِ سمحتِ له بالعودة.
- من أجل أن نتحدث فقط.
- يا إلهي!
- لم أرد أن أطلب منكِ ذلك، ألديكِ مانع في أن تأتي إلى منزلي؟ قد أحتاج إلى بعض الدعم.
- هل أمورك بخير؟

ألتفت بعيدًا عن النافذة.

- لا، ليست بخير إلى حد كبير، لكن سأوضح لكِ كل شيء عندما تأتين. أيمكنكِ التحرك من منزلكِ الآن من فضلك؟ سيتيح ذلك لي بعض الوقت للتحدث مع ليو على انفراد ريثما تصلين.

تردف بحزن: «آمل ألا تصل الأمور بينكما إلى ما أخشاه، إنني أحبكما كليكما».

أودُّ لو أقول لها إن الحال قد يؤول إلى أسوأ مما قد تتصور.

***

على الرغم من أنني أترقب مجيئه، يفزعني صوت مفتاحه في القفل. ومن ثم تتردد الأصوات المعتادة التي تعلن عن حضوره في البهو: حفيف معطفه الشمعي المبطن منزلقًا عن كتفيه، يليه صلصلة العملات فيما يلقي معطفه على قائم الدَّرج.

- أليس، أين أنت؟
- أنا هنا.

يدلف إلى المطبخ، مرتديًا كنزة صوفية لم أرها من قبل. كما قصّ شعره وذقنه الذي كان خفيفًا منذ خمسة أيام وبات كثيفًا، أقرب إلى اللحية. مما يضفي عليه مظهر شخص أصغر سنًّا، شخص غريب عني.

يسأل: «كيف حالك؟».

– لست بأفضل حال.

أجلس إلى طاولة المطبخ، حيثما جلست تمامًا في الليلة التي واجهته فيها بأمر جريمة القتل. وفي حِجْري يقبع جواز سفره بعيدًا عن ناظريه.

يعلو صريرٌ فيما يسحب المقعد المقابل لي ليجلس عليه.

– هل حدث خطب ما؟

تتزاحم الأسئلة في ذهني، هنالك الكثير والكثير منها وأريده أن يجيب عنها جميعها.

– أهنالك أمر تريد أن تصارحني به؟

أوجه له هذا السؤال لأنني أرغب أن يخبرني بنفسه، وحينها قد يظل أمام علاقتنا فرصة حتى تكمل مسارها.

– أتعنين أمرًا آخر بالإضافة إلى أسفي أنني لم أخبركِ بشأن جريمة القتل مسبقًا؟

– نعم، أمر آخر بالإضافة إلى ذلك.

يحكُّ ذقنه بيده.

– لا، لا يخطر في بالي شيء آخر. أقصد، أنني أريد أن أعرف إلى متى ستظلين مستاءة مني، لأنه لا يمكن أن يستمر الحال بيننا على هذا النحو.

يميل إلى الأمام وعيناه تستعطفانني، فيما يضيف: «إنني أحبكِ، يا أليس. ألا نستطيع أن نترك كل ما صار وراءنا؟ لقد أخطأت، إنني متأسف. ألا يكفي ذلك لينتهي هذا الخلاف؟».

– سألقي عليك سؤالًا آخر، وهذه المرة لا أريد أن أسمع منك سوى الحقيقة. هل لديك جواز سفر؟

يسند ظهره إلى المقعد، وتظهر حيرة زائفة على وجهه.

– تعلمين أنه ليس لدي جواز سفر. أخبرتكِ بذلك.

لا أقدر على النظر إليه، لا أصدق كيف يظل يضرب بعلاقتنا عرض الحائط.

– وماذا عن شهادة الميلاد، أحصلت على واحدة في حياتك؟

– نعم، بالطبع.

– أيمكنني رؤيتها؟

– لا أحتفظ بها هنا.

– أين هي إذن؟

– أحتفظ بها في خزانة، في البنك.

هنالك وقفة طفيفة سبقت ذكره للبنك، لكنني لاحظتها.

– في خزانة؟ لم أعرف قبلًا أنك تمتلك خزانة ودائع في البنك.

لا ينبس ببنت شفة، يحدق إليَّ بصمت فحسب.

أتابع أسئلتي: «ما رأيك لو تخبرني بكل شيء عنك بدءًا من هويتك؟».

– ماذا تعنين بذلك؟

يستمر تظاهره بأنه لا يدري عما أتحدث، أكثر مما يُحتمل. لقد سئمت أكاذيبه. أمسك جواز سفره الذي في حِجْري وأضعه أمامه على الطاولة.

– عثرتُ على هذا في خزانة ملفاتك.

تتبدَّل ملامح وجهه فجأة. تدور عيناه في أرجاء المطبخ، كما لو يبحث عن زاوية للاختباء، مدركًا أنني أجلس إزاءه، ولا مفر من مواجهتي، فتعود إليَّ أنظاره، التي يبعث الذعر الذي أراه فيها بموجات من الأدرينالين مندفعة في عروقي. وللحظة بشعة مرعبة، أتخيله سيقفز فوق الطاولة منقضًّا عليَّ.

يطبق صمت ثقيل فيما نحدق إلى بعضنا، وقلبي تتسارع خفقاته حتى أكاد أظنُّ أنه سيتوقف للأبد. أسمع الصنبور من خلفي يتسرب منه الماء قَطرةً قَطرةً في الحوض، أوجه تركيزي إليها وأحصي القطرات. وعند وصولي في العدِّ إلى عشرة، أبتلع ريقي بألم وأرغم لساني على النطق.

– هل اسمك الحقيقي هو ليو كارتر؟

إنه بادٍ في عينيه، ذلك اليقين أنه حُصِر ولا سبيل للإنكار. يضع مرفقيه على الطاولة ويدفن وجهه في كفيه.

– ليو.

لقد جعله هلعه غير واعٍ بما حوله. أرفع صوتي، وأناديه مجددًا: «ليو!».

يرفع رأسه، ووجهه المكلوم الباكي شديد الشحوب.

– لا بد أنكِ تكرهينني.

لا قدرة لي على مواجهته وهو متألم. أدفع مقعدي وأنهض متجهة صوب الحوض، لأحكم غلق الصنبور فيتوقف عن التنقيط.

أقول لانعكاسه في النافذة: «ما استطعت أن أكرهك أبدًا».

يمسح وجهه، ويقول: «أعرف أنه ما كان عليَّ أن أكذب عليكِ، لكنني لم أقدر أن أطلعكِ على الحقيقة، خشيت إن فعلت، ألا تتمسكي بعلاقتكِ معي».

ألتفت تجاهه.

– وما هي هذه الحقيقة؟

يتنهد بعمق.

– عندما كنت شابًّا يافعًا ساذجًا، عملت لدى شركة إدارة أصول. تركتُ نفسي أنساق وراء جماعة من الناس انغمست معهم، ونتيجة ذلك قضيت عدة أشهر في السجن بتهمة النصب والاحتيال.

– لكم شهر بالضبط؟

– أربعة أشهر أو خمسة.

أسلِّط أنظاري على وجهه، فيعترف: «أو ربما أكثر قليلًا».

– لقد دققتُ البحث عنك، يا ليو. دققتُ البحث عن ليو كارتر. ووجدت أنك قضيت عامين في السجن.

يهز رأسه، ولا أنطقُ بكلمة.

– لا، أُطلق سراحي مبكرًا لحسن سلوكي. لكنكِ محقة، لقد قضيت ما يزيد على عدة أشهر، نحو أكثر من عام، لست متأكدًا...

أسير نحو الطاولة، مغتاظة أنه لم يستوعب الأمر بعد.

– لا تهم الفترة التي قضيتها في السجن، سواء أكانت لشهرين أو لعامين. ما يهم هو أنك ما تزال تكذب عليَّ.

إن الإحباط البادي على وجهه يصعب البتُّ في صحته.

– سأطلعكِ على كل شيء، أعدك بذلك. إن تلك المرأة التي جاءتني في هارلستون هي صَحفية، لم أكذب عليك. أرادت أن تكتب مقالًا عن المفارقة الساخرة أن يتولى شخص مُدان بالاحتيال، مهمة تقديم نصائح لعملائه في مسائل تتعلق بإدارة المخاطر. وظلَّت تلحُّ في طلبها، وفي كل مرة أرفض، لأنني لم أرغب في أن تعرفي ما اقترفته في الماضي.

تتساقط الدموع من عينيه مجددًا، مستطردًا: «ألا ترين ما فعلتُ، يا أليس؟ لقد حوَّلتُ كل ما اقترفتُه من أمور سيئة إلى أخرى جيدة. إنني أصلح من نفسي كليًّا».

أقول: «لا خلاف أن هذا رائع، يا ليو، إنما لا شيء من ذلك قد يغير حقيقة أنك من داخلك، لا تقول الصدق».

أمسك نفسي للحظة، أجاهد حتى أعثر على الكلمات التي قد تجعله يفهم، كيف أن ما يخفيه يُعد خيانة عظمى.

أتابع: «ما لا يمكنني فهمه هو ما منعك أن تطلعني على الحقيقة، في حين أنني أطلعتك على حياتي الماضية كلها، أخبرتك بكل شيء».

– لكنني سُجنت!

– بالضبط، لقد نلت عقابك على ما اقترفته يداك.

ألتفت على هدير سيارة تتوقف في الخارج.

يسألني: «إلى أين تذهبين؟».

– لأفتح الباب، فقد جاءت جيني.

– جيني؟

– نعم، طلبت منها المجيء.

– لكننا لم ننهِ حديثنا بعد.

– ليس هنالك شيء لنتحدث بشأنه.

– لا تقولي ذلك من فضلك، يا أليس!

– آسفة، يا ليو. انتهى ما بيننا.

أتجه صوب الباب لأفتحه، تاركة ليو خلفي، ونشيجه يصاحبني. أمقت نفسي أنه لم يعد بمقدوري مواساته.

تسأل جيني بقلق، وهي تخطو إلى البهو: «هل ما يزال ليو في المنزل؟».

– نعم.

– ماذا جرى؟

أقول، فيما أبحث عن معطفي: «سأدعه يخبركِ بنفسه. هذه قصة حياته ولا دخل لي بها».

أعانقها وأقول أخيرًا: «سأتصل بكِ لاحقًا».

أهوي على مقعد في الساحة، وأدع هذه الريح القاسية تجلدني حتى تُسقِط الدموع من عيني.

الفصل الثاني والثلاثون

تهاتفني جيني.

تسأل: «أين أنت؟».

– إنني جالسة في الساحة.

– سآتي إليك.

تقول عندما تصل بعد دقائق قليلة، مصدومة كما ما زلت أشعر: «لا أصدق ذلك. لا يمكنني أن أصدق أن ليو قضى عقوبة في السجن».

أدس يديَّ بعمق في جيبَي معطفي، ولا أدرك حتى حينها أنني أشعر ببرد شديد.

– لهذا السبب لم يحصل على جواز سفر قط. ولا بد أنه عمل على تغيير لقبه بصورة رسمية، لأنه ابتاع هذا المنزل باسم ليو كيرتس.

– يؤسفني هذا، يا أليس. إنه لأمر مروع بالنسبة إليك.

– وماذا عن حاله؟

– إنه محبَط ومحطَّم.

– لماذا ينتابني إحساس بالذنب تجاهه؟

– لأنكِ لا تزالين تهتمين بشأنه.

– ربما، إنما لا يمكنني مسامحته.

– هل بسبب الجريمة التي أُدين بها؟ إن الاحتيال جريمة مريعة، لكنكِ تعتبرين الأمر كما لو أنه قتل أحدًا.

– لديكِ حق، فهو لم يقتل أحدًا. إنما ليس هذا هو السبب.

– إذن، أيرجع السبب إلى أنه قضى مدة في السجن؟

أومئ بهدوء. ليتني أستطيع أن أوضح لها لماذا يهمني هذا الأمر بشدة، لكن لا أقدر.

تسألني: «ماذا ستفعلين؟».

– أرى أنني يجب أن أعود إلى هارلستون. سأطلب من ديبي أن تسمح لي بالمكوث معها ريثما أتدبر أمر إنهاء عقد مستأجري منزلي الريفي. لستة أسابيع يا جيني، بالكاد استطعنا، أنا وليو، الصمود لستة أسابيع معًا.

تترقرق عيناي بالدمع، وتحيطني بذراعها.

– لِم لا تأتين للمكوث معنا للفترة التي تحتاجين إليها؟

– هذا لطف منك، غير أنني أريد أن أطلب من ليو أن يسمح لي بالبقاء في المنزل لبضعة أسابيع أخرى.

– لكن... ألن يحتاج إلى المبيت في المنزل، وبخاصة أنه سيعمل في لندن بداية من الأسبوع القادم؟

– لماذا؟ هل انتهى عقد عمله في برمنجهام؟

– نعم.

أقول في وهن: «يا إلهي! أتظنين أنه قد يرضى بالمبيت في منزلكما لفترة؟».

– بلا شك. إنما لِم تريدين البقاء في المنزل لأسابيع إضافية؟ لا يحتاج حزم أغراضك إلى مدة طويلة، أليس كذلك؟

– بلى، لكنني بحاجة إلى بعض الوقت كي أقرر ما الذي سأفعله.

– ألا تستطيعين فعل ذلك في منزلنا؟ تعرفين أنه يمكنكِ المكوث للمدة التي تشائين.

أهزُّ رأسي.

– أريد أن أمكث في المجاورة خلال هذه الفترة.

تنظر إليَّ في فضول.

– هل لقرارِكِ هذا علاقة بجريمة القتل؟

– ماذا تقصدين؟

– لقد ذكر ليو أنكِ صرت مهووسة بالجريمة بعض الشيء.

يضايقني أنني مضطرة إلى الكذب على جيني.

– لا، ليس للأمر أي علاقة بجريمة القتل. أحتاج إلى بعض الوقت فقط حتى أودِّع الجميع هنا على نحو لائق. كما لا أعتقد أن طلبي في أن أبيت في المنزل لأسابيع قليلة، أمر غير مقبول، لا سيما بعد كل ما فعله بي.

تعلِّق ذراعها بذراعي، وتقول: «أنتِ محقة. هيا بنا، لنعد إلى الداخل. إنك ترتجفين من البرد».

نترك الساحة ونعبر الطريق إلى المنزل.

أسأل جيني: «هل تعتقدين أن ليو سيبقى في «ذا سيركل»؟».

– أرى أنه يعتزم ذلك.

من منظور آخر، لا يبدو ما يريده عدلًا.

تودِّعني عند باب المنزل في عناق.

– إذا احتجتِ إلى أي شيء، تأكدي أنني سأكون في جوارك.

في المطبخ، ينتظرني ليو مستندًا إلى المنضدة، فأقترب لأستند إلى حافة الحوض، وبذلك أستعد لمواجهته.

يقول: «ليت هنالك كلمة تفوق الأسف، إنما لا توجد كلمة أخرى».

أقول: «إنني آسفة كذلك».

– لماذا تتأسفين؟

– أن علاقتنا لم تصمد.

يومئ برأسه.

– لا بأس. دومًا ما علمتُ أن ذلك قد يحدث بمجرد أن تكتشفي الحقيقة.

أشدُّ قامتي، وأقول مستاءة أنه لم يستوعب بعد: «لما آل بنا الحال إلى ذلك لو كنت صريحًا معي منذ البداية! لو أخبرتني عن عقوبة السجن منذ التقينا، لصار كل شيء بيننا بنهج مختلف».

يبتسم ابتسامة ساخرة.

– إنها مخاطرة لم أستعد لها. لم يكن بمقدوري أن أتحمل مسؤولية أخطائي، ودومًا ما لجأت إلى الكذب كطريقة للهروب من المعضلات. وهذا على حد ما قالته لي معالجتي النفسية.

– أذهبت لمعالجة نفسية؟

– نعم، لكنني توقفت منذ مدة. اختارها والداي من أجلي بعدما أُطلق سراحي من السجن.

هنالك أمر متضارب هنا.

– ألم تقطع علاقتك بوالديك كما قلت لي؟

يزفر بعمق.

– كيف كنت سأعرِّفكِ إليهما في حين أنني أستخدم اسمًا مغايرًا؟ بالتأكيد قد تكشفين ببساطة أنهما ينتميان إلى عائلة كارتر، وليس إلى كيرتس.

لا أدري سببًا لشعوري بالصدمة رغم توقعي كذبه.

– لا تقل لي. إنهما والدان محبان، وإنك نشأت في أجواء لطيفة للغاية.

يطرق رأسه.

– شيء من هذا القبيل.

– وبالطبع، ليس لديهما علم بأمري حتى اللحظة.

– أعتذر منك.

أوجه إليه نظرة اشمئزاز.

– إنه لأمر شديد السوء أن تتحدث كذبًا عن نفسك. إنما أن تكذب بشأن غيرك كذلك... ينبغي أن تعاود علاجك النفسي، يا ليو، إنك ما زلت بحاجة إلى مساعدة من مختص. هل تعتزم البقاء هنا في «ذا سيركل»؟

يخرِج كأسًا من الخزانة فيما أبتعد عن الحوض حتى يستخدم الصنبور. ثم يقول وظهره لي: «نعم. لقد أخبرتكِ من قبل. إنني أحب هذا المنزل رغم ماضيه».

– أتساءل... أعلم بالطبع أنه منزلك، إنما أتسمح لي بالمبيت فيه لبضعة أسابيع؟ إنني بحاجة إلى بعض الوقت حتى أتهيأ لفكرة العودة إلى هارلستون.

يرتشف من الكأس المملوءة بالماء، قبل أن يستدير ليواجهني.

– ظننتُ أنكِ ستبتهجين للعودة إلى هارلستون.

– لا، ليس كثيرًا. وصدقًا، أشعر أن عودتي تُعَد إخفاقًا كبيرًا.

– سأبدأ عملي في لندن اعتبارًا من يوم الاثنين القادم، لكن لا تقلقي، لن أسبب لكِ إزعاجًا.

– أودُّ أن أحظى بأسبوعين بمفردي. تقول جيني إنه بإمكانك المكوث معها ومارك في منزلهما.

أحس بأنظاره تخترقني.

– لماذا تحتاجين إلى أسبوعين بمفردك؟

– لقد أخبرتك، أحتاج إلى أن أتأقلم مع فكرة أنني عائدة إلى هارلستون.

تصدر قعقعة وهو يضع كأسه في الحوض.

– هل للأمر علاقة بحل لغز جريمة قتل قد حُلَّ بالفعل؟

– لا أحاول أن أحل أي لغز هنا. إن الأمر كما أخبرتك سابقًا، لا أعتقد أن أوليفر هو مَنْ قتل نينا.

يسأل مذهولًا: «ما الذي يجعلك واثقة هكذا أنه لم يقتلها؟».

أتفكر في شيء لأقنعه به.

– قرأت مقالًا. وفيما يبدو، ما انفكت شقيقة أوليفر تصرح أنه برئ.

– حسنٌ، من دون شك لن تكفَّ عن القول بأن شقيقها بريء! أتريدين إقناعي أنه بسبب مقال قرأتِه في إحدى الصحف، تقررين أن تتضامني مع حملة تقودها امرأة بمفردها لتبرئة اسم أوليفر؟ يجدر بكِ أن تتركي الحال على ما هو عليه، يا أليس.

– أترى أنه من الجيد أن يُترك الجاني الحقيقي يفلت من العقاب؟

يرفع يديه لأعلى حانقًا.

– لن تصل بيننا هذه المجادلة إلى شيء. يمكنكِ أن تبقي لأسبوعين كما تشائين، وبعد ذلك سآتي لاسترداد منزلي.

أقول: «أشكرك».

لكنه غادر بالفعل.

الماضي

تصل متأخرة عن موعدها، ثانية.

ما إن تجلس، تقول: «كيف بات الحال اليوم؟».

أبتسم لها.

– أليس من المفترض أن أسألكِ هذا السؤال؟

– ألا يُسمح للمعالجين النفسيين بأخذ أيام راحة مثلهم مثل غيرهم؟

يسعدني في الواقع أنها في مزاج حسنٍ إلى حد إلقاء الدعابات. أيعني ذلك أنها ستطلعني أخيرًا على ما أترقب لسماعه منها منذ مدة طويلة؟

أجيبها: «نعم، لا أظنهم مثل غيرهم في ذلك».

تقهقه، فيما أقرِّب مني دفتر ملاحظاتي، وأقول: «هلَّا بدأنا؟ على مدار جلساتنا السابقة، دققنا النظر في أسباب عدم شعورِكِ بالسعادة. أخبرتني عن فترة طفولتكِ وسنوات مراهقتكِ، وخبراتكِ في الحياة العملية، وتوصلنا إلى خلاصة أن غالب ما مررتِ به في حياتكِ هي خبرات إيجابية. أرى أننا اليوم نحتاج إلى التركيز على المرة الأولى التي بدر فيها في خاطرك أنكِ لستِ سعيدة».

يظهر خطٌّ عابس رفيع فوق حاجبيها.

أستطرد: «إذا ما تذكرين، فقد تطرقنا في أثناء جلستنا الأخيرة إلى الحديث عن زواجكِ، واحتمالية أنه سبب عدم سعادتك».

– جل ما في الأمر أنني.. لم أعد أظنني كذلك.

– معذرة؟

– لم أعد أظن أنني غير سعيدة.

ألتفت إزاء النافذة، لأعطيها مهلة حتى تعلِّق عما صرَّحت به لتوها. عبر الشرائح المائلة للستائر، أرى زينة الاحتفال باهرة الإضاءة معلَّقة على طول الطريق الخارجي.

تتابع: «ما أعنيه هو، كيف لا أكون سعيدة. إنني متزوجة بأروع رجل رأيته، مستعدٌّ لفعل أي شيء من أجلي، ويمنحني كل ما أحتاج إليه. هذا ما جذبني إليه في لقائنا الأول، بالإضافة إلى أنني وجدته مختلفًا عن كل الرجال، في البلد الذي نشأت فيه. إنه رجل نبيل بحق».

تضحك في توتر، مضيفة: «أعلم أن وصفي له قد يبدو عتيق الطراز، لكنها الحقيقة».

أعيد انتباهي إليها بابتسامة.

– إن التعبيرات عتيقة الطراز لا تعيب في شيء.

– أعتقد أن ما يخالجني هو الشعور بالذنب، أشعر أنني مذنبة أنني أمتلك الكثير من الأمور الرائعة في حياتي. وهذا ما يسبب لي التعاسة، وليس زوجي «بيير»؛ إنني أحبه.

لبرهة تسكت، وتقول بعدها: «لدي تساؤل بشأن مقولة هنري ديفيد ثورو عن أن السعادة مُراوِغة».
– وما هو؟
– هل السعادة دومًا هكذا في رأيك؟
– أرى أن هذه مقولة تستحق بعض التأمل العميق.
– إذن ربما ينبغي لي أن أوجه انتباهي إلى أمور أخرى.
– هذا تفكير صائب.
توجه أنظارها إليَّ.
– الأمر الوحيد الذي يقلقني، أنني لا أعلم من أين أبدأ. أتمنى لو أنه لا ينتابني التوتر إزاء كل شيء.
أضع القلم على المنضدة، وأغلق دفتر ملاحظاتي.
– هل تتذكرين أننا خلال جلستنا الأولى، تحدثنا عن العلاج الاسترخائي؟
– نعم، أتذكر ذلك. يبدو أنه علاج مدهش.
أنهض من مجلسي.
– لِم لا نبدأ بجلسة في الحال؟

الفصل الثالث والثلاثون

في الصباح التالي، تتصل بي ديبي.

– كيف صارت الأحوال؟

لست مضطرة إلى التظاهر بغير ما أشعر مع ديبي.

– بائسة! لقد انتهت علاقتي بليو.

– إنني آسفة لسماع ذلك، يا أليس.

– أسوأ ما في الأمر، ألا أحد سيتفهم السبب الذي جعلني أتركه. فحتى جيني أشارت إلى أنني أعامله كما لو قتل أحدًا. سيظن الجميع أنني أنهيت علاقتنا لأنه قضى عقوبة في السجن، على الرغم من أن تلك هي الحقيقة. إنما ليس كيفما ينظرون إلى الأمر.

– هل استوعب ليو موقفك؟

– لست متأكدة من أنه استوعب شيئًا. فبعد كل ما قلته له، لا أعتقد أنه يتفهم موقفي، لكنكِ تتفهمين، ألستِ كذلك، يا ديبي؟ تعلمين السبب الذي يجعلني غير قادرة على أن أظلَّ معه.

تقول بلطف: «بلى، أتفهم. إنما إذا ما تريدين أن يتفهم الآخرون أيضًا، بوسعكِ إخبارهم. بوسعكِ أن توضحي لهم خلفية شعورك هذا».

يتهَدَّج صوتي، قائلة: «لا أقدر! أن يحسبوني قاسية القلب خير عندي من أن أخبرهم بشعوري صراحةً».

– هل قررتِ ما ستفعلينه؟

– قررت ما سأفعله على المدى القريب. سيسمح لي ليو أن أبقى في المنزل للأسبوعين القادمين، إنما على المدى البعيد، لا أدري ماذا سأفعل. هل ستسمحين لي أن أمكث برفقتكِ لفترة؟ لن أستطيع أن أسترد منزلي الريفي قبل شهر فبراير، لذا يجب أن أجد مكانًا بديلًا لأعيش فيه حتى حينها.

– لستِ بحاجة إلى الاستئذان، يمكنكِ أن تمكثي برفقتي للمدة التي تشائين. بالكاد سنحتك ببعضنا في منزلي، بوسعكِ الانفراد بأشيائكِ في غرفتَي نوم في الجانب الخلفي من المنزل، واتخذي إحداهما غرفة مكتب مؤقتًا. ولن أطلب منكِ في المقابل، غير أنَّ تأخذي جولة بصحبتي كل يوم، على ظهر «بوني». ما رأيك؟

تفيض عيناي بدموع مباغتة، وأتمتم: «غاية في الروعة».

تقول: «ستؤول أحوالكِ إلى الأفضل».

– آمل ذلك.

– ماذا تخططين لتفعلي اليوم؟

– لم أخطط لشيء. لا أدري من أين أبدأ، أشعر أنني ضائعة.

– إذن، لِم لا تأخذين اليوم إجازة؟ أَعْطِي لنفسكِ وقتًا للراحة. بالتأكيد هنالك الكثير مما يُمكن فعله في لندن. لن تُتاح لكِ فرصة أفضل وأنتِ ما زلتِ هناك، يجب أن تزوري أكبر قدر ممكن من المعالم السياحية.

أقول، وقد تحسنت حالتي: «هذه فكرة رائعة بحق».

تطول محادثتنا، حيث تقترح ديبي أن آخذ ما أحتاج إليه من المنزل فحسب، على أن أتفق مع ليو على إيداع ما يخصني من الأثاث لديه –مكتبي، ومنضدة الزينة التي كانت تملكها والدتي، ورف الكتب الخاص بشقيقتي، ووحدة الأدراج في غرفة النوم، ومقعد أبي– حتى يحين انتقالي إلى منزلي الريفي.

تقول: «وفي حال لم يوافق، بوسعكِ إيداعهم في إحدى حظائر الخيل الفارغة لدي».

– لا أشك في أنه قد يمانع. لا أرغب في أن تنتهي العلاقة بيننا إلى أحقاد متبادلة؛ ما زلتُ منشغلة بالاطمئنان عليه وعلى أحواله.

أتفكر للحظات، ثم أتابع: «أدرك أنني وعدته أن أغادر المنزل في غضون أسبوعين، إنما ماذا لو قررتُ أن أرحل قبل انقضاء هذه المدة، هل لا بأس بذلك؟».

بمرح تقول ديبي: «في رأيي أن تأتي إلى هنا في الغد على أقصى تقدير، بل حتى اليوم، لو أمكن».

– أشكركِ لاهتمامكِ بي، يا ديبي. ماذا كنت لأفعل من دونك؟

ننهي محادثتنا وأعتزم أن أفعل كما اقترحت عليَّ. أسجل قائمة بالأماكن التي أرغب في زيارتها قبل عودتي إلى هارلستون، وأبتدئ بمتحف «فيكتوريا وألبرت». يدفعني جلوسي في قطار الأنفاق محاطة بأناس يعتادون استخدامه في حياتهم اليومية، للتفكير فيما أدركته من قبل، وهو أن العيش في أجواء متكلفة مثل التي في مجاورة «ذا سيركل»، لا يتناسب إلا مع أناس مثلي، مِمَّنْ لا يحتاجون إلى مغادرتها بصفة يومية من أجل العمل. أما أولئك الذين يذهبون إلى العمل، فلا بد وأنهم يعودون إلى منازلهم في نهاية اليوم كما لو أنها برُّ سكينتهم وحظهم من الحياة، كما لو أنها واحتهم الهادئة وسط مدينة مكتظة صاخبة، تعج بالحركة.

أجبر نفسي ألا أفكر في أمر ليو، ألا أفكر في شيء أبدًا فيما عدا استمتاعي بقضاء وقت لطيف. في طريق عودتي إلى المنزل، ألتقي إيف مصادفة.

تناديني وتومئ باتجاه الحقائب العديدة التي أحملها: «مرحبًا يا أليس. ماذا كنتِ تفعلين؟».

– أخذت اليوم إجازة وذهبت إلى متحف فيكتوريا وألبرت، وكانت الجولة مذهلة. وبعد ذلك ألقيت نظرة على المحال التجارية في «ساوث كِنزِنْجتن»، واشتريت لنفسي بضعة أشياء، ثم جلست في مقهى أتأمل حركة الناس في الطريق.

– يا للروعة!

– سأزور معالم سياحية أخرى خلال هذه العطلة الأسبوعية، سأذهب إلى «تايت بريطانيا» (معرض الفنون الوطني) في الغد، وإذا أُتيح لي وقت إضافي سآخذ قاربًا نهريًّا حتى «تايت مودرن» (معرض الفن الحديث). لقد حجزت تذكرة لزيارة «قصر كِنزِنْجتن» يوم الأحد، ومن بعدها سأتجول في «هايد بارك».

– يوجد هناك ركن مدهش لتناول الشاي، في مطعم «أورانجِري». يجب أن تكافئي نفسك.

– يا لها من فكرة حسنة، ما رأيكِ أن تنضمي إليَّ؟ وستكون هذه مكافأتي لكِ لكونكِ جارة طيبة معي.

أعرض عليها أن ترافقني، لأنه لن يتسنى لي رؤيتها لفترة طويلة. إنما لا أريد إخبارها أنني سأغادر المجاورة، وإلا ستسألني عن السبب ولم أتفكر فيما سأقوله لها بعد.

تقول: «إنه لمن دواعي سروري، لا سيما وأن وِيل سينشغل بتجارب عرضه طوال عطلة الأسبوع».

– رائع! أيناسبك أن نلتقي في المطعم الساعة الثالثة بعد الظهيرة؟

– أعتقد أننا قد نحتاج إلى حجز طاولة مسبقًا. أتفضلين أن أتولى ذلك بنفسي؟

– نعم، من فضلك.

***

في مساء اليوم التالي، يهاتفني توماس.

– أتمنى أن اتصالي لا يتسبب في إزعاجكِ في يوم عطلتك؛ أودُّ أن أطمئن على أحوالكِ فحسب.

أقول متأثرة باتصاله: «إنني بخير، أشكرك لاهتمامك. لست بأتم خير في الحقيقة، فما زلت أجد صعوبة في تقبل أن ليو لم يعد الشخص الذي جعلني أظنه. أحاول أن أشغل تفكيري عنه، باستكشاف معالم لندن».

– هذه فكرة ممتازة. إلى أين ذهبت؟

أحدِّثه عن رحلتي إلى متحف فيكتوريا وألبرت، وإلى متحفَي الفنون الآخرين.

– وفي الغد، سأذهب لزيارة قصر كِنزِنْجتن وللتجول في هايد بارك. ماذا عنك؟ هل تستمتع بعطلة أسبوع لطيفة؟

– نعم، أقضي العطلة برفقة ابني. أتبادل مع طليقتي الاعتناء بابني «لوي» خلال العطلات الأسبوعية. لقد أخذته في جولة اليوم إلى استوديو «عالم هاري بوتر»، الذي استنفد طاقتي وبالكاد تأثرت طاقته.

أضحك، معلِّقة: «آمل أن تحظى بيوم هادئ في الغد».

– أتمنى ذلك، لكن في الغالب سينتهي بنا الحال نركل الكرة في الحديقة.

– يبدو أنه لا مفر من ذلك. في الواقع، يسرني أنك اتصلت بي لأنه هنالك أمرًا أريد سؤالك عنه. عندما فوجئت بك تطرق باب منزلي في ذلك اليوم، أجئت لتتأكد إذا ما تسلَّمتُ خطابًا من هيلين فقط؟ أعني، كان بوسعك أن تسألني عبر الهاتف.

– أنتِ محقة، كان يُفضَّل أن أتصل. لكن عندما تحدثنا في المرة السابقة، أنهيتِ المكالمة على نحو غير متوقَّع ولم أعرف ما إذا أسأتُ في قول شيء أزعجكِ، أم أن ما تحدثنا عنه هو الذي تسبب في استيائك. وظل الأمر يدور في بالي حتى أخبرتني هيلين أنها كتبت إليكِ، وبات لدي عذر لزيارتكِ والاطمئنان أن أحوالك على ما يرام.

– لم أستأ بسببك. لا أستطيع أن أتذكر عما تحدثنا بالضبط، إنما بالتأكيد لم أنزعج لشيء قلته.

– تحدثنا عن جارتكِ، وتساءلنا عما إذا يريد أحدهم ألا تواصلي توجيه الأسئلة عن نينا.

– بالفعل، هذا ما تحدثنا عنه.

أسكت للحظة متذكرة أنه خطر في ذهني حينها، أن تامسين ربما تسمَّعت إلى محادثتي مع لورنا في يوم زيارتي لها.

أقول: «ما زلت لا أفهم ما حدث. لا يمكنني أن أتصور أنها ارتابت أن يسمع إدوارد ما أرادت قوله لي، والشخص الآخر الذي اشتبهت أنه قد يفعل... على أي حال، بتُّ أستبعدها من تلك المسألة. إنما الأمر الذي تيقنت منه، أنه توجد أسرار هنا في المجاورة».

– إنني واثق أنه يوجد العديد منها.

نبهني التفكير في تامسين إلى أمر نسيتُ أن أسأل عنه توماس.

– لقد جاءت تامسين على ذكر شيء في إحدى جلساتنا. يتضح أنها عقب مقتل نينا، قصَّت شعرها وتساءلتْ عما إذا فعلتْ ذلك لا شعوريًّا، خشية أن يكون لدى القاتل ولعٌ بالشعر الطويل، ويعود ليجعلها ضحيته التالية. هل تعتقد أن هذا صحيح؟ أقصد أمر ولعه هذا.

– لربما الأمر على هذا النحو، وربما كان ذلك مجرد فعل رمزي. على مدار التاريخ، غالبًا ما نُظر إلى حلق رأس المرأة على أنه نوع من العقاب، للنساء اللائي يُعتقد بأنهن فاسقات، كأسلوب مَنْهجيٍّ لفضحهن. في فرنسا، خلال الحرب العالمية الثانية، لقي عدد كبير من النساء هذا المصير بسبب مرافقتهن لرجال من الألمان. اعتُبرن حينها خائنات لوطنهن.

– أيعني ذلك أن قاتل نينا رآها فاسقة لأنها رافقت أحدهم سرًّا، مما يشير بأصابع الاتهام حتمًا إلى أوليفر؟

– ويمكن أن يشير إلى شخص رغب في أن تربطه بها علاقة غرامية وتملكته الغيرة، أنها انغمست في علاقة مع غيره، أو إلى شخص يعتب عليها مرافقتها لأحد.

تمرُّ برهة صامتة، ليقول بعدها: «أرجو المعذرة، يا أليس. ينتظرني لوي حتى أقرأ له قصة قبل النوم. يجدر بي أن أنهي المكالمة».

– لا بأس.

أغلق الهاتف، وتخط شفتي ابتسامة فيما أتصوره يقرأ قصة لابنه، لوي. يا له من اسم جميل.

الفصل الرابع والثلاثون

ينهمر المطر في اليوم التالي، فلا يتسنى لي التنزه في هايد بارك، ولذا أتجه إلى المكتبة الوطنية البريطانية، حيث أتجول في أرجائها مبهورة بمدى ضخامتها. عند اقترابي من صف الأجهزة الحاسوبية، تأتي في ذهني المحادثة التي أجريتها مع توماس البارحة، وأكتب في محرك البحث «شهوة الشعر». بعد قراءة بضعة مقالات، يتولد في داخلي دافع أن أحدد البحث عن شهوة الشعر وعلاقتها بجرائم القتل. تظهر لي عدة روابط لمقالات متعددة نُشرت في صحف فرنسية، فألقي نظرة خاطفة عليها، لأتبين أن جميعها تذكر جريمة قتل بعينها، وقعت في باريس. إنني أتقن الفرنسية، وفيما أقرأ المقالة الأولى تهرب الدماء من عروقي؛ فالضحية التي تُدعى «ماريون كارتو» امرأة في الحادي والثلاثين من العمر، وقد حُلق شعرها ثم، قُتلت خنقًا.

أدقق النظر إلى صورة المرأة. إنها مثل نينا تمامًا، كان شعرها أشقر طويلًا. أتطلع إلى تاريخ مقتلها فأجده في الحادي عشر من ديسمبر عام 2017، أي قبل مقتل نينا بنحو عام وثلاثة أشهر.

خلال فترة قصيرة، انتهيت من الاطلاع على كل المقالات التي استطعت الوصول إليها. أودُّ لو أتعمق في بحثي أكثر، إنما ما إن أتحقق من الوقت، أدرك أنني تأخرت كثيرًا عن موعدي مع إيف، فأهرع إلى مطعم أورانجِري.

أعتذر منها، فيما أضع مظلتي المبللة بالمطر تحت الطاولة، وأعانقها على عجل: «أرجو أن تعذريني لتأخري. لقد ذهبت إلى المكتبة الوطنية وانجذبت بالتطلع إلى كمٍّ هائل من الإصدارات الأولى للكتب».

– عندما وجدت المطر يهطل بغزارة، ظننتكِ قد تعدلين خطتكِ لليوم.

أقول متأملة المكان من حولي: «يا له من مكان جميل. إنني مدهوشة أنكِ استطعتِ حجز طاولة بجانب النافذة».

– بالكاد فعلت شيئًا للحصول على أي طاولة هنا. اتضح أنه عليكِ الحجز قبل الموعد بفترة طويلة، ولولا أن أحدهم ألغى حجزه، لما حالفني الحظ.

نطلب الشاي، وبينما ننتظر أن يأتينا، تخبرني أنه جافاها النوم البارحة، وكادت أن تهاتفني للثرثرة معًا، عندما رأت ضوءًا آتيًا من منزلي.

أقول: «لقد رحتُ في سبات عميق الليلة الماضية. لكنني عانيت نومًا مضطربًا في بضع ليالٍ أخرى، حيث أستيقظ فجأة معتقدة أن أحدهم في الغرفة، على الرغم من معرفتي بأنني أتخيل ذلك».

لا أريد أن أتوقف عند هذا الحد، حتى لا أضطر إلى أن أفصح لها أنني أومن بوجود الأرواح، فأضيف: «ولهذا صرت أترك بئر السُّلم مضاء».

يتجهم وجهها، فأتابع القول مستشعرة بالذنب: «أعرف أنه لا يصح أن أهدر الكهرباء، إنما تشعِرني هذه الحيلة بالأمان».

تهزُّ رأسها.

– ليست مسألة إضاءة بئر السلم هي التي جعلتني أتجهم. الأمر أنه لبضع مرات في السابق، اعتقدتْ نينا أن أحدًا تسلل إلى منزلها، ودومًا ما شعرت بذلك خلال فترات غياب أوليفر، ومثلما ذكرتِ تمامًا، اعتادت أن تلقي باللوم على مخيلتها، على الرغم من أن ذلك أصابها بالذعر.

يخفق قلبي بجنون.

– متى بدأ ذلك الشعور لديها؟

– قبل وفاتها ببضعة أشهر.

– هل أخبرتِ الشرطة؟

– لا، لم أكن لأتذكر هذا الأمر بأية حال، لولا أنكِ وصفتِه كما قالته نينا بالضبط. وبما أن هذا الحال تكرر في غياب أوليفر جاء في خاطري مثلما ظنتْ، أنها صارت عُرضة للأوهام بسبب مكوثها في المنزل بمفردها. إنني أختبر هذا بنفسي، فإذا سافر وِيل لفترة، أصبح منتبهة لضوضاء المنزل أكثر مما ينبغي. أتوهم مثلًا أن أي صرير يصدر عن درج السلم يعني أن أحدهم يتحرك عليه.

أستند بظهري إلى المقعد لأفسح مجالًا للنادل، حتى يضع على الطاولة حامل الشطائر والفطائر والكعك، يليه إبريقان للشاي.

– كيف وصفت نينا الأمر؟

– أنها تستيقظ من نومها فجأة، معتقدة أن أحدًا في غرفتها، ثم يختفي شعورها كما جاء.

أحمل أحد الإبريقين وأملأ فنجانها، دون أن أشعِرها كيف أن ما قالته ترك أثرًا بالغًا. ما دامت نينا لاقت الأمر نفسه الذي ألاقيه، فعلى الأرجح حان الوقت لأتوقف عن إقناع نفسي، بأن روحها هي التي أستشعرها في أثناء نومي. ينبغي لي مواجهة الحقيقة المروعة أن هنالك شخصًا ما بالفعل يتسلل إلى المنزل ليلًا.

***

لا أطلِع إيف على أي مما أنوي فعله، وما إن أعود إلى المنزل أجلب حاسوبي المحمول، وأبحث في أحد الفنادق الأنيقة الصغيرة القريبة من المجاورة عن غرفة مفردة، وأحجزها لمدة أربع ليالٍ، ثم أصعد إلى الغرفة العلوية التي كنتُ وليو ننام فيها معًا، وأشرع في حشو حقيبة قماشية كبيرة ببعض الحاجيات الأساسية: منامات وملابس داخلية ومستحضرات الزينة. لم أحبذ أن أستسلم إنما لن أقدر على النوم في هذا المنزل، وبخاصة بعد محادثتي اليوم مع إيف. لو أن أحدهم ينسل إلى المنزل حقًّا، كيف يتمكن من ذلك؟ ولماذا يأتي مرارًا وتكرارًا دون كلل، مخاطرًا بنفسه أن يراه أحد؟ وكيف يتمكن من الخروج خفية دون أن يُكتشف أمره، دون أن يترك أي أثر وراءه؟ لا يُعقل سوى أن ذلك المتسلل أيًّا يكن لديه مفتاح، رغم علمي بألا أحد غيري وليو لديه نسخة من مفاتيح المنزل.

أفتح خزانة الملابس لأحضر بنطال جينز وبضعة قمصان قصيرة الأكمام، ومن ثم أزفر في استياء. لقد أُزيح بعض من أحذيتي إلى الجانب مرة أخرى، وبغتة تغمرني ذكريات عن نينا ولهونا بلعب الغميضة في منزلنا الريفي في هارلستون. رغم أماكن الاختباء العديدة التي لدينا، دومًا ما اختارت الاختباء في إحدى خِزانات الملابس دون غيرها، لعلمها أنني سأفزع في حال فتحتها وفوجئت بها تقفز نحوي. لجأتُ في كثير

من الأحيان لطلب المساعدة من والدي، فنمشي على أطراف أقدامنا حتى الخزانة التي أفترضُ أن نينا تختبئ داخلها، وما إن أفتح بابها، يصيح أبي في زئير وينقض على الملابس ينبشها كما النمر، مما يتسبب في إخافتها أضعاف ما عزمت أن تفعل بي. في أحيان أخرى، نفتح الخزانة الخطأ، وننفجر في نوبات من القهقهة.

أمسح الدمع الذي يسيل على وجهي كلما لاحت في بالي ذكريات سعيدة عن عائلتي. إنني أفتقد نينا، وأفتقد والديَّ، أفتقد كل الأمور التي لم يُقدَّر لنا أن نعيشها معًا. وعندئذ، وبينما أقف مكاني أمام الخزانة، يتجلى الأمر لي. إن شخصًا ما في لحظة سابقة ما، اختبأ داخل هذه الخزانة.

في ذهول أتهاوى على السرير، لا أحد غير ليو. إنه في ذلك اليوم الذي ظننت أنني رأيته في نافذة غرفة مكتبه، اشتممت رائحة مستحضره لما بعد الحلاقة في غرفة النوم. خُيل إليَّ حينها أنه مختبئ وراء باب الحمام، في حين أنه على ما يبدو كان متواريًا عن نظري داخل الخزانة. لقد أخبرني أنه لم يأت إلى المنزل، وأكدت لي جيني أنه اتصل بي من غرفة نومه في الطابق العلوي في منزلها. يستحيل أن تكذب عليَّ جيني، إذن لربما انسل خارجًا دون أن تنتبه، وقتما ذهب مارك للعب الجولف مع بِن. لماذا أخفى عني أنه جاء يومها؟ لا يمكنني أن أستوعب تصرفه. كيف لرجل ناضج أن يختبئ في خزانة ملابس؟! إنما، هل يلائمه حيزها؟ إن الخزانة بُعدها الداخلي عميق وتوجد مساحة معقولة بين بابها وعلَّاقة الثياب، لذلك لا يُستبعَد أن حيزها اتسع له بالفعل.

أنهض لأخطو إلى داخل الخزانة، ثم أستدير باتجاه غرفة النوم، وأوصد أبوابها. هنالك مجال يسعني، مجال يسع ليو إن استطاع أن يجد موطِئًا لقدميه. الأدهى من ذلك، أنه إذا دخل أحد إلى الغرفة في هذه اللحظة، سيتسنى لي رؤيته من خلال الألواح المفرَّغة في الأبواب، بينما لن يستطيع أن يلمحني.

أدفع الأبواب على مصراعيها، وأخطو إلى الغرفة ثانية مذعورة من تصور ليو مختبئًا داخل الخزانة. جل ما أريده هو أن أغادر غرفة النوم هذه، بل وهذا المنزل كله. أشِبُّ على أطراف أصابعي فيما أمدُّ ذراعي نحو كنزاتي الصوفية المطوية فوق بعضها على الرف الذي يعلو علَّاقة الثياب، والكنزة الزرقاء الكُحلية التي أريدها لتتماشى مع بنطالي الجينز، تقبع في قاعدة هذه الكومة. ولذا أدس يدي من تحتها حتى أيسِّر سحبها دون أن تتبعثر الكنزات، فتلمس أصابعي شيئًا ناعمًا مثل الفراء. أصرخ مرتعبة وأنزع يدي غريزيًّا، مقشعرة البدن عند تخيلي لما لمسته، لربما هو فأر ميت أو عنكبوت ضخم. أتريث حتى تستقر ضربات قلبي؛ من الأفضل أن أستعد لرفع كومة الكنزات كلها كي أمعن النظر في الشيء المُندسِّ تحتها، لا يمكنني إلقاؤهم دفعة واحدة فيسقط معهم ذلك الشيء على الأرض. ولأن الرف مرتفع، فإنني مضطرة إلى أن أجلب المقعد من ركنه الخاص في الغرفة، وأضعه إزاء الخزانة. أشدُّ من عزيمتي وأصعد على المقعد، وبحذر أرفع كومة الكنزات.

تندلع صرخة من حلقي تفقِدني توازني، لأنقلب من فوق ظهر المقعد، والكنزات قد طُوِّحت من يدي وأُطرح أرضًا. أنفاسي تنضب بفظاعة، وأجاهد لألتقطها متحققة من الضرر الذي أصابني. هنالك ألم نابض عند مرفقي وقدمي اليسرى وأشعر أن رأسي تأذَّت مؤخرته. أمكث مكاني للحظات، ثم أحمل نفسي على النهوض على قدمي بالاعتماد على المقعد المقلوب، حتى تعتدل قامتي متجاهلة الوخز المؤلم الذي يسري في ذراعي، والدموع تترقرق في عيني من الفزع. ليتني أصدق أن ما رأيته محض وهم ولم تكن تلك ضفيرة من شعر أشقر طويل، مخفية تحت كومة الكنزات، لكنني متأكدة أنني لم أتوهم شيئًا.

يسبح ذهني في دوامة من الاستنكار تعارضها حقائق أخرى، لتنتهي إلى خلاصة مروعة: يستحيل أنها تخص نينا، لا يمكن، لم تربطها بليو أي علاقة، لم يقتلها، لا يمكنه، لم يكن ليفعلها مطلقًا. لكنه رغب في شراء هذا المنزل، هذا المنزل دون غيره. مما لا يضع مجالًا للشك، أن هنالك علاقة ربطته بها وقتلها هنا في قلب هذا المنزل، حلق رأسها واتخذ بعض شعرها تذكارًا منها. وها قد عاد الجاني إلى موقع جريمته.

يفوق الألم الذي يضرب بدني، رعبي أن هذه الضفيرة من شعر نينا. أمسك هاتفي لأتصل بالشرطة، مدركة أن ما سأبلِغ عنه لا يُعقل. لربما جُننت، لعل مخيلتي تتلاعب بي، وما رأيته شيء آخر. أدنو من الخزانة وأوصالي ترتعد، وأمدُّ عنقي نحو الرف لأنظر. ما زالت هناك، تلك الخُصلة الكثيفة مقصوصة الطرف من شعر أشقر طويل، وقد رُبطت بإحكام من الأعلى والأسفل بشريط أحمر.

إنما لا يُعقل أن ليو قتل نينا. وفيما أعدد في ذهني الأسباب التي لا تجعل منه قاتلها الحقيقي، تظل أنظاري مسمَّرة على ضفيرة الشعر، ويحدِّثني عقلي أن هنالك أمرًا غير منطقي بخصوصها. أقترب أكثر منها لأدقق النظر، وتبدو مثالية للغاية ولامعة على نحو غير طبيعي. لا رغبة لدي في لمسها، لكنني بحاجة إلى التأكد، أمدُّ يدي نحوها وأمرر إصبعي عليها بحذر. عندها أتنفس الصعداء، إن خصلة الشعر هذه اصطناعية بالكامل.

أرتمي على السرير. ما الذي جعل ليو يدس ضفيرة مصطنعة في خزانة الملابس، مما قد يوحي لأي أحدٍ يراها أنها طبيعية، لا سيما وإن كان لدى هذا الرائي علم بالجريمة التي وقعت في قلب هذا المنزل؟ هل وضعها هنا عن قصد لإخافتي؟ هل رآني عندما أخذت المفتاح من محفظته في تلك الليلة وقرر أن يتلاعب بأعصابي انتقامًا مني؟

ألجم غضبي حتى يفتر. ما أزال منجذبة لفكرة الاتصال بالشرطة والإبلاغ بأنني اكتشفت ضفيرة من شعر نينا في خزانة ملابسي، بل وأشير إلى إلقاء القبض على رفيقي. لكن هذا يعني أن الشرطة ستأتي للتحقق وعندها سيُتضح أنها خصلة مزيفة. لربما يجب أن أتصل بليو نفسه وأتظاهر بأنني اتصلتُ بالشرطة حتى يصيبه بعض الذعر الذي أذاقني إياه. إنما قد يسخر من سذاجتي ويقول إنه لم يفعل ذلك إلا بغرض المزاح. لكم يروعني أنني ما زلت لا أعلم عنه سوى أقل القليل، لكم يروعني لأي مستوى قد ينحط حتى يصل إلى ما يريد. يستعر غيظي وأبعث له برسالة نصية: **ليكن في علمك، حيلة الشعر هذه مثيرة للاشمئزاز!**

يردُّ في لحظتها تقريبًا: **لم أفعلها لإثارة إعجابك.**

ألقُط كنزتي الكُحلية من الأرض وأترك بقية الكنزات على حالها؛ لا أريد غير الخروج من هذا المنزل بأقصى سرعة ممكنة. ما تزال ذراعي تؤلمني، فأتوجه إلى غرفة مكتبي وأخلع قميصي حتى أتفقد موضع الألم. لقد تورَّم ساعِدي، نتيجة اصطدامه بالمقعد بعنف في أثناء سقوطي، وستظهر كدمة كبيرة بلا شك على ساقي خلال اليومين القادمين. كما أشعر بكتلة منتفخة في مؤخرة رأسي.

لدى حاجتي إلى شرب الماء أتوجه إلى المطبخ. وعلى المنضدة ألمح خصلات من شعري، كما لو تنقصني هذه القشة الأخيرة لتزيد هذا اليوم الفوضوي سوءًا. آخذها حتى ألقيها في سلة المهملات، إنما أتسمر مكاني. ينجذب انتباهي في الضوء الأبيض للمصباح المثبت على الجانب السفلي من الرف، إلى أن الخصلات باهتة، تميل درجتها الشقراء للشحوب أكثر مما عليه درجة لون شعري. أسحب خصلة منفردة بحرص وألفها بين أصابعي. إنها مزيفة.

أحكم قبضتي عليها بينما أركض على الدرج عائدة إلى غرفة النوم، وأختطف الضفيرة من فوق الرف. يتأكد لي ما توقعته؛ إن خصلات الشعر التي وجدتها على المنضدة ما جاءت إلا من هذه الضفيرة.

كم يصعب عليَّ أن أستوعب هذا التطور المفاجئ في اللعبة التي يلعبها ليو عليَّ. لم أطلِعه يومًا على مسألة تساقط شعري عقب وفاة والديَّ وشقيقتي، ولذلك لن يتفهم مقدار ألمي عندما أعثر على خصلات من شعري متساقطة في كل ركن في المنزل. على الأرجح، دفعه لفعل ذلك أمر آخر، أكان من المفترض أن ينصرف ذهني إلى أن هذا شعر نينا؟ أهو مَنْ يتسلل إلى المنزل ليلًا، ويتجول في أرجائه تاركًا خصلات الشعر هذه حتى أفزع لرؤيتها؟ لكن لا، هذا مستبعد، لأنه هو الذي استشعر بتسلل أحدهم للمنزل في المرة الأولى، بعد حفل المشروبات ليلة الأحد، وليس أنا. ما لم يكن ادَّعى حينها أنه سمع أحدهم، حتى يمهد الطريق مقدمًا، لأن ألقي اللوم على متسلل مجهول في أي حركة مريبة سمعتها بالليل.

إنما ما الذي يدعوه لهذا التصرف؟ تخطر لي الإجابة على الفور. بما أنني اكتشفت جريمة قتل نينا، فإن لم أرد أن أبقى معه بسبب كذبه عليَّ، سأعاني الأمرَّين من القلق وسأخاف المبيت وحدي. وحينها سيتسنى له البقاء كيفما يشاء وأضطر أنا إلى المغادرة.

غير أن الأمور لم تسِر على هذا النهج. هو مَنْ اضطر إلى المغادرة، وبقيت وحدي في المنزل. ولذا، رفع من مستوى لعبته وتسلل إلى المنزل في الليل، على أمل أن أرتعب وأقرر الرحيل. أذكِّر نفسي أنه قضى معظم تلك الفترة في برمنجهام، بعيدًا عن لندن، مع أنني أشك أنه مكث هناك طوال تلك المدة. من المحتمَل أنه مكث هنا في أحد الفنادق وواظب على الذهاب إلى عمله في برمنجهام كل صباح، كما اعتاد أن يفعل من قبل. أحاول أن أقارن ما بين ليو الذي عرفته في الماضي، وذلك الشخص الذي ينسل إلى المنزل حيث تبيت رفيقته السابقة، متجولًا في أرجائه خفية كي يجعلها ترتعب وتغادر، لكن بَاءتْ مساعيه بالفشل. لقد صرتُ أهذي؛ إذا أرادني ليو أن أغادر، أمكنه أن يخبرني. ففي نهاية الأمر، هذا المنزل ملك له.

الفصل الخامس والثلاثون

الفندق جميل والغرفة مطلية ومؤُثثة بدرجات رمادية هادئة على نحو جذَّاب، ومزودة بحمام جدرانه من الرخام الرمادي وبه مناشف بيضاء ناعمة. ينشرح صدري ويخالجني شعور افتقدته لأسابيع، أنني بأمان.

حتى لا تقلق جيني وإيف بشأني، أرسل لهما رسالة نصية أبلغهما فيها أنني سأغيب عن المنزل لبضعة أيام، وسأعود يوم الخميس. أطلب من جيني ألا تدع ليو يعلم ذلك، وتعدني ألا تخبره بشيء. إذا علم ليو أنني لست في المنزل، قد ينتقل إليه من فوره.

أتقلَّب في السرير طيلة الليل، وفي الصباح يغالبني إحساس بفراغ شديد ورغبة في عدم فعل شيء سوى الاستغراق في سبات عميق حتى صباح الخميس. نويت أن أتابع عملي من الفندق، لكنني لا أريد أن أشغل بالي بأي أمر، لا بترجمتي ولا بعائلتي ولا بليو وأكاذيبه ولا حتى بمقتل نينا. لا أريد غير الاسترخاء في ظلمة الستائر المُسدلة، والانفصال عن كل شيء.

في اليومين التاليين، أنام بعمق، وأستمع إلى حلقات صوتية رقْمية، آخذ حمامًا طويلًا، أطلب طعامًا من خدمة الغرف، وأتحدث إلى الفتاة اللطيفة التي تحضره إليَّ، وأقول لها ببساطة إنني لست بحال جيد. دون أن أدري يروح ذهني إلى توماس، وأتذكر أنني لم أخبره عن جريمة القتل التي وقعت في فرنسا، فأهاتفه.

بعد أن أطلعته على مقتل ماريون كارتو، أضيف: «كلتا المرأتين حُلق رأساهما. هل ترى أن هنالك رابطًا بين هاتين الجريمتين؟».

يقول: «هذا محتمل. إنما من المرجح أن هاتين الجريمتين ارتُكبتا على يدَي شخصين لديهما الولع نفسه. إنه لمن المثير للإزعاج ألا أحد من فريقي المساعد –ولا حتى أنا نفسي– جاء في باله أن يبحث عن حادثة مشابهة خارج البلاد. قد تصيرين محققة بارعة، يا أليس».

أقول في سرور: «أشكرك».

يقول في نبرة أستشعر فيها ترددًا: «سأطلب من فريقي الخاص أن يتعمقوا في البحث عن هذا الأمر، ومن ثم نكمل حديثنا عنه. إذا ما يناسبكِ بوسعي القدوم إليكِ غدًا بعد الظهيرة، وأخبركِ حينها بما توصلتُ إليه. وإذا ما تفضلين يوم الجمعة، لا مانع».

– الأفضل هو يوم غد بالنسبة لي.

– أتسمحين أن آتي في نحو الساعة الثانية؟

– بالطبع.

أغلق الخط. أمكنني أن أختار يوم الجمعة بدلًا من الغد، لأنني سأكون قد عدت إلى المنزل حينها. إنما سيطول انتظاري لموعدي معه.

***

قرب زوال النهار في اليوم التالي، أتمشى رويدًا عائدة إلى المنزل، ويعتريني إحساس بأنني أرتكب ذنبًا بتطلعي إلى لقاء توماس، ولم تكد تنقضي مدة على انفصالي عن ليو. لكنه في هذه اللحظة أراه في نظري، أحد القلائل مِمن يمكنني الوثوق بهم.

إن طقس اليوم من شهر أكتوبر خريفي منعش، وما لم يكن هنالك بعض الآباء برفقة أبنائهم في منطقة اللعب، لباتت الساحة شبه خالية. ألقي نظرة صوب منزل تامسين، متسائلة عما تفعل هذا الصباح، وأرى شخصًا واقفًا في إحدى النوافذ العلوية. ومع أنني لم أميز الواقف ما إذا هي تامسين نفسها أم كونر، ألوح بيدي متيقنة أن أيًّا مَنْ يكن منهما فإنني في مرمى بصره.

– أليس!

ألتفت وأجد وِيل يهرول ليلحق بي، ويلتف حول رقبته وشاح بهيج الألوان.

أردف بنبرة مرحة، متمنية ألا يقول إنه لمحني خارجة من الفندق: «أهلًا يا وِيل. أأنت عائد من التسوق؟».

ما دمت لم أرد أن يعرف أحد من الجيران أنني مكثت بضعة أيام في فندق، انبغى لي أن أختار واحدًا أبعد ما يمكن عن المجاورة.

– لا، خرجت للتنزه فقط. احتجت إلى أن آخذ استراحة في أثناء مراجعتي لنص درامي جديد. هل أنتِ عائدة؟ لقد ذكرت إيف أنكِ ستغيبين عن المنزل لبضعة أيام.

من المفترض أنني نويت الابتعاد عن المنزل حتى الغد وليس اليوم، إنما فات أوان التراجع. أقول: «نعم، إنني في طريقي للمنزل».

يومئ في شرود.

– لقد استمتعتْ إيف بتناول الشاي معكِ في مطعم أورانجِري.

– وأنا استمتعت كذلك. لم ألحظ كم تناولت إيف، لكن بالنسبة لي فقد أكلت بنهم.

– أردت أن أتأكد منكِ مما أخبرتني به إيف، أنكِ ظننتِ في أكثر من ليلة أن هناك شخصًا ما دخل إلى منزلك.

أستغرب من ذكره لهذه المسألة، وأقول: «أعتقد أنه خُيل إليَّ ذلك».

يلقي نحوي نظرة خاطفة.

– لا أرغب في إثارة قلقك، إنما وفقًا لما ذكرته إيف شعرت نينا بالأمر نفسه.

– نعم، هذا صحيح.

– إذن، أما زلتِ مرتاحة للعيش في هذا المنزل بمفردك؟ لو أن ليو لن يعود إلى المنزل قريبًا، فإننا نرحِّب بأن تمكثي معنا حتى يعود.

– إنه عرض لطيف منك، لكنني بخير وحدي لا تقلق.

يحدق إليَّ بعينيه الزرقاوين.

– اعذريني يا أليس، لكنني لا أرى سببًا منطقيًّا حتى تعرِّضي نفسكِ للخطر، لا سيما بعد المصير الذي آلت نينا إليه.

– لو أن أوليفر هو مَنْ قتل نينا، ما الخطر الآخر الذي يهددني؟

– ماذا لو أنه لم يفعلها؟

أتوقف عن السير.

– ما الذي تقوله يا وِيل؟

يخفي يديه في جيبيه.

– لم أرتح إلى تصور أنه استطاع قتلها بتلك السهولة مطلقًا. لقد عرفتُ أوليفر لفترة قصيرة، لم نكن جيرانًا إلا لخمسة أشهر فقط، ورغم ذلك توطدت علاقتنا بما يكفي ليصعقني الخبر مثل الجميع أنه متهَم بقتل نينا. وعندما قيل إن انتحاره دليل على شعوره بالذنب لقتلها، لم أصدق. لم أفصح عن رأيي حينها، فإنني لم أعرفه لمدة كافية كما عرفه بقية الجيران، ولذلك افترضتُ أن هنالك جانبًا من شخصيته لم يتسن لي وقت لأنتبه له. ومن بعدها، جئتِ أنتِ وبدأتِ في التساؤل عما حدث، حتى بتُّ متحيرًا. ماذا لو أن القاتل الحقيقي ما يزال بيننا في المجاورة، مختبئًا عن أعيننا؟

إنه يتحدث بصدق، وبصراحة شديدة، إنما في الخلفية يحدِّثني صوت في ذهني أنه ممثل بارع في الأداء إلى حد بعيد. بما أن إيف أطلعته على حوارنا في أورانجِري، ألا يُرجِّح ذلك أنها أطلعته على ما قلتُه لها الأسبوع الفائت أيضًا، أنني لم أعد أرى أي لغز غامض في أمر نينا بحاجة إلى حل؟ أنصب لي وِيل فخًّا ليوقعني فيه؟

أتابع السير، حتى تنتهي هذه المحادثة في أسرع وقت ممكن، قائلة: «إنني شديدة الأسف أن استفساراتي سببت لك كل هذه الحيرة. لم أستطع أن أهضم كامل الحقائق في البداية لكن بعدما فهمت، بتُّ أصدق أن أوليفر هو مَنْ قتل نينا انتقامًا منها بسبب علاقتها الغرامية. وبما أن الشرطة اكتفت بما توصلت إليه في التحقيق، فلا أعلم لماذا شغلني الأمر أكثر من اللازم».

أبدي ابتسامة خجلة، فبإمكاني التمثيل كما يفعل، وأضيف: «في بعض الأحيان أتساءل في نفسي عما إذا فعلتُ ذلك رغبةً في لفت مزيد من الأنظار إليَّ، رغم أن مجرد مجيئي أثار الاهتمام، وذلك في محاولةٍ لأن أفسح لي مكانًا مميزًا بينكم في «ذا سيركل»».

يقول، ولا أعي إذا ما أصابته خيبة أمل أم ارتاحت نفسه: «حسنٌ، في هذه الحالة، أظنني يجب أن أتقبل الحال على ما هو عليه مثلك».

لدى وصولنا عند منزلينا، أقول متجهة نحو ممر منزلي: «أتمنى لك حظًّا طيبًا مع نصك الجديد».

– أشكرك، يا أليس، وتذكري دومًا أنني في المنزل المجاور، إذا احتجتِ إلى شيء.

أرتجف دون إرادة مني. من المفترض أن يطمئنني قوله، لكن أحسُّ أنه يُنذِر بالخطر.

الفصل السادس والثلاثون

يصل توماس في الثانية والنصف بعد الظهيرة، في حلة زرقاء داكنة مع قميص أزرق فاتح، ويبدو وجهه أكثر شحوبًا من المعتاد.

يقول: «لقد ذهبت إلى هيلين قبل مجيئي».

– كيف صار حالها؟

– حالها يسوء. يؤلمني في بعض الأحيان كيف تغيرت عما كانت عليه في الماضي.

يجول في بالي السؤال نفسه عما إذا تربطه بهيلين علاقة تتعدى الصداقة، فيما أردف: «يؤسفني هذا».

نتوجه إلى المطبخ لنجلس.

يقول، كما لو يقرأ أفكاري على نحو مثير للعجب: «خرجنا في موعد أو اثنين مع بعضنا عندما كنا في الجامعة، وحينها أدركنا أن صداقتنا أفضل من أن تجمعنا علاقة أكثر حميمية».

يدسُّ يده في الجيب الداخلي لسترته ويسحب محفظته. يستطرد وهو يخرِج منها صورة فوتوغرافية: «هذه صورة لنا في أفضل أيامنا معًا. حملتُها إلى هيلين اليوم لأريها إياها».

أطيل النظر إلى الصورة. إن لدى نسخته الأصغر سنًّا شعرًا أطول منه الآن، وذراعه تلتف حول كتفَي فتاة وجهها جميل وعيناها زرقاوان ضاحكتان. يبدوان مرتاحي البال لأبعد الحدود، مما يجعلني أتصور مقدار الألم الذي ربما شعرت به هيلين عند تأملها لنفسها.

يتابع توماس: «قالت إنها لمن دواعي ارتياحها أنها لم تدرِ حين التقاطها أن حياتها قد تؤول إلى نهاية مروعة عند بلوغها الثالثة والأربعين. أتساءل أحيانًا إذا ما خطر في بال نينا أمر كهذا، عندما تيقنت أن الموت مدركها».

أعيد إليه الصورة، قائلة: «لا تفكر هكذا».

يؤنب نفسه: «مع الأسف، دومًا ما يتملكني شعور باليأس بعد زيارة هيلين، رغم أنه ليس من المهنية أن تختلط مشاعري بالعمل».

للحظة، يعتريني إحساس عابر بخيبة الأمل أنه يعتبر حديثه معي جزءًا من عمله.

يضيف: «كما أنه لم يتسن لي وقت كافٍ لتناول الغداء ولهذا السبب أتوق للسكر، فإنني أعاني السكَّري».

أقفز على قدمي.

– انبغى لك أن تنبهني منذ مجيئك، فقد ظننتك شاحبًا من الإجهاد. سأحضر لك شيئًا تأكله على الفور، ماذا تفضل؟

– تكفي موزة أو بسكويت، لو لديكِ أي منهما.

– لدي كلاهما، لكنني لم أتناول الغداء بعد وفكرتُ أن أعدَّ لنفسي عجَّة بيض بالجبن والفِطر، هل سيفي ذلك بما تحتاج إليه؟

– تبدو وجبة شهية، إنما لا أريد أن أثقل عليك.

– على الرحب والسعة.

يخرِج هاتفه ليضعه على الطاولة.

– أخشى أنني لم أحصل على أي خبر جديد يخص جريمة القتل التي وقعت في فرنسا. من المفترض أن أتلقى بعض المعلومات قبل نهاية هذا الأسبوع.

– لم أستطع التوصل إلى أي خبر يفيد أنه أُلقي القبض على الجاني.

– ولم أتوصل إلى شيء كذلك. مما يجعلني أظن بأن القضية لم تزل قيد النظر. ومع هذا، أعتقد أنه من المستبعَد ثُبوت علاقة بين جريمتَي القتل، نظرًا لوقوعهما في بلدين مختلفين.

بينما أقشر الفطر، أسرد له ما تسمَّعت إليه من الحديث الذي دار بين إيف وتامسين عندما ذهبت لاحتساء القهوة معهما في منزل تامسين. يخالجني شعور مؤنب إزاء إخباره بذلك، غير أنني أريد أن أشرِكَه في التفكير معي.

يسأل: «أيدري ليو بأمر الفتحات في سور الحديقة بين منزلكِ ومنزلَي جيرانك؟».

– نعم، لقد أخبرته. ورأى أنها فكرة رائعة.

– أرجو ألا يزعجكِ سؤالي، كيف تسير الأحوال بينكما؟

– إنه لا يعيش معي في المنزل حاليًّا.

– هذا أمر مؤسف.

أستدير بعيدًا، غير راغبة في التفكير في ليو. أسكب البيض المخفوق في مقلاتين وأترك العجتين تنضجان على مهل. إن الطريقة البسيطة المتمثلة في إزاحة الأطراف التي نضجت ناحية المنتصف لتترك حيزها الفارغ للبيض النيء يجري فيه، تهدئ من حدة توتري على نحو غريب.

يسألني: «هل قابلتِ زوج تامسين؟».

– نعم.

– وكيف ترين شخصيته؟

– لم أرَ فيه ما يوحي بأنه قاتل، إنْ كان هذا ما تقصده.

– أودُّ أن ألفت انتباهكِ إلى شيء تعرفينه بالفعل، وهو أن المظاهر خادعة.

أضيف الفطر والجبن المبشور إلى البيض، قائلة في تأثر: «أنت محق، أعرف هذا الأمر حق المعرفة».

يبتسم ابتسامة متعاطفة. ثم يباشر القول: «ما دامت تامسين تعتقد أنه انغمس في علاقة مع نينا...».

أسارع بالقول: «لا لم يفعل».

ومن ثم، أخبره بحديثي مع تامسين في المقهى. أردف بعدما أنتهي: «جل ما في الأمر أنني أشك في مدى صدق ما ذكرته لي».

– تشكِّين؟

أثني العجتين بطرف الملعقة وأضغط بها عليهما بلطف حتى يُذاب الجبن في قلبهما.

– أشعر أن هنالك خطة تُحاك من قِبل تامسين لخداعي. عندما سُئلت كيف اكتشفتُ أمر الجريمة، قلت لهم إنني عرفت من خلال مراسلة صَحفية تواصلت معي، ومنذ حينها، تُبدي تامسين قلقًا بالغًا إزاء اتصال المراسلة مما يدل على أن الشرطة تعيد التحقيق في القضية. وعلى الرغم من أنني أنكرت، أعتقد أنها لا تزال تظنني على تواصل مع تلك المراسلة. ماذا لو أنها تمدني بمعلومات مغلوطة عن قصد؟ هنالك بين هاتين المحادثتين المتتاليتين –الأولى التي تسمَّعتُ إليها والثانية التي جرت بيننا في المقهى– تعارض مثير للريبة.

– كما لو تبذل تامسين جل ما في وسعها حتى لا تحسبي أن زوجها قتل نينا. مع أنها في مناسبة أخرى، تذكر لكِ في أثناء حديثها أنه لا يقبل الرفض بسهولة.

أعلِّق فيما أنزل العجتين في طبقين وأحملهما إلى الطاولة: «أتفهَّم مقدار ما خالج إيف وتامسين من مشاعر لحظة أن علمتا بعلاقة نينا الغرامية مع أحدهم. فقد عانيتُ لحظات عنيفة مماثلة، عندما ورد في بالي مجرد احتمال أن علاقة جمعت ما بين ليو ونينا. حتى ماريا، بالتأكيد ارتابت بشأن تِيم، ولو لثوانٍ معدودة. لكنه آخر ما يمكن الاشتباه في أمره».

يتطلع توماس إلى العجة في امتنان، ويمسك بشوكته والسكين.

– تبدو شهية للغاية، سلمت يدك. إنما ما يثير فضولي أنكِ تنظرين إلى تِيم على أنه الأقل اشتباهًا من بين الآخرين، رغم أنه من المحتمَل أن الاهتمام المشترك بعلم النفس بينه وبين نينا، كفيل بتوطيد العلاقة بينهما.

– ربما، لكنه وماريا يمثِّلان نموذجًا للزوجين المتحابين، ومثلهما في ذلك إيف ووِيل، ولهذا قد أراهن على أن كونر هو المشتبَه فيه.

أجلس في الجهة المقابلة له وأتأمله خُلسة من وراء أهداب عينيَّ، بينما نأكل. لا يبدو في الأمر أي خطب، وهو يجلس إلى الطاولة ويتناول طعامه برفقتي.

أقول: «أتذكر عندما قلتَ لي إن حلق الرأس في حالة نينا، قد يكون نوعًا من اللوم والعتاب؟ لو أن أحدهم عتب عليها ما فعلت حقًّا، ألا يُرجح ذلك أن مَنْ فعلها، امرأة؟».

فور تلفُّظي للكلمة أندم عليها.

يتساءل توماس متفرِّسًا ملامح وجهي: «أتفكرين فيما أفكر فيه؟».

– لا أفهم قصدك.

بل أفهم جيدًا، لكن يخالجني إحساس رهيب جرَّاء ما يخطر في ذهني.

يوضح: «إن لدى تامسين دوافع أكيدة. لقد تجنبتها نينا قبل مقتلها، كما يأتي أمر ارتيابها في زوجها وعلاقته السرية مع نينا...».

أقاطعه: «لكنها لم تصدق أن أوليفر هو من قتل نينا على الإطلاق. ظلت متيقنة طوال هذه المدة أنه بريء. فلماذا قد تلفت الانتباه إلى وجود قاتل آخر، ما دامت هي من فعلتها؟».

– لأنه كما استنتجنا منذ قليل، من المحتمَل أنها تتلاعب بخيوط اللعبة ببراعة. ألم تسمعيها بنفسك وهي تقول بأن أي أحدٍ قادر على القتل؟

بغتة تتكالب عليَّ مشاعري دفعة واحدة.

– لا، لا. إنني على أتمِّ الثقة أن تامسين لم تكن لتفعلها. أرفض حتى أن يخطر في بالي أنها فعلت.

ألصق ظهري إلى المقعد؛ إنني بحاجة إلى الابتعاد عنه قدر الإمكان، بحاجة إلى الابتعاد عن كل ما نفكر فيه. لكن هذا لا يكفي، فأنهض وألملم الأطباق.

أقول: «أرجو المعذرة، إنما هذا ليس تفكيرًا صائبًا. ألا يمكننا القبول بأن أوليفر قتل نينا وكفى؟».

يردُّ بهدوء: «مثلما قَبِل الجميع هنا بسهولة أنه فعل».

– لربما هو مَنْ قتلها.

ينهض ويحمل عني الأطباق، قائلًا: «ربما فعل، لكن حتى أتيقن من أنه الجاني حقًّا، لا يمكنني الاستسلام، من أجل خاطر هيلين وإكرامًا لأوليفر. صدقيني، لو ظننت أنه مذنب، لما تكبدت عناء التحقيق في الجريمة قط. هنالك العديد من التفاصيل غير المنطقية، إلى جانب أن أوليفر أقسم بنفسه إلى هيلين إنه لم يفعلها. في ذلك الحين قالت إنه ما كان ليكذب عليها، وأنا أصدقها».

يأخذ الأطباق ليضعها في الحوض، ثم يلتفت ناحيتي مضيفًا: «يزداد شعوري كلما طال الوقت، أنه ما وجب عليَّ أن أشغلكِ بهذا الأمر. لست متأكدًا.. إذا ما يُفضَّل أن أذهب في هذه اللحظة وأتركِ لحالك؟».

– لا، لا تفعل من فضلك. لربما علينا أن نلتفت إلى موضوع آخر.

يردف في ارتياح: «حسنٌ، فكرة جيدة».

لا أدري إذا ما تعود هذه الراحة إلى أنني طهوت له وجبة خفيفة، مما يسمح لنا بالانتقال إلى نقطة أخرى ونتبادل الحديث عن أنفسنا بأريحية أكبر. حيث يخبرني توماس أنه وزوجته تطلقا قبل ثلاث سنوات، ومنذ حينها يعيش في جنوب لندن. أتعاطف لحاله وهو يشرح لي كيف أراد أن يشارك زوجته السابقة رعاية ابنه ذي الأعوام الستة، لكن بسبب أنهما لا يرغبان في إحداث أي اضطراب في روتين يومه، اتفقا أن تتولى والدة الطفل رعايته في الوقت الحالي.

يستفيض فيما نعود إلى الطاولة بعدما أعددتُ القهوة: «سيتغير كل ذلك عندما يرتاد مدرسته الجديدة في العام الدراسي المقبل. إنها قريبة من منزلي، ولذا سيمكث برفقتي في الأسبوع الثاني من كل شهر. لا أطيق الانتظار، إنني أشتاق إليه كثيرًا».

يخبرني كذلك أنه نشأ على قراءة مغامرات شيرلوك هولمز، وبعدما درس خلال سنواته الجامعية علم النفس وعلم الجريمة، قرر أن يعمل محققًا خاصًّا بدلًا من الالتحاق بالشرطة، كما أراد أن يفعل سابقًا. ومن جهتي، أحدِّثه عني وليو وكيف أن الانتقال إلى لندن كان من المفترَض أنه بداية حياتنا معًا، وعن مدى ما أشعر به من الذنب لعدم قدرتي على مسامحته، بسبب كذبه عليَّ، والذهول الذي يتملكني لعدم استيعاب أنه استطاع فعل ذلك بي.

يعلِّق توماس: «عندما تتمعنين في التفكير في الأمر، ستجدين أنه ليس غريبًا أن تواجهي صعوبة في اعتياد العيش معه، بعد أن قضيتما مدة طويلة لا تلتقيان إلا في العطلات الأسبوعية. لم تريا بعضكما إلا ليومين في الأسبوع، لكم شهرًا؟ عشرين شهرًا؟ بما يعادل ثلاثة أو أربعة أشهر متواصلة تقريبًا».

أقول وقد خف ثقل ذنبي قليلًا: «لم أرَ الأمر من هذا المنظور قط».

أطلِعه كذلك على فقداني لوالديَّ وشقيقتي، وأفصح له عن قلقي بأن شقيقتي لربما هي السبب أنني أولي اهتمامًا مبالَغًا فيه بمقتل نينا.

– لولا أنني أفعل ما أفعله لأجل خاطر شقيقتي نينا، لما بقيت في هذا المنزل حتى اللحظة التي أتحدث فيها إليك، لمساعدتك على إظهار الحقيقة. ومع ذلك، فإنني متحيرة من دوافعي وأخشى ألا تكون بالشفافية التي أزعمها. لم أقابل نينا ماكسويل في حياتي، وبالتالي لا يوجد أي داعٍ لانغماسي في قضيتها بهذه الطريقة. إنما في غالب الأحيان، عندما تخطر شقيقتي أو نينا في بالي، تختلطُ عليَّ شخوصهما، كما لو تندمجان في صورة امرأة واحدة.

باتت عيناه مِلؤهما نظرات حنونة.

– أتعتقدين أنه بوسعكِ وليو إصلاح ما بينكما؟

– لا أعتقد، لأنه لم يعد هنالك ما يجمع بيننا لنصلحه. إن إخفاءه لماضيه عني في حد ذاته، كذبة كبيرة في نظري.

يومئ ببطء.

– وماذا تنوين فعله؟

– بما أن هذا المنزل ملك له، سأعود إلى هارلستون. لقد سمح لي أن أمكث فيه حتى نهاية الأسبوع القادم فقط. وهو أقل ما يمكنه فعله بعد ما اقترفه في حقي.

– في هذه الحالة.. أودُّ أن أخبركِ أن هيلين طلبت مقابلتك. لم أرد أن أذكر لك هذا الأمر حتى يحين الوقت المناسب، لأنني لم أعرف إذا ما سترضين بذلك. إنما، ما دمتِ ستغادرين في خلال أيام قليلة...

يخبو صوته فجأة.

– إنه لمن دواعي سروري أن أقابلها.

– أأنتِ متأكدة؟

– كل التأكد.

للمرة الأولى منذ قابلته، يبدو توماس محرَجًا إلى حد ما.

– هل يناسبكِ يوم الأربعاء القادم؟ يمكنني دعوتكِ على الغداء، ومن ثم، نذهب إلى هيلين معًا، ما رأيك؟

تغمرني دفقة من السعادة.

– كم سيكون يومًا لطيفًا.

يضيف باسمًا: «وفي أثناء تناولنا للغداء، بوسعكِ أن ترشديني إلى كيفية الوصول إليكِ في هارلستون، حتى إذا ما توصلتُ إلى أي تطورات في القضية أبلغكِ بها».

أبتسم له قائلة: «سأرشدك إلى ذلك بالتأكيد».

يتطلع إليَّ في اهتمام.

– هذا رائع. ماذا فعل ليو عندما أخبرتِه أن علاقتكما انتهت؟

– أفترض أنه استسلم للأمر الواقع. فلم يقتصر الأمر على أكاذيبه، بل تعدى إلى لعبة الشعر السخيفة تلك.

– ما هي تلك اللعبة؟

– إنها مسألة محرجة بالنسبة لي، ولذلك لم أذكرها سابقًا.

– ماذا حدث بالضبط؟

لم أرغب في أن أُظهِر ليو بصورة سيئة، إنما ما باليد حيلة. أخبر توماس عن خصلات الشعر المتناثرة في أرجاء المنزل، وكيف عثرتُ على ضفيرة شقراء في خزانة الملابس.

أوضح: «الأمر المثير للسخرية أنه على الأرجح ظلَّ يحاول إخافتي حتى أتوهم أنه الشعر الذي أراه حولي في كل ركن يخص نينا، باستثناء أنه لم يخطر في بالي قط أنه شعرها. افترضت أنه شعري أنا؛ فقد فقدت الكثير منه عقب رحيل والديَّ وشقيقتي، وظننت أن تلك الحالة عاودتني من جديد بسبب وطأة التفكير في جريمة القتل».

– ألهذا تعقصين شعركِ على الدوام؟

في خجل أتحسس شعري بيدي.

– نعم، بات الأمر أشبه بالعادة. إلى جانب ذلك، أعتقد أن ليو يتجول في المنزل ليلًا، كأسلوب ملتوٍ آخر لإثارة فزعي. محال أن أظل مع رجل لا يجد عيبًا في التلاعب بنفسية غيره.

يعبس وجه توماس.

– ماذا تقصدين بتجوله في المنزل؟ ألم تقولي إنه لا يعيش معك؟

يفتر ثغري عن ضحكة متهكمة.

– بلى.

– لا أفهم.

أقول، ووجنتاي تتقدان خجلًا: «لقد حدث في عدة ليالٍ أن شعرت بأحد في الغرفة، يراقبني في أثناء نومي. في الليالي الأولى، بات الوضع مرعبًا، إنما لم يَؤُل إلى أي خطرٍ من أي نوع، ولذلك عَملتُ على إقناع نفسي بأنه لا أحد تسلل للداخل، وما أستشعره لم يكن سوى روح نينا. أعرف أنه قد تبدو وجهة نظري ساذجة، لكن بعد وفاة شقيقتي، أصبحت أشعر بروحها حولي، ولا سيما في الليل، ولذا لم أجد صعوبة في إقناع نفسي بأنني أعايش تلك الحالة مرة أخرى. فكما قلتُ لك، لم يحدث أي شيء يؤذيني خلال تلك الليالي، ولا عثرت على أثر لأي متسلل في المنزل، وهكذا رضيت بما اقتنعت به نفسي. حتى جاء ذلك اليوم، حين أخبرتني إيف أنه قبل وفاة نينا، خطر لها مثلما خطر لي، أن أحدًا تسلل إلى منزلها خلال أكثر من ليلة. يا لها من طريقة بَدَّدت هواجسي عن تلك الروح!».

– لماذا يفعل ذلك؟

– حتى أخاف ويضطرني إلى الرحيل عن المنزل.

– إنما هذا منزله، ويحقُّ له أن يطلب منك المغادرة متى شاء.

– هذا صحيح، لكن لعله ارتأى أن تأتي هذه الخطوة مني. حينها قد يتفهم الجيران في «ذا سيركل» أنني قررت ترك المنزل لأنني مذعورة من العيش فيه، وليس لأنه طردني منه. فبعدما علم الجميع هنا أنه لم يطلِعني على أمر الجريمة مسبقًا، لا بد وأنه بحاجة إلى أن يحسِّن من صورته، ما دام يعتزم العيش بينهم.

يقول في نبرة تحمل ذهولًا: «بما أن نينا اشتكت من الحال نفسه الذي تشكين منه، فهذا يشير إلى أن شخصًا آخر هو الذي يتجول في الأرجاء ليلًا. من لديه مفاتيح المنزل غيركما؟».

– لا أحد غيرنا، على حد علمي.

– هل أنتِ متأكدة من هذا؟ من المعتاد أن يُحتفظ بنسخة من المفاتيح لدى أحد الجيران في حالات الطوارئ. لدى جاري نسخة احتياطية من مفاتيح منزلي مثلًا.

– لم يذكر ليو أنه أعطى نسخة من المفاتيح لأحد، لكن بإمكاني التأكد منه.

– هل استفهمتِ منه عن مسألة التجول ليلًا؟

– لا، نسيت أن أسأله، فلم تبدُ ذات أهمية بالمقارنة بأكاذيبه الأخرى. إنما استفهمت منه عن الشعر. أخبرته أنه مثير للاشمئزاز وجاء رده أنه لم يفعل ما فعله ليثير إعجابي. مما جعلني أتعجب من ارتباطي برجل لم أعرفه يومًا بحق.

أبدي تبسمًا حزينًا، مضيفة: «أيمكننا تغيير الموضوع رجاءً؟».

عندما حان وقت مغادرته، بعدما بقينا نتحدث لساعة من الزمن، شعرت أننا بتنا أصدقاء، وأجزم أنه شعر بذلك بدوره. وبينما نقف عند عتبة الباب، لتوديع بعضنا، يخيل إليَّ ألا رغبة لكلينا في أن يصل هذا اللقاء إلى نهاية بعد.

يسألني، مستأثرًا بأنظاري إليه، فلا يزوغ بصري عنه: «هل ما زلتِ واثقة أنكِ تريدين الاستمرار فيما بدأناه؟».

– ما دام لم يقتل أوليفر نينا، أودُّ أن ينال الجاني الحقيقي عقابه.

يردف بصَوت خَفيض: «بغض النظر عمَّن يكون؟».

يجول في بالي ساكنو هذه المجاورة، وبخاصة من أعتبرهم أصدقائي من بينهم. ومن ثم أتفكر في أمر نينا ومقتلها والمعاناة التي عاشتها. وكذلك تخطر شقيقتي في ذهني، التي لقيت مصرعها دون أن تتحقق لها العدالة.

أجيبه بحزم: «نعم، بغض النظر عمَّن يكون».

الفصل السابع والثلاثون

قبل العودة إلى الفندق، أهاتف ليو. لا يهم إذا ما يزال في عمله، لن أشغل بالي حيال إزعاجه بعد اللحظة.

أسأله دون مقدمات: «من لديه نسخة من مفاتيح منزلنا، عدانا نحن الاثنين؟».

– لماذا تسألين؟ أهنالك خطب ما؟ أنسيتِ نسختكِ في الداخل؟ بوسعي المجيء لأفتح لكِ الباب.

آخذ نفسًا عميقًا ببطء.

– لا، لم يحدث ذلك. سأوجه إليك سؤالًا آخر وأرجو أن تجيب عنه بصراحة. هل تسللت إلى المنزل في الليل الفترة الماضية؟

– عذرًا؟!

– إنه سؤال بسيط، يا ليو. هل تسللت إلى المنزل في الليل وتجولت في أرجائه، حتى تصيبني بالذعر؟

– يا له من سؤال أغرب من سابقه! لماذا قد أفعل ذلك؟

– كي تجبرني على مغادرة المنزل.

يخفض صوته، مما يذكِّرني أنه في العمل: «أحقًّا تظنين أنه بإمكاني فعل شيء كهذا لك؟ وبغض النظر عن ذلك، أنسيتِ أنني أمضي معظم وقتي في برمنجهام؟».

– لا، لكنك لا تمضي وقتك بأكمله هناك.

– هل يمكنكِ الانتظار لحظة؟

أسمعه يقول شيئًا ما لأحدٍ بجواره، إنه بحاجة إلى دقائق قليلة وسيجتمع به ثانية. ثم يوجه إليَّ حديثه: «انظري، قد تكون لدي معضلة في التزام الصدق في كل قولي، إنما هذا لا يعني أنني مختل نفسيًّا».

– أحقًّا؟ وماذا عن ذلك الشعر؟

– أي شعر؟

– الشعر الذي وجدته في خزانة الملابس.

– ليست لدي أدنى فكرة عمَّا تتحدثين عنه.

– بربِّك يا ليو. لقد اعترفتَ بنفسك!

– اعترفتُ بماذا؟

بات غضبي منه لا يُحتمَل. لقد تعبت، سئمت أكاذيبه.

– اعترفتَ بإخفاء ضفيرة الشعر في خزانة الملابس وبعثرة خصلات منها في أرجاء المنزل، حتى تدفعني للظنِّ بأنه شعر نينا!

تمرُّ برهة صامتة طويلة.

– لقد بدأتُ أقلق عليكِ يا أليس. ليست لدي أي فكرة صدقًا عمَّا تتحدثين عنه.

تجعلني نبرته الهادئة أستشيط غيظًا منه أضعافًا مضاعفة.

– لقد راسلتُك! قلت لك إن حيلة الشعر تلك مثيرة للاشمئزاز ورددتَ بأنك لم تفعل ما فعلته لإثارة إعجابي!

– بالضبط، وعنيتُ بالشعر لحيتي. لم أطِلها من أجلك، ولا نويت إثارة إعجابكِ بأي طريقة أبدًا. جُل ما هنالك أنني لم أحلق ذقني لعدة أيام واستَحبَبتُ ذلك، ولذا فكرتُ أن أتوقف عن الحلاقة حتى تنمو لحيتي.

بعد برهة صامتة أخرى، يقول: «أيمكننا أن نعود إلى ما ذكرتِه سابقًا، حين وجَّهتِ إليَّ اللوم على التجول في أرجاء المنزل؟».

لم يزل ذهني مشغولًا بمحاولة استيعاب ما قاله عن لحيته.

– لم يُخيل إليَّ، يا ليو.

– لم أقل ذلك. لقد ظننتُ أن أحدهم دخل إلى المنزل عقب أمسية المشروبات، أتتذكرين؟

أوضح: «في أول ليلتين، اعتقدت أنني أتوهم لأنه لم يحدث شيء قط. حتى علمتُ من إيف أنه قبل وفاة نينا، تكرر شعورها بأن أحدهم يتسلل إلى المنزل».

تعلو نبرة صوته في ذهول: «في أول ليلتين؟! لكم ليلة شعرتِ بهذا الأمر؟».

– لا أتذكر تحديدًا، ربما لأربع ليالٍ أو خمس.

– واحتملتِ البقاء وحدكِ في المنزل؟!

– نعم، لأنه لم يحدث شيء يؤذيني قط. كما قلت لك، اعتقدتُ أنني أتوهم ذلك كله. الأهم هو سؤالي الأساسي هنا، هل لدى أحد غيرنا نسخة من مفاتيح المنزل؟

– نعم، لدى وِيل وإيف. أعطيتُ وِيل نسخة من المفاتيح بعدما انتقلنا إلى المنزل.

يهوي قلبي بين قدمي.

– بالطبع!

– أرجو ألا يذهب فكركِ إلى أن أيًّا منهما قد ينسل إلى المنزل لمحاولة إخافتك.

أقول، وعقلي يصرخ باسم وِيل: «لا، لا أفعل».

– ما موضوع الشعر الذي عثرتِ عليه في خزانة الملابس؟

عند إدراكي أن الأمور التبست عليَّ، أنكمش في داخلي حرَجًا.

– معذرة، إنني أتلقى اتصالًا آخر من ديبي. أيمكنني معاودة الاتصال بك لاحقًا؟

– بالتأكيد.

أغلق المكالمة. لم تتصل ديبي، إنما وجدتُ بي حاجة إلى تأمل ما يحدث. إنني بحاجة ملحَّة إلى التفكير.

***

بعد نحو عشر دقائق، صرت عند عتبة منزل إيف أنتظرها حتى تفتح لي الباب.

تفتحه سريعًا، قائلة: «جئتِ في وقتك!».

يتهادى إلى سمعي أصوات آتية من المطبخ، فيما تزيد فتحة الباب، مضيفة: «تفضلي بالدخول».

– لا، لا داعي. لا أريد التسبب في إزعاجك، إنني فقط...

تمدُّ يدها لتمسك بذراعي.

– كفِّي عن التصرف بسخف، إن الجميع في الداخل. رغم الأجواء الصاخبة بصحبة الأطفال، ارتأيت أنه حان دوري لنحتسي الشاي في منزلي.

– هذا رائع.

أتذكر أنه في كل أربعاء عقب جلسات اليوجا الخاصة بهن، تذهب إيف مع تامسين وماريا لاصطحاب أطفالهما من المدرسة، ثم يحتسين الشاي معًا.

أتبعها إلى المطبخ المكتظ بعدد من الأشخاص. وعلى الرغم من برودة الهواء، فإن النوافذ الفرنسية التي تفضي إلى الحديقة مفتوحة، ويركض أبناء ماريا الثلاثة وطفلتا تامسين ذهابًا وإيابًا، يأخذون الكعك من طاولة المطبخ ليتناولوه في الحديقة. أما إلى الطاولة فتجلس تامسين وماريا، ويستند وِيل وتيم بظهرهما إلى المنضدة، وفي أيديهم جميعًا أقداح الشاي.

يحيون معًا: «مرحبًا، يا أليس!».

ألوِّح لهم بيدي، مردفة: «مرحبًا بكم جميعًا».

ثم أتطلع إلى وِيل وتيم، مضيفة: «لم أعلم أنكما تحضران جلسات احتساء الشاي بعد ظهيرة كل أربعاء أيضًا».

يوضِّح تيم: «إننا عضوان شرفيان لهذه الجلسة فحسب، لأنه تصادف وجودنا في المنزل».

يقول وِيل: «ولأنني سمعتُ أن ماريا ستحضِر إحدى كعكاتها الشهيرة بالشكولاتة. يجب أن تتذوَّقِيها، يا أليس، إنها أطيب كعكة على الإطلاق».

ترفع إيف نفسها إلى المنضدة المجاورة للطاولة، قائلة: «اجلسي. من فضلك يا وِيل، ناول تامسين قدحًا من أجل أليس».

أسحب مقعدًا بجوار ماريا فيما تقطع لي شريحة من الكعك وتصبُّ تامسين الشاي في قدحي.

أبذل جهدي كي لا يروح ذهني إلى أنني في وقت ما، اشتبهت في ثلاثة أشخاص منهم أن لهم يدًا في مقتل نينا.

أقول: «سلمت يدكما».

تسألني إيف: «هل قضيتِ وقتًا ممتعًا بعيدًا عن المنزل؟».

– نعم، أشكركِ لاهتمامك. في الواقع، هذا ما جئت من أجله، فصديقتي ديبي التي مكثت برفقتها، ستأتي لتمضية بضعة أيام معي وأودُّ أن أعطيها نسخة من مفاتيح المنزل، حتى يسهل عليها الدخول والخروج كيفما تشاء. وقد أخبرني ليو أن لديكما نسخة من المفاتيح.

يقول وِيل: «بالضبط ترك معنا نسخة. انتظري لحظة».

يتحرك نحو فراغ في الحائط بجانب الثلاجة، سائلًا: «بالمناسبة، كيف حاله؟».

- إنه بخير، منشغل بعمله مثل العادة. أشكرك لسؤالك.

ما زلتُ غير مستعدة لأفصح لهم أن ما بيني وبين ليو قد انتهى.

يجول وِيل بنظره في صف من المفاتيح المعلَّقة قائلًا: «إنها هنا في مكان ما».

يلتقط حَمَّالة مفاتيح ويرفعها، ويتساءل: «هل هي هذه؟».

تقول تامسين: «هذه المفاتيح لمنزلي».

يعبس وجه وِيل ملتفتًا إلى إيف.

- هكذا ظننت. بخلاف النسخة الاحتياطية من مفاتيح منزل والدتكِ ونسخة مفاتيح منزل تامسين، لا توجد مفاتيح أخرى لا تخصنا. أتحتفظين بنسخة منزل أليس معك؟

- لا، لم أعرف أن لدينا نسخة مفاتيح لمنزلها.

- لقد أعطاني إياها ليو بعد انتقالهما، وعلقتها مع المفاتيح الأخرى لدينا هنا. تعالي وانظري بنفسك، يا أليس، بوسعكِ تمييزها من بين البقية أفضل مني.

يعود إلى صف الخطافات، وأترك شريحة الكعك، متوجِّهة إلى حيث يقف.

يسأل: «أترينها؟».

- لا.

- إنني متأكد أنها لدينا، ومتأكد من أنني رأيت القصاصة الملصقة عليها المسجل بها رقم 6. حسبما أتذكر لم يستعدها ليو، إنما يمكنكِ سؤاله عن ذلك.

- لقد تحدثت معه لتوي، وهو مَنْ قال لي إنك تحتفظ بنسخة.

يحكُّ رأسه.

- لا أعرف أين قد تكون. هل وضعتِ مفاتيح منزل أليس في مكان آخر، يا إيف؟

تجيب إيف بأسلوب ماكر: «وكيف لي أن أفعل ذلك، في حين لم أعرف أنها بحوزتنا؟ لكن لربما نجدها في غرفة المكتب».

تنزل قفزًا عن المنضدة.

- وما الذي سيجعلها هناك؟

- لا أدري إنما هذا هو المكان المحتمَل الآخر الذي يمكن أن نبحث فيه. تعالي معي، يا أليس.

أتبعها إلى حيث غرفة المكتب، ونبحث على المكتب وداخل أدراجه، ولا أثر للمفاتيح.

تقول إيف: «هذا غريب. إنني آسفة، يا أليس، سأتابع البحث عنها ما إن يغادر الجميع».

لم يبدُ في نبرتها أي قدر من القلق، مما يضيف احتمالًا جنبًا إلى جنب الاحتمالات الأخرى التي باتت متخمة في ذهني، ولا أحبذ الميل لإحداها. أيكذب وِيل؟ لربما وضع المفاتيح في مكان آخر، أو هي في جيب بنطاله الجينز الذي ارتداه في آخر مرة تسلل فيها ليلًا. وربما ليس هو، بل شخص غيره رأى المفاتيح معلقة على الحائط بجوار الثلاجة وأخذها. أنظر إلى تامسين، ثم إلى تيم وماريا، إنهم أكثر الزائرين المُتردِّدين على هذا المنزل.

أردف: «لا مشكلة».

بل إنها مشكلة، لأن هذا يعني أن ليو ليس هو المتجول ليلًا، ولن أستطيع المبيت في المنزل بعدما أغادر الفندق في الغد، لا سيما ونسخة من المفاتيح مفقودة.

أنهي شريحة الكعك، وأتعذر في الذهاب وأغادر.

يسألني وِيل فيما يرافقني إلى الباب: «متى ستصل صديقتك؟».

أقول: «يوم الجمعة».

– حسنٌ، لنأمل أن نعثر على المفاتيح قبل ذلك الحين.

***

لدى عودتي إلى الفندق، يرن هاتفي. إنها جيني.

تسأل: «كيف حالك؟».

– أنا بخير.

– هل أنتِ متأكدة؟

– نعم. لماذا تسألين؟

– لقد تلقيتُ اتصالًا من ليو، يعتريه القلق عليكِ، يا أليس. قال إنكِ تتهمينه بالتجول في أرجاء المنزل في الليل، وأمر آخر لم يفهمه عن بعثرته لشعر ما في كل مكان.

– التبس الأمر عليَّ فحسب. وعلى أية حال فهو يبالغ في قلقه.

– حسنًا. أما زلتِ خارج المنزل؟

إن عدم الإقناع بادٍ في نبرتها.

– بلى.

– اعذريني، يا أليس، إنما هذا ما لا أقدر على استيعابه. تطلبين من ليو أن يتركِ تمكثين في المنزل لأسبوعين آخرين، ثم تبتعدين عنه لبضعة أيام.

– سأعود إليه في الغد.

تتنهد قائلة: «ألن تخبريني بما يحدث معك؟».

– لا يحدث شيء لأخبركِ به. معذرة، أحتاج إلى أن أنهي المكالمة الآن. أيمكنني الاتصال بكِ في الصباح؟

– بالطبع، لكن...

– أشكركِ يا جيني، نكمل حديثنا فيما بعد.

الماضي

تعجبني عميلتي الجديدة. بيد أنها في نظري ستكون تحديًا كبيرًا، إنما لا بأس. تجلس إزائي وساقاها النحيفتان واحدة فوق الأخرى، بطريقة تنضح اعتدادًا بالنفس. إنها امرأة متصالحة مع نفسها. لكن مَنْ منَّا ليس بداخله جانب مظلم، وكلما بات أعمق، زادت إثارته.

آخذ دفتري من المنضدة وأخرج قلمي من جيبي. بوسعي استخدام حاسوبي المحمول لتسجيل الملاحظات، غير أن العملاء لا يزالون يفضلون رؤية الدفتر قديم الطراز بين يدي معالجيهم. ترجع المسألة في تقديري بالنسبة إلى استخدام الشاشة إلى أن العميل لن يدري بما نفعله وراءها، سواء نأخذ ملاحظات أم نشاهد برنامجًا على نتفلكس.

أبادرها بالأسئلة الاعتيادية وترفع حاجبها في استمتاع.

تقول: «أسنفعل ذلك حقًّا؟».

أقطب جبيني فتهذب أسلوبها، تعتدل في جلستها، تنزل ساقها بجوار الأخرى، تهندم تنورتها وتولي كامل انتباهها نحوي لتجيب عن الأسئلة.

أسألها، عند وصولنا إلى آخر القائمة: «ما سبب مجيئكِ إلى هنا؟».

ومن ثم، ألقي عليها القاعدة المحفوظة حول أن أيًّا ما ستذكره في هذه الغرفة لن يخرج منها.

نعم، هذه الغرفة. أجول بنظري فيها وأتأمل الجدران الوردية الهادئة والنافذة التي تطل على الطريق. اختفت الستائر المتحركة التي تسترنا عن الأعين المتطفلة، لا توجد غير ستائر قماشية لا أقدر على إسدالها، لا سيما والشمس ما برحت في السماء. ولهذا حرصت أن نجلس في الجانب الخلفي من الغرفة. الحذر واجب في كل الأحوال.

تقول: «لا أعاني مشكلات كبرى. لكن ارتأيت أن أخضع نفسي لجلسات علاج خاصة، حتى أختبر مدى نفعها بالنسبة لي. وكذلك لتتسنى لي فرصة للتحدث، أليس التحدث أمرًا ضروريًّا على الدوام؟».

أتفق معها: «دون أدنى شك».

ولذا تتحدث، عن طفولتها السعيدة، عن سنوات مراهقتها شبه الخالية من المعضلات، وعن عملها الذي تحبه. الأمر الوحيد الذي لم تتحدث عنه هو زوجها. لدي دراية بأنها متزوجة وهذا في حد ذاته يخبر بالكثير.

أضع دفتري جانبًا، وأسألها: «كم مضى على زواجك؟».

تبدو عليها الدهشة، فأومئ بنظري إلى يدها اليسرى، حيث ذلك الطوق الذهبي الرفيع حول إصبع البنصر.

تقول: «لعلِّي أرملة».

أستفهم: «أأنتِ كذلك؟».

– لا.

أترقب إجابتها. تقول: «سبع سنوات. لقد مضت سبع سنوات على زواجي».

أتابع سؤالها: «هل كانت سبع سنوات سعيدة؟».

– كانت سبع سنوات من الوَجْد، لم يعكر صفوها شيء.

أكتم تنهيدة داخلي؛ لقد خيبت آمالي.

أميل تجاهها وأحملق في وجهها، فيما أقول: «أتعرفين ما قاله هنري ديفيد ثورو عن السعادة؟».

والآن، هي التي تبدو خائبة الأمل. تميل للأمام تجاهي كذلك وتبادلني التحديق، قائلة: «نعم، أعرف بالضبط ما قاله ثورو عن السعادة. وكله محض هراء».

الفصل الثامن والثلاثون

في صباح اليوم التالي، بعد تسديد حساب الفندق ومغادرته، أعبر الساحة متجهة صوب المنزل وتصاحبني خشخشة الأوراق الهشة المتساقطة تحت قدمي. أمكنني أن أطيل مدة الإقامة لبضع ليالٍ أخرى، لكنني لا أحب التعرض للترهيب ومحاولة إخافتي من المبيت في المنزل، هو شكل من أشكال الترهيب. ولذلك سأفعل ما فعلته في تلك الليالي، وسأظل مستيقظة طوال الليل. إذا سمعت أي صوت، أيًّا يكن، سأتصل بالشرطة.

الهواء بارد ولا أحد جالس على المقاعد في الساحة، لا أحد يعبر حتى في طريقه للعمل، مما لا يدعو للاندهاش مع الوضع في الاعتبار أن الساعة العاشرة والنصف. لكم يمدني ذلك بشعور مذهل أنني ظاهرة للعيان. إنني متأكدة أن هنالك من الساكنين مَنْ يراقبني من النوافذ العلوية. أجول بنظري متفحصة المنازل في أثناء سيري، بدءًا من المنزل رقم واحد على الجهة اليسرى ومرورًا بالمنازل التي تليه، وصولًا إلى منزل إيف ووِيل، ثم أتجاوزه باتجاه منزلنا، فمنزل لورنا وإدوارد، يليه منزل جيف، ومنزل ماريا وتيم، وعنده أتوقف. يطل تيم من إحدى نوافذ غرف النوم العلوية، متطلعًا إليَّ كما أتطلع إليه. أرفع يدي وألوِّح له، ممتنة ألا قدرة لديه على رؤية القشعريرة التي تسري في بدني، ويلوح لي. أسرع الخطى في لهفة للتواري داخل جدران المنزل، إنما عند تخطي المدخل، يخرج إدوارد من منزله وفي يده مقص البستنة.

يناديني: «صباح الخير، يا أليس. أأنتِ عائدة من نزهة على الأقدام؟».

– نعم، إنه لمن الرائع التمشي في هذا الوقت من العام. كيف حالك وكيف حال لورنا؟

– إننا بخير، على خير ما يرام.

– في الواقع، وددت أن أخبركما أنني سأغادر المجاورة، إنما ليس ليو، فهو باقٍ.

– يؤسفني هذا، يا عزيزتي. متى ستغادرين؟

– من المفترض أن أغادر الأسبوع القادم، لكن قد أغادر قبل ذلك.

– صدقًا؟ حسنٌ. سنحزن كثيرًا لرؤيتكِ تغادرين.

أطلب منه: «هلا أخبرتَ لورنا من فضلك؟».

– نعم، سأفعل بالطبع.

أعده: «سآتي لتوديعكما لاحقًا».

– ليتكِ تفعلين، ستسعد لورنا برؤيتكِ حقًّا.

أنقل بصري تجاه منزل ماريا وتيم، الذي ما يزال واقفًا في النافذة. يتبع إدوارد نظرة عيني ويلوِّح إلى تيم.

أقول مشتَّتة الانتباه: «إلى اللقاء، يا إدوارد».

وأبدأ في التحرك مبتعدة عنه، في حين يقرب خطوته مني، ليهمس: «لا تطلعي أي أحد على موعد رحيلك عن المنزل».

ثم تعود نبرة صوته إلى طبيعتها، قائلًا: «إلى اللقاء، يا أليس».

***

أدلف إلى المنزل وقلبي يخفق. في البداية، كانت لورنا والآن إدوارد! صار لدي تحذيران، ألَّا أثق بأحد وألَّا أخبر أحدًا. مِمَّنْ يحذرانني؟ لقد رأى إدوارد تيم وهو يراقبنا. أهذا ما دعاه لقول ما قال؟

أهرول إلى غرفة مكتبي، وذهني مشغول بالتفكير في تيم. ما من شيء مريب ملموس بشأنه وعندما جاء مع الباقين إلى العشاء في المنزل، بدا لطيفًا على نحو مثالي بمساعدته لي في المطبخ. ومع ذلك، هنالك أمر خفي مقلق في طريقة وقوفه في النافذة كما لو يراقب الوضع على الدوام. من المحتمَل أنه لا يتعمَّد ذلك؛ فهو متخصص في علم النفس، أوليس علم النفس يهتم بدراسة سلوك الناس، كيف يتصرفون ويتأثرون ويتواصلون؟ وما دام يتدرب ليصبح معالجًا نفسيًّا، من الطبيعي أن يجد في الناس ما يذهله. على أية حال، يمدُّ الاختصاصيون والمعالجون النفسيون للناس يد المساعدة، ولا يسعون لقتلهم.

لم تكد هذه الفكرة تستقر في ذهني، حتى اعترضتها قصة صَحفية حُفرت في خبايا ذاكرتي منذ بضع سنوات، عن امرأة ومعالجها النفسي اللذين هربا معًا. لقد تصدرت قصتهما عناوين الصحف حينها، ففي بادئ الأمر أُبلغ عن اختفاء المرأة، ولَمَّا لم يُعثر عليها لعدة أيام، توجه تركيز الإعلام إلى ترجيح أنها قُتلت. لا أتذكر ما الذي نفى ذلك في النهاية، أنها ظهرت بشخصها وقالت إنها هربت مع معالجها النفسي، أم رآهما شخص ما معًا.

أجلب حاسوبي المحمول، أفتح محرك البحث وأكتب فيه «المرأة والمعالج النفسي». تنتج عدة روابط لمقالات صَحفية نُشرت خلال شهر يونيو 2016. أضغط على إحداها، وتظهر فيها تفاصيل كما أتذكرها إلى حد ما: غادرت المحامية «جوستين بارتلي»، البالغة من العمر ثلاثين عامًا، مكتبها في استراحة الغداء من أجل موعد مع معالجها النفسي ولم تعد إلى عملها قط، وأُبلغ عن اختفائها في اليوم التالي من قِبل زوجها، عندما لم تعد إلى منزلها مساء اليوم السابق. أجول بين المقالات الأخرى بحثًا عن القصة نفسها، لأكتشف سبب أنها فقدت جدارتها في تداولها إعلاميًّا. لقد أخبرت صديقة جوستين الشرطة أنها وقعت في حب معالجها النفسي، وفي الأسابيع السابقة لاختفائها باتت عاطفية وكتومة. ذكرت تلك الصديقة للشرطة كذلك أن جوستين عانت مشكلات في زواجها، وبالتالي خضعت للعلاج النفسي. لم يُستدَل على معالجها النفسي «دكتور سميث»، مما جعل صديقتها تعتقد بأنه وجوستين هربا معًا، ومن الواضح أن الشرطة اعتبرت ذلك احتمالًا واردًا. أبحث عن أخبار أحدث حول هذه القضية، إنما مثلها مثل صاحبتها، صارت في طيِّ النسيان.

لقد اختفت في يونيو 2016، قبل نحو عام ونصف من مقتل ماريون كارتو في فرنسا. لا شيء في ذلك يثير اضطرابي؛ بغض النظر عن أن جوستين بارتلي كان شعرها أشقر طويلًا، لا يوجد رابط بين اختفائها وجريمتَي قتل ماريون كارتو ونينا ماكسويل، لا سيما ألا أحد يعتقد على ما يبدو، أن اختفاءها يشير إلى أي واقع مأسَوي.

أتعمق في البحث عن اختفاء جوستين على أية حال، وأشاهد بعض مقاطع الفيديو من نشرات إخبارية ولقاءات حوارية. لقد شُهِدت آخر مرة وهي تنعطف إلى شارعٍ في «هامبستيد»، ثم أُغلق هاتفها بعد فترة قصيرة.

أهاتف توماس.

أسأله: «ألديك علم بأن نينا ترددت على معالج نفسي؟».

– لا، إنما أعتقد أنه أمر معتاد بالنسبة إلى المعالجين النفسيين أن يذهبوا للعلاج هم أنفسهم.

– عندما علمتُ من تامسين أن نينا ترددت على معالج نفسي، افترضتُ أن المعالج امرأة. لكن ماذا لو أنه رجل؟

يقول في حيرة بادية في نبرته: «ماذا لو الأمر كذلك؟!».

– هل تتذكر الخبر الذي انتشر منذ ثلاث سنوات عن المحامية جوستين بارتلي التي اختفت؟

– نعم، حسبما أظن. أليست هي مَنْ اختفت بعد خروجها في ساعة الغداء من أجل موعد؟ فهمت إلى ما تشيرين، تقصدين موعدها مع معالجها النفسي. رغم ذلك، لست واثقًا من وجود ما يربط نينا بهذا الأمر، ألم تصل الشرطة إلى خلاصة مفادها أنهما هربا معًا؟

– بلى، إنما ماذا لو أنهما لم يهربا؟ راجعت لتوي بعض الأخبار عن القضية، ويظْهرُ أنَّ الشرطة لم تستدل على المعالج النفسي المدعو دكتور سميث. ماذا لو لم يكن اسمه الحقيقي؟ من الجائز أنها لم تهرب معه، بل قتلها ذلك الرجل.

تمضي برهة صامتة، كأنه يبحث عن طريقة ليخبرني أن ما أقوله أسخف ما يمكن.

يقول بأسلوب لبق: «إذا ما يجول في فكركِ أن الدكتور سميث قد يكون هو نفسه معالج نينا النفسي، أجدد لكِ اعتقادي بأن ذلك يُستبعَد تصوره. لكن يمكنكِ التأكد من تامسين، لربما ذكرت نينا اسم معالجها ذات مرة أو تحدثت عنه».

– سأحاول سؤالها، على الرغم من أنها بالكاد تفصح عن شيء يخص نينا. لا أدري إذا ما سأذكره لك له صلة بالموضوع أم لا، فعندما طلبت تامسين من نينا أن توصي عليها لدى معالجها النفسي، لم تخبرها باسمه مطلقًا.

– من المحتمل، أنها لم تقدر على فعل ذلك أو لم تشعر بارتياح حيال ذهاب تامسين إلى المعالج نفسه الذي تتردد عليه. لكن يظل علينا أن نضع هذا الأمر في الاعتبار. سأتصل بِهيلين وأسألها إذا ما تعرف شيئًا عن تردد نينا على معالج نفسي. وفي حال لم نحصل على اسم، سأتواصل مع مصدري الأمني.

– هذا رائع.

– أشكركِ يا أليس، لنتحدث في القريب العاجل.

أغلق الخط لأدرك أنني أواجه مشكلة. لا أستطيع الاتصال بِتامسين وأبادر بسؤالها عن معالج نينا، ينبغي أن أتصرف بكياسة أفضل، فأتحدث إليها وجهًا لوجه وأفتتح بالثرثرة عن أمور شتَّى. كما سييسر من الأمر حضور إيف بيننا، غير أن اليوم هو الخميس وإيف تقضي أيام الخميس برفقة والدتها. تسيئني فكرة أنني لن أتمكن من التحدث إلى تامسين حتى الغد، وذلك على فرض أن وقتها وإيف يسمح بالمجيء.

أتفكر للحظات ثم أراسل إيف، أسألها عمَّا إذا يناسبها أن تتناول الغداء معي بعد غد لأنني أودُّ الخروج، كما أن هنالك حانة فرنسية قريبة من فينسبيري بارك أودُّ تجربة الطعام فيها. ذهبت إلى تلك الحانة من قبل بصحبة ليو، إنما ما من داعٍ لتعرف. أقترح عليها أن تطلب من تامسين وماريا أن تنضما إلينا، إذا ما كانتا متفرغتين.

يأتيني ردها بعد عشر دقائق –يا لها من فكرة عبقرية– وقد تأكدت من مناسبة الموعد بالنسبة إلى تامسين وماريا، وكلتاهما ستتمكنان من الحضور إذا تقابلنا في الساعة الواحدة بعد الظهيرة، حيث تأخذ ماريا استراحة الغداء. في غمرة الارتياح أنهن سيأتين، أردُّ عليها برسالة نصية تحمل تفاصيل الحانة الفرنسية وأبلغها أنني سأحجز لنا طاولة.

في منتصف النهار، يُضرب جرس الباب فأهرع نازلة الدرج، معتقدة أنه توماس حيث إنه عادة ما يزورني في هذا الوقت. لعله توصَّل إلى معلومات بشأن جريمة القتل التي وقعت في فرنسا. أتحقق من هندمة شعري سريعًا في المرآة وأفتح الباب.

لكنه ليس توماس، بل شاب شعره أشقر داكن وعلى وجهه ابتسامة واثقة.

يستوضح: «أأنتِ السيدة داسن؟».

أتطلع إليه بريبة.

– نعم.

يمدُّ كفَّه نحوي.

– لم نلتقِ من قبل. أنا بِن، بِن فوربس من وكالة ريدودز العقارية.

الفصل التاسع والثلاثون

احتجت إلى ثوانٍ حتى أبتلع خيبة أملي أنه ليس توماس، وأقول فيما أصافح يده الممدودة: «أهلًا بك، تسرني رؤيتك، يا بِن».

– كنت في الجوار هنا في «ذا سيركل»، أتفاوض مع أحد العملاء المحتملين وفكرت أن آتي وأعرِّفكِ بنفسي، حيث إننا لم نلتقِ إلا عبر الهاتف.

أقول محرَجة أنني لم أعتذر منه بعد: «انبغى لي أن أعاود الاتصال بك وأبدي اعتذاري. لم يخطر في بالي أن ليو عرف بشأن الجريمة مسبقًا».

– لا تحمِّلي نفسكِ عبئًا من فضلك. إنه لمن دواعي سروري أن هذا الأمر لم يصرف نظركِ عن العيش فيه.

أبيِّن له: «لم أتجاوز الأمر بسهولة، كما أنه لن يطول بقائي في المنزل. بعد أسبوع من الآن سأعود إلى هارلستون. مَنْ سيبقى هو ليو».

ذكرت له ذلك حتى لا يُخيل إليه أن المنزل سُيعرض للبيع ثانية.

– حسنٌ.

لا يبدو عليه التفاجؤ مما يجعلني أتساءل إذا ما عرف من مارك أنني وليو قررنا الانفصال. يختلس النظر إلى البهو من ورائي، مضيفًا: «قالت لي جيني إنكما دمجتما غرفتَي نوم في الطابق العلوي في واحدة. بالتأكيد صارت غرفة مذهلة».

جاء على طرف لساني أن أدعوه لرؤيتها، غير أن شيئًا ما أحجمني عن ذلك.

– ما رأيك أن تأتي للزيارة في المرة القادمة حين تمرُّ بالجوار؟ لا شك أن ليو سيرحب بأن يأخذك في جولة في المنزل.

– سأفعل بالتأكيد، أشكرك. يؤسفني أن علاقتكما لم تكتمل.

أبدي ابتسامة.

– وأنا كذلك. ما أخبار لعب الجولف؟ ليست لديك أي فكرة عن مدى امتنان جيني أنك تخرِج مارك من المنزل في العطلات الأسبوعية.

يضحك، قائلًا: «لقد أصبح لاعبًا بارعًا. من الأفضل أن أذهب الآن، ربما تتسنى لي فرصة أخرى لمقابلتك، إن ذهبتِ لزيارة جيني في أحد الأيام».

– لا شك أنني سأراك عندما أزورها. أشكرك على مجيئك حتى منزلي، سعدت بلقائك.

– إنه شعور متبادَل.

يغادر ملوحًا بيده وأراقبه فيما يعبر الطريق حتى اختفى داخل الساحة.

أخرج هاتفي وأكتب رسالة نصية لجيني: **لقد زارني بِن لتوه.**

ترد: **يا لكِ من محظوظة! ما الذي جاء به؟**

- كان في المجاورة وارتأى أن يأتي ليعرِّف بنفسه.

- يا له من تصرف لطيف. أليس شخصًا رائعًا؟

وددت لو أبوح لها أنه كذلك إنما ليس في روعة توماس، وعندئذ يتملَّكني إحساس بالذنب أنني لا أقدر على البوح لها، لن يتسنى لي أن أخبرها عنه، وعادة ما أتحدث إليها عن معظم أموري.

أعود إلى غرفة مكتبي، لكن تركيزي متشتت عن العمل بسبب زيارة بِن التي تشغل ذهني. هل مجيئه يُعد غريبًا؟ لم ترَ جيني ذلك، بل قالت إنه تصرف لطيف منه أن يأتي لزيارتي. يجب أن أتوقف عن الشك في جميع مَنْ حولي.

حتى الشك في وِيل، الذي يأتي إلى باب منزلي في الساعة الثامنة ومعه مفاتيح متدلية من إصبعه.

يقول مبتسمًا في سرور: «وجدتها!».

أقول: «رائع! أين كانت؟».

- وجدتها مختفية بين أشياء إيف المبعثَرة. لا بد أنها سقطت عن الخطاف واختلطت بالأشياء الأخرى دون أن يلحظ أحد.

أقول، مقتنعة أن هذا أمر وارد: «يحدث أحيانًا. أشكرك، يا وِيل».

***

مع حلول المساء، وعلى الرغم من أنني لم أعد قلقة من أن نسخة من مفاتيح المنزل بين يدَي مجهول، أنتقل إلى غرفة المعيشة. أعتزم أن أقضي الليل في مشاهدة البرامج التلفزيونية، وإذا ما غلبني النعاس، بوسعي أن أغفو على الأريكة.

لم أرفع من مستوى صوت التلفاز لكن في نحو الساعة الثالثة صباحًا، ألجأ غريزيًّا إلى كتم الصوت. هنالك جلبة آتية من جهة المطبخ، إنني واثقة من ذلك. يرتعد قلبي بين ضلوعي، فيما أنهض عن الأريكة لألقي نظرة في أرجاء الغرفة. إذا تمكن أحدهم من دخول المنزل، يجب أن أمنعه من الوصول إلى هنا. بعد سماعه لصوت التلفاز، قد يفطن إلى مكاني.

أتحرك بهدوء، أحمل منضدة منخفضة وألصقها بالباب، ثم أجلب قنديلين وأضعهما فوقها. في حال فتح أحدهم الباب، ستسقط المنضدة ومعها القنديلان مما سيمنحني وقتًا كافيًا لأتصل برقم النجدة 999.

أنتظر لدقائق قليلة، جسدي مشدود الأعصاب ويدي قابضة على هاتفي، تمرُّ دقائق قليلة أخرى ولمَّا لم أسمع شيئًا بعدها، أحاول التهدئة من روعي. إنما لا أستطيع حمل نفسي على التحقق من وجود أحد في الأرجاء، كما فقدت رغبتي في متابعة الفيلم الذي كنت أشاهده، لذا أكتفي بالاستلقاء على الأريكة متسائلة عمَّا إذا يستحق الأمر احتمال أسبوع آخر على هذا النحو. يرجع السبب في طلبي لهذين الأسبوعين الإضافيين إلى أنني أملت أن يحرز توماس تقدمًا في تحقيقه قبل انتهاء هذه المدة. والسبب الآخر أنني بصراحة وددت أن تتاح لي فرصة لرؤيته ثانية، لكن بعدما قال إنه مستعد لرؤيتي في هارلستون، ما يجب أن أقلق بهذا الشأن. ربما من الأفضل أن أغادر. لقد أفصحت إلى توماس أنني أرغب في أن يلقى

قاتل نينا جزاءه، بغض النظر عمَّن يكون، لكن لو اتضح أن الجاني أحد ساكني المجاورة، بمَ سأشعر حينها؟

عند الساعة السادسة، أفتح الستائر وأتطلع إلى الخارج. لا تزال الظلمة حالكة فيما عدا بضعة مصابيح مضاءة في بعض المنازل، حيث يستعد أصحابها لمتابعة حياتهم اليومية. أدرك أن هذا ما أبحث عنه، حياة يومية عادية، بلا أسرار ولا أكاذيب، بلا خوف ولا ارتياب. اليوم سأعود إلى هارلستون.

إنه لشعور مذهل أن ينزاح عبء ثقيل عن كاهلي. أستلقي على الأريكة مرة أخرى وأغفو حتى يضرب المنبه في الساعة العاشرة. لم تزل المنضدة والقنديلان أمام الباب فأعيدهم إلى موضعهم، ثم أتجه إلى المطبخ لأحضِر قدحًا من القهوة. بما أنني قررت الرحيل، يجب أن أحزم أغراضي وأهاتف كلًّا من: ديبي، وليو، وجيني، وتوماس. ويمكنني أن أخبر إيف أنني سأغادر المنزل عندما أقابلها على الغداء. لأول مرة منذ مدة طويلة، تغمرني السعادة؛ إنني لا أنتمي إلى هذا المكان حقًّا.

ما إن أدلف إلى المطبخ، أدرك في قرارة نفسي أن شيئًا تغير. أتسمر مكاني ويسري في جوفي شعور شديد الغرابة. كنت محقة، لقد دخل أحدهم إلى المنزل، أستشعر ذلك بكل كياني، أكاد ألمسه بيدي. أتقدم للداخل متمعنة النظر في الأرجاء، ولا أرى أي شيء إنما هنالك أمر مختلف حتمًا.

يقع بصري على النوافذ الفرنسية التي تفضي إلى الشرفة. أقترب منها وأفحص المقبض، لم يزل محكم الإغلاق. ثم أنحني لأتحقق من القفل، ولا يبدو عليه أي أثر للتلاعب فيه، ومع ذلك فعند إمعان التفكير، يتَبَدَّى أنه من المنطقي أن مَنْ يتسلل للمنزل يستخدم هذه النوافذ وليس الباب الأمامي، نظرًا لقفله المزدوج. حتى إذا تحصَّل على المفاتيح، لن يقدر على الدخول ما دمت أحكمت إغلاق القفل الداخلي للباب. لبضع مرات نسيت أن أغلق ذلك القفل، إنما في الفترة الأخيرة، ومنذ مغادرة ليو، بتُّ ملتزمة بإغلاقه كل ليلة.

أذهب إلى غرفة مكتبي وأمسك بالمفاتيح التي أعادها لي وِيل البارحة. إن بها مفتاحين فقط للباب الأمامي، أما المفتاح الأصغر الذي يفتح النوافذ الفرنسية ليس معهما. هل انتزعه وِيل من بينهما قبل أن يعيد المفاتيح إليَّ؟ أم لم يكن معهما من البداية؟

أهاتف ليو.

– هل كل الأمور على ما يرام؟

يسألني كما لو يعرف أنها ليست على ما يرام، مما يدفعني للحذر الشديد معه. إن كل ما يحدث يجرُّني للاحتراز واليقظة، لدرجة الشك في جميع الناس والأشياء.

– لمَ تظن أنها ليست على ما يرام؟

– لأنكِ تبدين هذه الفترة إلى حد ما مشتَّتة بين أمور لا حصر لها.

أكظم داخلي ردًّا حانقًا عليه؛ فإنه محق، هذا هو حالي.

أسأله: «بالنسبة إلى المفاتيح التي أعطيتها إلى وِيل، أكانت للباب الأمامي فقط أم تضمنت المفتاح الخاص بالنوافذ الفرنسية كذلك؟».

– أعطيته مفاتيح الباب الأمامي فقط. يوجد مفتاحان للنوافذ الفرنسية، واحد في درج المطبخ وآخر احتياطي في غرفة مكتبي.

أستوضح منه، بينما أتفقد درج المطبخ لأرى إذا ما يزال المفتاح داخلها: «أين مكانه بالضبط في غرفة مكتبك؟».

أجد المفتاح.

– في مكتبي، في الدرج العلوي منه إلى اليمين. أهنالك خطب ما؟

أجيبه مهرولة على درج السلم: «لو أن أحدهم يتسلل إلى المنزل، فإن الطريقة المعقولة الوحيدة هي عبر النوافذ الفرنسية، ما دمتُ أحكم غلق الباب الأمامي من الجهة الداخلية».

أصل إلى غرفة المكتب وأفتح الدرج العلوي إلى اليمين. المفتاح الاحتياطي موجود.

يقول: «أو يتسلل من خلال إحدى النوافذ الأخرى».

– قد يُحدِث دخوله جلبة كبيرة. أأنت متأكد أنه لا توجد مفاتيح أخرى لنوافذ الشرفة؟

– كل التأكد. لقد سلَّمني بِن كل المفاتيح التي لديه.

– بِن؟

– نعم، بِن الذي يعمل في وكالة ريدودز.

– لكنك غيَّرتَ كل أقفال المنزل، ومن المفترَض أن المفاتيح التي سلَّمها لك بِن لن تعمل.

– لقد غيَّرتُ أقفال الباب الأمامي ولم أغيِّر أقفال نوافذ الشرفة. لم يبدُ أن الأمر يستحق.

يدق ناقوس خطر في رأسي. أقول ببطء: «إذن، كيف تثق أن بِن لم يحتفظ بنسخة لنفسه من مفتاحها؟».

– وما الذي سيجعله يفعل ذلك؟

– ما دامت الطريقة المنطقية الوحيدة لتسلل أحد إلى المنزل هي عبر النوافذ الفرنسية، فلا جرم أن لديه مفتاحها، لأنني تأكدت أن المفتاحين اللذين لدينا موجودان.

– دعيني أخمن! تظنين أن بِن احتفظ بنسخة لنفسه وأنه مَنْ يقتحم المنزل.

بإمكاني التقاط نبرة في صوته تنبئ بتقبُّله للأمر.

– لا تبالغ في التشكك. هذا ما يجول في بالي فحسب نظرًا لمجيئه إلى هنا بالأمس.

– ماذا؟ أجاء بِن؟

– نعم.

– لماذا؟

– قال إنه كان لديه عمل في المجاورة وفكر أن يأتي ليعرِّف نفسه إليَّ.

– يُحتمَل أنه أراد التصرف بلباقة.

– ويُحتمل أن لديه دافعًا خفيًّا. فقد لمَّح إلى رغبته في الدخول ورؤية العمل الذي أنجزناه في الطابق العلوي.

– أسمحتِ له بالدخول؟

– لا، أخبرته أن يعاود الزيارة حين تكون موجودًا. بدت طريقته غريبة نوعًا ما، وعندما كنت في غرفة المعيشة الليلة الماضية، سمعت جلبة في المطبخ. لم أرَ أي أثر على اقتحام ولم أجد شيئًا مفقودًا. أما في هذه

اللحظة، فأتساءل عمَّا إذا بِن هو ذلك المتسلل؟

– لقد شطح بكِ التفكير. أعني، ما هو دافعه، ولا شيء مفقود؟

– ربما عرف نينا...

– لا.

يقولها بنبرة حازمة، وللحظة أخاله سيقول إنه يعلم أن بِن لم يعرف نينا من قبل.

– لكن، ماذا لو أنه هو مَنْ باع المنزل لِنينا وأوليفر؟

– أليس! يجب أن تكُفِّي عن ذلك.

– عن ماذا؟

– عن هوسكِ بجريمة القتل تلك. لقد ساءت الأمور بما فيه الكفاية بارتيابكِ فيَّ وارتيابكِ في جميع جيرانكِ تقريبًا حيال تورطنا في الجريمة. لكن ليصل الحد إلى اتهامكِ لوكيلنا العقاري، في حين أنكِ تجهلين إذا ما عرف نينا أم لا، فينبغي أن تتوقفي عما تفعلين على الفور.

أقول بحدة: «لن أتوقف حتى أكتشف ذلك الذي ينسل ليلًا إلى المنزل. لأنني لا أتوهم ذلك».

– برهِني على ما تدَّعينه. لو لديك إثبات، يمكننا الاتصال بالشرطة. لكننا بحاجة إلى إثبات. كيف نبلِغ الشرطة أننا نعتقد أن شخصًا ما يقتحم منزلنا في الليل، سنصبح مدعاة للسخرية. لذلك، ما دمتِ لم تجدي شيئًا مفقودًا أو تغيَّر عمَّا هو عليه، لن نقدر على فعل شيء.

يصمت لبرهة ليضيف: «سأعود إلى المنزل، يا أليس. لا ينبغي أن تبقي بمفردك فيه».

– لا تتعب نفسك، سأغادر المنزل. إنني عائدة إلى هارلستون.

– متى؟

نبرة ارتياحه لا غبار عليها.

– سأغادر اليوم مع زوال النهار. سأتناول الغداء برفقة إيف وسأذهب من بعده. بوسعك الانتقال إلى المنزل في الغد.

يقول بهدوء: «إنني غاية في الأسف أن الأحوال بيننا آلت إلى هذا الحد».

تفيض عيناي بالدمع.

– وأنا كذلك.

الفصل الأربعون

أجلب حقيبتَي سفر من المرأب وأباشر في ملئهما بثيابي التي في غرفة مكتبي، ثم أصعد إلى الطابق العلوي لحاجتي إلى بناطيل جينز وكنزات تكفيني للأسابيع القليلة القادمة. ما تزال كنزاتي مبعثَرة على الأرض منذ أن سقطت عن المقعد. لقد ساء الوضع بما فيه الكفاية بعدما اتهمتُ ليو بأنه دسَّ ضفيرة الشعر الأشقر في خزانة الملابس، والشكر للرب أنني لم أوجه له لومًا على الاختباء داخلها. إنما اختبأ شخص آخر، وفعلها في ذلك اليوم الذي لمحتُ فيه أحدًا في النافذة، واشتممت رائحة مستحضر لما بعد الحلاقة. حسبت أنها رائحة أحد مستحضرات ليو، فهو يستخدم أنواعًا عديدة ومختلفة منها ولا أستطيع عادة التمييز بينها.

إن مجرد تصور شخص ما في الخزانة يراقبني، وقتما بحثت عن ليو خلف باب الحمام، يبعث على غثيان ممزوج بفزع ذي تأثير رجعي. هل لذلك علاقة بما حدث بعد حفل المشروبات، عندما شعر ليو أن أحدهم تسلل إلى غرفة النوم؟ وفي الصباح التالي، وجدت أحذيتي وقد انزاحت إلى الجانب، أيعني ذلك أن الشخص نفسه اختبأ داخل الخزانة تلك الليلة أيضًا؟

– تمالكي أعصابكِ، بربكِ، يا أليس!

أقولها بأعلى صوتي، لعلِّي أرى بعض المعقولية في الأمر. لا أحد ذو ذهنٍ سليم يختبئ في خزائن ملابس الآخرين وهم نائمون بجوار بعضهم. الأمر الوحيد الذي لا شك فيه أن أحدهم ما انفكَّ يتسلل إلى المنزل. ماذا يفعل عندما يدخل إلى هنا، عدا بعثرة خصلات من الشعر في الأرجاء لأراها؟ أهناك دلائل أخرى لم أنتبه إليها؟

أجلس على السرير، وأتذكر كل حدث لم يحمل أي قدرٍ من المنطق، مثل المرة التي لم أجد فيها فستاني الصيفي الأبيض، وبعد عدة أيام، ظهر فجأة نظيفًا وتفوح منه رائحة منعشة. لكن لا أحد ينسل إلى منزل غيره ليأخذ فستانًا، يغسله ثم يعيده إلى خزانة الملابس، إلا إن كان يجرب كيف سيفلت بفعلته قبل أن ينتبه أحد.

تجول الأفكار في عقلي دونما توقف. أمسك بهاتفي وأتصل بليو مرة أخرى. إنه في عمله في هذا الوقت، لكن هذه مسألة عاجلة.

– أعرف أن سؤالي قد يبدو سخيفًا، إنما أَغسلت فستاني الصيفي الأبيض من أجلي بعد ليلة الحفل؟

– ما... لا.

– وبالنسبة إلى بطاقات الترحيب التي أهداها لنا جميع مَنْ حضر، ورصصتها على رف المدفأة في غرفة المعيشة، هل وضعتها مستوية لتمزح معي؟

– لا.

– حسنًا. هل تركت لي وردة بيضاء على إطار النافذة المجاورة لباب المنزل؟

- متى حدث ذلك؟
- لا يهم متى، ما أريد معرفته هو إذا ما فعلت شيئًا كهذا.
- لا، لم أفعل.
- لم تترك لي وردة مطلقًا؟
- لا.
- حُسم الأمر، أشكرك.

أغلق الخط، أفكر لبضع لحظات ثم أتصل به للمرة الثالثة.

أقول: «آسفة لإزعاجك. لن أتصل بك مرة تالية، أعدك».

- لا بأس.

يصمت هنيهة ثم يسألني: «أكان من المفترض أن أترك لكِ وردة؟».

- لا. وددت أن أشكرك على قنينة الشمبانيا التي تركتها من أجلي في الثلاجة. نسيت وقتها أن أفعل ذلك.
- عن أي قنينة تتحدثين؟
- قنينة الشمبانيا من نوع «دوم بيرنيون».
- دوم بيرنيون؟
- إذن، لم تكن أنت؟
- لا. أيعني ذلك أن أحدهم وضع قنينة شمبانيا دوم بيرنيون في ثلاجتنا؟

على استعجال أقول: «لربما بقيت مكانها منذ أمسية حفل المشروبات. لا بد أن أحد المدعوين جلبها معه ووضعها في الثلاجة».

يقول: «إن قنينة ثمينة كهذه لم أكن لأغفل عنها قط. ما الذي يجري، يا أليس؟».

- أحاول أن أربط الأمور ببعضها فحسب.

وأنهي المكالمة قبل أن يطرح المزيد من الأسئلة.

أترك حزم ملابسي وأهرول نازلة على الدرج، وفي ذهني أتساءل عن الإشارات العديدة الأخرى التي غفلت عنها. إنني واثقة من أن ذلك المتسلل ترك إحداها وراءه في الليلة الماضية في المطبخ. أقف في المنتصف وأدور ببطء حول نفسي وعيني تجول متفحصة الأرجاء، بحثًا عن شيء في غير موضعه.

أصرخ من الإحباط: «أين هو ذلك الشيء؟».

أتحرك إلى حيث وقفت هذا الصباح، عند باب المطبخ، حينما شعرت للوهلة الأولى بأن هنالك شيئًا غريبًا. هذه المرة أسكن مكاني تمامًا، وعيني فقط هي التي تتحرك، أدقق بها النظر إلى التفاصيل، شِبرًا شِبرًا، وأسمح لها بالتجول على مهل فاحصة سطح المنضدة الرخامية ثم فوق وأسفل الخِزانات، تتخلل الأرفف والحامل الذي تتدلى منه القدور، تتمعن فوق الموقد والفرن والثلاجة. لكن لا شيء في غير محله.

***

أبعث رسالة نصية إلى ديبي لأبلغها أنني سأصل إليها هذا المساء. وللحظة، أتحير في أن ألغي عشاء اليوم مع إيف والأخريات وأغادر في صمت، وفيما يحدِّثني نصف من عقلي أنني في خطر، يخبرني النصف الآخر أن جل تصوراتي ليست صائبة بالمرة. إنما في جميع الأحوال، لا أرغب في المغادرة قبل مقابلة إيف. قد لا يتسنى لي رؤيتها لمدة طويلة، وأشعر أنني بتُّ قريبة منها على نحو لا أستطيع تفسيره.

تردُّ ديبي أنه سيكون في انتظاري زجاجة نبيذ. أراسل جيني وأخبرها أنني قررت العودة إلى هارلستون اليوم، ويمكننا أن نتحدث معًا في عطلة نهاية الأسبوع. بعد ذلك أهاتف توماس.

أقول: «هل أزعجك باتصالي الآن؟».

– لا بأس، بوسعي اقتطاع جزء من وقتي لبضع دقائق. هل تحصَّلتِ على اسم معالج نينا النفسي من تامسين؟

– لا، لست واثقة أن لهذا الموضوع صلة بما نبحث عنه. أتساءل أحيانًا إذا ما أجنح للجنون بقدرٍ ما. أعني، ألا ترى أنه من الخبل أن ترتبط حادثة اختفاء منذ ثلاث سنوات بمقتل نينا، لمجرد أن شخصية المعالج ظهرت في القضيتين؟ وحتى جريمة القتل التي وقعت في فرنسا، من السخافة الظنُّ أن لها علاقة بجريمة قتل نينا، لمجرد أن كلتا الضحيتين حُلق رأساهما. أوضح لي ليو أنني بحاجة إلى التخلي عن هوسي بمقتل نينا، ولم أقدر أن أعبِّر عن حنقي منه؛ فإن معه حقًّا، بتُّ مهووسة بمقتلها. لقد تفاقم هوسي لدرجة الشك في جميع مَنْ حولي أنهم متورطون في الجريمة، وعلى الرغم من ذلك، ما يزالون يرددون أن أوليفر قتلها.

يهمس: «يؤسفني هذا».

ثم يتنهد بعمق ليقول: «لا تعلمين إلى أي مدى أندم أنني أقحمتكِ في تحقيقي، الذي –لأصدقكِ القول– لكنت أغلقته في الحال لولا هيلين. لستِ الوحيدة التي تواجه تشككًا في دوافعها».

– ما الذي تعنيه؟

– من وقت لآخر، أتساءل عمَّا إذا أبقي التحقيق مفتوحًا فقط، من أجل الاستمرار في مقابلتك.

تداهمني دفقة من السرور.

– يمكنك الاستمرار في مقابلتي بطريقة أو بأخرى.

– لكن لفترة مؤقتة لأنكِ انفصلتِ عن ليو. وحتى تتخذي قرارًا جديدًا في حياتك، لا أملك غير التحقيق عذرًا لمقابلتك.

– أقصدت بوقف التحقيق اعتقادك بأن أوليفر هو مَنْ قتل نينا؟

– لا، لا أعتقد أنه فعلها، بل أعتقد أن القاتل لم يزل طليقًا. إنما لم أعد أرى أنني سأتمكن من العثور عليه. هنالك العديد من الناس يكذبون بشأن ما حدث، وفك شباك أكاذيبهم يثبت استحالة الوصول إلى الجاني. ولو فُرض أنهم لا يكذبون، فهم يتسترون على كثير من التفاصيل.

– أتعني أنها أشبه بمكيدة مدبَّرة؟

– بالضبط. وما دام معظم ساكني المجاورة يتسترون على بعضهم بعضًا، فإن الطريقة الوحيدة التي قد توصلنا إلى الحقيقة، هي أن يكسر أحدٌ منهم هذه السلسلة.

أقول: «تبعًا لذلك، لدي فرضية أخرى لم أطلِعك عليها».

– وما هي؟

– هل تريد معرفتها حقًّا؟

– لم أفقد الأمل كليًّا بعد.

– حسنٌ. أعتقد أن بِن متورط في الجريمة بطريقة ما.

– بِن مَنْ؟ لم أسمع عن شخص يُدعى بِن في إطار القضية. في أي منزل يسكن؟

– لا ليس ساكنًا، إنه بِن سمسار العقارات الذي يعمل في وكالة ريدودز، وهو الذي باع لنا المنزل.

– هذا هو إذن، حسنٌ.

بعد برهة صامتة، يقول مستدركًا أسلوبه: «لا أقصد البتة أنكِ مخطئة في ظنك، إنما أتعجب مما أدى إلى تفكيركِ فيه».

– أخبرتك سابقًا عن اعتقادي بأن شخصًا ما يتسلل إلى المنزل في الليل. أظن أنه يستخدم النوافذ الفرنسية لينسل إلى الداخل. وما إن عرفت من ليو أن وِيل يحتفظ بنسخة من مفاتيح المنزل، استعدتها منه ووجدت أنها عبارة عن مفتاحين فقط، للباب الأمامي. تأكدت من ليو وقال إنه لم يعطِ وِيل أي مفتاح لنوافذ الشرفة، وإنه ليس لدينا سوى نسختين من مفتاح هذه النوافذ وكلتاهما في المنزل. وتحققت أنهما لا تزالان في المنزل بالفعل. مما يشير إلى أن ذلك المتسلل إنْ كان يدخل عبر النوافذ الفرنسية، فلا بد وأن معه نسخة أخرى من المفتاح.

– وتظنين أن بِن بحوزته تلك النسخة.

– لسبب بعينه فقد كانت معه مفاتيح المنزل كلها حتى يتمكن من عرض المنزل على عملائه، والأقفال الوحيدة التي لم نغيِّرها هي أقفال النوافذ الفرنسية. كما جاء بالأمس لزيارتي.

– ماذا؟ أجاء إلى المنزل؟

– نعم.

– هل ذكر سببًا لمجيئه؟

– قال إنه أتى إلى المجاورة من أجل التفاوض على بيع محتمَل لعقار ما، وارتأى أن يعرِّف نفسه إلي. لكنه لمَّح بالإضافة إلى ذلك إلى اهتمامه بمشاهدة العمل الذي أُنجز في الطابق العلوي.

– هل دعوتِه للدخول؟

لم يستطع أن يواري ذلك القلق في نبرته.

– لا.

– الشكر للرب. هل تعرفين لقبه؟

– لا، لقد ذكره لكنني نسيته.

– لا يهم، بوسعي البحث عن لقبه على الموقع الإلكتروني. يعمل في وكالة ريدودز، أليس كذلك؟ انتظري لحظة... ها هو ذا، اسمه بِن فوربس. هل تعرفين متى انتقلت نينا وأوليفر إلى المنزل؟

– لا، لماذا تسأل؟

– لأنه من الجائز أن بِن فوربس هو الذي باعهما المنزل.

تتسارع ضربات قلبي أكثر فأكثر؛ إن لديه التصور نفسه الذي لدي.

– هل ترى أن هنالك رابطًا محتمَلًا؟

– هذا ما سأحاول الكشف عنه. إنني على أتم الاستعداد لتدقيق النظر في كل شيء حتى أقدر أن أقول لهيلين إنني لم أترك بابًا إلا وطرقته. أودُّ أن أنهي هذا الأمر وأضع نهايته في يدي، يا أليس.

أقول: «هذا ما أريده أيضًا. ولذلك سأعود إلى هارلستون اليوم. يقلقني المبيت في المنزل بشدة في هذه الأحوال. لكن لا تشغل بالك، سآتي يوم الأربعاء القادم من أجل مقابلة هيلين».

يقول: «وستتناولين الغداء برفقتي».

أردف مبتسمة: «ومن أجل هذا أيضًا. إنني مضطرة إلى إنهاء المكالمة، يا توماس، لدي موعد على الغداء مع إيف وتامسين وماريا، على الرغم من أنني بتُّ أشك في جدوى محاولة اكتشاف هوية معالج نينا النفسي».

– افعلي ما ترتاحين إليه. في أي وقت ستغادرين؟

– في نحو الساعة الرابعة.

– إذن، لربما من الأفضل أن آتي لتوديعك. حتى الأربعاء القادم يبدو أمدًا بعيدًا.

أخبره: «يسرني أن تفعل».

في نبرة دافئة، يردف: «حسنٌ. أراك في الرابعة إذن».

الفصل الحادي والأربعون

في طريقي إلى الحانة الفرنسية، يرن هاتفي. إنها جيني.

– ما الذي أخبرتِ به ليو؟

– بخصوص ماذا؟

– جريمة القتل.

– آه...

لا أدري ما يجب قوله في حالة أن ليو أخبرها عن بِن، في حين أنها ومارك أصبحا مقربَين منه.

– ما دعاني لسؤالكِ هو أن ليو قضى الصباح كله يطالع مقالات عنها عبر الإنترنت.

– ألم يذهب إلى عمله؟

– لا. ذكر أنكِ ما زلتِ مقتنعة أن العدالة أخفقت في تحقيق مسعاها، وأنكِ لا تولين اهتمامًا بهذه القضية جزافًا على الإطلاق. لقد حاول أن يصل إلى المقال الذي قرأتِه الذي دفعكِ للتصديق أن الزوج ليس مذنبًا. وفي الوقت الحالي، يسعى للتحدث إلى بِن، ولا أرى سببًا لذلك. يريد أن يعرف منه إذا ما باع المنزل إلى الزوجين ماكسويل.

يوخزني نذير بالخطر. لقد تأثرت برغبة ليو في تقديم المساعدة، لكن يعتريني شعور بالذنب حيال وقته الضائع هباءً في البحث عن مقال لا وجود له. وماذا لو اتضح أن بِن متورط في مقتل نينا، وأصابته تساؤلات ليو بالفزع لفضح أمره؟

أُطمئن جيني: «أعتقد أن جل ما يصبو إلى معرفته هو متى انتقل آل ماكسويل إلى «ذا سيركل»».

– لا بأس بالأمر إذن.

– أرجو المعذرة، لن أستطيع أن أطيل الحديث معك. لدي موعد على الغداء مع إيف وتامسين وماريا.

تقول: «استمتعي بوقتك».

– يجب عليَّ إعلامهن أنني سأغادر المنزل. بالتأكيد ستبتهج تامسين بهذا الخبر.

تضحك وتغلق الخط.

***

لدى وصولي إلى الحانة، أجدهن في انتظاري، جالسات إلى طاولة دائرية. ولقد تركن لي المقعد المقابل لِتامسين، لذا بعد تحية كل منهن وعناقهن سريعًا أجلس بين إيف وماريا.

أقول فيما تصبُّ لي ماريا النبيذ في كأس: «آسفة لتأخري، انشغلت في حزم أغراضي».

تستوضح إيف: «ألم تكن صديقتكِ آتية للمكوث معك؟».

– لا، قررتُ أن أذهب إليها بدلًا من أن تأتي. لكن إقامتي معها لن تكون للعطلة الأسبوعية فحسب. لقد اعتزمت العودة إلى هارلستون دون رجعة.

تقول، وكأسها في منتصف المسافة إلى شفتيها: «أحقًّا ستغادرين؟».

– نعم.

– يا إلهي!

تعيد الكأس إلى موضعها على الطاولة. وتسألني ماريا: «ماذا عن ليو؟».

– سيبقى في المنزل.

تضع يدها على يدي، مردفة: «يؤسفني ما تمرين به، يا أليس».

– وأنا كذلك.

تقولها إيف وهي على وشك البكاء.

أميل إليها قائلة: «لا تحزني. سآتي لزيارتك».

تردف بأسى: «لكنكِ لن تعيشي في المنزل المجاور لي».

أرفع كأسي.

– سأفتقدكن جميعًا، لقد أحسنتن الترحيب بي. هيا بنا، لنشرب معًا نخب صداقتنا الدائمة.

تمرر لي ماريا قائمة الطعام ونختار وجباتنا. تسألني إيف عمَّا إذا سأتمكن من استعادة منزلي الريفي في هارلستون، وأخبرها أنني سأبقى في منزل ديبي حتى أستطيع تدبر أموري.

تسأل تامسين: «ألا يوجد أي أمل في أن تصلحي أنتِ وليو ما بينكما؟».

أمدُّ يدي نحو كأسي، مجيبة: «لا. لا أعتقد ذلك».

– أترفضين لأنه لم يطلعكِ على جريمة القتل مسبقًا؟

أخبرها: «لا يمكن الحكم على شيء من منظور واحد، تمامًا مثلما يحدث في أمر جريمة القتل».

تتأوه: «لا تبدئي في الحديث بشأنها مجددًا».

أسرع بالقول: «أريد معرفة أمر واحد، وبعدها لن أسألكِ عن أي شيء يخصها أبدًا».

تسأل بحذر: «وما هو؟».

– قلتِ سابقًا إن نينا ترددت على معالج نفسي. أكان رجلًا أم امرأة؟

– كان رجلًا.

– هل ذكرتْ في أي فرصة اسمه؟

ترفع حاجبها في استنكار.

– لقد سألتِ سؤالين. إنما لا، لقد طلبتُ منها أن تخبرني باسمه، وكما قلتُ لكِ لم تذكره لي قط.

– أتعرفين في أي منطقة يمارس عمله؟ أفي منطقة عامة؟

تتدخل إيف في الحوار قبل أن تتفوه تامسين محتجة أنه نفدت فرصي في توجيه الأسئلة، قائلة: «لا يهم مكان عمله في شيء لأنه اعتاد القدوم إليها. ولذلك توقفتْ عن المجيء إلى صف اليوجا معنا، لتضارب

موعده مع جلساتها العلاجية».

تعلِّق تامسين: «هذا صحيح، لم تحدِّد موعد جلساتها بعد ظهيرة كل أربعاء، إلا ليصير لديها عذر مقبول لعدم رؤيتي».

أعبس، متذكرة أن نينا ابتدأت في تجنب مقابلتها قبل نحو أربعة أشهر من مقتلها.

– أيعني ذلك أن جلسات العلاج النفسي أمر لم يحدث قبلًا؟

– نعم.

– واعتاد المجيء إلى منزلها؟! أهذا أمر يفعله المعالجون؟

تقول ماريا: «إنني معالجة للتخاطب، ورغم أن التخصص ليس نفسه، فإنني عادة لا أذهب إلى منازل عملائي، باستثناء مَنْ يعوقهم سبب مرضي عن الحضور إليَّ».

ألتفت تجاهها قائلة: «لا أجزم أن لدى تيم معرفة باسم معالج نينا النفسي. لكنني أعرف أنه قرر التخصص في العلاج النفسي جديًّا بسبب نينا، ألا يُحتمل أنها ذكرت له اسمه ذات مرة؟».

– يمكنني سؤاله بالطبع. إنما، لماذا تريدين معرفة اسمه؟ ما دمتِ ستغادرين، أليس من الأفضل أن تبحثي عن معالج نفسي قريب من المكان الذي ستنتقلين إليه؟

– لا أريد تلك المعرفة من أجلي...

وأحجم عن الكلام من فوري؛ لست أدري عذرًا أقوله لهن يبرر احتياجي إلى معرفة اسم معالج نينا. لكن فات الأوان.

تلوي تامسين شفتيها، وعلى وجهها نظرة استهزاء، قائلة: «دعيني أَحزر. تعتقدين أن معالجها النفسي هو الذي قتلها».

أتابع قولي، مغتاظة أنها تسخر مني: «لا أعتقد هذا، كما لا أعتقد أن أوليفر هو الذي قتلها، ولا أنتِ نفسكِ تعتقدين».

– لم يسبق أن قلت ذلك.

– بل قلتِ! في اليوم الذي دعوتِني فيه لاحتساء القهوة، سمعت حديثكِ مع إيف وقلتِ إنكِ لم تصدقي مطلقًا أن أوليفر قتل نينا.

تبرق عيناها الخضراوان في استياء، فيما تحدق إليَّ عبر الطاولة.

– خمنتُ أنكِ كنتِ واقفة على الشرفة، تتسمَّعين إلينا، لكن من الجيد أنه ثَبُت بالإضافة إلى كل الأمور الأخرى، أنكِ مُتنصِّتة. يسعدني أنكِ مغادرة، يمكننا ممارسة حياتنا أخيرًا.

تمسك ماريا بذراعها، قائلة: «تامسين!».

أقول بغضب: «ألا يزعجكِ أن قاتل نينا الحقيقي لم يزل طليقًا؟ أستمكثين مكانكِ ولا تفعلين ولا تقولين شيئًا، وأنتِ تعلمين أن أوليفر لم يفعلها؟».

يحمرُّ وجهها، وتوجه إليَّ نظرة انتقادية حادة.

– لقد تماديتِ كثيرًا. كنا جميعًا سعداء قبل مجيئكِ ومحاولاتكِ لدسِّ أنفكِ في أمر لا يعنيك من قريب أو من بعيد. لم تعرفي نينا ولا أوليفر قبلًا، بأي حق تتدخلين في هذا الشأن؟ هل أخبركِ كيف نراكِ جميعنا؟

تناشدها إيف: «لا، يا تامسين».

لكن تامسين تجاوزت الحد ولا مجال لتستمع إلى أحد.

– إنكِ موهومة، يا أليس، تختلقين أمورًا وهمية لم تحدث ثم تصدِّقينها. أدركنا ذلك منذ اللحظة التي زعمتِ فيها أن رجلًا ما تطفَّل على أمسية المشروبات في منزلك، رجلًا لم يره أحدٌ سواك ولا تحدَّث إليه أحدٌ سواك. ولذلك لم نأبه سواء اكتشفتِ هويته أم لا. لقد علمنا أنه لم يكن سوى نسج من خيالكِ حتى تبدي أكثر إثارة للاهتمام مما أنتِ عليه بالفعل. لقد اعترفتِ بنفسكِ إلى وِيل أن هذا جُل ما سعيتِ إليه.

تزفر مُشمئِزَّة.

يستعر غضبي قائلة: «لم أختلق مجيء ذلك الرجل!».

تتطلع إليَّ في إشفاق.

– إننا نعرف يا أليس، نعرف أنكِ في أكثر من مناسبة اشتبهتِ بنا وبأزواجنا أننا متورطون في جريمة قتل نينا، بإمكاننا التكهن بمرادكِ من وراء دعواتكِ لنا على الغداء والعشاء، من وراء الأسئلة التي تطرحينها علينا، والأكاذيب التي تتفوهين بها. إنكِ خطر يمشي على الأرض. يجب أن تستعيدي زمام حياتكِ، قبل أن تدمري حياة كل مَنْ حولك.

أنتظر أيًّا من إيف أو ماريا تردُّ عني هجومها. غير أن إيف التي دومًا ما بذلت قصارى جهدها لتهدئة الأوضاع، لم تنبس ببنت شفة.

بات الصمت لا يُطاق. تدفع تامسين مقعدها للوراء وتنهض، قائلة بصوت محتدم: «تذكرت لتوي أنني بحاجة إلى الذهاب إلى مكان آخر».

أدفع مقعدي للوراء وأنهض مثلها، ساحبة حقيبة يدي من تحت الطاولة.

– لا تذهبي إلى أي مكان، أنا التي سترحل. وإذا ما تريدين معرفة السبب الذي من أجله تدَّخلتُ فهو شقيقة أوليفر، لم أفعل شيئًا إلا لأجل خاطرها. لكن في ظل أنه لا أحد على ما يبدو مهتم بإظهار الحقيقة، حتى أنتِ أقرب صديقات نينا، ماذا يمنعني من أن أولي الأمر بعض الاهتمام؟

أتحرك مبتعدة لكن أتوقف مضيفة: «وبالمناسبة، لم أختلق أنني قابلت ذلك الرجل، الذي تطفَّل على الحفل. لقد اعترفت لورنا نفسها بأنها سمحت له بدخول المجاورة، ألا تتذكرين؟».

أمسك دموعي حتى أصل إلى الطريق الخارجي، ومن ثم أطلق لها العنان. أسرع الخطى متجهة نحو متنزه فينسبيري، مُطأطِئة الرأس ووشاحي ملفوف حول رقبتي حتى أذني، لأنهار على أول مقعد أجده. أهذا ما أنا عليه؟ امرأة موهومة؟ عند تأملي لكل الأمور التي سبق وسمحت لنفسي بتصديقها خلال الأسابيع القليلة الفائتة، يعتريني الخجل. إن تامسين محقة، في أكثر من مناسبة اشتبهت فيهم جميعًا حيال تورطهم في جريمة قتل نينا.

تشتعل وجنتي لدى تصورهم يضحكون عليَّ من وراء ظهري. إن ما قالته تامسين عن استعادة زمام حياتي، لهو أكثر ما يؤلمني لأنها حتى في هذا الأمر محقة. لذلك كرَّست نفسي لمساعدة توماس وهيلين، احتجتُ إلى شيء في حياتي، إلى شيء يشعِرني أن لدي وجودًا، يشعرني أنني أعمل عملًا ذا قيمة، بدلًا من الوقت الطويل الذي عشته، على قيد الحياة فحسب. لكنني تحمست بصورة مبالَغ فيها. يرعبني التفكير

في ليو وتوماس، اللذين يسعيان في هذه اللحظة إلى الكشف عمَّا إذا يوجد ما يربط بِن بجريمة قتل نينا. ينبغي أن أطلب منهما التوقف عما يفعلان.

أفكر في نينا شقيقتي، وليست نينا ماكسويل، فأتمالك نفسي. أكاد أسمعها تحثني على أن أكف عن التأسف على حالي، وأتقبل أن الأمور اختلطت عليَّ نوعًا ما، وأتابع طريقي. إنها محقة، يجب أن أمضي قدمًا. من المتوقَّع أن أصل إلى المنزل في نحو الساعة الثالثة، مما قد يتيح لي وقتًا حتى ألقي بعضًا من أغراضي في حقيبة قبل مجيء توماس. في غضون ساعتين، سأمسي في طريقي إلى هارلستون، ونينا ماكسويل وكل الفترة التي قضيتها في «ذا سيركل» ستصير ذكريات.

الفصل الثاني والأربعون

أبدأ في السير عائدة إلى المنزل، وجزء مني يرغب في إلقاء اللائمة على ليو عمَّا جرى في الحانة. لو صارحني منذ البداية بشأن جريمة القتل، لما جئت إلى هنا قط. الأمر الحسن الوحيد الذي اكتسبته خلال الفترة التي مكثتها في «ذا سيركل» هو التعرف إلى توماس، وذلك إذا صمدت صداقتنا لما بعد انتهاء التحقيق الذي جمعنا معًا. أتوجس خيفة ألا تكتمل هذه الصداقة.

يرن هاتفي. أخرِجه من حقيبتي على أمل أنه توماس، وأجده هو. أتوقف عن السير وأتحرك إلى جانب الطريق.

– هل أقاطع غداءكِ، يا أليس؟

– لا، إنني في طريق العودة إلى المنزل.

أضغط إصبعي على أذني الأخرى، لأحجب الضوضاء وأستطيع سماعه بوضوح.

– جيد، أتصدقين أن أحد جيرانكِ كان في باريس وقت جريمة قتل ماريون كارتو؟

ينقبض قلبي.

– لست واثقة أنني أريد معرفة هويته.

– لا تبالغي في قلقك؛ إن قاتلها وراء القضبان في انتظار محاكمته. لقد سلَّم نفسه للعدالة منذ بضعة أشهر.

– يا إلهي، هذا خبر جيد، أليس كذلك؟

– في ظروف طبيعية، قد أقول بلى، لكن يعتقد الكثيرون أنه ليس الجاني. إن الرجل من المشرَّدين، لا مأوى له، وقد خرج من السجن بعدما قضى عقوبة عام بتهمة القتل. مع الأسف، هنالك العديد من القضايا تُرفع للقضاة على غير رغبتهم، من أجل البتِّ في شأن أناس مشرَّدين يقرُّون بذنبهم في أي جريمة كانت، حتى يتمكنوا من العودة إلى السجن. إن التجول في الشوارع لهو أكثر إثارة للخوف بالنسبة إليهم بالمقارنة بالسجن.

– إنما من المحتمَل أنه ارتكب تلك الجريمة.

– سنتأكد من ذلك بعد محاكمته، وبمجرد أن يُتحقق من صدق روايته لأحداث الجريمة.

أسأله: «إذن، أيٌّ مِنْ جيراني كان في باريس وقت جريمة القتل؟».

– ويليام جاكمان.

أغمض عينيَّ.

– ليتني ما اكتشفت فتحة السور الذي يفصل بين حديقتَي منزلينا.

– لا يعني هذا شيئًا بعد. ارتأيت أن أعلمكِ، ليس إلَّا. هل استطعتِ الحصول على اسم معالج نينا النفسي؟

– لا، لم أعرف غير أنه كان رجلًا. ولم تذهب إليه، بل هو من اعتاد المجيء إلى منزلها. أليس هذا وضعًا غير طبيعي؟

– لا، إنه طبيعي. إنما من دون اسم، لا يمكننا فعل شيء.

بعد برهة، يسأل: «هل أمورِكِ على خير ما يرام؟ إن في صوتكِ أسى».

– دعنا نقول إن الغداء لم يجرِ وفقًا للخطة. يسرني أنني مغادرة اليوم، إنه القرار الصائب.

– أتفضلين ألا آتي؟ لا بد أن لديكِ الكثير لتحضيره قبل التحرك.

– أحتاج إلى حزم بعض ملابسي في حقيبة واحدة، وسأعود لأخذ بقية أغراضي في وقت آخر. لذا، أرجو أن تأتي، ستسعدني رؤيتك.

– سآتي ما دمتِ تريدين ذلك.

– أريد ذلك.

– إذن، أراكِ بعد نحو ساعة من الآن.

لم أكد أغلق المكالمة حتى أجد هاتفي يرن مجددًا. إنها تامسين. أضحك ضحكة تهكمية، وأترك الهاتف تستمر رناته. لقد استغرقت إيف وماريا نصف ساعة في محاولة إقناعها لتتصل بي وتعتذر، إنني متأكدة أن هذا سبب اتصالها. يرن الهاتف من جديد، مكالمة أخرى من تامسين. سأتركه يرن ثانية وبعد دقيقة أو نحوها، أتلقى رسالة تعلِمني أن لدي بريدًا صوتيًّا. إنني لست في مزاج يسمح بالاستماع إليه، ولا حتى إلى البريد الصوتي التالي الذي سجلته لي.

بعد مضي خمس دقائق، تتصل إيف هذه المرة. يؤلمني أنها لم تنطق بكلمة دفاعًا عني، لذا لن أجيب على اتصالها هي كذلك. أدرك أنني لست منصفة بحقها؛ فهي صديقة لتامسين منذ سنوات، ومن الطبيعي أن تنحاز لصفها. مع ذلك لا رغبة لدي في التحدث معها، لا سيما في الوقت الحالي، بعدما عرفت أن وِيل كان في باريس تزامنًا مع جريمة قتل ماريون كارتو. وعلى الرغم من قول توماس بأن وجوده في الوقت نفسه هناك قد لا يعني شيئًا، يظل الاحتمال قائمًا.

أصل إلى المجاورة وأعبر الساحة في خطوات متثاقلة حتى المنزل. لقد انتهى الدوام الدراسي لهذا اليوم، ولذلك يتجه قليل من الناس إلى منطقة اللعب. مع أن في الهواء نسمة قارصة، فإن الشمس ساطعة في السماء، وأجدني رغمًا عني، أبتسم لمرأى الأطفال وهم يصعدون على هياكل التسلق الخشبية. أما بقية الساحة فإنها خالية تمامًا. ألمح إدوارد فيما أعبر مدخل المنزل، متجهًا نحو مرأبه فألوِّح له. وينجذب نظري دون حول مني إزاء منزل ماريا وتيم، الذي يقف في النافذة العلوية ذاتها مجددًا. يلوِّح لي وألوِّح له. من المريب أنه لا يحاول إخفاء حقيقة أنه يراقب الساحة. إن غالبية الناس يجفلون محرَجين حتى لو لم يقصدوا سوءًا من تحديقهم، أو يلتفتون بعيدًا بعد التلويح بالأيدي. غير أنه لم يتزحزح من مكانه قيد أنملة.

أجمع كل أغراضي وأضع حقيبة ثيابي وحقيبة يدي عند الباب الأمامي، لأكون مستعدة للمغادرة بمجرد مجيء توماس. هنالك مَنْ يضرب جرس الباب. أتفكر سريعًا؛ فمن المبكر أن يصل في هذا الحين، ماذا لو أنها إيف؟ لو صحَّ ذلك، لن أدعها تدخل، لا يمكنني وتوماس قريب من الوصول.

أعلق السلسلة في المزلاج قبل فتح الباب.

أرتبك لرؤية تيم واقفًا عند الباب، مرتديًا بنطاله الجينز المعتاد وقميصه الرَّجبي الفضفاض، وأروح لتساؤل في نفسي إذا ما لعب الرجبي في حياته.

أقول: «أهلًا».

يقول باسمًا: «مرحبًا، يا أليس. لقد ارتأيت أن آتي وأقابلكِ بنفسي. هاتفتني ماريا لتسألني عمَّا إذا لدي معرفة باسم معالج نينا النفسي، أتساءلتِ عن اسمه كما قالت لي؟».

– نعم، إنما لم يعد للأمر أية أهمية.

يطل الارتياح من وجهه.

– حسنًا، جيد، حيث إن نينا لم تذكره لي قط. قالت ماريا إنكِ مغادرة، أهذا صحيح؟

– نعم، صحيح. إنني مغادرة. ولذلك ليس لدي وقت متاح لدعوتك للداخل، أحتاج إلى الانتهاء من حزم أغراضي.

أقول له ذلك في حال استغرب من محادثتي له عبر سلسلة القفل.

يتخذ خطوة بعيدًا عن الباب، قائلًا: «لا داعي للقلق، إنني بحاجة إلى الذهاب على أي حال. يؤسفني أن علاقتكِ بِليو لم تدم، آمل أن نلتقي مجددًا».

– أشكرك، يا تيم. بالتأكيد سنلتقي ثانية.

أوصد الباب بعد ذهابه وأتجه إلى المطبخ. أستند إلى المنضدة، ويتفكر ذهني في المساعدة التي أمدتها نينا إلى تيم في دراساته الخاصة بالعلاج النفسي. لقد افترضتُ أنها ساعدته في الاستعداد لخوض اختباراته، راجعتْ مسوداته البحثية، أو أمور مشابهة. لكن ماذا لو أن ما بينهما تعدَّى ذلك؟ ماذا لو أن المساعدة التي أمدته بها قامت على تمثيل أدوار، فتقمصت نينا دور العميل وتقمص تيم دور المعالج النفسي؟

أدفع نفسي بعيدًا عن المنضدة، مستشعرة أنني على شفا تَبَيُّن أمر ما. أهو تيم الذي واظبت نينا على مقابلته بعد ظهيرة أيام الأربعاء، بينما ماريا برفقة إيف وتامسين في صفِّ اليوجا، ومن ثم تذهب من بعده لاصطحاب أبنائها من المدرسة؟ إن هذا من شأنه أن يفسر إحجام نينا عن ذكر اسم معالجها، إنْ ثبت أن تيم هو ذلك الشخص المَعْنِي.

أمسك عن التفكير مشمئزة من نفسي. إن تامسين على حق؛ إنني موهومة. إنما ليس كل ما أفكر فيه وهميًّا. إنني متيقنة أن شخصًا ما يتسلل إلى المنزل.

أتحرك نحو الثلاجة لأجلب بعض العصير. وفيما أغلق بابها، تلتفت أنظاري الموجَّهة إلى كأسي، لتحدق إلى الثلاجة، وقد جذبها شيء لم يكن هنالك قبلًا. إنها صورة صغيرة، في حجم صورة جواز السفر، ملصقة في منتصف الصور الأخرى، وقلبي تضطرب دقاته بل ويتوقف. للحظة لم أقدر على التنفس. أعرف الشخص الذي يظهر في هذه الصورة، إنما لا أريد أن أصدق.

أهرول إلى البهو، أخرجِ هاتفي من حقيبتي.

– توماس، أأنت في الطريق؟

حاولت أن أبقي نبرتي هادئة لكنني أخفقت.

– نعم، لقد اقتربت. لماذا تسألين؟ ما الخطب؟

– وجدت لتوي صورة تظهر فيها نينا على الثلاجة.

– نينا؟

أقول بصوت عالٍ مذعورة وأنفاسي متقطعة: «نعم، نينا ماكسويل. كنت واثقة هذا الصباح أن شخصًا ما دخل إلى المطبخ، غير أنني لم أرَ شيئًا متغيرًا، استشعرت بوجود ذلك الشيء ولم أستطع رؤيته، نظرت من زاوية بعيدة جدًّا. لكن الآن فقط، عند اقترابي من الثلاجة، رأيتها ملصقة بين الصور الأخرى. لا أدري ماذا أفعل».

– هل لمستِها؟

– لا.

– لا تلمسيها. لقد تحدثت إلى مصدري الأمني بشأن بِن فوربس. لن تصدقي ما الذي اكتشفناه. كنَّا على حق، إنها مكيدة مدبَّرة.

– ماذا تقصد؟

– اتضح أن بِن فوربس لم يبِع المنزل لآل ماكسويل فحسب، بل إنه صديق إلى تيم كُنواي أيضًا.

أجمد مكاني، قائلة: «إنه جاء منذ قليل».

– ماذا؟ أتقصدين تيم كُنواي؟ لماذا؟

– لأنني طلبت من ماريا أن تسأله عمَّا إذا يعرف اسم معالج نينا النفسي، وجاء حتى يقول لي إنه ليست لديه فكرة. إنما جال في خاطري، ماذا لو هو نفسه المعالج الذي واظبت نينا على مقابلته؟ فقد حددت جلساتها معه بعد ظهيرة كل أربعاء، في وقت حضور ماريا لصفِّ اليوجا، الذي اعتادت نينا الذهاب إليه، لكنها توقفت قبل أربعة أشهر من وفاتها.

بتُّ ألتقط أنفاسي بصعوبة.

يأتيني صوت توماس هادئًا إنما محذِّرًا: «سأنهي المكالمة في الحال، يا أليس. قد تحضر الشرطة قبل وصولي، لكنني سآتي في أسرع وقت ممكن. ولحين ذلك، لو جاء أي أحد إلى بابكِ، لا تسمحي له بالدخول مطلقًا».

الفصل الثالث والأربعون

بذهن مشتَّت أحكم غلق الباب الأمامي من الداخل، أتحقق أن السلسلة لم تزل معلَّقة في مزلاجها، وأهرع صاعدة الدرج إلى غرفة مكتب ليو لأمكث فيها لحين وصول توماس. ترتجف أوصالي جرَّاء صدمتي أن تيم هو الذي ينسل إلى المنزل في الليل. تشير كل الدلائل إليه، بما فيها طريقة تصرفه في مطبخي ليلة العشاء. لا بد وأنه حصل على نسخة من مفتاح نوافذ الشرفة من بِن، واستغل فتحة السور الذي يفصل بين منزلنا ومنزل إدوارد كي يدخل إلى حديقتنا، وربما هنالك فتحة أخرى في السور ما بين حديقة منزله وحديقة منزل جيف من أجل تيسير أمور البستنة.

إنما الأسئلة لا تنفك تنهال عليَّ. هل بِن متورط معه؟ لو أن تيم هو مَنْ قتل نينا، أشاركه بِن في الجريمة؟ وما مدى معرفة ماريا بهذا؟ أهي بريئة كليًّا، أم أنها عضوة في هذه المكيدة التي تشمل إيف وتامسين، وحتى وِيل وكونر؟ إلا إذا كان بِن هو مَنْ قتل نينا، فلربما استحوذت على إعجابه منذ باعها وزوجها أوليفر المنزل، وانغمسا في علاقة غرامية. أقتل نينا ثم أخبر تيم بما اقترفته يداه؟ هل مِنْ هنا ابتدأت خطة التغطية على ما حدث، أم أن جميعهم اشتركوا في الجريمة معًا منذ التخطيط لها، رغبة في التخلص من نينا لأسباب في نفس كل واحد منهم، ونصبوا فخًّا لأوليفر ليحمل الذنب وحده؟

إن تصور أنني خُدعت بشتى الطرق من قِبل أناس اعتبرتهم أصدقائي، يصيبني بشعور جارف بالألم. لقد حاولت لورنا تحذيري، أخبرتني ألا أثق بأحد. لكنني أصررت على المتابعة، غير راغبة في تصديق أنهم قد يكذبون عليَّ. وجب أن أستمع إلى إدوارد أيضًا، وألا أدع أحدًا يعلم أنني مغادرة، غير أن الحال آل بي إلى إعلام الجميع.

إن شعوري بخطر محدِق يفوق الاستيعاب. أبقي أنظاري مركَّزة نحو بوابة المجاورة على الطرف البعيد من الساحة، متيقنة أنني لن أرتاح إلا برؤية توماس. ينتابني هلع لحظي؛ لعل ماريا عادت إلى عملها، لكن بالنسبة إلى إيف وتامسين، ماذا سيحدث لو رأتا توماس وهما عائدتان سيرًا عبر الساحة من المطعم؟ أتخيل الاثنتين تلكزان بعضهما عند رؤية رجل غريب طويل ووسيم يذرع الخُطى. هل ستراقبانه إلى أين يتجه؟ ماذا لو رأتاه قادمًا إلى منزلي؟

أفطن إلى أنه لا يهم إن رأتاه. لست ملزَمة بتوضيح أي شيء لهما، لن أبقى في الجوار على أية حال. لن أضطر إلى البوح لأحد أنه الرجل الذي تطفَّل على الحفل، لن أضطر إلى إخبار أحد أنني أبقيت معرفتي به سرًّا بسبب مساعدتي له في التحقيق في مقتل نينا، تلك الجريمة التي حُل لغزها. أفكر في هيلين وكيف ستبتهج بعد معاناتها، أنها باتت قادرة على تبرئة اسم شقيقها.

عندئذ أرى كلًّا من إيف وتامسين تدخلان الساحة. أنتظر حتى تنعطفا باتجاه منزل تامسين، لكنهما تتوقفان في منتصف الطريق. أستحثهما: تحركا! اذهبا! إنهما متقاربتا الرأس متعمقتان في حديث ما، إنما لن يمنعهما ذلك من رؤية توماس. فهو رجل يصعب أن يعبر من مكان دون ملاحظته.

غير أن له قدرة ما على الاختفاء، ليس ليلة الحفل فحسب، بل وخلال كل المرات الأخرى التي أتى فيها لزيارتي. بالتأكيد، كان حوله أناس في طريق عبوره الساحة حتى المنزل، أو في طريق عودته، إنما لم يذكر أحد مطلقًا رؤية شخص غريب طويل القامة، داكن الشعر، على الرغم من أن الجميع يعرف أنني ظللت أتتبع أثر رجل بالمواصفات ذاتها. ولم يصدق أحدهم أنه رجل حقيقي.

تنقِّب تامسين حقيبتها بحثًا عن شيء ما، وتبدأ في التحرك نحو منزلها، تتبعها إيف. أتنفس الصعداء، لكن بعد لحظة، تستدير تامسين وتتطلع نحو منزلي، وهاتفها المحمول على أذنها. فأبتعد عن النافذة، متمنية أنها لم تلمحني. بين قبضتي يرن هاتفي فجأة، فأفزع. هي التي تتصل.

ثم ينتفض قلبي لرنين جرس الباب. طلب مني توماس ألا أفتح الباب لأحد. يُحتمل أنها الشرطة، حيث قال إنه سيتصل بها. ربما جاءت عناصر من الشرطة في سيارة لا تحمل علامات مميزة. أدسُّ هاتفي في جيبي وأهرول نازلة الدرج.

يأتي صوت توماس عبر الباب: «إنه أنا، يا أليس».

أفتحه بسرعة، وأطرف بعيني نافضة الدموع التي اندفعت إليها.

يبصر ملامح وجهي، فيطوِّق ذراعي بيده، قائلًا: «لا تخافي. إنني معكِ الآن».

– ترقبت مجيئك من ناحية الساحة لكنني لم أرك.

– لقد التففت حول الطرف الخارجي، كما أفعل دومًا. لا أحبذ لفت الأنظار إليَّ. أهاتفكِ هذا الذي يرن؟

– نعم، لكنها تامسين.

– أأنتِ متأكدة؟ لربما هو أحد عناصر الشرطة، فقد أعطيتهم رقم هاتفك.

أرفع الهاتف في وجهه.

– إنني متأكدة، انظر.

– ألا تريدين أن تجيبي عليها؟

نتحرك إلى المطبخ.

– لا، لا داعي لذلك. لقد خضنا جدالًا على الغداء. أخبرتك من قبل أنها تكره أن أطرح أسئلة بشأن نينا.

ثم أشير نحو الثلاجة، مضيفة: «هذه هي الصورة».

يمعن النظر إليها.

– أستغرب لماذا وضعها هنا؟

أبين له: «إنها بطاقة معايدة بمناسبة الزيارة على الطريقة التقليدية. لقد أدركت هذا الصباح أنني لم أنتبه للعديد من الأمور، التي ظننتها من فعل ليو، مثل وردة على حاجز النافذة، قنينة شمبانيا في الثلاجة، صورة مقلوبة على وجهها. وفي كل مرة، يبادر بفعل شيء، أغفل عن أمور عديدة أخرى. وكأنها لعبة، إنه يعبث معي طوال تلك المدة. ماذا قالت الشرطة عندما أبلغت عن الصورة والعلاقة بين تيم ونينا؟».

أرفع رأسي متطلعة إليه.

– تركتُ مصدري في الشرطة يتولى الأمر كله من جهته، وتحدَّث إلى رؤسائه. إنني مدهوش أن لا عناصر شرطية حضرت حتى اللحظة.

– لنحتسِ القهوة ريثما يحضرون.

يرن هاتفي من جديد فأتأوه: «إنها تامسين ثانية. هل من الأفضل أن أجيب هذه المرة، لتجاوز هذا الأمر ووضع نهاية له؟».

– لا مناص من ذلك، إنما لا تسمحي لها أن تسيء الحديث معكِ بأي حال. سأتولى تحضير القهوة.

– أشكرك للطفك.

أجيب المكالمة، معجبة بارتياحه لتولي الأمر عني.

– لا تغلقي الخط، يا أليس!

يحمل صوت تامسين نبرة ملحَّة عبر الهاتف. لا أنطق بكلمة وأدعها تستطرد: «لقد قلتِ إنكِ تفعلين ذلك من أجل شقيقة أوليفر».

أؤيد، متوقعة أنها نادمة على ما فعلته: «هذا صحيح».

– إن أوليفر ليست له شقيقة.

أضحك، مردفة: «مزحة جيدة».

يلتفت توماس تجاهي من مكانه عند الحوض ويبتسم في وجهي، مسرورًا أنه يستمع إليَّ وأنا أدافع عن نفسي.

تقول تامسين: «أنصتي إليَّ، لقد عرفتُ نينا وأوليفر خير المعرفة، وهو الذي أخبرني أنه طفل وحيد. كما ذكرت لي نينا أن لا عائلة له، لأن والدته توفيت في صغره ووالده عاش في الخارج».

– لا تتصلي بي مجددًا، يا تامسين.

– انتظري، هناك أمر آخر! ألم تقولي إن ذلك الرجل تطفَّل على حفلك؟

ينقبض قلبي، لا بد أنها وإيف رأتا توماس سائرًا حول الطرف الخارجي للساحة.

تتابع تامسين: «إذا صحَّ قولكِ إن لورنا سمحت له بدخول المجاورة، إذا كان الرجل حقيقيًّا، فلماذا لم يذهب فكركِ إلى أنه لربما قاتل نينا؟ ألم يكن من الأجدر أن تفكري فيه أولًا، قبل أن تشتبهي فينا؟ لأنه ما الداعي لمجيئه إلى حفل الترحيب في منزلكِ إذن، خلاف هذا الغرض؟».

للحظة مروعة، يسكن العالم عن الحركة.

يأتي صوت تامسين عبر الهاتف: «أليس؟ أتسمعينني؟».

يتطلع إليَّ توماس مبتسمًا، فتهزني ابتسامته وتعيدني إلى الواقع.

– كما قلتُ لكِ، لا تتصلي بي مجددًا.

أقطع الاتصال وأضع الهاتف في جيبي، متمنية لو بوسعي إخبارها أنه محقق خاص يبحث في قضية مقتل نينا، وأنه عثر على قاتلها.

يقول توماس: «أفترض أن اعتذارها لم يلقَ قبولًا لديك، أليس كذلك؟».

أهزُّ رأسي.

– بلى، أبدًا.

– إذن، أعرفتِ شيئًا عن معالج نينا النفسي؟

– لم أعرف أكثر مما قلته لك. كما أنه بالكاد له صلة بالأمر، بما أن تيم هو الجاني.

أبتسم له ويبادلني الابتسام، إنما كلمات تامسين لا تكفُّ عن التخبط بقسوة في ذهني. أوليفر ليست له شقيقة.

أخرِج هاتفي.

– يجب عليَّ إبلاغ ليو بموعد مغادرتي حتى يتمكن من العودة، فقد بالغ في إلحاحه لأبلغه متى قررتُ الرحيل. من المفترض أنني سأغادر في غضون ساعة لكن لربما ينبغي أن أنتظر، في حال أتت الشرطة.

– ما رأيكِ لو تخبرينه أنه لا يمكنكِ تحديد وقت المغادرة، وبهذا سيضطر إلى الانتظار حتى الغد؟

– فكرة حسنة.

أقولها وقد بدأتُ في مراسلة ليو بالفعل: **أيمكنك البحث عمَّا إذا لدى أوليفر شقيقة؟ إنه أمر ضروري، ضروري للغاية.**

يردُّ على رسالتي في لحظتها تقريبًا: **أنتِ مَنْ قلتِ لي إن لديه شقيقة، كيف تطلبين مني الآن أن أبحث عن ذلك؟**

أقول في ابتسامة حزينة: «علمتُ أنه سيتذمر. إنه ليس مسرورًا بشأن اضطراره إلى الانتظار حتى الغد».

– قولي له أن لا خيار آخر أمامه.

– عندك حق.

أجيب على رسالته: **لا أعرف! ابحث عن الأمر فقط، من فضلك!**

– سأبذل ما في وسعي. بالمناسبة، لقد تحدثت إلى بِن. لم يقابل آل ماكسويل قط، فهو لم يبدأ عمله في وكالة ريدودز إلا منذ عامين. إن منزلنا هو أول عقار يبيعه في «ذا سيركل».

تتباطأ دقات قلبي وتتثاقل في صدري. أنظر إلى توماس، ويتردد صوت تامسين في ذهني. لماذا لم يذهب فكركِ إلى أنه لربما قاتل نينا؟

يسألني توماس: «ما الذي قاله ليو؟».

أضع هاتفي على وجهه أعلى الطاولة حتى لا يتمكن من رؤية ما يبعثه إليَّ ليو بشأن مسألة شقيقة أوليفر، قائلة: «إنني غلبته، وسينتظر حتى يوم غد».

– هذا جيد.

ينتهي من تحضير القهوة ويجلبها إلى حيث أجلس.

أسأله: «هل أبلغت هيلين أنني متشوقة للقائها يوم الأربعاء؟».

يسحب المقعد المقابل لي، قائلًا: «بالطبع أبلغتها، وطلبتْ مني أن أخبركِ كم تتشوق للقائكِ بالمثل. فكرتُ أن... قد يبدو هذا مبكرًا نوعًا ما، إنما أودُّ أن أعرفكِ إلى والديَّ في وقت قريب، وإلى لوي كذلك».

أقول، رافعة قدحي إلى شفتيَّ: «يسعدني ذلك».

أحاول أن أتمعن الأفكار التي تطوف في ذهني، فيما تتضارب ببعضها، وتبيد بعضها بعضًا. أراني توماس صورة له مع هيلين في الجامعة، لا، لقد أراني صورة له مع فتاة شابة.

أقول: «ستكون لحظة رائعة عندما تخبر هيلين أنك عثرت على الشخص المسؤول عن مقتل نينا، إنْ ثبُت أنه تيم».

– إنني واثق تمامًا من أنه الجاني.

– وما دافعه للقتل؟

أتأمل ملامح وجهه، التي صرتُ أعرفها عن ظهر قلب، والبقع الخضراء في عينيه، وحتى اتجاه ميل شعره الساقط على جبهته. الطيبة بادية عليه، كما أن لديه ابنًا ووالدين، ويرغب في أن أقابلهم. لا يُعقل أنه قتل نينا، إنه أمر يصعب تصوره، كيف له أن يعرفها؟ إلا إذا استعانت به ليتقصى في أمر أوليفر، أو أوليفر هو الذي استعان به ليحقق في شأن نينا، لأنه اشتبه في تورطها في علاقة غرامية. الأمر الوحيد الذي أعلمه هو أن توماس جرينجر يعمل محققًا خاصًّا، حيث إنني تحققت من عنوان مكتبه الذي أعطاني إياه. ما لم يكن يكذب هو الآخر، مثلما كذب ليو. ربما اسمه ليس توماس جرينجر. وربما لا يعمل محققًا خاصًّا، ولا لديه ابن ولا والدان بالمرة.

يقول: «من يدري؟ من الجائز أنه وقع في حب نينا عند انتقالها مع أوليفر إلى هنا، وانغمس في علاقة معها، وعندما حاولت أن تنهي ارتباطها به، قتلها».

أهذا ما حدث؟ أهذه هي القصة؟ هل توماس، لو أن هذا هو اسمه، انغمس في علاقة مع نينا؟ وإذا ما فعل، متى التقاها وكيف؟ كيف لم يلمح أي أحد رجلًا غريبًا يتردد على المنزل؟ وفي الآونة الحالية، واظب توماس على زيارتي مرة أسبوعيًّا على مدى الأسابيع الخمسة الماضية، ولم يره أحد قادمًا إلى المنزل خلال زيارة واحدة من تلك الزيارات، ولا حتى إيف، التي تسكن في المنزل الملاصق. عندها أدرك أنها ما كانت لتراه قط، لأنه باستثناء اليوم، دومًا ما جاءني توماس بعد ظهيرة الأربعاء، حينما تذهب إيف برفقة تامسين وماريا إلى صفِّ اليوجا. وقد اعتادت نينا أن ترافقهن، لكنها توقفت بما أنها في أيام الأربعاء، باتت تلتقي معالجها النفسي.

عند هذه النقطة تتكشف لي الحقيقة.

إنه المعالج النفسي.

الماضي

أحسُّ بمجرد وصولي إلى أن أمرًا ما قد تبدَّل. لم أرَ ابتسامتها العريضة التي عادة ما استقبلتني بها، بل تتبسم ابتسامة أخرى لا تنعكس في عينيها.

ما إن نجلس معًا، أسألها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

– لا، مع الأسف.

– ما الخطب؟

تقول: «بقدر ما استمتعت بجلساتنا معًا، أخشى أنني لن أستطيع المتابعة على هذا المنوال».

لا أصدق أن هذا يحدث من جديد، كلما ظننت أنني تملَّكت منهن يتفلتن من بين يدي. لا أستوعب ما يجري، على الرغم من أنني دومًا ما أتحرى الدقة في اختيار ضحاياي، أراقبهن لشهور وأنتظر طويلًا مترقبًا اللحظة المناسبة حتى أنسل إلى حياتهن. بسبب تلك الظروف التي وجدت نفسي محاصرًا بها، بات الحال مع هذه الضحية يزداد صعوبة أكثر فأكثر. إنما لا أصدق أنني أسأت تقدير تصرفاتها، ثانية.

– أيمكنني معرفة السبب؟

تجيب: «لأنك لست معالجًا نفسيًّا. لربما درست علم النفس، إنما لست معالجًا نفسيًّا معتمَدًا».

أرجع ظهري إلى المقعد.

– وما الذي يجعلكِ تزعمين ذلك؟

– أنك تكثر من أسئلتك.

– لم أوجِّه أسئلتي إلا من أجل محاولة الوصول إلى السبب العميق وراء عدم الشعور بالرضا عن الحياة.

تميل إزائي للأمام محِدّقة إليَّ، وتقول: «هذه هي المسألة الأخرى التي كشفت أمرك: إصرارك أنني لست سعيدة. في البداية، اعتقدت أنها جزء من تدريبنا بتمثيل دورَي المعالج والعميل، لكنني أدركت أنك تعمل وفق منهج خفي، وهو أمر خطير. إلى جانب أنه أمر مثير للفضول. في الواقع، أرى أن ما يجب علينا أن نستوضحه هو السبب الذي من أجله تحثني على التفكير في أنني غير سعيدة بزواجي».

– لقد راقبتكِ يا نينا، لأشهر!

– لو أنك راجعت جلساتنا معًا، فلن تجد أدنى تلميح إلى أنني عشت أي حياة غير سعيدة.

أقول: «بل قبل ذلك. راقبتكِ قبل أن نبتدئ جلساتنا».

تتجهم ملامحها.

– ما الذي تقصده بمراقبتي؟ متى حدث ذلك؟

أتابع متجاهلًا سؤالها: «لو أنكِ سعيدة بحياتكِ وبزوجكِ، فكيف تفسرين زمرة الرجال الذين يتناوبون على منزلكِ في غيابه؟».

تنفجر في الضحك، ثم توجه إليَّ ابتسامة ساخرة.

– أتمنى أنك لم تغفل زمرة النساء اللاتي يترددن على منزلي. أحقًّا هذا أفضل ما لديك؟ أأخبرك بسر؟ لقد علمت من الجلسة الثالثة أنك لست كما تدَّعي، وما دفعني حتى أواصل مقابلتك هو أنه يصلح دراستك كحالة بحثية مذهلة. أما الآن، فإنني أسعى لوقف هذه الجلسات، لأنني توصَّلت إلى خلاصة مفادها أنك تعاني اضطرابًا في الشخصية، وهو مرض ليست لدي خبرة في التعامل معه ولا رغبة في اكتشاف أبعاده. من جهة أفضل التصورات، لنقل إنك مخادع، إنما من الجهة الأسوأ، يمكنني القول بأن لديك ميولًا حادة للاعتلال النفسي. لذلك لم أعطِ تامسين رقم هاتفك قط، لأنك قد تؤذيها بصورة لا تُوصَف ويكفيها ما تواجهه في حياتها.

تضيف بعد نهوضها: «أودُّ أن تغادر. إنما ليكن في علمك أنني سأبلغ عنك الجهات المعنية، كي تُمنَع من ممارسة عملك بصفتك معالجًا نفسيًّا، في حال نويت ممارسة هذا النشاط في مكان آخر».

ها هي امرأة أخرى تظن أن بوسعها أن ترفضني، بعد أن تستنزف وقتي، وتستميلني إليها، بتلاعبها بشعرها خلال الجلسات، مما يثيرني.

أنهض على قدمي وأغادر من دون ضجة.

تقول: «لا تعُد مجددًا».

– لن أعود.

إنما، سأعود بلا شك. سأعود في المساء وأطلب منها الكتاب الذي أعرْتها إياه، والذي أعلم أنها تحتفظ به في غرفة نومها، حيث سبق أن رأيته في إحدى زياراتي الليلية.

تذهب لإحضاره وأتبعها بصمت على السلم.

إن الكتاب هو «وَلدن» لمؤلفه هنري ديفيد ثورو.

بطريقة أو بأخرى، دومًا ما يفلح أيٌّ ما يخص ثورو.

الفصل الرابع والأربعون

يبتسم لي توماس. أضع كأسي من يدي مبتسمة له.

أقول، مبعِدة مقعدي للخلف: «سأذهب لأجلب كنزة لي، لقد صار الهواء باردًا بعض الشيء».

– هل أجلبها بدلًا عنك؟

– لا، لا تتعب نفسك، هنالك كنزة في حقيبتي في البهو.

أخرج إلى البهو وأفتح الحقيبة، جاذبة سحَّابها بقوة حتى يسمعها من مجلسه. ثم أجثو على ركبتي، وأبحث عن مفاتيح المنزل في حقيبة يدي لأدسها في جيبي.

– أتحتاجين إلى المساعدة؟

أتطلع تجاه صوته لأجده واقفًا يسد مدخل الباب.

– لا، أشكرك.

أغوص بيدي داخل الحقيبة وأجذب كنزة صوفية زرقاء فاتحة، قائلة: «هذه ستفي بالغرض».

تضطرب نبضات قلبي فيما أقف على قدمي. ما انبغى أن أتجشم عناء أخذ المفاتيح، بل لكنت استغللت الفرصة وغادرت المنزل. لكن حينها لاحتجت إلى أن أقفل الباب بعد خروجي، وأحبسه في الداخل كي يعجز عن اللحاق بي. إنما وقوفه بهذا القرب، يجعل الأمر مستحيلًا. ما إن ألتفت تجاه الباب، سيفطن إلى أنني أفكر في ذلك، وسيمسك بي قبل حتى أن أتمكن من فتحه. لا خيار أمامي غير العودة إلى المطبخ.

يجلس وأظل واقفة. أريد أن آخذ هاتفي من حيث تركته على الطاولة، لكنه بعيد عن متناول يدي. أدع الكنزة تنزلق من رأسي، إنما تعلق في المشبك الذي يربط شعري، فأنزعه وأشدُّ الكنزة لأسفل. يُحشر شعري داخلها، لذا أرفع يدي وأحرِّره، فيما يومض بريق غريب في عينيه.

يتمتم: «شعركِ جميل».

أجبر نفسي على الرَّد: «أشكرك».

– بالمناسبة، لقد تلقيتِ رسالة من ليو.

أجمد مكاني. كيف له أن يعرف أنها من ليو؟

أقول: «حسنًا، سألقي نظرة عليها فيما بعد».

– ألن تجلسي؟

– بلى، سأجلس.

أسحب مقعدي للخارج أكثر.

– يمكنني أن أطلعكِ على فحواها، إذا ما تشائين.

توخزني الشعيرات الصغيرة عند مؤخرة رأسي، ثم تسري القشعريرة في ذراعيَّ، من الخوف. أثبت على وضعي، بين الجلوس والوقوف.

يتابع قوله، ناظرًا إلى عينيَّ مباشرة: «تقول الرسالة: **أوليفر ليست له شقيقة**».

ويحدث الأمر بسرعة خاطفة. يندفع نحوي لكن أسبقه وأحمل مقعدي لأقذفه في وجهه من فوق الطاولة. يصيح مغتاظًا أنني أخذته على حين غرة، إنما صرت أبعد ما يمكن عنه. أصل إلى الباب، وبينما أفتحه أسمع خطواته تتقدم في البهو. أصفع الباب من ورائي وأخرج من جيبي المفاتيح، التي كدت أسقطها من الهلع، وأحبسه بالداخل. أتوقع أنه سيطرق على الباب، ولمَّا لم يفعل، أفطن إلى أنه ذهب للبحث عن وسيلة أخرى للخروج. إن مفتاح النوافذ الفرنسية في درج المطبخ، إنما سيستغرق الأمر منه بعض الوقت حتى يعثر عليه.

أشرع في الركض عبر الممر، وعيناي زائغتان، لا أدري إلى أين أذهب. اعتزمت التوجه نحو الساحة، لطلب المساعدة من أي أحد، لكن لا أحد في الجوار. الوقت ينفد. يجب أن أحصل على هاتف في الحال حتى أتمكن من إبلاغ الشرطة. أتطلع إلى منزل إيف وأتذكر أنها في منزل تامسين. أهرول عبر المدخل إلى منزل إدوارد ولورنا.

أضرب الجرس مرارًا وتكرارًا.

أنادي طارقة على الباب: «لورنا! إدوارد! إنها أنا أليس! هلَّا فتحتما الباب؟ إن الأمر طارئ!».

أسمع أصواتهما تتداخل مقتربان في البهو.

أستحثهما: «أرجوكما أسرعا!».

لا أرغب في إثارة قلقهما، إنما يجب أن أدخل.

هنالك صوت مزلاج يُسحَب للخلف، ويرتج الباب منفتحًا وأنطلق داخلة المنزل، فأتخبط بالباب بقسوة ليصطدم بإدوارد. بالكاد ألقي عليه نظرة، فقد انجذبت أنظاري لمرأى لورنا متسمرة في نهاية البهو، ووجهها شاحب من الفزع.

أقول: «آسفة، يا لورنا. إن الأمر طارئ».

ثم، ألتفت إلى إدوارد في لهفة، سائلة: «أيمكنني أن أستخدم...؟».

ويعجز لساني عن النطق. إن مَنْ يقف خلف إدوارد ويده تقبض على ظهر رقبته، هو توماس نفسه.

تهرب الدماء من وجهي وهو يدفع الباب ليصفقه بيده الأخرى.

– كيف...؟

يكمل بنبرة استخفاف: «جئتُ إلى هنا؟ خرجت من نوافذ الشرفة لديكِ ثم دخلت عبر نوافذ منزلنا».

أحدِّق إليه في حيرة: «منزلنا؟».

والآن بات يضحك.

– نعم، منزلنا. ألم أقل لكِ إنني أريدكِ أن تلتقي والديَّ؟

والديه! أنظر إلى إدوارد مصدومة، وسرعان ما تتحول صدمتي إلى رعب. إن وجهه يتضرج بالحمرة على نحو يُنذر بالخطر، وعيناه يغيم البصر فيهما. يندفع الأدرينالين في عروقي، يجب أن أطلب العون من

أحد. أتراجع خطوة، متطلِّعة نحو الباب. لكن فات الأوان؛ فيما يقبض على إدوارد بإحدى يديه، يمدُّ الأخرى الخالية ويقبض بها على عنقي.

ينتظر حتى يلوح الذُّعر في عيني، ومن ثم يشدد قبضته.

أتمتم لاهثة: «إنك تؤلمني».

وآخر ما أسمعه هي ضحكته العالية.

***

عندما أسترد وعيي، أفاجأ بنفسي مقيَّدة إلى مقعد. تحثني غريزتي على المقاومة إنما أستشعر وجود أحد خلفي، وبسرعة يعود إلى ذاكرتي كل ما جرى. تتولى الوضع عني رغبتي في البقاء، لا تدعيه يعرف أنكِ استفقتِ. أبتلع ريقي لجفاف فمي على مهل وحذر، ممسكةً عن الصراخ من ألم حلقي.

يشق عليَّ محاولة تجميع أفكاري في ظل الخوف الذي أجابهه، فهو همي الأول: الخوف على لورنا وإدوارد، أين تراهما الآن؟ والخوف من أنني قد لا أنجو الليلة أبدًا.

أقال إن لورنا وإدوارد والداه حقًّا؟ هذا منطقي على نحو ما. لا جرم أنه الابن الذي قالا عنه إنه تُوفي منذ أربع سنوات، في العراق. ما الذي اقترفه حتى يُجبَرا على إنكار أن ابنهما الوحيد على قيد الحياة؟ لقد اختفت جوستين بارتلي قبل ثلاث سنوات عقب ذهابها إلى موعد مع معالجها النفسي. ما دام توماس هو معالج نينا النفسي، أكان هو نفسه المعالج النفسي لِجوستين بارتلي؟

أبتلع ريقي عن غير قصد، ولم أتهيأ لاحتمال الألم فيفلت أنين من بين شفتيَّ. تمتد يدٌ إلى شعري ويُشَدُّ رأسي للوراء، وتتمدد معه رقبتي، مما يزيد اللهيب الذي في حلقي سوءًا. أغمض عيني؛ لا رغبة لي في رؤية وجهه.

– هل استفقتِ أخيرًا؟ جيد!

– توقف عن ذلك، يا جون، أرجوك!

أميِّز صوت لورنا فأفتح عينيَّ، لأنظر باتجاهها. بالكاد أراها، جاثية على الأرض بجوار إدوارد، خائرة القوى وظهرها مستند إلى الحائط.

تتابع: «يحتاج والدك إلى استدعاء الإسعاف، قلبه لن يحتمل».

يصيح توماس بحدة: «اصمتي!».

ظننت في البداية أنها توجه حديثها إلى شخص آخر، لكن بالطبع، توماس ليس اسمه الحقيقي.

يجذب رأسي للخلف بشدَّة، فيصير تورم حنجرتي أكثر إيلامًا. إن الألم مُبَرِّح، ومع ذلك أرفض أن أدعه يرى مدى تألمي.

ينحني فوق رأسي مقربًا وجهه مني، حتى أتطلع إلى عينيه مباشرة، من زاوية مقلوبة.

يقول: «احزري ما سأفعله بكِ الآن!».

وماذا غير أنك ستقتلني!

يصل إلى سمعي صوت حركة أتبين ماهيتها، إنها حركة مقص يُفتح نصلاه ويُغلقان. يرفع ذراعه ويظهِره أمام ناظري، وأتذكر ما حدث لشعر نينا.

– ستقص شعر رأسي.

يخرج الصوت من حلقي في همس أجش.

– مضبوط.

يقبض على رأسي بيديه ويدفعها للأمام، فيعتدل مستوى نظري. لوهلة، أحسب أن هنالك امرأة أخرى في الغرفة معنا، حتى أدركت أن التي تحدِّق إليَّ هي انعكاس نفسي في مرآة ذي إطار ذهبي، عفَّى عليها الزمن، موضوعة فوق منضدة أمامي.

من فوري أفطن أن هذه الغرفة مماثلة لغرفة مكتبي في المنزل المجاور. وقد غُطت النافذتان بألواح خشبية، والمصدر الوحيد للضوء يأتي من قنديلين على جانبَي المرآة. وفيما أتطلع إليها، يمسك شعري ويرفعه عاليًا فوق رأسي، وفي بطءٍ وبالتدريج يفلته من بين يديه لينساب على كتفي. أرتجف لمرأى ما يفعله منعكسًا أمام عيني. إنه شديد الاختلاف عن الرجل الذي عرفته، أو ما ظننت أنني عرفته، إن الأمر أقرب للنظر إلى شخص آخر لم أره في حياتي. مما يجعل الحال بطريقة ما أيسر في تقبله.

يأخذ خصلة كثيفة من شعري، بمقدار بوصة مربعة، ويفصلها رافعًا إياها عاليًا فوق رأسي مثلما فعل سابقًا. يتحرك بالمقص مفتوح النصلين على طول الخصلة من أعلاها إلى أسفلها، ويوقف يده من مسافة لأخرى، كما لو يتفكر من أين يقصُّها.

يماطل متفكرًا: «أأقصها من هنا أم من هنا؟».

تلتقي أعيننا في المرآة. إنه يترقب ردة فعلي، لذا أحدق إليه كما يفعل من دون أن أعطيه ما يبغي. وفي حركة مباغتة، ينزل المقص حتى يكاد يلمس جمجمتي ويقطع الخصلة بطولها. لم أهتز، لم أجفل، ولا حتى وهو يلقيها على حجري. إنني قلقة على إدوارد بشدة لدرجة أنه لا يهمني ما يفعله توماس بي. ليس باستطاعتي رؤيته مطلقًا من مكاني، لا أرى سوى جبهة لورنا وهي جاثمة بجواره. عندها أتذكر أن لورنا وإدوارد رغبا في الانتقال من منزلهما بعد مقتل نينا، لكن إدوارد أصابته نوبة قلبية. هل أصيب بتلك النوبة جرَّاء صدمته أن ابنه هو القاتل؟ أكان يعيش توماس معهما في المنزل في ذلك الوقت، أم أن هذا هو محل إقامته طوال كل هذه المدة؟ على الأرجح، يعيش هنا مختفيًا عن الأنظار، مما قد يفسر سبب أنني لم ألمحه عابرًا الساحة على قدميه قبل مجيئه، ولا رآه أحد يعبرها على قدميه مطلقًا، ولا حتى في أثناء زياراته إلى نينا. لأنه في ذلك الحين، سكن في المنزل الملاصق لمنزلها.

أسأله: «لماذا قتلت نينا؟».

يجيب: «لمَ لا تطلعينني على ما يجول في فكرك؟ يسرني أن أسمع تصورًا آخر من تصوراتك».

– قتلتَها لأنه ربطتك علاقة غرامية بها ورغبتْ في أن تنفصل عنك.

لا ينطق بكلمة، فأكمل: «وماذا عن جوستين وماريون؟ هل ربطتك بهما علاقة غرامية أيضًا؟».

يبتسم ابتسامة مستهزئة.

– أحييكِ على جهدك الملحوظ، إنما أنتِ مخطئة كليًّا. لم تربطني علاقة غرامية بأي منهما، ولا حتى بِنينا.

– لكنك قتلتهن جميعًا.

– هذا صحيح.

- لماذا؟

- لأنهن لم يقدرن على فهم أنفسهن. لم يكن مثلكِ، يا أليس.

- ما الذي تعنيه بالضبط؟

يتبسم رافعًا خصلة أخرى.

- مِنْ أين أقصُّ هذه؟

- مِنْ أي جزء تشاء.

يقصُّها بالقرب من جمجمتي مجددًا، ويسقِطها على حجري. من الصعب التظاهر أن منظر كتل الشعر مقصوصة الطرف بعشوائية وهي بارزة من فروة رأسي، يجعلني في حالة من الذهول، غير أنني أسرُّ إحساسي في قرارة نفسي.

- هل أنت معالج نفسي بحق؟

يلوِّح والمقص في يده.

- وكيف أكون معالجًا نفسيًّا، وأنا محقق خاص؟ لا، انتظري، ربما لست محققًا خاصًّا كذلك. تكمن الخدعة في تقمص ما يريد الناس رؤيتي عليه. نجحت شخصية المعالج النفسي مع الأخريات. أما بالنسبة إليكِ، احتجتُ إلى التفكير في تقمص آخر. كنتِ بحاجة إلى منقذ، إلى مُخَلِّص من عذابك، شخص بوسعكِ مساعدته، حتى تكفِّري عن خطاياك. إنني على حق، أليس كذلك يا أليس؟ أنتِ مَنْ قاد السيارة في الليلة التي مات فيها والداكِ وشقيقتك.

في نظرة ابتهاج بانتصاره، يتطلع إلى انعكاسي في المرآة.

أحملق إلى عينيه دونما أي تردد يُذكَر، لن أسمح له أن يعرف أنه محق. يرفع خصلة أخرى من شعري وأوجه تركيزي إلى صوت المقص وهو يقطعها، كي أبعد عني الأصوات التي لطالما طاردتني على مدى ما يقارب عشرين عامًا، وستطاردني لآخر نفس في حياتي: صرير المكابح، تهشم الهيكل المعدني، صرخات الألم والرعب.

يستطرد: «يا لها من خسارة أن تقرري مغادرة المجاورة فجأة، بعدما أضحى من الممتع الاستماع إلى تصوراتكِ المختلفة بشأن هوية قاتل نينا. لقد استطعت مجاراة اشتباهاتكِ بالكاد. تطوف الأفكار في ذهنكِ من دون روية، ترتابين في صديقاتكِ وفي أزواجهن، وفي الرجل الذي من المفترَض أنكِ أحببتِه، وحتى في الوكيل العقاري. لستِ طيبة القلب كما تبدين، يا أليس. أتدركين ذلك؟».

يبتلع المقص جزءًا من شعري مجددًا.

أنتقده بنبرة لاذعة، مخفيةً شعوري بالخزي مما قاله: «بالمقارنة بك، فإنني ملاك! لقد استغللت معرفتك لتتلاعب بأفكاري لأظن أن الجميع يخفون شيئًا عني. على ما أعتقد، فهو أنت مَنْ طلب من لورنا أن تخبرني ألا أثق بأحد».

- لا، فعلتْ ذلك بسذاجة من تلقاء نفسها. لكنني سمعتها وحرصتُ أن تنال جزاءها.

أولي له نظرة اشمئزاز خالصة من قلبي.

- هل وُلدتَ مؤذيًا أم تعلمت الأذى؟

– لم لا تخبرينني بما ترين؟

ألتفت بعيني إلى حيث تجثو لورنا على الأرض. لكم تبدو مرتعبة.

– أرى أن خلفيتك العائلية طبيعية، ولذلك حتمًا تعرضت للرفض من امرأة، أو أكثر، مما جعلك تكره جنسنا كله إلى هذا الحد. أهي تلك المرأة التي أريتني صورتها، وقلت لي إنها هيلين؟ كان لها شعر طويل، وعلى ما أذكر، أشقر كذلك.

ألوي شفتي في ابتسامة مشفقة، مستطردة: «أهذا ما جرى؟ أرفضتك ولم تستطع العيش من دونها؟ أتأثرت بما فعلته بك لهذه الدرجة حقًّا؟».

يضحك بقوة حد الكركرة. أستغرب لماذا لم أسمعه يضحك بهذه الطريقة من قبل؟

لقد وخزته كلماتي، حتى بات يدسُّ المقص في شعري ويشرع في اقتطاع خصلات منه بغضب لامسًا فروة رأسي، يخدشها ولا يسعني سوى أن أجفل بعيني.

أوجه له سؤالًا: «كيف استطعت الحصول على مفتاح الشرفة؟».

– إنه ضمن نسخة المفاتيح التي أُعطيت لوالديَّ من قِبل نينا وأوليفر. احتفظتُ بها في حوزتي، على أمل أن أستفيد بها. انبغى لليو أن يغير جميع الأقفال، ولا يكتفي بتغيير أقفال الباب الأمامي فحسب.

يزفر متظاهرًا بالضجر، ثم يبتسم ابتسامة عريضة، مضيفًا: «أعجبني أنكِ ظننتِني نينا عندما جئتُ لزيارتكِ في الليل».

كم أمقت أنه سمعني أتحدث إليها، وكم أمقت أنه رآني في كل لحظات ضعفي تلك.

أقول متهكمة: «يا له من وضع مثير للشفقة وأنت مختبئ في خزانة الملابس!».

يقطع صوت لورنا المرتعش تلهِّي توماس بلعبته، ويتوقف المقص عن الحراك: «جون! أعتقد أنه مات. أعتقد أن والدك قد مات».

أراقبه في المرآة وهو يخطو إلى حيث وقفت لورنا، ينحني للأسفل ثم يعتدل ناهضًا وعلى وجهه نظرة حائرة، سرعان ما تخبو.

يقول مدَّعيًا عدم الاكتراث: «ربما أنتِ على حق».

تنفجر لورنا في البكاء.

– إننا بحاجة إلى سيارة إسعاف، أرجوك يا جون.

يصيح بقسوة: «وما الحاجة إذا كان قد مات؟».

يعود إلي حيث أجلس عاجزة في وجه غضبه المكبوت على وفاة والده. أودُّ لو أطيِّب خاطر لورنا، وأبعِدها عن توماس، إنما مع وضعي مقيدة إلى مقعد ليس في يدي فعل أيٍّ من ذلك، بل لا أقدر على فعل أي شيء على الإطلاق. وتصعقني الحقيقة ها هنا، أن الموت مدركي لا محالة.

يستكمل قصقصة شعري دون أن تأخذه بي شفقة ولا رحمة. يبدو أنه تهيأ لموتي ولم يخطر في باله أن يموت والده.

يقول: «لقد انتقلا إلى هنا ليهربا مني. لم يبلغاني أنهما مغادران بونمث. وما إن عدت من باريس، بعد أن قتلت ماريون، اضطررت إلى التواصل مع محقق خاص كي يتعقبهما. من هنا جئت بالفكرة التي

أعددتها من أجلك».

يسكت لبرهة، ويلقي خصلة أخرى بطولها على حجري، ليستطرد: «أتيتِ أنتِ في الوقت المناسب تمامًا، حيث توجَّهت أنظاري قبل مجيئك إلى تامسين، ووضعتُ الخطة وباتت جاهزة للتنفيذ. عرفت من نينا أنها تبحث عن معالج نفسي، إنما أرادت أن تستأثر بي لنفسها. كنتُ سرها الصغير، كما أمسيتُ سركِ بالضبط. وتوقعت أنه سيشتد احتياج تامسين إلى معالج نفسي بعد وفاة نينا، ولذا كانت هي الاختيار المثالي. لكنها قصَّرت شعرها».

يضحك الضحكة العالية ذاتها ثانية.

أقول عائدة إلى ما سبق أن ذكره، لحاجتي إلى إبقاء الحديث متواصلًا؛ فما دمنا نتحدث، فإنني حية: «أجئت إلى المجاورة بعد قتل ماريون؟».

– نعم، يا له من وضع مثير للسخرية حقًّا! اختار والداي لندن دون غيرها، معتقدَين أنها ستخفيهما كالإبرة في كومة قش، وبالتحديد منشأة سكنية مُسيَّجة، على أمل أنهما سيقدران على منعي من الاقتراب. إنما ثبُت أنه المكان الأمثل للاختباء بالنسبة لي.

تقترب لورنا حتى صارت في مجال رؤيتي، لتقول في صوت بات عنيفًا: «لقد حظر علينا الخروج إلى أي مكان، سجننا في منزلنا. حبسنا في هذه الغرفة طوال النهار، وفي غرفة نومنا طوال الليل. لم يكن في مقدورنا ما نفعله ونحن ضعفاء في حين يستعرض قوته علينا. لم يُسمح لنا إلا بإخراج صناديق القمامة أو لأعمال البستنة في الجانب الأمامي من المنزل، حتى يرانا الجيران من وقت لآخر ولا يمسهم قلق علينا، إنما لم نظهر معًا قط، دومًا ما بقي أحدنا رهينة بين يديه. عندما نُقل إدوارد إلى المشفى لإصابته بالنوبة القلبية، هدده جون أنه سيقتلني لو نطق بكلمة لأحد الأطباء. لم يدعني أذهب لزيارته، وأُجبرتُ أن أدَّعي للمشفى أنني ضعيفة القوى ولا أحتمل مشقة الطريق».

– لكنكِ لستِ ضعيفة القوى يا لورنا، أليس كذلك؟

أقولها في محاولة لجذب نظرها نحوي في المرآة، ولكي تعي أنه إذا ما أردنا أن ننجو من هنا، فينبغي لها أن تظل صامدة. لكنها لم تزل متعمقة في قصتها.

تتشبث بلآلئها كطوق النجاة لغَمرة مشاعرها المضطربة.

– دفعني للكذب على الشرطة. ادَّعيت أنني سمعت أوليفر ونينا يتجادلان، وكذبتُ أنها اعترفت لي أنها تورطت في علاقة غرامية مع أحد. قلتُ إنني رأيتُ أوليفر يدخل إلى المنزل مباشرة في ليلة مقتلها. لا بد وأنه رأى أوليفر متجهًا ناحية الساحة واقتنص الفرصة لينسل ويقتل نينا. لم أعرف، لم أعرف ما فعله إلا بعدما عاد وطلب مني ما يجب إبلاغه للشرطة بالضبط، إذا جاءت تطرق الباب، وهددني أن يقتل إدوارد إن لم أنفذ ما أراد. دومًا ما هددنا بالقتل. لم يحدث جدال بين نينا وأوليفر قط، لقد كانا متحابين.

تنهمر دموعها من جديد، بينما يهزُّ توماس رأسه في غضب.

– لا! لم تحبه نينا، نينا أحبتني أنا. جُل ما في الأمر، أنها لم تستطع فهم ذلك، كما لم تفهم هاتان الحقيرتان تمامًا. إنما أنتِ مختلفة عنهن، يا أليس، لولا أنكِ لم تمهليني وقتًا أطول. لقد كنا على قيد أنملة.

أستفهم: «ما الذي تقصده؟».

ينحني مقربًا وجهه من وجهي، ويقول في خفوت: « أقرِّي بذلك، يا أليس. أقرِّي أنكِ بدأتِ تقعين في حبي».

أتطلع إلى انعكاسنا في المرآة، وذلك الإطار المزخرف يحيط بنا. قد تصلح هذه صورة فوتوغرافية لنا.

أهتف بنبرة حازمة: «لورنا!».

تتعلق عيناها بعينيَّ ومن ثم أنظر باتجاه المقص الذي ما يزال يحمله، لكنه في متناول يدها، متمنية أن تستوعب رسالتي. إنما يراني وفي ضحكة أقرب للطفولية يرفع ذراعه بالمقص فوق رأسه.

– لن تساعدكِ، يا أليس. إنني ابنها.

إنه محق بهذا الشأن، أدرك ذلك. كما لا يمكنها أن تضاهي قوته، على أية حال. لن تقدر على انتزاع المقص من يده، فضلًا عن أنه قد يؤذيها به.

يستطرد: «هل سلمتْني للشرطة بعدما قتلتُ جوستين، أو بعد قتل ماريون؟ لا. هل تسترتْ عليَّ بعدما قتلتُ نينا؟ نعم. إن الدم لا يصير ماءً، يا أليس. وكلٌّ من جوستين وماريون ونينا، لم يكن سوى ماء».

– إنما لم يكن إدوارد ماء. أنت من دم إدوارد ورغم ذلك قتلته.

لمستُ وترًا حساسًا، فيصيح: «لم أقتله!».

– بل الواقع يقول إنك قتلته.

عندئذ تصرخ لورنا، إنما ليس من الهلع أو حرقة القلب، بل من سخط متأجج، وتتوالى صرخاتها دونما توقف. تندلع من جوفها، لتمحي رغبتها الغريزية في حماية ابنها أيًّا يكن ما يفعله. ولدى شعور توماس أن شيئًا قد تغير، يجمد مكانه للحظات ثمينة معدودة، تسنى لي خلالها أن أتأرجح بالمقعد المقيَّدة إليه، للأمام والخلف، حتى اصطدمت به. يتهاوى على الأرض وأضغط عليه بكل قوتي. وقد طار المقص من يده، متفاجئًا بحركتي.

أصرخ فيها: «لورنا!»

تتوقف عن الصراخ بغتة، وتحدِّق إلينا مصعوقة، وكأن شللًا أصابها. يصارع ليزيح المقعد، ويخلِّص نفسه من ثقله، لكن أضغط جسدي أكثر لإعاقة حركته تمامًا.

أناديها ثانية: «لورنا! استدعي أحدًا لنجدتنا!».

يزمجر في غضب، فيما يحيط المقعد بذراعيه ويلقيه بعيدًا عنه، فأتخبَّط بالأرض. ألهث حتى يكاد الهواء ينفد من رئتي، ويلقي بنفسه عليَّ عاجزة عن الحراك، ضاغطًا على صدري. تمتد يديه إلى عنقي، بوجه مكفهر ثائر. مع تزايد ضغطته على حلقي، أدرك أنه حتى لو تمكنت لورنا من جلب المساعدة، فلن يكون هنالك داعٍ لنجدتي.

يتعالى نخيره في أذني ووزنه يَثقُل على صدري. إنما تضعف قبضتاه، فأميل رأسي للجانب لاهثة الأنفاس. ترتخي قبضتاه أكثر فأكثر، وتترك عنقي، وفي اللحظة ذاتها، يرتمي رأسه مرتطمًا برأسي، وأحسُّ بخبطات مكتومة ذات إيقاع رتيب، تتوالى مرات ومرات، بلا نهاية.

بعد مضي ستة أشهر

يُطرَق الباب بطرقات خفيفة على استحياء، أنتبه إليها بالكاد. أضع كتابي على المنضدة ذات السطح الخشن من الصنوبر، وبغتة أشعر بحاجة إلى مسح يديَّ الرطبتين في بنطالي الجينز. على الرغم من أنني أترقب وصول إيف، ما زلت متوترة على نحو رهيب من لقائها. ماذا لو أنها علمت ما حدث؟

أذكِّر نفسي، فيما أخطو باتجاه الباب: لا تجزعي، ليست لديها معرفة بما صار. الفضل يعود إلى لورنا، لن يعلم أحد شيئًا أبدًا.

***

ظننت أنني سأموت في ذلك اليوم، تحت وزن جسد توماس الساحق فوق صدري. على الرغم من استطاعتي أن أدير رأسي للجانب، عجزت عن استنشاق أي نفس. تملَّكت لورنا حالة من الذهول جرَّاء ما فعلته، وشُلَّت حركتها. أعادها لهاثي المتحشرج إلى وعيها، وحاولت أن ترفع توماس عني، وثُقُل عليها حمله.

– اسحبيني من تحته!

لدى فهمها للمطلوب فعله، أمسكتني من أسفل ذراعي وحررتني بما يكفي ليخف الضغط على صدري. وما حدث تاليًا، بات ضبابيًّا: وصول الشرطة، توجيه الأسئلة لنا بلطف، المسير حتى سيارة الإسعاف، ونظرات الفزع على وجوه أناس متجمهرة، جذبتهم صفَّارات إنذار سيارتَي الإسعاف والشرطة وصرير الإطارات منحرفتين إلى داخل المجاورة. وفوق ذلك كله، توجَّهت نظرات إيف وتامسين المحدقة نحوي فيما أتبع لورنا إلى سيارة الإسعاف، مصعوقتين في عدم تصديق أن الوضع الذي يشهدونه يتعدى مجرد حادثة وفاة إدوارد.

اتضح لي حينها أن الجميع، وليست الشرطة فحسب، بل ليو وجيني وديبي وكل ساكني «ذا سيركل»، سيعرفون أنه اختطفني الرجل الغريب الذي جاء إلى منزلنا منذ ستة أسابيع.

أجهشت بالبكاء ملتاعة ما إن جلستُ ولورنا في سيارة الإسعاف في انتظار التحرك، وقلت لها: «سيعرف الجميع. سيعرفون كم تصرفت بغباء، لا يمكنني مواجهة ذلك».

أمسكت لورنا بيدي من تحت الأغطية التي ضمَّتنا بإحكام، وهمست: «جُل ما يمكن للجميع معرفته هو أنكِ مررتِ لزيارتي أنا وإدوارد لتوديعنا، وفوجئتِ بنا مختطَفَين على يد رجل، تعرَّفتِ عليه بصفته الرجل نفسه الذي تطفَّل على ليلة الحفل في منزلك. إذا سُئلتِ من الشرطة، هذا ما يجب عليكِ قوله. لا حاجة إلى أن تعرف الشرطة ولا أي أحد شيئًا مما حدث».

حدَّقت إليها غير قادرة على استيعاب أن بإمكاننا إخفاء الأمر بهذه البساطة، ولذا أضافتْ مؤكدة وهي تضغط على يدي: «ستجري الأمور على ما يرام».

وقبلت تلك الفرصة للحياة التي منحتني إياها، وتشبثت بها. حوَّلتُ نهاية قصتي إلى بداية جديدة، ولم آتِ على ذكر اسم توماس جرينجر مطلقًا. لم تُختلق تلك الشخصية إلا من أجلي، وليس هنالك من داعٍ ليعرف أحد إلى أي مدى كنتُ سهلة الانخداع. وبما أن الشرطة والجميع أبدوا اهتمامهم بمعرفةً التفاصيل، أخبرتهم بما قالته لورنا: أنني ذهبت إلى منزل لورنا وإدوارد حتى أودِّعهما، ووجدت رجلًا هناك، تعرفت عليه عند رؤيته، وهو الرجل ذاته الذي جاء إلى أمسية المشروبات دون دعوة. وقد قبض على عنق إدوارد وقبل أن أحاول التصرف، هاجمني. وبعدما استعدت وعيي، فوجئت بنفسي مقيَّدة إلى مقعد وينهمك الرجل في تقطيع شعري، وقال لي إنه ابنهما، وإنه من قتل نينا ماكسويل وسيجعلني ألقى المصير نفسه. حسبتُ أنني سأموت حقًّا، إلى أن أنقذتني لورنا.

وهذه هي شبه الحقيقة التي بات الجميع يعلمها.

***

تبدو إيف مختلفة عن ذي قبل. اختفت الخُصل الوردية في شعرها وصار وجهها باهتًا.

تقول بإحراج: «أشكركِ على السماح لي بمقابلتك».

نحدِّق إلى بعضنا للحظات، ثم تغلبني مشاعري فأشدها نحوي في اشتياق.

أقول، ونحن على هذه الحال: «كم تسعدني رؤيتك».

– صدقًا؟

في صوتها تأثر ما.

– نعم، لقد اشتقت إليك.

تبتعد متطلعة إلى وجهي، قائلة: «وأنا اشتقت إليك. كيف حالك؟».

– إنني بخير حال هنا.

تومئ برأسها، ثم تمسك يدي، لتقول في نبرة حزينة: «إنني أدين لكِ بالاعتذار».

أعبس، مردفة: «الاعتذار؟».

تبتسم في ارتباك.

– نعم. ينتابني شعور بالذنب حيال كل ما صار. كلنا نشعر بذلك. أفترض أنه يمكنني الجلوس، أليس كذلك؟ فأنا سيدة حامل ولقد أتعبتني القيادة طوال هذه المسافة.

– يا إلهي! هذا مدهش، يا إيف، مبارك!

أرشدها إلى المطبخ، مندفعة بتأثير الخبر الرائع الذي عرفته لتوي، وأسحب مقعدًا من أجلها، قائلة: «تفضلي بالجلوس، ارتاحي ريثما أعدُّ الشاي».

تجول بنظرها في الأرجاء، مأخوذة بالمكان.

– إن منزلكِ جميل، يا أليس. أحبُّ حمَّالة الصحون هذه، والموقد المذهل من النوع المزود بأفران متعددة، أهذا الفرن هو المخصص للخبز؟

لا يسعني غير الضحك على انبهارها الحماسي.

أجيبها فيما ألتفت لملء الغلاية بالماء: «نعم، هو بعينه».

– منزلكِ الريفي رائع، لدرجة أنني لا أستغرب مدى الصعوبة التي واجهتكِ لتغادريه. متى استطعتِ العودة إليه؟

– منذ شهرين. مكثت برفقة ديبي حتى انتقالي.

– لا بد أنكِ سعيدة بالعودة.

– إنني كذلك بالفعل. أشعر بالأمان في منزلي.

تتأملني، ورأسها مائل للجانب.

– إن شعركِ الجديد يلائمك.

أتحسس رأسي بيدي.

– أشكرك. دومًا ما وددت أن أعرف كيف قد أبدو بشعر قصير، وصرت أعرف.

لا أخبرها كم أمقته، وأنني في كل مرة أنظر إلى نفسي في المرآة، أرى توماس جرينجر واقفًا خلفي، ووجهه مكشِّر عن حقد لا قرار له. إنما تتحسن حالتي بتجاهل صورته؛ فإنني أرفض أن يستمر تأثيره على حياتي.

ألقي نظرة على بطنها الصغير المستدير.

– متى تتوقعين ولادة طفلك؟

– في بداية شهر أغسطس.

– رائع! في غضون أربعة أشهر. إنني سعيدة من أجلك، يا إيف، وحتمًا وِيل مسرور بذلك.

تضحك، وتقول: «بلا شك. يعتقد أنه أول رجل في العالم سيصبح أبًا».

أخرج قدحين من الخزانة وأجلب الحليب من الثلاجة.

– وكيف حال الجميع؟

أومئ لها فيما تقول ما عرفتُه من ليو: «إنهم يناضلون. لقد غادرت ماريا وتيم منزلهما، وعرضاه للبيع، بثمن أقل من قيمته، وفي وقت قصير نسبيًّا باعا المنزل. وسيلحق بهما تامسين وكونر قريبًا. وبالنسبة لي ووِيل، فنحن نحاول أن نتمهل في اتخاذ الخطوات حتى لا تتأثر قيمة المنزل كثيرًا حين بيعه، إنما لا يمكننا تفادي الخسارة بأي حال».

أقول: «آسفة لذلك».

تتبسم بهدوء.

– لا تتأسفي. هذا ليس ذنبك.

إنها مخطئة، بل إنه ذنبي. لو لم أكن مغفلة لتلك الدرجة، لما آل بهم الحال إلى هذا السوء. تشتعل وجنتاي من الخزي، وأشتت نفسي بإعداد الشاي، كي لا أثير انتباهها.

– إننا نشعر بالندم، يا أليس. إنما ليس بسبب عدم تصديقكِ بشأن الرجل الغريب الذي تطفَّل على حفلكِ فحسب. يعترينا شعور مروع تجاه أوليفر؛ فقد قبلنا ببساطة أنه مذنب. احتجنا بشدَّة إلى الاطمئنان إلى أن قاتلها قُبض عليه، حتى نتمكن من متابعة حياتنا. اخترنا الطريق السهل وسنتكبد مشقة التعايش مع اختيارنا.

أحمل القدحين إلى الطاولة وأجلس إزاءها. أودُّ أن أقول لها ما يواسيها، ولا يخطر في بالي شيء.
تقطع هي الصمت الذي يتوغل بيننا، قائلة: «ذكر ليو أنكِ قابلتِ لورنا».
– نعم، التقيتُها منذ بضعة أشهر.
– كيف حالها؟
أبتسم بالكاد.
– تناضل هي أيضًا. تعيش مع شقيقتها في دورْسِت، منتظرة موعد محاكمتها.
– عساهم يخفِّفون عقوبتها.
– هذا ما أتمنى.

***

يروح ذهني، بينما تحتسي إيف الشاي، إلى اليوم الذي كنتُ فيه مع لورنا داخل سيارة الإسعاف. ظلَّت متماسكة إلى حد كبير. تملكها حسٌّ بالنشاط وخفة الروح؛ لقد استطاعت أن تحرر نفسها، واستطاعت أن تنقذني. لم يصبها الإدراك بعد أن إدوارد رحل ولن يعود، وأنها قتلت ابنها بيدها. تخلَّصت من كابوس واحد، ولم تحسب حساب الكوابيس التي أوشكت على مداهمتها.
عندما التقيتها في دورْسِت لاحقًا، بعد انقضاء شهرين، وجدت الحال تبدَّل بها. جلست منكمشة على نفسها في مقعد متحرك، وبصحبتها شقيقتها التي تراقبها من كثب. بدا حجمها وقد تقلَّص للنصف، وعمرها زاد عشر سنوات. كم كان مؤلمًا أن أراها على ذلك الحال من الضعف.
همست لي وعيناها غشيتهما الدموع: «قتل أوليفر نفسه لأنني غدرت به. قال لي إنني أمه التي لم يرَها في حياته قط، ومع هذا غدرتُ به. وغدرتُ بكِ أنتِ أيضًا. أجبرني جون على كتابة تلك الرسالة لك».
استغرقتُ بعض الوقت لتذكر الخطاب الذي من المفترَض أنه وصلني من هيلين، ذلك الخطاب الذي جدد من عزيمتي، وقد بدأتْ حينها تساورني الشكوك حول جدوى المضي في المساعدة لحل قضية مقتل نينا.
أخذت يدها بين يدي.
– بات هذا من الماضي.
استرسلت حينها في إخباري بالحكاية كاملة من بدايتها، وكيف أن جون منذ طفولته، تولَّد لديه هوس بالتقرب من أشخاص بعينهم. تقرَّب في بداية الأمر من فتاة صغيرة سكنت في المنزل المجاور لمنزلهم، ثم من زملائه في المدرسة، مما دعا الأمهات والمعلمين لإبداء قلقهم الشديد إلى لورنا، ومن ثم فرضوا على طفلها أن يبتعد عن أطفال الآخرين. في سنوات المراهقة، تطوَّر هوسه إلى مرحلة خطيرة ومارسه على أستاذة له، وثُبت في أثناء تحقيق الشرطة –بعدما حُذِّر من محاولة الترصد بها، وهو في عمر خمسة عشر عامًا– أنه أخذ تصرفاتها الودودة معه على محمل أنها تبادله مشاعر الحب التي يكنها لها. وكان أحد الأمثلة التي علَّل بها تصرفه هو أنها في بعض الأحيان تترك العنان لشعرها المربوط، وتؤرجح رأسها لينساب على كتفيها للحظات، قبل أن تعيد ربطه، واعتقد أنها بفعلتها هذه تبعث له رسالة سرية

حميمية. سعى والداه لعرضه على الأطباء والمعالجين النفسيين، وشُخص جون بمرض وسواس الحب القهري. خدع الجميع لمدة طويلة، وجعلهم يطمئنون إلى أن اضطرابه النفسي بات تحت السيطرة.

خلال سنوات الدراسة الجامعية، ندرت زيارته لوالديه وبعد تخرجه في عام 2003، اختفى من حياتهما تمامًا. ومع اندلاع حرب الخليج، أقنعت لورنا وإدوارد نفسيهما أن ابنهما التحق بالجيش. وذات ليلة، بعد مضي ثلاثين عامًا على غيابه، عاد إلى منزلهم في بونمث، ليقول إنه جاء ليمكث معهما لبضعة أسابيع، وعند سؤاله عمَّا إذا انضم إلى الجيش، أتى رده بالإيجاب، وأكد أنه حارب في العراق. لفت انتباه الجيران إليه بحسن حديثه، وأخبر الجميع أنه عاد إلى المنزل لتمضية الإجازة، وقد اعتزم بناء الشرفة التي لطالما حلم بها والداه. لثلاثة أسابيع متتالية، ظلَّ يعمل على بنائها من الصباح للمساء، حتى أتى يوم رحل فيه فجأة، كما جاء، وأخذ معه سيارتهما، دون أن يلتفت لهما.

– ألديكِ أي فكرة لماذا أصرَّ توماس...؟

أنتبه إلى زلة لساني، فأعيد عليها السؤال: «لماذا أصرَّ جون على بناء الشرفة؟».

أسألها لأنه عقب تحقيق الشرطة معها، نُقِّبت الأرض أسفل تلك الشرفة في منزلها القديم، وعُثر على رُفات بشرية، عُرفت هويتها بعد ذلك، أنها جوستين بارتلي.

تهزُّ رأسها بعصبية.

– كنا نعلم أن هنالك أمرًا خاطئًا، إنما لم نظن أن يُعثر على شيء كهذا مطلقًا. طوال الوقت الذي قضاه معنا، لم نشعر بالأمان قط. توعَّد بأذيتنا بأسلوب عدواني، وارتعبنا منه. حاولنا إقناع أنفسنا أن السبب يرجع إلى ما عايشه في العراق، وفي أعماقنا، تيقنَّا أنه لم يلتحق بالجيش نهائيًّا وهذا الطغيان النابع من داخله سببه أمر آخر. شعرنا بالارتياح ما إن غادرنا، وخفنا أن يعود مجددًا، لذا قررنا الانتقال إلى مكان لن يجدنا فيه.

لمست لآلئها بيدها مما بعث السرور في نفسي لمرأى حركاتها المعهودة، والسعادة أنه ما زال جزء من نفسها القديمة داخلها.

– أبلغنا جيراننا أننا سننتقل للعيش في مقاطعة «دِيفن»، وانتقلنا إلى لندن. وعند وصولنا، أخبرنا الجميع أن ابننا قُتل في حرب العراق. أدرك إلى أي مدى هو قرار رهيب أن تنصَّلنا من ابننا بتلك الطريقة، إنما... بعدئذ، استيقظنا ذات يوم ورأيناه بانتظارنا في الحديقة الخلفية.

– هل ابتدأ منذ ذلك اللقاء بحبسكما في المنزل؟

أومأت برأسها وكررت ما ذكرته لي آنفًا حينما قُيدتُ إلى المقعد.

– خصص لنفسه غرف النوم في الجانب الخلفي من المنزل، وفي الليل، نسمع خطواته يتحرك ذهابًا وإيابًا. كما لو لا ينام أبدًا. وعادة ما أيقظنا في السادسة صباحًا، ليحجزنا في غرفة الطابق الأرضي، ولا يدعنا نخرج منها إلا ساعة الغداء، ولذلك اعتقدنا أن تلك هي الفترة التي ينام خلالها.

عندها صمتت لبرهة لتستجمع أفكارها، وتابعت: «لم يُسمح لي أن تطأ قدمي خارج المنزل قط، لم يُسمح إلا لإدوارد، ليحمل صناديق القمامة ويتابع أعمال البستنة في الحديقة الأمامية، حفاظًا على ظهورنا أمام الجيران. أمكنه أن يمسكني من عنقي ويعصره بيده حتى تنقطع أنفاسي، ويهدد إدوارد أنه

سيخنقني لو حاول تحذير أي أحد مما يجري. أذِن لنا أن نفتح الباب، إنما يجب أن يقف خلفنا، مستمعًا إلى كل ما يُقال».

انتقلت يداها إلى الدِّثار وردي اللون المخيط من رقع قماشية، الذي غطى ركبتيها وتشبثت به بأطراف أصابعها.

– في ذلك اليوم الذي زرتِني فيه وسألتِني عن نينا، تسمَّع إلى كل شيء. حاولت تحذيرك، حاولت أن أخبركِ ألا تثقي به، ولم أقدر أن أبوح لكِ باسمه، لأنني خمنت أنه لا يستخدم اسم جون. عرفت أنه ذهب إلى أمسية المشروبات في منزلك، لقد رأى الدعوة المُرسلة على مجموعة الدردشة بالواتساب، وبعد ما فعله للمسكينة نينا، خشيت عليكِ منه.

سال الدمع على وجنتيها، فسحبتْ منديلًا من كُمِّ بلوزتها.

قلت: «ظننت أنني سمعتكِ تقولين ألا أثق بأحد».

شرعت في تجفيف عينيها.

– لا، قلتُ «لا تثقي به»، غير أنه علم أنني همستُ لكِ بشيء وثارت ثائرته. أقسمت له إنني لم أفعل، لكنه اكتشف أنني فعلت، وضربني.

بُهتُّ أنني تسببت في تعرضها لذلك العنف، فأخبرتها مقتربة منها: «اكتشف بسببي. أنا التي أطلعته عمَّا أخبرتِني به ألا أثق بأحد. إنما، يظل هنالك أمر لم أستوعبه بعد، يا لورنا. حينما أبلغتكِ وإدوارد أن رجلًا غير مدعو جاء إلى الحفل في منزلي، لماذا قلتِ إنكِ مَنْ سمح له بالدخول إلى المجاورة؟ ألم يكن من الأجدر أن تنكري معرفتكِ به؟».

– نويت أن أفعل ذلك، إنما عند قولكِ إن ليو أراد أن يبلغ الشرطة، أصابني الذعر. إن وجود جون واستماعه لما يدور، جعلني أخشى إذا ما احتسب لمجيء الشرطة وتساؤلاتها، أن يقتلنا في حال بُحنا بسره.

حيَّرتني مسألة أخرى، لكنني لم أثق أنني سأجد لديها توضيحًا.

– لا أستوعب كذلك سبب انتحاله لشخصية محقق خاص، يدقق البحث في جريمة قتل هو الجاني فيها. إنها مجازفة تحمل قدرًا ضئيلًا من الحذر.

– أفترض أنها كانت الوسيلة الوحيدة التي استطاع التوصل إليها، ليوقعكِ في شباكه، يقنعكِ أنه يحقق في قضية أخفقت فيها العدالة، ويطلب منكِ المساعدة. لم يخطر في ذهنه أنكِ قد تقدرين على إظهار الحقيقة مطلقًا، ولهذا السبب جازف بكل جرأة.

– إنما ماذا لو كنتُ أخبرت الجيران عنه؟

أجابت بما جعل وجنتيَّ تضرجان خجلًا، مدركة إلى أي مدي تفهَّم طبيعة شخصيتي: «بالتأكيد عرف أنكِ لن تفعلي. وحتى لو أخبرتِهم، لن يهم الأمر في شيء. قد يختفي المحقق الخاص في ليلة وضحاها. إنما لاستطاع إيجاد طرق أخرى ليصل إليك».

تفكرتُ في الطريقة التي اتخذها للوصول إلى نينا، وإذا ما كانت عبارة عن إلقاء بطاقته عبر فتحة الباب للإعلان عن خدماته المقدَّمة للمعالجين النفسيين بصفته معالجًا نفسيًّا ذا خبرة.

– اتخذ الأمر لعبة، لا يفعل شيئًا غير التلاعب بحياة الناس، ويخدعهم بصفات ليست فيه، مثلما تظاهر أمام جيراننا في البلدة أنه الابن المثالي، وسبب أنه لم يعد إلى المنزل لسنوات عديدة هو انشغاله في العطلات

بمساعدة اليتامى من ضحايا الحرب. كان لكلماته تأثير سحري جعل الجميع يصدقه، حتى أنا وإدوارد صدقناه في البداية.

سكتت هنيهة، ويداها بدأتا في الارتجاف، لتستطرد: «لربما صدقناه لأننا أردنا أن نرى خيرًا في ابننا، على الرغم من الرعب الذي أذاقنا إياه. إنما لم نتصور أن لديه مقدرة على فعل ما هو أكثر شرًّا، حتى أخبرنا أنه قتل نينا. كرهت نفسي أنني كذبت من أجله، وقلت للشرطة إنني سمعت نينا وأوليفر يتشاجران، وأن نينا أفضت إليَّ عن علاقتها السرية. لكنه هددني بقتل إدوارد، إن لم أفعل، وفي خضم كل ذلك، لم أرَ فيه غير ابني. لا أصدق ما فعلته به، لا أصدق أنني قتلت ابني».

أمسكت يديها اللتين لم تكفَّا عن الارتجاف بين يدي، وقلت فيما أنحني لتقبيلها: «لقد أنقذتِ حياتي. هذا ما فعلتِه، أنقذتِني من الموت، ولهذا أدين لكِ بالشكر».

لم يبدُ ذلك كافيًا. إنما ماذا يمكن أن يُخفف عن أمٍّ قتلت ابنها، أمٍّ قطَّعت إربًا الحبل السُّريَّ الذي ربطهما معًا، وأنهت حياته للأبد، لتنقذ على حسابه حياة إنسان آخر غريب عنها؟

عندئذ تمالكت نفسها، وباتت نبرتها قوية فجأة. سألت: «ما دمتُ أنقذت حياتك، أتفعلين شيئًا من أجلي، ومن أجل إدوارد؟ فلو أنه بيننا لرغب في ذلك أيضًا».

قلت: «بالطبع، اطلبي ما تشائين».

تطلعت إليها في غير استيعاب.

– عيشي، يا أليس! عيشي حياتك. لقد قضيتِ عشرين عامًا من عمركِ سجينة الماضي. والآن، أضحت الحياة مفتوحة بين يديك. لا تسمحي للذنب أن يمتص قلبك. لستِ وحدكِ التي ترتكب الأخطاء.

يرتكب بعض الناس الأخطاء أكثر من غيرهم. ويمكنني إطلاق أعذار لا حصر لها تبريرًا لأخطائي. مع أنني واظبت على جلسات العلاج النفسي، لم أُشفَ من شعوري بالذنب حيال مقتل والديَّ وشقيقتي. رفض القاضي إرسالي إلى السجن، على الرغم من توسلاتي إليه، وسلبني اختياري للعقاب، فعاقبت نفسي بنفسي منذ حينها. لم تعنِ مغادرة هارلستون، حيث عرف الجميع بقصتي واجتمعوا حولي لينتشلوني من حزني ويأسي، غير أنني قررت أن أُترك وحيدة بلا سند ولا دعم. لم يكن بجانبي سوى ليو، الشخص الوحيد الذي وثقت به وائتمنته على سري لأن هذا ما افتُرض أن تقوم عليه علاقتنا. عرف عني كل شيء، وحتى جزعي أنني لم ألقَ العقاب الذي أستحق. ولذلك عندما اكتشفت أنه قضى عقوبة في السجن، وأن لديه سجلًّا إجراميًّا، لم أقدر على مسامحته، غيرةً منه. شعرت بغيرة منه أنه استطاع التكفير عن أخطائه والمضي قدمًا في حياته، بينما ما برحت عالقة في الماضي. اضطرب ذهني بلا شك لأنه لم يطلعني على جريمة قتل نينا، وصار تفكيري أضلَّ سبيلًا، حتى لجأت إلى الشخص الذي شعرت أنه بوسعي وضع ثقتي فيه، ذلك الشخص الذي تظاهر بالرزانة عندما راودتني هواجس الريبة والشك، متأثرة بتحذيرات لورنا عن جهل بمعناها، وشرعت في إطلاقها على أصدقائي من حولي. إنما هنالك أمر بعينه ألوم توماس جرينجر عليه، وهو أنه زرع الفزع في قلبي إزاء تجوله في الأرجاء ليلًا، أما فيما عدا ذلك، فقد كنت خصمًا في لعبته دون وعي مني.

***

يطول بنا الحديث معًا. عدتُ وإيف بالكاد إلى سابق عهدنا، إنما لا بأس بذلك، لأنه لن تعود بنا الأحوال كما الماضي، ما لم أطلِعها على الحقيقة كاملة. كذلك الحال مع ليو، الذي ما زلت ألتقيه بصفتنا أصدقاء، رغم أنه أوضح لي رغبته في أن نرتبط ببعضنا من جديد. إنما كيف يمكنني ذلك في حين أُخفي عنه العديد من الأسرار، ولم أسامحه على احتفاظه بأسرار عني؟

في بعض الأحيان، أخاله يعرف أن ما حدث يفوق التفاصيل الوهمية التي أطلعتُه عليها. في آخر زيارة له، أمسك يدي وجذبني إليه.

قال بنبرة هادئة: «لن أحكم عليكِ أبدًا. كيف أفعل بعدما أخفيتُ عنكِ الكثير من قبل؟».

تغادر إيف بعد عناق، على وعدٍ بأن تبلغني عندما تلد طفلها.

– تودُّ تامسين أن تلقاك.

تقولها، وأتمنى في سريرتي أن أخبرها بأنني أدين إلى تامسين بدينٍ ثقيل؛ فلو لم تقل لي إن أوليفر ليست له شقيقة، لما كنت شهدت هذه اللحظة. إنني أكيدة من أن توماس جرينجر اعتزم أن يقتلني في ذلك اليوم، كي يمنعني من مغادرة «ذا سيركل»، وتهيأ ليدَّعي أي حجة ليجرني للطابق العلوي، ليجعلني أواجه مصير نينا وماريون وجوستين نفسه.

أقول بصدق، رغم ظني أنه لن يحدث: «أودُّ أن ألقاها كذلك. أبلغيها حبي وتحياتي».

أدلف عائدة إلى المطبخ. ليس من السهل فعل ما أوصتني به لورنا، لكنني سعيدة أنني وافقتُ على لقاء إيف. أجلس إلى الطاولة، ممتنة أنه سيتسنى لي العودة إلى الكتاب الذي أطالعه. لقد اتخذتُ خطوة كبيرة للأمام اليوم، حان الوقت لأخذ الخطوة التالية وأخبر ليو عن الرجل الذي تطفَّل على حفلنا.

أخبره الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة.

عِرفان وتقدير

بَادِئ ذي بِدء، أودُّ أن أشكر كاميلا بولتِن، وكيلة أعمالي الرائعة. لقد أتممنا خمسة أعمال معًا، وصرتِ بالنسبة لي أكثر من كونكِ وكيلتي، ولذا يشرفني ويزيدني فخرًا أن أدعوكِ صديقتي.

وأعرب عن شكري لكِ، كيت ميلز، بشركة إتش كيو (مجموعة هاربر كولينز المحدودة للنشر)، وشكري لكِ، كاثرين ريتشاردز، بسانت مارتن بريس للطباعة وللنشر، من أجل مساهمتكما القيمة ودعمكما الراسخ. وكذا، أتقدم بشكر جميع القائمين على الترجمة والتحرير بالخارج، وها قد وصلت الترجمات إلى أربعين لغة حتى اللحظة! إن حماسكم غير المنقطع تجاه مؤلفاتي يخجل تواضعي حقًّا.

أتوجه ببالغ الشكر والامتنان لجهود كل الفرق التي ساندت محرري رواياتي: من تدقيق لغوي، وتصميم، ودعاية وتسويق. أتمنى لو أقدر أن أذكركم، واحدًا واحدًا، باسمه، إنما تعرفون أنني أقصدكم، وآمل أنكم موقنون من مدى عِرفاني إزاء عملكم الجاد وهمتكم العالية.

وأتوجه بالشكر أيضًا إلى زملائي الكتَّاب، الذين تفضلوا باقتطاع جزء من انشغالاتهم الحياتية لمطالعة مؤلفاتي. وأخصُّ بالذكر، لويز كاندليش وجاين كورَى وتيم لوجان، ولهم مِني وافر الشكر من أجل تعليقاتهم السخيَّة على رواية «المعالج النفسي».

وإلى المدوِّنين والقرَّاء، ممنْ كرَّسوا بعض وقتهم الثمين لقراءة كتاباتي ومراجعتها، جزيلُ شكري وعرفاني.

وكذلك، أصدقائي في فرنسا وفي المملكة المتحدة، أشكرهم لاهتمامهم الدائم بكل ما أكتب، ولسعيهم الدؤوب لشراء مؤلفاتي فور صدورها.

وبالطبع، أتقدم بمزيد من الشكر إلى كل الأفراد الرائعين في عائلتَي كورِن، وماكدوجال، وأخصُّ من بينهم زوجي العزيز مالكوم، وبناتي الخمس: صوفي، كلوَى، سيلين، إلويز، ومارجو. أنتم سَنَدي وسبب رِفعتي.

بي. أيه. باريس